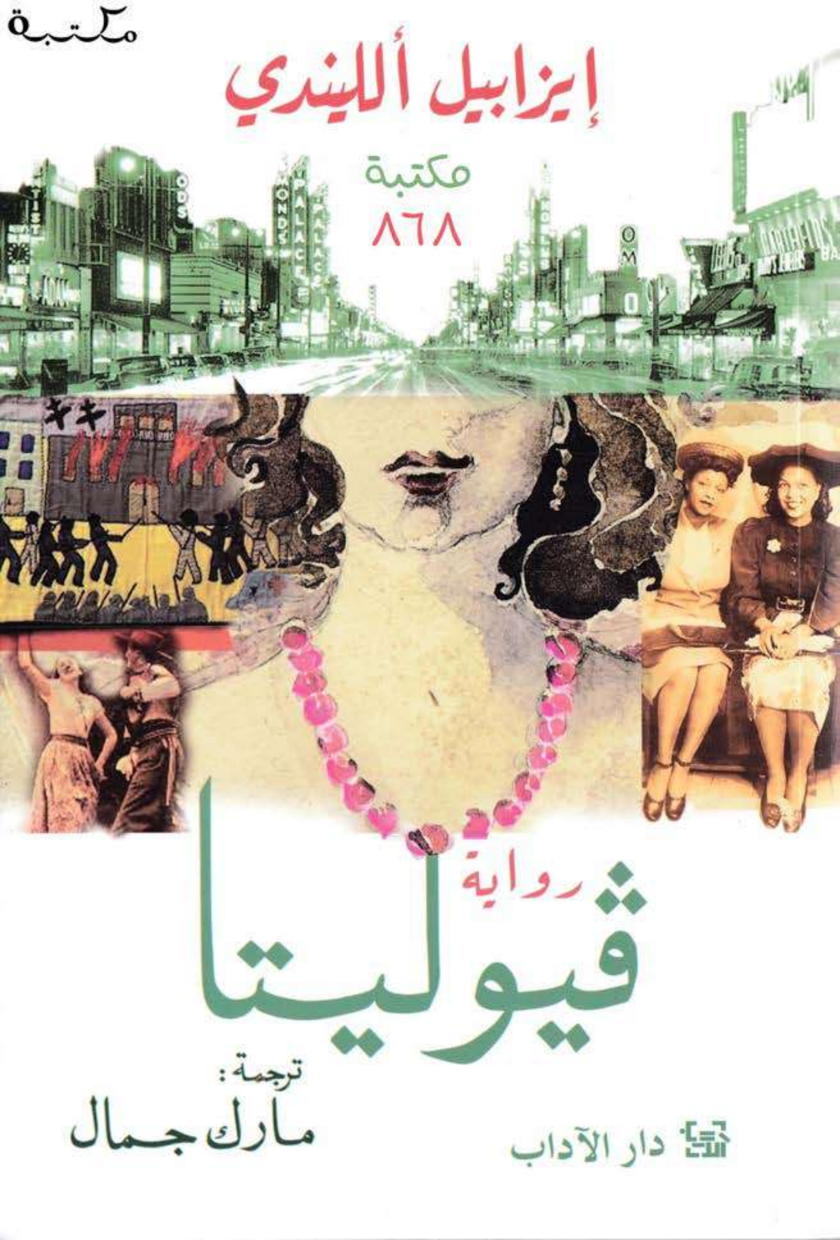

مكتبة
إيزابيل ألليندي
مكتبة
٨٦٨
رواية
ڤيوليتا
ترجمة :
مارك جمال
دار الآداب

إهداء لـ ..

معلمتي القراءة



فيوليتا

فيوليتا

إيزابيل ألليندي / كاتبة من التشيلي

الطبعة الأولى عام 2022

ترجمة: مارك جمال

VIOLETA

ISBN 978-9953-89-725-7

دار الآداب للنشر والتوزيع

للمزيد من المعلومات عن دار الآداب الرجاء زيارة موقعنا www.daraladab.net

يمكنكم التواصل معنا على البريد الإلكتروني:

info@daraladab.net

rana.adab@gmail.com

Facebook: Dar Al Adab   Instagram: @daraladab   Twitter: @DarAlAdab

إيزابيل أألليندي

ڤيوليتا

ترجمها عن الإسبانيَّة: مارك جمال

رواية

دار الآداب

إلى نيكولاس ولوري، الدعامتَيْن اللتين أستند إليهما
في طور الشيخوخة،

إلى فيليبي بيرّيوس دِل سولار، صديقي العزيز جدًّا.

«قُلْ لي ماذا تنوي عمله

بحياتك الواحدة، الجامحة، الثمينة؟»

ماري أوليفر، اليوم الصيفيّ

عزيزي كاميلو،

أردتُ بهذه الصفحات أن أترك لك شهادةً، إيمانًا منّي بأنَّ الذاكرة سوف تخذلك، في المستقبل البعيد، متى صرتَ عجوزًا، وفكَّرتَ فيّ، لأنَّك دائم الشرود، تلك الآفة التي تزداد سوءًا كلَّما تقدَّمتَ في العمر. تستحقّ حياتي أن تُروَى، لا من أجل فضائلي، بل من أجل آثامي، تلك التي لا تشتبه أنت في كثيرٍ منها. هأنذا أرويها لك هنا. ولسوف ترى أنَّ حياتي رواية.

أنت مُتلقّي رسائلي التي دوَّنتُ فيها حياتي كاملةً، عدا بعض الآثام التي ذكرتُها لك من فوري، ولكنْ من واجبك أن تفي بوعدك، وتضرم فيها النار متى قضيتُ نحبي، لأنَّها عاطفيَّة، وتنطوي على خبثٍ في كثيرٍ من الأحيان. ومن شأن هذا الموجز أن يقوم مقام تلك المراسلات المسهبة.

أنتَ أحبّ الناس إليّ في هذا العالَم.

فيوليتا[1]

سانتا كلارا، سبتمبر 2020

(1) آثرنا كتابة الاسم بما يتماشى والنطق المتعارف عليه عربيًا في هذه الحالة على وجه التحديد، مع الأخذ في الحسبان أن «بيوليتا» هو النطق السليم باللغة الإسبانيَّة. وبالمثل، فضّلنا كتابة اسم المؤلّفة كما عرفه القارئ باللغة العربيَّة، علمًا أنَّه في الأصل يُنطَق «إيسابيل أيّندي» ـ (الناشر).

الجزء الأوَّل

المنفى

(1920 ـ 1940)



1

جئتُ إلى العالَم ذات جمعةٍ عاصفة من عام 1920، عام الوباء. في ذلك المساء، مساء مولدي، انقطع التيَّار الكهربائيّ، كما جرَت العادة كلَّما هبَّت عاصفة، ولذا أُضرِمَت الشموع ومصابيح الكيروسين التي كان يُحتفَظ بها دائمًا في متناول الأيدي تحسُّبًا لتلك الحالات الطارئة. أحسَّت ماريًّا غارسيا، أمِّي، بالتقلُّصات التي تعرفها تمام المعرفة، وهي التي أنجبَت خمسة أبناء، فهجرَت نفسها للألم، واستسلمَت لولادة ذَكَرٍ آخر بمساعدة شقيقتَيْها اللتين سبق أن مدَّتا لها يد العون في تلك الغيبوبة عدَّة مرَّات، من دون ارتباك. أمضى طبيب الأسرة أسابيعَ وهو يعمل بلا راحة في أحد المستشفيات الميدانيَّة، فتراءى لهنَّ أنَّ استدعاءه لسببٍ شائع كالولادة ضربٌ من الطيش. كُنَّ يعتمدن على القابلة نفسها في كلِّ مرَّةٍ، ولكنَّ المرأة سقطَت فيمن سقط من أوائل ضحايا الإنفلونزا، ولم يكُنَّ على معرفةٍ بقابلةٍ سواها.

طبقًا لحسابات أمّي، فلقد عاشت حياتها الناضجة بالكامل وهي إمّا في الحمْل، وإمّا في النّفاس، وإمّا في فترة النقاهة بعد إسقاط جنين. كان ابنها الأكبر خوسّيه أنطونيو قد أتمّ السابعة عشرة من العمر، الأمر الذي تأكّدَت منه أمّي، إذ وُلِد خلال ذلك العام الذي شهد فيه البلد واحدًا من أسوأ الزلازل في تاريخه، أطاح بنصف منشآت البلد، وأودى بحياة الآلاف، بَيْد أنّها لم تتذكّر أعمار أبنائها الأربعة الآخرين على وجه التحديد، ولا كم مرّة حبلَت ثم أسقطَت الجنين. كان كلّ حَمْلٍ يُصيبها بالعجز طوال شهور، وكلّ ولادة تتركها خائرة القوى، كئيبةً، لوقتٍ طويل. قبل الزواج، كانت أجمل شابّة في العاصمة، بقوامها الفارع، ووجهها الذي لا يُنسَى، وعينَيْها الخضراوَيْن، وبشرتها الشفيفة، ولكنّ متاعب الأمومة تركَت جسدها مُشوَّهًا، وروحها مُستنفَدة.

أحبَّت أبناءها من الناحية النظريّة. أمّا من الناحية العمليّة، فلقد آثرَت إبقاءهم على مسافةٍ مريحة، لأنّ طاقة ذلك الجمع من الفتيان كانت تُثير في مملكتها الأنثويّة الصغيرة هياجًا يليق بالمعارك. في إحدى المناسبات، أقرّت لأب الاعتراف بأنّ ولادةَ الذكور قدرُها، وكأنّها لعنةٌ من لعنات الشيطان. كلّفها أب الاعتراف بتلاوة صلاة المسبحة مرّةً واحدة كلّ يومٍ على مدى عامَيْن كاملَيْن، والتبرُّع بمبلغ ضخم لترميم الكنيسة، كفّارةً عن خطاياها، فحظّر عليها الزوج أن تُعاوِد الاعتراف.

تحت إشراف الخالة پيلار، تسلّق توريتو السلّم ـ وتوريتو هو الفتى المُكلّف بأداء الخدمات بجميع صنوفها ـ ثم شدَّ الحبال إلى

خطّافَيْن من الفولاذ سبق أن ثبّتهما في السقف بنفسه، الحبال التي كان يُحتفَظ بها في الخزانة تحسُّبًا لتلك المناسبات. في حين جثَت أمّي على ركبتَيْها بقميص النوم، مُتشبِّثةً بالحبال المُدلّاة من السقف بكلتا يدَيْها. راحت تدفع طوال الوقت الذي تراءى لها دهرًا، وطفقَت تلعن بشتائم القراصنة التي ما كانت لتتفوّه بها قطّ في غير تلك اللحظات. في حين مالت الخالة پيا على ملتقى فخذَي أمّي، على أهبَّةٍ لتلقّي المولود الجديد قبل أن يلمس الأرض، وقد استعدَّت بأعشاب القرّاص والشيح والسذاب المغليَّة لما بعد الولادة. أمّا هدير العاصفة، التي كانت تلطم خصاص النوافذ وتنتزع شظايا القرميد، فلقد طغى على الآهات، وعلى صرخة الختام المُطوَّلة التي أطلقَتها أمّي حين أطللتُ برأسي أوّلًا، ثم بجسدي المُغطّى باللزوجة والدماء، جسدي الذي انزلق من بين يدَي الخالة، فارتطم بالأرض الخشبيَّة.

ـ يا لكِ من خرقاء يا پيا! ـ صاحَت پيلار وهي ترفعني ممسكةً بقدميَّ، ثم أردفَت متفاجئة ـ إنَّها بنت!

ـ غير معقول! تحقَّقي منها جيِّدًا. ـ غمغمَت أمّي، خائرة القوى.

ـ يا أختي. أقول لكِ إنَّها بنت، لا «عصفور» لها. ـ أجابت الأخرى.

ليلتذاك، عاد أبي إلى البيت مُتأخِّرًا، بعد أن تناول العشاء ولعب عدَّة مباريات بريسكا في النادي، فذهب إلى حجرته مباشرةً ليخلع ثيابه ويتناول كأسًا مترعة بالكحول قبل إلقاء التحيَّة على

الأسرة. طلب كأسًا من الكونياك إلى الخادمة المناوبة، التي لم يخطر لها إبلاغه بالخبر، إذ لم تألف مخاطبة السيِّد، ثم ذهب لإلقاء التحيَّة على زوجته. حدَّثَته رائحة الأكسدة المتصاعدة من الدماء بما جرى قبل أن يتجاوز عتبة الباب. وجد أمِّي تستريح في الفراش، بقميص نومٍ نظيف، وقد علَت بشرتها حُمرة، وبلَّل شعرها العرق. نُزِعَت الحبال من السقف، ونُحِّيَت دلاء المناشف المُلوَّثة جانبًا.

ـ لماذا لم تنبِّهوني؟ ـ صاح قائلًا، بعد أن طبع قبلةً على جبين زوجته.

ـ كيف تريد منَّا تنبيهك؟ السائق برفقتك، ولن تخرج أيٌّ منَّا سيْرًا في هذه العاصفة، حتى لو سمح لنا حارساك المُسلَّحان بالخروج. ـ أجابته پيلار بنبرةٍ غير ودود.

ـ إنَّها بنت يا أرسينيو. أخيرًا صارت لك ابنة. ـ تدخَّلَت پيا وهي تُظهِر له اللفافة بين ذراعَيْها.

ـ المجد للرَّب! ـ همس أبي. ولكنَّ الابتسامة تلاشت حين رأى الكائن الذي يطلّ من بين ثنايا الملاءة.

ـ في جبينها بيضة!

ـ لا تقلق، فبعض الأطفال يُولَدون على هذه الحال، ثم يعودون إلى طبيعتهم بعد أيَّام قليلة. إنَّها من علامات الذكاء. ـ ارتجلَت پيلار كيلا تخبره بأنَّ ابنته قد هبطَت إلى الحياة على رأسها.

ـ ماذا تسمِّيانها؟ ـ سألَت پيا.

ـ ڤيوليتا. ـ قالت أمّي بحزم، من دون أن تترك لزوجها فرصة التدخُّل.

وڤيوليتا هو الاسم اللامع الذي سُمّيَت به جدَّتي الكبرى لأمّي، تلك التي طرَّزَت شعار راية الاستقلال الأولى، في مطلع القرن التاسع عشر.

لم تُفاجأ عائلتي بالجائحة. فما كادت الألسنة تتناقل خبر أولئك الذين يلفظون أنفاسهم الأخيرة زحفًا في شوارع المرفأ، وعدد الجثامين الزرقاء الراقدة في المشرحة، ذلك العدد الذي دقَّ ناقوس الخطر، حتى رأى والدي، أرسينيو دِل بايّيه، أنَّ الوباء لن يستغرق أطول من يومَيْن في الوصول إلى العاصمة. لم يفقد الهدوء، لأنَّه كان يترقَّب وصول الوباء. ولقد استعدَّ لذلك الحدث بالاستعجال الذي يؤدِّي به كلّ شيء، واستفاد منه في ممارسة الأنشطة التجاريَّة وجمع الثروة. كان هو الوحيد بين إخوته الذي مضى في سبيله إلى استعادة وجاهة الثراء التي ميَّزَت جدِّي الأكبر، ثم ورثها عنه جدّي، غير أنَّه خسرها بمضيّ الأعوام، لأنَّه أنجب عددًا أكبر ممَّا ينبغي من الأبناء، ولأنَّه كان رجلًا أمينًا. من بين الأبناء الخمسة عشر الذين أنجبهم ذلك الجدّ، بقي أحد عشر على قيد الحياة، وهذا رقمٌ كبيرٌ يُثبت قوَّة دماء دِل بايّيه، حسبما قال أبي مزهوًّا، ولكنَّ الإنفاق على أسرةٍ بهذا العدد أمرٌ يتطلَّب جهدًا ومالًا، وهكذا تبدَّدَت الثروة شيئًا فشيئًا.

قبل أن تُسمِّي الصحافة ذلك المرض باسمه، عرف والدي أنَّها الإنفلونزا الإسبانيَّة، إذ مضى يتابع أخبار العالَم عَبْر الصحف الأجنبيَّة التي تصل إلى نادي أونيون مُتأخِّرة، وإن زخرَت بقدْرٍ

أوفر من المعلومات مقارنةً بالصحف المحلِّيَّة، أضف إلى ذلك الجهاز اللاسلكيّ الذي تمكَّن من تركيبه بنفسه، مُسترشِدًا بدليل الاستخدام، ذلك الجهاز الذي أبقاه على تواصلٍ مع غيره من الهواة. وهكذا، بين خشخشة الاتِّصال قصير المدى وطنينه، اطَّلع على الأضرار الحقيقيَّة التي أحدثَتها الجائحة في أمكنةٍ أخرى. تابع تطوُّرات الڤيروس منذ البدء، وعرف بمروره عَبْر أوروبا والولايات المُتَّحدة كما تهبّ ريح القدر، فخلص إلى نتيجةٍ مفادها أنَّه ما دامت عواقب الڤيروس في الدول المُتحضِّرة مأساويَّة إلى هذا الحدّ، فيمكن توقُّع الأسوأ في بلدنا، حيث الموارد أشدّ ندرةً، والناس أكثر جهلًا.

تأخَّرَت الإنفلونزا الإسبانيَّة في الوصول عامَيْن على وجه التقريب، تلك التي أُطلِق عليها «الزُّكام» على سبيل الاختصار. وطبقًا للمجتمع العلميّ، فلقد أُعفينا من العدوى بسبب العزلة الجغرافيَّة، والحواجز الطبيعيَّة التي تؤلِّفها الجبالُ من جهة والمحيطُ من جهةٍ أخرى، والمناخ المعتدل، والبُعْد الذي وفَّر لنا الحماية من حركة المرور غير الضروريَّة، مرور الأجانب المصابين بالعدوى؛ ولكنَّ الرأي العامّ نسب تلك الحماية إلى تدخُّل الأب القدِّيس خوان كيروغا، الذي نُذِرَت له المواكب الدينيَّة الوقائيَّة، وهو القدِّيس الوحيد الذي يستحقّ التكريم، إذ لم يتفوَّق عليه قدِّيسٌ آخر في المعجزات المحلِّيَّة، مع أنَّ الفاتيكان لم يعترف بقداسته. وعلى الرَّغم من ذلك، وصل الڤيروس عام 1920، في جلالٍ وبهاء، بقوَّةٍ لم يتخيَّلها أحد، ضاربًا بالنظريَّات العلميَّة واللاهوتيَّة عرض الحائط.

كانت أعراض الوباء تبدأ ببردٍ خليقٍ بالقبور، لا يُسكِّنه شيء، ومستنقعٍ من الحمَّى، وضربةِ صداعٍ أليمة، والتهابٍ حارقٍ في العينَيْن والحلق، وهذيانٍ تتخلَّله رؤى مُروِّعة يتجلَّى الموت فيها مُترقِّبًا على بعد نصف متر، بينما تصطبغ البشرة بلونٍ أزرق أرجوانيٍّ يشتدّ قتامةً، وتسوَدّ القدمان واليدان، ويعجز المريض عن التقاط أنفاسه من شدَّة السعال، وتغرق الرئتان في زبدٍ ممزوج بالدماء، وتتألَّم الضحيَّة جزعًا، ثم تأتي النهاية اختناقًا. أمَّا أولئك الأسعد حظًّا، فكانوا يلقون مصرعهم بعد ساعاتٍ قليلة.

رأى والدي، مُستنِدًا في ذلك إلى أساسٍ سليم، أنَّ عدد الوفيات بالإنفلونزا خلال حرب أوروبا، وسط الجنود المُكدَّسين في الخنادق، حيث لم يجدوا من العدوى مفرًّا، يفوق عدد القتلى بالرصاص وغاز الخردل. وبالشراسة نفسها، ضرب الوباء الولايات المُتَّحدة والمكسيك، ثم انتشر ماضيًا صوب أميركا الجنوبيَّة. طبقًا لما ورد في الصحف، تكدَّسَت الجثث في شوارع بلدانٍ أخرى كما تتكدَّس الأحطاب، إذ لم يتَّسع لدفنهم لا الوقت ولا القبر. جاء في الصحف أنَّ ثلث البشريَّة قد أُصيب بالعدوى، وأنَّ عدد الضحايا يربو على الخمسين مليون. وإن تناقضَت الأخبار بقدر ما تناقضَت الشائعات المرعبة التي راجت آنذاك. قبل ثمانية عشر شهرًا، وُقِّعَت الهدنة التي وضعَت نهاية الأعوام الأربعة المُروِّعة التي استغرقَتها الحرب الكبرى في أوروبا، فبدأ الناس يعرفون المدى الحقيقيّ لانتشار الجائحة في الآونة الأخيرة، بعد أن تكتَّمَت الرقابة العسكريَّة تلك الأخبار. لم تعترف أمَّةٌ واحدة بعدد الوفيات، عدا إسبانيا، التي تمسَّكَت

بالحياد في ظلِّ الصراع، ونشرَت أخبار المرض، ولذا أُطلِق عليه «الإنفلونزا الإسبانيَّة».

قبل ذاك، كان الناس في بلدنا يفارقون الحياة تحت وطأة الأسباب المعهودة، أي الفقر المستعصي، والآفات المرذولة، والشجارات، والحوادث، والمياه المُلوَّثة، والتيفوئيد، ومتاعب العمر. كانت عمليَّةً طبيعيَّة، تُتيح الوقت اللازم لتكريم الموتى في الجنائز. أمَّا وقد وصل الزكام، الذي انقضَّ على المصابين بشراهة النمور، فدعَت الضرورة إلى الاستغناء عن طقوس الحداد والعزاء.

اكتُشِفَت الحالات الأولى في مواخير المرفأ، في أواخر الخريف. ولكنَّ أحدًا، باستثناء والدي، لم يعِرها الانتباه الذي يليق بها، مع الأخذ في الاعتبار أنَّ الضحايا كانوا من النساء غير الفاضلات، والمجرمين، والمُهرِّبين. قيل إنَّه مرضٌ تناسليٌّ جاء به البحَّارة العابرون من إندونيسيا. وعلى الرَّغم من ذلك، فسرعان ما بات إخفاء المصيبة التي عمَّت البلد ضربًا من المحال، ولم يعُد الاستمرارُ في إلقاء اللائمة على المجون وحياة اللذَّة ممكنًا، لأنَّ المرض لم يُفرِّق بين الآثمين والفاضلين. وهكذا، انتصر الڤيروس على الأب كيروغا، وتجوَّل بمطلق الحرِّيَّة، وانقضَّ بشراسةٍ على الأطفال والشيوخ، الفقراء والأثرياء. وحين أُصيب فريق استعراضات الثارثويلا كاملًا، وعددٌ من أعضاء المجلس، أعلنَت الصحف الصفراء أنَّها القيامة. عند ذاك، اتَّخذَت الحكومة قرارها بإغلاق الحدود وفرض الرقابة على المرافئ، ولكنْ بعد فوات الأوان.

أمَّا القدَّاسات الإلٰهيَّة التي كان يرفعها ثلاثةٌ من الكهنة في آنٍ واحد، وأكياس الكافور المُعلَّقة من الأعناق للوقاية من العدوى، فلم تُجدِ نفعًا. اقترب الشتاء، وزاد الوضع سوءًا تحت زخَّات المطر الأولى. ودعَت الضرورة إلى ارتجال مستشفياتٍ ميدانيَّة في الملاعب الرياضيَّة ومشارحَ في ثلَّاجات مجزر البلديَّة، وحفر المقابر الجماعيَّة، حيث كانت ترقد جثامين الفقراء مُغطَّاةً بالجير الحيّ. ولمَّا عُرِف أنَّ المرض يتسلَّل عَبْر الأنف والفم، لا عن طريق وخزات البعوض ولا إصابة المعدة بالديدان، على نحو ما ظنَّ العامَّة، فُرِض استخدام الكمائم، غير أنَّها لم تكفِ العاملين بقطاع الصحَّة، الذين تصدُّوا إلى المرض من مواقعهم في الصفوف الأولى، دع عنك سائر الشعب.

كان رئيس البلد ابنًا لمهاجريْن إيطاليَّيْن من الجيل الأوَّل، وله أفكارٌ تقدُّميَّة، انتُخِب قبل أشهرٍ قليلة بفضل أصوات الطبقة المُتوسِّطة الصاعدة ونقابات العمَّال. ولكنَّ أبي، شأن جميع أقربائه من آل دِل بايّيه، وأصدقائه، ومعارفه، ارتاب في أمر الرئيس بسبب الإصلاحات التي وطَّن النيَّة على فرضها، تلك الإصلاحات التي لا تلائم المحافظين، ولأنَّه كان دخيلًا، لا يحمل لقبًا من تلك الألقاب الإسبانيَّة الباسكيَّة العريقة، وإن وافقه أبي على الطريقة التي اتَّبعها في مواجهة الكارثة. أمَر الرئيس أوَّل ما أمَر بملازمة الناس بيوتهم تجنُّبًا للإصابة بالعدوى. ولكنَّ أحدًا لم يلقِ للأمر بالًا، فأعلن حالة الطوارئ، وحظر التجوُّل ليلًا، كما حظَّر تنقُّل المدنيِّين من دون سببٍ وجيه، تحت طائلة الغرامة الماليَّة، والاعتقال، والضرب بالعصيِّ في كثيرٍ من الحالات.

أوصِدَت أبواب المدارس، والمتاجر، والمنتزهات، وغيرها من الأمكنة التي يتركَّز فيها الناس بحكم العادة، وإن استمرَّت في العمل بعض المكاتب العموميَّة والبنوك والشاحنات والقطارات التي كانت تزوِّد المدنَ بالإمدادات، وحوانيت المشروبات الروحيَّة أيضًا، ظنًّا من الناس بأنَّ الكحول يقتل الفيروس إن مُزِج بجرعاتٍ هائلة من الأسبرين. لم تُحصَ أعداد أولئك الذين لقوا حتفهم مُسمَّمين بمزيج الكحول والأسبرين، كما نوَّهَت الخالة پيا، التي لا عاقرَت الخمور ولا آمنَت بأدوية الصيدليَّة. لم تكفِ قوَّات الشرطة لفرض النظام ومنع الجريمة، على نحو ما كان يخشى أبي، فدعَت الضرورة إلى الاستعانة بدوريَّات العسكر لمسح الشوارع، على ما اشتُهروا به من غلظة، عن استحقاق. الأمر الذي دقَّ ناقوس الخطر وسط أحزاب المعارضة والمُثقَّفين والفنَّانين الذين لم ينسوا مذبحة العمَّال العُزَّل، بمن فيهم من النساء والأطفال، التي ارتكبها الجيش قبل أعوام، وحوادثَ أخرى انقضَّ فيها الجنود شاهرين حرابهم في وجه المدنيِّين، وكأنَّهم من الأعداء الأجانب.

امتلأ مزار الأب خوان كيروغا بالمؤمنين الذين ذهبوا يلتمسون الشفاء من الإنفلونزا، فتمّ لهم الشفاء في كثير من الحالات، وإن قال المُشكِّكون ـ الذين لا تخلو منهم الحال أبدًا ـ إنَّه ما دام المريض يقوى على الصعود اثنتيْ وثلاثين درجة، وصولًا إلى المصلَّى القائم فوق ربوة سان پيدرو، فلقد تمَّ له الشفاء بالفعل. ولكنَّ ذلك لم يُثنِ المؤمنين. فاتَّفق أن احتشد جمعٌ من الناس يرأسه اثنان من الأساقفة بنيَّة الذهاب إلى المزار،

على الرَّغم من حظر التجمُّعات، فكان أن فرَّقهم الجنود ضربًا بأخامص البنادق ورميًا بالرصاص. وفي أقلِّ من خمس عشرة دقيقة، أسقط الجنود قتيلَيْن وثلاثةً وستِّين جريحًا، لقي أحدهم مصرعه ليلتذاك. أمَّا الاحتجاج الرسميّ الذي تقدَّم به الأسقفان، فقوبل بتجاهل رئيس الحكومة الذي لم يستقبلهما في مكتبه، بل أرسل إليهما ردًّا مكتوبًا عن طريق السكرتير، قال فيه: «إنَّ القانون سوف يُطبَّق بيدٍ من حديد على كلِّ من يخالف القانون، حتى وإن كان هو البابا نفسه». فلم يرغب أحدٌ في تكرار الحجَّة.

لم يسقط في عائلتنا مصابٌ واحدٌ بالوباء، لأنَّ والدي اتَّخذ الإجراءات الاحترازيَّة الضروريَّة، قبل تدخُّل الحكومة المباشر، مُسترشِدًا بالطريقة التي اتَّبعَتها بلدانٌ أخرى في التصدِّي إلى الجائحة. عَبْر اللاسلكي، اتَّصل بالمُشرِف على العمَّال في مشغل الخشب، ذلك المهاجر الكرواتيّ الذي فاز بثقة والدي التامَّة. أرسل إليه المشرف على العمَّال اثنيْن من خيرة حطَّابيه، فسلَّحهما والدي ببندقيَّتَيْن بلغتا من القِدَم حدًّا جعله هو نفسه عاجزًا عن استخدامهما، ثم نصَّبهما على مدخلَي البيت، وعهد إليهما بمنع الجميع من الدخول أو الخروج، باستثناء والدي وأخي الأكبر. كان الأمر الذي أصدره أبي يفتقر إلى العمليَّة، فهما لن يستوقفا أفراد العائلة رميًا بالرصاص، ولكنَّ حضور هذين الرجلَيْن قد يردع المُتسلِّلين. وهكذا، صار كِلَا الحطَّابَيْن حارسًا مُسلَّحًا بين عشيَّةٍ وضحاها، وإن لم يدخل أيٌّ منهما إلى البيت، بل كانا ينامان على فراشَيْن في مرأب العربات، ويأكلان الطعام الذي تُمرِّره لهما الطاهية عَبْر النافذة، ويشربان العَرَق القويّ الذي وفَّره

أبي للحارسَيْن بلا حدود، مضافةً إليه حفنات من الأسبرين، للوقاية من الڤيروس.

دفاعًا عن نفسه، اشترى أبي مُسدَّسًا إنجليزيًا مُهرَّبًا من طراز ويبلي المُجرَّبة فعاليَّته في الحرب، وشرع يتدرَّب على الرماية في باحة الخدم، ناشرًا الفزع بين الدجاجات. في حقيقة الأمر، لم يخشَ الڤيروس بقدر ما خاف من اليائسين. في الأوقات العاديَّة، كانت أعداد المعوزين والشحَّاذين واللصوص في المدينة أكبر ممَّا ينبغي. ولو تكرَّر ما جرى في أمكنةٍ أخرى، لزادت البطالة، وشحّ الغذاء، ودبَّ الهلع في النفوس. وفي تلك الحالة، حتى أولئك الذين يتحلُّون بقدْرٍ من النزاهة، واكتفوا حتى الآن بالاحتجاج أمام المجلس مطالبين بتحقيق العدالة أو بالحصول على فرص عمل، سوف يلجأون إلى الجريمة، كما جرى في ذلك الزمن عندما اجتاح المدينةَ عُمَّالُ مناجم الشمال العاطلون عن العمل، الجيَّاع، الساخطون، ونشروا فيها عدوى التيفوئيد.

اشترى أبي المؤن اللازمة لفصل الشتاء: جوالات البطاطس والطحين والسكَّر والزيت والأرزّ والبقول والجوز وحُزَم الثوم واللحوم المُجفَّفة، وصناديق الفاكهة، والخضروات اللازمة لإعداد الأطعمة المحفوظة. قبل أن تُعلِّق مدرسة سان إغناسيو الدراسة بأمرٍ من الحكومة، أرسل والدي أربعة من أبنائه إلى الجنوب، كان أصغرهم قد بلغ الثانية عشرة من فوره. أمَّا خوسيه أنطونيو، فمكث في العاصمة لأنَّه كان في سبيله إلى الالتحاق بالجامعة حالما يعود العالَم إلى وضعه الطبيعيّ. عُلِّقَت الرحلات، وإنْ وجد إخوتي مُتَّسعًا من الوقت لركوب واحدٍ من قطارات الركَّاب

الأخيرة، مضى بهم إلى محطَّة سان بارتولوميه، حيث كان في انتظارهم المُشرِف على العمَّال الكرواتيّ، ماركو كوزانوڤيتش، الذي تلقَّى تعليماتٍ تقضي بحملهم على العمل مع حطَّابي المنطقة الغلاظ، جنبًا إلى جنب، ومنعهم من الخوض في ترَّهات الصغار منعًا باتًّا. وهكذا، يظلّ إخوتي منشغلين، أصحّاء، ويُعفى البيت من الإزعاج أيضًا.

أمَّا والدتي، وشقيقتاها پيا وپيلار، والخادمات، فقُضِي عليهنَّ بملازمة البيت والامتناع عن الخروج لأيِّ سبب. كان لوالدتي جسدٌ رقيق، ورئتان واهنتان، بسبب السلّ الذي أصابها في الشباب، ولذا لم يمكنها أن تعرِّض نفسها لخطر الإصابة بعدوى الزكام.

لم تُدخِل الجائحة تغييراتٍ مفرطة على روتين ذلك الكَوْن المُغلَق، كَوْن بيتنا. كان الباب الرئيسيّ، المنحوت من خشب الماهوغني، يؤدِّي إلى ردهةٍ قاتمة، تفضي بدورها إلى الصالونَيْن، والمكتبة، وقاعة الطعام الرسميَّة المُخصَّصة للزيارات، وحُجرة البلياردو، وحُجرةٍ أخرى مُوصَدة أُطلِق عليها «المكتب»، إذ اشتملَت على العشرات من قطع الأثاث المعدنيَّة الملأى بالوثائق التي لم يراجعها أحدٌ منذ زمنٍ مُوغِلٍ في القِدَم. أمَّا الشطر الثاني من البيت، فكانت تفصل بينه وبين الأوَّل باحةٌ مفروشةٌ بالخزف البرتغاليّ، تضمّ نافورةً موريسكيَّة، حيث لا تعمل آليَّة ضخّ الماء، وفيضًا من الكاميليا المغروسة في الأصص، تلك الأزهار التي أسبغَت على البيت اسمه: بيت الكاميليا الكبير. من ثلاث جهات، أحاط بالباحة رواقٌ نوافذه من الزجاج المشطوف، يصل

بين الحُجرات المُستخدَمة يوميًّا: قاعة الطعام، وحُجرة الألعاب، وحُجرة الحياكة، وحُجرات النوم، والحمَّامات. تميَّز الرواق بالهواء المنعش صيفًا، والدفء شتاءً، بما حوى من مواقدَ تعمل بالفحم. بينما كان الجزء الأخير من البيت مملكةَ الخدم والحيوانات، فهناك قام المطبخ وأحواض الغسيل والمخازن والمرأب، زِدْ على ذلك صفًّا من الجحور الجديرة بالرثاء التي كانت تنام فيها عاملات المنزل. قلَّما دخلَت أمِّي إلى تلك الباحة الثالثة.

كان العقار لوالدَيْ أبي. وبوفاتهما، لم يتركا لأبنائهما شيئًا ذا قيمة سواه. ولكنَّ نصيب الفرد، بعد تقسيم قيمته على أحد عشر، كان هزيلًا. وحده أرسينيو كان يملك رؤية مستقبليَّة، فعرض على إخوته شراء نصيبهم، على أقساطٍ صغيرة. في البدء، اعتبر الآخرون موقفه خدمةً يسديها إليهم، مع الأخذ في الحسبان المشكلات الهيكليَّة اللانهائيَّة التي ينطوي عليها البيت الكبير العتيق، حسبما أوضح لهم أبي. فما كان أحدٌ في كامل قواه العقليَّة ليسكن ذلك البيت، ولكنَّ أرسينيو دِل بايّيه في حاجةٍ إلى مكانٍ لأبنائه الذين أنجبهم، والذين لم ينجبهم بعد، فضلًا عن حماته الطاعنة في السنّ، وشقيقتَي زوجته، العانستَيْن اللتَيْن تعيشان على إحسانه. بعد ذلك، بدأ يدفع لهم أجزاءً صغيرةً من المبلغ الموعود، مُتأخِّرًا عن موعده. وأخيرًا، توقَّف عن الدفع تمامًا. عند ذاك، ساءت علاقته بأشقَّائه. لم ينوِ خداعهم، غير أنَّه وجد بعض الفرص الاستثماريَّة، فاتَّخذ قراره بخوض المجازفة، مُتعهِّدًا لنفسه بأن يدفع البقيَّة الباقية من الدَّيْن مُضافةً إليها الفوائد،

ولكنْ مرَّت الأعوام، وتأجَّل الدفع مرَّةً تلو أخرى، حتى نسي أمر الدَّيْن.

كان المسكن عتيقًا مُهمَلًا بحقّ، ولكنَّ الأرض التي يقوم عليها تشغل نصف مُربَّعٍ سكنيّ، وتُطلّ على شارعَيْن. وددتُ لو كانت لديَّ صورةٌ فوتوغرافيَّة حتى أُريك البيت يا كاميلو، فهناك بدأت حياتي وذكرياتي. فقد البيت ذلك البريق الذي تميَّز به ذات مرَّة، قبل الخسائر الماليَّة، عندما كان جدّي لا يزال سيِّد عشيرة، قوامها عددٌ كبيرٌ من الأبناء وجيشٌ من عمَّال المنزل والبستانيِّين الذين حافظوا على البيت في أبهى صورة، وحافظوا على الحديقة كالفردوس، بما حوَت من أزهارٍ وأشجار فاكهة وصوبةٍ زجاجيَّةٍ تُغرَس فيها أزهار الأوركيد التي جيء بها من مناخٍ آخر، وأربعة تماثيلٍ رخاميَّة من الميثولوجيا الإغريقيَّة، كما هو دأب الأسر العريقة آنذاك، تماثيل نحتها الحرفيُّون المحلِّيُّون الذين يُعهَد إليهم بنحت شواهد القبور. لم يعُد البستانيُّون القدامى هناك. أمَّا أولئك الجدد الذين حلُّوا محلّهم، فكانوا ثلَّةً من الكسالى، حسبما قال أبي. «بهذه الوتيرة، سوف تنتشر الأعشاب الضارَّة إلى أن تبتلع البيت»، كان يُردِّد، ولكنَّه لم يفعل شيئًا لتسوية الوضع. رأى والدي الطبيعة في غاية الجمال عن بُعْد، غير أنَّها لا تستحقّ أن يُلقي إليها بالًا، فخيرٌ له أن يصرف انتباهه إلى أمورٍ تدرّ أرباحًا أكبر. لم يشعر إلَّا بقدْرٍ يسير من القلق حيال الخراب الذي أخذ يزحف على العقار بالتدريج، إذ لم يفكِّر في سكنى البيت أطول من الوقت اللازم. لم تكُن للبيت أدنى قيمة، ولكنَّ الأرض التي شغلها ممتازة. خطَّط لبيع الأرض متى ارتفعَت قيمتها بالقدْرِ

الكافي، وإن اضطُرَّ إلى الانتظار سنوات. اتَّخذ لنفسه شعارًا مُستهلَكًا: الشراء بالبخس، والبيع بالغالي.

كانت الطبقة الراقية تنتقل إلى أحياءٍ سكنيَّةٍ بعيدةٍ عن المصالح العموميَّة والأسواق والساحات المغبرَّة التي يكسوها روث الحمام. في حين اندلعَت حُمَّى هدم البيوت التي تشبه بيتنا، بهدف تشييد أبنية المكاتب أو الشقق السكنيَّة للطبقة المُتوسِّطة. كانت العاصمة وما زالت واحدةً من أشدّ المدن فصلًا بين الطبقات في العالَم. ولمَّا أخذَت الطبقات الأدنى تشغل الشوارع التي كانت رئيسيَّةً منذ الحقبة الاستعماريَّة، بات لزامًا على أبي نقل أسرته لئلَّا يصغر قدره في عيون أصدقائه ومعارفه. نزولًا عند طلب أمّي، حدَّث أبي قسمًا من البيت، فأدخل إليه الكهرباء والمراحيض. أمَّا الجزء المُتبقِّي، فظلَّ يتدهور في صمت.



2

كانت جدَّتي لأمِّي تقضي يومها كاملًا في رواق الباحة، على أريكةٍ ذات مسندٍ مرتفع، تائهةً في الذكريات إلى الحدِّ الذي جعلها لا تنطق بكلمةٍ واحدة منذ ستَّة أعوام. عاشت الخالتان پيا وپيلار في البيت نفسه، وكلتاهما أكبر من أمِّي بعدَّة أعوام. كانت الأولى امرأةً عذبة، مُطَّلعةً على خواصِّ النباتات، تملك هبة العلاج بيدَيْها. في عمر الثالثة والعشرين، أوشكَت على الزواج بابن عمومةٍ من الدرجة الثانية، بعد أن أحبَّته منذ الخامسة عشرة من العمر، ولكنَّها لم ترتدِ ثوب العرس قطّ، لأنَّ خطيبها فارق الحياة فجأةً، قبل الزفاف بشهرَيْن. لم يُشرَّح الجثمان، إذ رفضَت الأسرة التصريح بذلك، ولذا أُعزِي موته إلى عيبٍ في القلب منذ الولادة. اعتبرَت پيا نفسها أرملة الحبِّ الوحيد، واتَّشحَت بثياب الحِداد في صرامة، ولم تقبل بغيره من الخُطَّاب.

كانت الخالة پيلار جميلة، شأنها شأن سائر نساء العائلة،

ولكنَّها بذلَت قصارى جهدها كيلا تبدو جميلة، كما سخرَت من سمات الأنوثة وزينتها. في شبابها، حاول التودُّد إليها شابَّان، كلاهما شجاع، غير أنَّها تكفَّلَت بصدِّهما. تحسَّرَت لأنَّها لم تُولَد بعد نصف قرن من الزمان، فلو تمَّ لها ذلك لحقَّقَت طموحها وصارت أوَّل امرأةٍ تتسلَّق جبل إفرست. عندما نجح في ذلك الشيرپا تِنزينغ نورغاي والنيوزلنديّ إدموند هيلاري، عام 1953، بكَت پيلار من فرط الإحباط. كانت فارعة القوام، قويَّةً، رشيقةً، ذات مزاجٍ مُستبِدٍّ يليق بكولونيل. تولَّت مهمَّة مُدبِّرة المنزل، وتكفَّلَت بإجراء التصليحات، التي لم يخلُ منها الأمر قطّ. كانت موهوبةً في الميكانيكا، قادرةً على اختراع الأدوات المنزليَّة والعثور على طُرقٍ مُبتكَرة لتصليح الأعطال، ولذا قيل إنَّ الربّ قد أخطأ في اختيار جنسها. لم يُفاجأ أحدٌ برؤيتها وهي تتسلَّق السطح وتشرف على استبدال القرميد بعد الزلازل، أو تشارك بلا اشمئزاز في ذبح الدجاج والدِّيَكة الروميَّة في الباحة بمناسبة أعياد الميلاد.

في إطار العائلة، لم نشعر بالحَجْر الذي فُرِض علينا بسبب الإنفلونزا إلَّا قليلًا. في الأوقات العاديَّة، لم تكُن الخادمات والطاهية والغسَّالة يخرجن إلَّا في أمسيتَيْن من كلِّ شهر. بينما سُمِح للسائق والبستانيِّين بقدْرٍ أكبر من الحرِّيَّة، لأنَّ الرجال لم يُعتبَروا ضمن طاقم العاملين في البيت، باستثناء أپولونيو تورو[1]، المُراهِق العملاق الذي طرق باب آل دِل باييه منذ بضعة أعوامٍ

(1) تورو Toro: تعني «ثور» بالإسبانيَّة. أمَّا توريتو فهو تصغير الاسم، الذي يُستخدم في هذه الحالة تعبيرًا عن الألفة والمودَّة. (المترجم).

طالبًا شيئًا من الطعام، فمكث في البيت. اعتبروه يتيمًا، ولكنَّ أحدًا لم يكلِّف نفسه عناء التحقُّق من ذلك. لم يكُن توريتو يُطِلّ على الشارع إلَّا نادرًا جدًّا، خشية التعرُّض للاعتداء، كما جرى في مناسبتَيْن، لأنَّ براءته ومظهره الوحشيّ بعض الشيء يحرِّضان على الشرّ. عُهِد إليه بنقل الحطب والفحم، فضلًا عن جلي الباركيه وتلميعه بالشمع، وغير ذلك من المهمَّات الثقيلة التي لا تستلزم التفكير.

لم تكُن أمِّي اجتماعيَّة. بل إنَّها، في الأوقات العاديَّة، كانت تعزف عن الخروج إلَّا في أضيق الحدود الممكنة، عندما ترافق زوجها إلى لقاءات آل دِل بايّيه، الذين بلغوا من كثرة العدد حدًّا يشغل أجندة العام كاملةً بأعياد الميلاد والمعموديَّة والأعراس والجنائز، ولكنَّها كانت تذهب على مضض، لأنَّ الصخب يُصيبها بالصداع. تذرَّعَت أمِّي بضعف صحَّتها أو حَمْلها مرَّةً أخرى لملازمة الفراش أو الذهاب إلى مصحَّةٍ لمرضى السلّ في الجبال، حيث تتعافى من النزلة الشعبيَّة وتغتنم الفرصة لنيل قسطٍ من الراحة. أمَّا إذا صفا الطقس، فكانت تخرج في نزهةٍ قصيرة بالسيَّارة الجديدة التي اقتناها زوجها حالما راجت السيَّارات، الفورد تي، التي تصل إلى سرعةٍ انتحاريَّة تُقدَّر بخمسين كيلومترًا في الساعة.

ـ ذات يوم، سأحملكِ على متن طائرتي الخاصَّة. ـ وعدها أبي. مع أنَّها آخر وسيلة نقلٍ قد ترغب أمِّي في استخدامها.

افتُتن والدي بالطيران الذي كان يُعَدّ نزوةً خليقةً بالمغامرين واللاهين آنذاك، وذهب إلى الاعتقاد بأنَّ تلك البعوضات

المصنوعة من النسيج والخشب ستغدو في متناول أيِّ شخصٍ قادرٍ على دفع ثمنها في المستقبل، شأنها شأن السيَّارات، وبأنَّه سيكون واحدًا من روَّاد الاستثمار في الطائرات. فكَّر في الأمر مليًّا: سوف يشتريها مُستعمَلة من الولايات المُتَّحدة، ثم يأتي بها على هيئة أجزاءٍ مُفكَّكة لتجنُّب دفع الضرائب، وبعد ذلك يُعيد تركيبها كما ينبغي، ويبيعها بأسعارٍ فلكيَّة. في نزوةٍ من نزوات المصادفة، حقَّقتُ حلمه بنفسي بعد أعوامٍ طوال، مع إدخال بعض التعديلات.

كان السائق يقلّ أمِّي لقضاء المشتريات في سوق الأتراك، أو الاجتماع ببعض زوجات إخوتها في صالون شاي ڤرساي، حيث يخبرنها بآخر النمائم العائليَّة، ولكنَّ شيئًا من ذلك لم يعُد ممكنًا في الأشهر الأخيرة، بسبب الحَمْل الذي أثقل بطنها أوَّلًا، والحظْر الذي فرضَته الجائحة ثانيًا. كان نهار الشتاء قصيرًا، ينسلّ وهي تلعب الورق مع الخالتَيْن پيا وپيلار، وتخيط وتطرِّز وتتلو صلاة المسبحة مع توريتو وعاملات المنزل كفَّارةً عن الخطايا. أمرَت بإقفال حُجرات الأبناء الغائبين والصالونَيْن وقاعة الطعام. وحدهما زوجها وابنها الأكبر كانا يدخلان إلى المكتبة، حيث يضرم توريتو المدفأة لئلَّا تسري الرطوبة في الكتب. أمَّا في الرواق وباقي الحُجرات، فكانت تُضرَم مواقد الفحم، وتُوضَع فوقها قدور الماء المغلي وأوراق الكافور لتنقية الهواء وطرد شبح الإنفلونزا.

لم يلتزم أبي وشقيقي خوسيه أنطونيو بالحَجْر أو بحظر التجوُّل، أوَّلهما لأنَّه واحدٌ من رجال الأعمال الذين يُعَدُّ

حضورهم ضروريًا لسير الاقتصاد على ما يُرام، وثانيهما لأنَّه يرافق أبي. صدر لهما تصريحٌ بالتنقُّل، شأن غيرهما من رجال الصناعة ورجال الأعمال والساسة والعاملين في قطاع الصحَّة. كان الوالد والابن يذهبان إلى المكتب، ويجتمعان بالزملاء والعملاء ويتناولان العشاء في نادي أونيون، الذي لم تُقفَل أبوابه، وإلَّا كان ذلك في منزلة إقفال الكاتدرائيَّة، على الرَّغم من التناسب الطرديّ بين انخفاض جودة المطعم وانتشار حالات الوفاة بين النُدُل. استعان كلاهما بالكمائم التي صنعَتها الخالتان من اللبَّاد للوقاية من المرض في الشارع. فضلًا عن كؤوس الشراب الكحوليّ التي كانا يتناولانها قبل الذهاب إلى الفراش. عرفا أنَّه لا أحدٌ بمنجاةٍ من الإنفلونزا. ومع ذلك،توقَّع كلاهما الحيلولة دون تسلّل الفيروس إلى بيتنا عن طريق التدابير المشار إليها، زِدْ عليها بخار الماء الممزوج بأوراق الكافور.

في ذلك الزمن، الذي قُدِّر لي الميلاد فيه، كانت السيِّدات مثل ماريًا غارسيا يختلين بأنفسهنَّ لمداراة بطونهنَّ عن عيون العالَم طوال فترة الحَمْل، وتمتنع الواحدة منهنَّ عن إرضاع نسلها، وإلَّا اعتُبِر ذلك من سوء الذائقة. جرَت العادة على الاستعانة بمرضعة، امرأة مسكينة تحرم ابنها من صدرها كي تؤجِّره لطفلٍ أسعد حظًّا، ولكنَّ أبي لم يسمح بدخول امرأةٍ مجهولةٍ إلى البيت، فربَّما جاءت مُحمَّلةً بعدوى الإنفلونزا. وهكذا، حُلَّت مشكلة إرضاعي بعنزةٍ وُضِعَت في الباحة الثالثة.

منذ اليوم الأوَّل في حياتي، وحتى بلغت الخامسة من العمر، اقتصرَت مهمَّة الاعتناء بي على الخالتَيْن پيا وپيلا، فدلَّلتاني حتى

كادت تفسد طباعي. كما أسهم أبي في ذلك أيضًا، لأنَّني البنت الوحيدة وسط سربٍ من الأبناء الذكور. عجزتُ عن استخدام الملعقة حتى عمرٍ يتقن فيه القراءة أطفالٌ آخرون، إذ كنتُ أتلقَّى الطعام جاهزًا في فمي، وأنام مُتكوِّرةً على نفسي في مهدٍ مُتأرجِحٍ قرب سرير أمِّي.

ذات يوم، تجرَّأ والدي وانتهرني لأنَّني هشَّمت رأس دميةٍ من الخزف، إذ ضربتُ بها الجدار.

ـ يا لكِ من طفلةٍ عديمة التهذيب! سأضربكِ ضربًا مبرِّحًا!

لم يسبق له قطّ أن رفع صوته في وجهي، فانبطحتُ على الأرض صارخةً وكأنَّ روحًا شرِّيرة قد تلبَّسَتني، كما كنتُ أفعل في كثيرٍ من الأحيان، وإذا هو يفقد صبره اللامتناهي معي لأوَّل مرَّةٍ، فأخذ بكلتا ذراعَيّ وراح ينفضني بشدَّة حتى كاد يخلع عنقي لولا تدخَّلَت الخالتان. وهكذا، وضعَت المفاجأةُ نهايةً لنوبة الهياج التي أُصِبتُ بها.

ـ إنَّ ما تحتاج إليه تلك الصغيرة مُربِّيةٌ إنجليزيَّة. ـ اتَّخذ أبي قراره، ساخطًا.

وهكذا، وصلَت ميس تايلور إلى العائلة. توصَّل أبي إليها عن طريق الوكيل الذي يُدير بعض أعماله في لندن، ذلك الذي اكتفى بنشر إعلانٍ في التايمز. تفاهم كلاهما عَبْر التلغرافات والرسائل التي كانت تستغرق عدَّة أسابيع في الذهاب، ومثلها في العودة بالردّ. وعلى الرَّغم من عقبات المسافة واللغة ـ مع الأخذ في الاعتبار جهل الوكيل بالإسبانيَّة، وقصور حصيلة أبي من

الإنجليزيَّة على الشؤون الماليَّة ومستندات التصدير ـ نجحا في التوصُّل إلى اتِّفاقٍ لتوظيف شخصٍ مثاليٍّ، امرأة تتحلَّى بالشرف والخبرة الأكيدة.

بعد مضيّ أربعة أشهر، مضى بي والدي ووالدتي وشقيقي خوسيه أنطونيو لاستقبال الإنجليزيَّة في المرفأ، فارتديتُ ثياب الآحاد والمعطف المخمليّ الأزرق، واعتمرتُ قبَّعةً من القشّ، وانتعلتُ بوطًا من الجلد اللامع. اضطُرِرنا إلى الانتظار حتى نزل المسافرون جميعًا من خلال معبر السفينة، وألقوا التحيَّة على أولئك الذين جاؤوا مُرحِّبين، والتُقِطَت لهم الصور وهم في مجموعاتٍ صاخبة، واجتمع شملهم بالأمتعة المتشابكة، وخلا المرسى من شاغليه، واستطعنا أن نميِّز تلك المرأة الوحيدة التي يبدو عليها التيه. عند ذاك، اكتشف والداي أنَّ المُربِّية ليست كما خُيِّل إليهما، بالاستناد إلى المراسلات الحافلة باللَّبس اللغويّ التي تبادلها أبي والوكيل. ولكنَّ أبي، في حقيقة الأمر، لم يستفسر إلَّا عن شيءٍ واحد في تلغرافٍ أرسله قبل توظيف المُربِّية، إذ سأل عمَّا إذا كانت تروقها الكلاب، فأجابت بأنَّها تفضِّلهم على البشر.

بسبب واحد من تلك الأحكام المُسبَقة الضاربة بجذورها في عائلتي، توقَّعوا امرأةً ناضجة رجعيَّة، ذات أنفٍ مُدبَّبٍ وأسنانٍ معطوبة، كبعض نساء الجالية البريطانيَّة اللاتي عرفهنَّ أفراد عائلتي عن بعد، أو رأوا صورهنَّ على الصفحات الاجتماعيَّة. ولكنَّ ميس جوزِفين تايلور كانت شابَّةً في العشرينيَّات من العمر، تميل إلى قصر القامة، على قَدْرٍ من الامتلاء، وإن لم تبلغ حدّ البدانة.

جاءت ترتدي ثوبًا فضفاضًا بلون الخردل، منخفض الخصر، وتعتمر قبّعةً من اللبّاد على شكل مرحاض، وتنتعل حذاء بإبزيم. كان شعرها أشقر بلون القشّ، وعيناها مستديرتَيْن، لونهما أزرق سماويّ، مرسومتَيْن بالكحل الأسود الذي أبرز تعبير الخوف المُرتسِم على وجهها، وبشرتها كرقائق الأرزّ، شأن بعض فتيات البلدان الباردة من ذوات البشرة التي تكسوها البقع وتتجعّد بلا رحمةٍ بمضيّ الأعوام. تمكّن خوسيه أنطونيو والمُربّية من التواصل بالإنجليزيّة التي تعلّمها في دورةٍ تعليميّةٍ مُكثّفة، وإن لم يجد فرصةً لممارستها.

من النظرة الأولى، افتتنَت أمّي بميس تايلور النضرة كثمرة التفّاح، وإن اعتبر أبي أنّه قد تعرّض للنصب، لأنّ الهدف من إحضار المُربّية من بلدها الموغل في البعد أن تفرض عليّ الانضباط والسلوك الحسن وتلقّني أساسيّات الدراسة المقبولة. أمَرَ والدي بتعليمي في البيت لحمايتي من الأفكار الخبيثة، والعادات السوقيّة، والأمراض التي أودَت بحياة عددٍ كبيرٍ من الأطفال. ذهب بعض أفراد العائلة غير المُقرّبين ضحايا الجائحة، وإن لم يُصَب بها أيٌّ من الأقرباء المُقرّبين. على الرّغم من ذلك، ظلّ الخوف قائمًا خشية أن تعود الجائحة بضراوةٍ مُتجدّدة، فتحصد أرواح الصغار الذين لم يكتسبوا المناعة التي اكتسبها الكبار الناجون من موجة الڤيروس الأولى. بعد مضيّ خمسة أعوام، لم يكُن البلد قد تعافى كلّيًّا من المصيبة التي خلّفَتها الجائحة، ذلك أنّ الأثر المُدمّر الذي تركَته على الصحّة العامّة والاقتصاد بلغ من شدّة التدمير حدًّا حملنا على الاستمرار في

توخِّي الحرص في بلدنا، بينما ساد جنون العشرينيَّات مناطقَ أخرى. شعر والدي بالخوف على صحَّتي، فلم يشكّ بأنَّ نوبات الإغماء والتشنُّج والقيْء الشديد ثمرةُ موهبتي الميلودراميَّة الاستثنائيَّة، تلك الموهبة التي كنتُ أملكها آنذاك، ثم فقدتُها للأسف. بدا له من الجليّ أنَّ تلك «الفلاپر»[1] التي تساير الموضة، التي استقبلها في المرفأ، لم تكُن هي الشخص المناسب لتولِّي مهمَّة ترويض الابنة ذات المزاج الوحشيّ. ولكنَّ تلك الأجنبيَّة كانت تحمل له أكثر من مفاجأة، ومن ذلك أنَّها ليست إنجليزيَّة بحقّ.

قبل وصولها، لم يعلم أحدٌ بوضوح ما الموقع المُحدَّد الذي سوف تشغله ميس تايلور في الترتيب المنزليّ، فلا هي في منزلة الخادمات، ولا هي من أفراد العائلة. وهكذا، طلب أبي معاملتها بأدب، مع الحفاظ على المسافة، وطلب أن تتناول طعامها معي في الرواق أو المطبخ، لا في قاعة الطعام؛ كما أمر بأن تُفرَد لها حجرةُ الجدَّة التي ماتَت جالسةً على المرحاض منذ أشهرٍ مضَت. حمل توريتو أثاثَ العجوزِ الثقيلَ ذا الأنسجة المُنَسَّلة والأخشاب اليابسة إلى القبو، واستُبدِل به أثاثٌ أقلّ جنائزيَّةً، لئلَّا تكتئب المُربِّية، حسبما قالت الخالة پيلار، المُربِّية التي لديها ما يكفي من الأسباب لتكتئب، إذ يجب عليها أن تواجهني وتتأقلم على هذا البلد الهمجيّ الذي يقع في آخر العالَم، في إشارةٍ منها إلى بلدنا. وقع اختيار الخالة على ورقِ حائطٍ منقوشٍ بخطوطٍ قاتمة،

---

(1) فلاپر Flapper: كلمة إنجليزيَّة تعني شابَّة مستقلَّة تساير الموضة، ولا سيَّما في عشرينيَّات القرن الماضي. (المترجم).

وستائر مُزيَّنة بالورد الكالح، ظنَّته مناسبًا لامرأةٍ عانس، ولكنْ ما كاد يقع بصرها على ميس تايلور حتى أدركَت أنَّه اختيارٌ خاطئ.

خلال أسبوعٍ واحدٍ، انضمَّت المُربِّية إلى العائلة بصورةٍ أكثر حميميَّةً بكثير ممَّا توقَّع ربُّ العمل، فتلاشت مشكلة الموقع الذي تشغله على السلّم الاجتماعيّ، الأمر الذي يُعتبَر على درجةٍ كبيرة من الأهمِّيَّة في هذا البلد الطبقيّ. كانت ميس تايلور ودودًا، كتومًا، ولكنَّها بعيدةٌ كلّ البعد عن الخجل. أرغمَت الجميع على احترامها، حتى إخوتي، الذين ما برحوا يتصرَّفون كالهمج مع أنَّهم صاروا كبارًا. حتى كلبا الدرواس أطاعا أوامرها، الكلبان اللذان اشتراهما أبي في زمن الجائحة لحمايتنا من المعتدين المُحتمَلين، وإن انتهَت بهما الحال وقد ساء سلوكهما كثيرًا، وأصبحا يمضيان خلف تنانير النساء. صار يكفيها أن تشير إلى الأرض، مُطلِقةً أمرًا بلغتها، من دون أن ترفع صوتها، حتى ينزل كلاهما عن الأرائك خافضًا أذنَيْه. سرعان ما أرسَت المُربِّية روتينًا معي، وبدأت في مهمَّة تلقيني بعض قواعد التعايش الأساسيَّة، بعد أن أطلعَت والدَيَّ على جدول دراسةٍ يشتمل على دروس التربية البدنيَّة في الهواء الطلق، فضلًا عن دروس الموسيقى والعلوم والفنّ.

سأل والدي ميس تايلور كيف لها بهذا القدر من المعرفة، وهي في هذه السنّ الصغيرة، فأجابَته بأنَّ المراجع قد وُجِدَت لهذا الغرض.

قبل كلّ شيء، أوضحَت لي مزايا الشكر والاستئذان عند الطلب. فكانت، متى أبيتُ وألقيتُ بنفسي على الأرض مُستغرِقةً

في العِواء، توقِف أمِّي وخالتَيّ بلفتةٍ من يدها، لمنعهنَّ من الحضور سريعًا لمواساتي، وتتركني أتقلَّب في الأرض إلى حدِّ الإنهاك، بينما تستمرّ هي في القراءة أو التطريز أو تنسيق أزهار الحديقة في المزهريَّات، غير آبهةٍ لأمري. حتى نوبات الصرع التي تظاهرتُ بها لم تلقِ إليها بالًا.

ـ لن نتدخَّل ما لم تنزف دمًا. ـ قرَّرَتْ. فانصعن لقرارها مُروَّعات، إذ لم يجرؤنَ على التشكيك في منهجها التعليميّ. ولأنَّها آتيةٌ من لندن، افترضنَ أنَّها تتمتَّع بالكفاءة المنشودة.

قالت ميس تايلور إنَّني أكبر ممَّا يسمح لي بالاستمرار في النوم مُنكمِشةً على نفسي في مهدٍ مُتأرجِحٍ بحُجرة أمّي، وطلبَت وضع فراشٍ آخر بحُجرتها. في الليالي الأولى، كانت تضع الطاولة خلف الباب كيلا أولّي هاربة، ولكنِّي سرعان ما استسلمتُ لمصيري. شرعَتْ من فورها تعلِّمني كيف أرتدي الثياب وأتناول الطعام وحدي، مُتَّبعةً في سبيل ذلك نظامًا تتركني بمقتضاه شبه عارية حتى أتعلَّم ارتداء بعض الثياب على الأقلّ، وتُجلِسني أمام الصحن والملعقة في يدي، بينما هي تترقَّب في أناةٍ خليقةٍ براهب سيسترسي حتى آكل من فرط الجوع. كانت النتائج مذهلة، حتى إنَّ ذلك المسخ الذي أتلف أعصاب ساكني البيت صار طفلةً عاديَّةً بعد وقتٍ قصير، طفلةً تسير في أثر مُربِّيتها حيثما ذهبَت، مفتونةً بعطر البرغموت الذي تتعطَّر به، ويدَيْها المكتنزتَيْن اللتين تتحرَّكان في الهواء وكأنَّهما حمامتان. لقد أمضيتُ خمسة أعوام وأنا أتوسَّل إليهم طالبةً أن يضعوا لي نظامًا، كما شخَّص أبي حالتي، وها قد نلتُه أخيرًا. اعتبرَت أمّي والخالتان هذا الحديث

ضربًا من التأنيب، على الرَّغم من إجماعهنَّ على أنَّ شيئًا جوهريًا قد تبدَّل، من دون شكّ. وهكذا، سرَت في الأجواء عذوبة.

كانت ميس تايلور تضرب مفاتيح البيانو بحماسةٍ تفوق الموهبة، وتغنّي بصوتٍ نحيلٍ يليق بمريضة أنيميا، على الرَّغم من أدائها الجيِّد. وبفضل سمعها المرهف، سرعان ما تعلَّمَت إسبانيَّةً سلسةً مفهومة، تشتمل على بعض الشتائم التي اكتسبَتها من مفردات إخوتي، راحت تطلقها من دون أن تدرك لها معنى، فلم تبدُ الشتائم مهينة، بفضل لكنتها المكتومة، واستمرَّت في إطلاقها، لأنَّ أحدًا لم يُصوِّب حديثها. لم تقدر على تحمُّل الطعام الدسم قطّ، وإن احتفظَت بجمودها البريطانيّ أمام الطعام المحلّيّ، والأمطار الغزيرة في الشتاء، والقيظ الجافّ المغبِّر في الصيف، والزلازل التي كانت تؤرجح المصابيح وتزيح المقاعد وسط جوٍّ عامٍّ من اللامبالاة. وعلى الرَّغم من ذلك، فالشيء الذي لم تقوَ على احتماله ذبح الحيوانات في باحة الخدمة، الذي وصفَته بالعادة البدائيَّة الفظَّة. بدا لها من الوحشيَّة أن نأكل اليخنة بالأرانب أو الدجاجات التي عرفناها شخصيًّا. وعندما ذبح توريتو العنزة التي سمَّنها طوال ثلاثة أشهرٍ بمناسبة عيد ميلاد سيِّده، سقطَت ميس تايلور طريحة الفراش تحت وطأة الحمَّى. عندئذٍ، قرَّرَت الخالة پيلار شراء اللحم من الخارج، وإن لم ترَ الفارق بين ذبح الحيوان المسكين في السوق وذبحه في البيت. من واجبي أن أوضح أنَّ العنزة الذبيحة لم تكُن هي مرضعتي في أوَّل عهد الطفولة، فالأخيرة قد نفقَت مُتقدِّمةً في السنّ بعد أعوام.

كانت أمتعة ميس تايلور المُؤلَّفة من صندوقَيْن من الصفيح

الأخضر تضمّ كتبًا دراسيّة وأخرى فنّيّة، جميعها باللغة الإنجليزيّة، زِدْ عليها ميكروسكوبًا، وعلبةً خشبيّة تحوي الضروريّات اللازمة لإجراء التجارب الكيميائيّة، وأحدث نسخة من دائرة المعارف البريطانيّة، الصادرة عام 1911، التي تقع في واحد وعشرين جزءًا. ولقد زعمَت ميس تايلور بأنّه ما لم يرد الشيء في دائرة المعارف، فهو ليس على قيد الوجود.

أمّا ثيابها، فكانت مُكوَّنةً من طاقمَيْن للخروج، كلاهما مُرفَقٌ بقبّعة، الأوّل يتألّف من ثوبٍ بلون الخردل، هو ذلك الذي نزلَت به من السفينة، ومعطفٍ له ياقةٌ من جلد أحد الثديّيات، يصعب تمييزه. أمَا باقي ثيابها فعبارةٌ عن تنانير وأقمصة بسيطة، ترتدي فوقها البالطو كلّ يوم. كانت تخلع ثيابها وترتديها بمناوراتٍ تليق بالبهلوانات. وهكذا، لم أرَها بقميص النوم قطّ، دع عنك رؤيتها عارية، مع أنّنا اقتسمنا حُجرةً واحدة.

أشرفَت أمّي على تلاوتي الصلاة باللغة الإسبانيّة قبل الذهاب إلى الفراش، لأنَّ الصلوات بالإنجليزيّة ضربٌ من الهرطقة، ومَن يدري إذا كانت مفهومةً في السماء! بسبب انتماء ميس تايلور إلى الكنيسة الأنجليكيّة، أُعفِيَت من مرافقة العائلة إلى القدّاس الكاثوليكيّ وتلاوة صلاة المسبحة الجماعيّة. لم نرَها يومًا تبشّر بعقيدتها الدينيّة، أو تقرأ الكتاب المُقدَّس الذي احتفظَت به على الطاولة المجاورة للفراش. كانت تحضر الشعائر الأنجليكيّة مرّتَيْن كلّ عام، في بيتٍ واحدٍ من أعضاء الجالية البريطانيّة، حيث ترنّم وتتعرّف بغيرها من الأجانب الذين درجَت على تناول الشاي معهم، ومبادلتهم المجلّات والروايات.

معها شهدَتْ حياتي تحسُّنًا ملحوظًا. بعد أن أمضيت السنوات الأولى من طفولتي بين شدٍّ وجذبٍ حتى أفرض إرادتي، الأمر الذي تحقَّق لي في كلِّ مرَّةٍ، ولذا لم أشعر لا بالأمان ولا بالحماية. كنتُ أقوى من الكبار، فلم أجد من أستند إليه، حسبما قال أبي. لم تتمكَّن المُربِّية من ترويض تمرُّدي بالكامل، ولكنَّها غرسَت في نفسي قواعد حسن السلوك في المجتمع، وأزالت عنِّي ذلك الهَوَس بذكر وظائف الجسد والأمراض التي كانت من الموضوعات الأثيرة في بلدنا، حيث يتحدَّث الرجال عن السياسة والتجارة، أمَّا النساء فيتحدَّثن عن المتاعب الصحِّيَّة والخدمة المنزليَّة. كانت أمِّي تفيق صباحًا، فتحصي المواضع التي تؤلمها، ثم تدوِّنها في الدفتر الذي يضمّ قائمة أدوية الماضي والحاضر. كثيرًا ما تسلَّت أمِّي بقراءة تلك الصفحات بعاطفةٍ أقوى من تلك التي تشعر بها لدى مشاهدة ألبومات الصور العائليَّة. ولقد سرتُ على درب أمِّي. فمن فرط التظاهر بالمرض صرتُ خبيرةً في أمراضٍ شتّى. ولكنْ بفضل ميس تايلور، التي لم تلقِ إليَّ بالًا، زالت عنِّي تلك الأمراض من تلقاء نفسها.

في البدء، كنتُ أؤدِّي واجباتي المدرسيَّة وتمارين البيانو مرضاةً لها، ثم بتُّ أُنجزها من أجل لذَّة التعلُّم فحسب. حالما تعلَّمتُ الكتابة بسلاسة، حملَتني ميس تايلور على تدوين يوميَّاتي في دفترٍ بديع، دفَّتاه من الجلد، وله قفلٌ متناهي الصغر، العادة التي واظبتُ عليها مدى الحياة تقريبًا. وفي وقتٍ لاحق، استحوذتُ على دائرة المعارف البريطانيَّة، عندما أتقنتُ القراءة بسلاسة. ابتكرَت ميس تايلور لعبةً نتحدَّى بعضنا بعضًا فيها

بكلماتٍ نادرة الاستخدام، ونتعلَّم تعريفاتها. سرعان ما شاركنا في اللعبة خوسِّيه أنطونيو، الذي كاد يتمّ الثالثة والعشرين، ولم تكُن لديه أدنى نيَّةٍ لمغادرة الراحة التي وجدها تحت سقف والده.

درس شقيقي خوسِّيه أنطونيو القانون، ليس لأنَّ ذلك هو المجال الذي وجد فيه نفسه، وإنَّما بسبب ندرة المهن الملائمة لرجال طبقتنا في تلك الحقبة، وهكذا تراءى له القانون أفضل من الخيارَيْن الآخَرَيْن: الطبّ والهندسة. عمل خوسِّيه أنطونيو مع أبي في إدارة تجارته. قدَّمه أرسينيو دِل بايّيه على أنَّه الابن الأثير، والذراع اليمنى، فردَّ له أخي ذلك الامتياز واضعًا نفسه بالكامل في خدمته، وإن لم يوافقه على قراراته في كلِّ مرَّةٍ، إذ وجدها خوسِّيه أنطونيو طائشة. في أكثر من مناسبة، حذَّره من التمادي والتحايل في المديونيَّات، على الرَّغم من مزاعم والدي بأنَّ الصفقات الكُبَرى تتحقَّق بالدَّيْن، فرجل الأعمال ذو الرؤية التجاريَّة لا يستثمر ماله الخاصّ، ما دام قادرًا على استثمار مال غيره. في حين رأى خوسِّيه أنطونيو ضرورة الالتزام بحدٍّ مُعيَّن، وهو المُطَّلع على الحسابات الإبداعيَّة لتلك الصفقات، فالمرء لا يتمادى في شدِّ الخيط إلَّا وانقطع، ولكنَّ والدي أكَّد له أنَّ كلَّ شيءٍ تحت السيطرة.

ـ ذات يوم، سوف تُدير الأمبراطوريَّة التي أشيِّدها. ولكنَّك ما لم تنتبه وتتعلَّم خوض المجازفات، فلن تقدر على ذلك. وبالمناسبة، أراك شاردًا يا بنيْ. تمضي وقتًا أطول من اللازم وسط نساء البيت. ستصبح أبله ضعيفًا. ـ قال له.

كانت دائرة المعارف من الاهتمامات التي شاركنا فيها

خوسِّيه أنطونيو، أنا وميس تايلور. وحده أخي عاملها كما تُعامَل الصديقة، وناداها باسمها مُجرَّدًا، دونًا عن باقي أفراد العائلة. أمَّا عند الباقين، فهي ميس تايلور دائمًا. في أمسيات الفراغ، كان أخي يحدِّث مُربِّيتي عن تاريخ بلدنا: عن غابات الجنوب التي سوف يصحبها إليها ذات يوم لتتعرَّف بمشغل الخشب الذي تملكه العائلة، وعن المُستجدَّات السياسيَّة التي تشغله كثيرًا منذ تقدَّم للانتخابات الرئاسيَّة مُرشَّحٌ واحدٌ فقط برتبة كولونيل، فحصد مئة بالمئة من الأصوات، بطبيعة الحال، وشرع يدير الحكومة كالثكنة العسكريَّة. على الرَّغم من ذلك، ينبغي لي الإقرار بأنَّ شعبيَّة ذلك الرجل قد برَّرَتها الأشغال العامَّة والإصلاحات المؤسَّسيَّة التي وضعها على عاتقه، ولكنَّ خوسِّيه أنطونيو، في حديثه إلى ميس تايلور، أشار إلى الخطر المحدق بالديموقراطيَّة، ذلك الخطر المُتجسِّد في القائد العسكريّ المُستبِدّ، شأنه شأن كثيرين من القادة العسكريِّين الذين غصَّت بهم أميركا اللاتينيَّة منذ حروب الاستقلال. «الديموقراطيَّة سوقيَّة، خيرٌ لكم نظامٌ ملكيٌّ قائمٌ على الحكم المُطلَق»، قالت ساخرة، وإن افتخرَت في واقع الأمر بأنَّ واحدًا من أجدادها قد أُعدِم في أيرلندا عامَ 1846 عقابًا له على الدفاع عن حقوق العمَّال والمطالبة بالحقِّ العامّ في التصويت للرجال، وإن لم يكونوا من أصحاب الأملاك، على نحو ما قضى القانون.

ظنَّت جوزفين بأنَّني لا أسمع حديثها، فحكَت لخوسِّيه أنطونيو أنَّ جدَّها قد اتُّهِم بالانتماء إلى الحركة الميثاقيَّة العمَّاليَّة، وخيانة التاج، فأُعدِم شنقًا، ثم مُزِّق جسده إربًا.

ـ لو أُدين قبل ذلك بأعوامٍ لشُقَّ جسده، وأُخصِي، وانتُزِعَت أحشاؤه وهو على قيد الحياة، ثم شُنِق ومُزِّق إربًا، أمام الآلاف من المشاهدين المُتحمِّسين. ـ أوضحَت له بلا أيِّ تشديد على حديثها.

ـ ومع ذلك، نذبح دجاجةً واحدة، فنبدو لكِ من البدائيِّين! ـ صاح خوسِّيه أنطونيو، في رعب.

سكنَت تلك القصصُ المُروِّعةُ لياليَّ التي تخلَّلَتها الكوابيس. فضلًا عن ذلك، حكَت ميس تايلور لأخي عن الإنجليزيَّات المُطالِبات بالحقِّ في التصويت، أولئك اللاتي كافحن من أجل حقّ المرأة في التصويت، وتجرَّعن في سبيل ذلك المذلَّة والسجن، والإضراب عن الطعام الذي كانت السلطات تفضّه بإطعامهنَّ قسرًا عَبْر أنبوبٍ يوضع في الحلق، أو المستقيم، أو المهبل. لقد تجشَّمن عذابًا رهيبًا كالبطلات، فحصلن على الحقِّ الجزئيّ في التصويت، وما زلن يكافحن للحصول على الحقوق التي يتمتَّع بها الرجل.

اقتنع خوسِّيه أنطونيو بأنَّ ذلك لن يحدث في بلدنا أبدًا، لأنَّ شقيقي لم يخرج من محيطه الضيِّق المحافظ يومًا، ولم تكُن لديه أدنى فكرة عن القوى الآخذة في التكوُّن في الطبقة الوسطى آنذاك، كما سنرى لاحقًا.

تجنَّبَت ميس تايلور تلك الأحاديث أمام باقي أفراد الأسرة، فهي لا تريد أن تُرَدّ إلى إنجلترا.



3

ـ معدتها مرهفة! ـ هكذا شخَّصَت الخالة پيا حالة ميس تايلور عندما فتك بها الإسهال بعد وصولها بيومٍ واحد.

كان ذلك هو الداء الشائع بين الأجانب الذين يمرضون بعد أوَّل رشفة ماء، الداء الذي لم يكن ليلقى أهمّيَّةً، لأنَّ الغالبيَّة تنجو بحياتها. وعلى الرَّغم من ذلك، لم تكتسب المُربِّية مناعة من البكتيريا الخاصَّة بنا قطّ، فأمضَت عامَيْن وهي تصارع أوجاع جهازها الهضميّ، بينما الخالة پيا تداويها بالينسون والبابونج المغليّ، وطبيب الأسرة يعالجها بأوراقٍ غامضة. أعتقد بأنَّها كانت تُصاب بوعكةٍ صحّيَّة كلَّما أكلَت حلوى الحليب، أو أضلاع الخنزير بالصلصة الحرِّيفة، أو كعك الذرة، أو كلَّما تناولَت فناجين الشوكولاتة الحارَّة الممزوجة بالقشطة في الخامسة مساءً، وغير ذلك من الأطعمة التي كان رفضها يُعَدّ من سوء التهذيب. غير أنَّها تحمَّلَت تقلُّصات

المعدة والقيْء والإسهال برواقيَّة، ولم تذكرها قطّ.

وهكذا، تسلَّل الوهن إليها شيئًا فشيئًا، من دون جَلَبة، إلى أن تدخَّلَت العائلة، إذ راعها فقدان الوزن الذي عانت منه ميس تايلور، ولونها الرماديّ. بعد الفحص، وصف لها الطبيب حميةً غذائيَّة مُكوَّنةً من الأرزّ وحساء الدواجن، ونصف كأسٍ من نبيذ أوپورتو الممزوج بقطراتٍ من صبغة الأفيون مرَّتَيْن يوميًا. في حديث خاصٍّ إلى والدَيّ، أخبرهما الطبيب بأنَّ المريضة قد أُصيب بطنها بورمٍ في حجم البرتقالة. قال إنَّ في بلدنا جرَّاحين يملكون من البراعة بقدر ما يملك أفضل جرَّاحي أوروبا، على الرَّغم من ظنِّه بأنَّ أوان الجراحة قد فات، وأنَّ إرسالها إلى أهلها مرَّةً أخرى يُعَدّ أكثر الأمور إنسانيَّةً، إذ لم يبقَ لها من الحياة إلَّا أشهر قليلة.

كانت من نصيب خوسّيه أنطونيو تلك المهمَّة العسيرة المُتمثِّلة في إخبار المريضة بنصف الحقيقة، فحدسَت من فورها بالحقيقة كاملة.

ـ يا له من شيءٍ مزعج! ـ عقَّبَت ميس تايلور من دون أن تفقد دماءها الباردة.

أخبرها خوسّيه أنطونيو بأنَّ والده سوف يرتِّب الإجراءات الضروريَّة حتى يمكنها السفر إلى لندن في الدرجة الأولى.

ـ حتى أنت تريد أن تطردني؟ ـ ابتسمَت.

ـ ربَّاه! لا أحد يريد أن يطردك يا چوزفين! كلّ ما نريده أن تحظي بالرفقة، والحبّ، والرعاية... سأوضِّح الوضع لعائلتك.

ـ أخشى أنَّكم أقرب ما أملك إلى العائلة. ـ أجابت. ثم شرعَت تحكي ما لم يسألها عنه أحدٌ من قبل.

صحيح أنَّ چوزِفين كانت سليلة جدٍّ أيرلنديٍّ أُعدِم لأنَّه قد أغضب التاجَ البريطانيّ، ولكنَّها حين أخبرَت شقيقي بذلك، أغفلَت ذكر أبيها مُدمِن الكحول العنيف الذي كان فضله الوحيد أنَّه سليلُ رجلٍ كافح من أجل العدالة. أمَّا الأمّ، التي هُجِرَت للبؤس ومعها عدد من الأبناء، فقضَت نحبها شابَّة. تفرَّق الأطفال بين الأقرباء، في حين أُرسِل الابن الأكبر، ذو الحادية عشرة، إلى منجم فحم، كما أُرسِلَت چوزِفين ابنة التاسعة إلى دار أيتامٍ للراهبات، حيث كسبَت قوتها بالعمل في المغسل، مصدر الدخل الرئيسيّ للمنشأة، على أمل أن تظهر روحٌ عطوف، وتتبنَّاها. أوضحَت له تلك المهمَّة البطوليَّة، مهمَّة غسل ملابس الآخرين بالصابون، ونفضها بالعصا، وتنظيفها بالفرشاة، وغليها في مراجل عملاقة، وشطفها، وتنشيتها، وكيِّها.

في الثانية عشرة من العمر، حين لم تعُد في عمرٍ يسمح بالتبنِّي، أُلحِقَت بالخدمة في بيت عسكريٍّ إنجليزيّ، بلا مقابل، هناك حيث عملَت حتى مَنَح العسكريُّ نفسه الحقّ في اغتصابها بصورةٍ ممنهجة وهي لا تزال مراهقة. في المرَّة الأولى، اقتحم الحُجرة الواقعة بجوار المطبخ ليلًا، الحُجرة التي كانت تنام فيها، وإذا هو ينقضّ عليها بلا مقدِّمات، كاتمًا فمها. وبعد ذلك، أرسَى الروتين الذي تكرَّر في كلِّ مرَّةٍ، ذلك الروتين الذي عرفَته چوزِفين، وشعرَت بالخوف منه. كان العسكريّ ينتظر حتى تخرج زوجته، التي عاشَت منشغلةً بالأعمال الخيريَّة والزيارات

الاجتماعيَّة، ثم يشير إلى الصغيرة كي تتبعه، فتنصاع لطلبه، مرعوبةً، وهي لا تتخيَّل أنَّ في وسعها المقاومة أو الهرب. وفي مرأب العربات، كان الرجل يسوطها بسوط الخيل، محاذرًا لئلَّا يترك على جسدها آثارًا بادية، ويُرغِمها على الممارسات المنحرفة نفسها في كلِّ مرَّةٍ، فتتحمَّلها تاركةً جسدها للعذاب، وقد أغمضَت ذهنها عن احتمال الرأفة، بينما هي تكرِّر بلا صوت: «سوف يمرّ، سوف ينتهي».

وأخيرًا، بعد شهور، بدأ الفضول يستأثر بالزوجة أمام سلوك الخادمة الذي يليق بكلبٍ مضروب، وطريقتها في التسلُّل من الأركان والارتجاف متى وصل الزوج إلى البيت. طوال أعوام الزواج، لاحظَت على زوجها عددًا من مظاهر الانحراف، وإن آثرَت تجاهلها عملًا بالنظريَّة القائلة بأنَّ ما لم يُسمَّ بات وكأنَّه غير موجود. ما دامت المظاهر محفوظةً، فلا حاجة إلى النبش تحت السطح، ولجميع الناس أسرارهم، هكذا كانت تفكِّر. ولكنَّها انتبهَت إلى تهامس باقي الخدم وراء ظهرها، كما سألتها إحدى الجارات عمَّا إذا كان زوجها يعاقب الخيل في مرأب العربات، لأنَّها تسمع ضرباتٍ وتأوُّهات. عند ذاك، أدركَت أنَّ من واجبها التحرِّي عمَّا يجري تحت سقف بيتها، قبل أن يتحقَّق منه آخرون. وهكذا، رتَّبَت لضبط زوجها ممسكًا بالسوط، بينما الخادمة شبه عارية، مشدود وثاقها، مُكمَّمٌ فمها.

لم تلقِ السيِّدة بجوزِفين إلى الشارع، كما يجري كثيرًا في مثل هذه الحالات، بل أرسلَتها إلى لندن لتبقى برفقة أمِّها، مع تعهُّدٍ من جوزِفين بألَّا تتفوَّه بكلمةٍ واحدة عن سلوك الزوج. لا بدَّ

من تجنُّب الفضيحة مهما كان الثمن.

اتَّضح أنَّ سيِّدتها الجديدة أرملةٌ ما زالت تتحلَّى بالقوَّة، سافرَت إلى كثيرٍ من أرجاء العالَم، وتنوي مواصلة السفر، ولذا فهي تحتاج إلى مُساعِدة. كانت مُستبِدّة، ذات خُيلاء، وإن اتَّسمَت بمَلَكة التعليم، وقرَّرَت أن تجعل من چوزِفين آنسةً حسنة التهذيب، إذ لم تكُن بها رغبة في مُرافِقة يتيمةٍ أيرلنديَّة، سلوكها يليق بغسَّالة ثياب. فبدأت بالتخلُّص من اللكنة التي آلمَت أذنَيْها، وأرغمَت چوزِفين على التحدُّث وكأنَّها لندنيَّة من الطبقة الراقية. أمَّا الخطوة التالية، فكانت تحويلها إلى الكنيسة الأنجليكيَّة.

ـ إنَّ أتباع البابا جهلة يؤمنون بالخرافات، وهم لذلك السبب فقراء، يُنجبون أعدادًا كبيرة من الأبناء، مثلهم كمثل الأرانب ـ أطلقَت السيِّدة حكمها.

تحقَّق لها ما أرادت في غير صعوبة، إذ لم تجد چوزِفين فارقًا كبيرًا بين العقيدتَيْن. وعلى كلِّ حال، آثرَت أن تبقى أبعد ما يمكن عن الربّ، وهو الذي لقيَت منه معاملةً في غاية السوء منذ الميلاد. تعلَّمَت كيف تتحلَّى بسلوكٍ لا غبار عليه في العلن، وكيف تتحكَّم في عواطفها وحالها بصرامة. أعطَتها السيِّدة إذنًا بالدخول إلى مكتبتها، كما أشرفَت على قراءاتها، وهكذا غرسَت في نفسها الشغف بدائرة المعارف البريطانيَّة، وحملَتها إلى أمكنةٍ ما كانت لتحلم بالتعرُّف بها قطّ، بدءًا بنيويورك، وصولًا إلى القاهرة. ثم أُصيبَت السيِّدة بسكتةٍ دماغيَّة، وقضَت نحبها بعد أسابيع قليلة، تاركةً لچوزِفين بعض المال الذي سمح لها بالعيش بضعة أشهر. وعندما رأت چوزِفين إعلانًا في الصحيفة يبحث

صاحبه عن مُربّيةٍ للعمل في أميركا الجنوبيّة، تقدَّمَت للوظيفة.

ـ لقد ابتسم لي الحظّ يا خوسّيه أنطونيو، لأنَّ عائلتك هي التي كانت من نصيبي، وعاملَتني معاملةً حسنة جدًّا. خلاصة القول إنَّني لا أملك مكانًا أذهب إليه. سأموت هنا، ما لم يكُن لديكم مانع.

ـ لن تموتي يا چوزِفين. ـ غمغم خوسّيه أنطونيو، دامع العينَيْن، إذ انتبه في تلك اللحظة إلى الأهمّيَّة التي اكتسبَتها في حياته.

عرف والدي أنَّ المُربّية تنوي الاحتضار والموت في بيته، فشعر أوَّل ما شعر باندفاعةٍ حدَّثَته بوضع المُربّية قسرًا على متن أوَّل سفينةٍ تنطلق من المرفأ لعبور المحيط الأطلنطيّ، تجنُّبًا لصدمة احتضارها وموتها، وهي المرأة التي أحببتُها حبًّا جمًّا، ولكنَّ خوسّيه أنطونيو وقف في وجه أبي لأوَّل مرَّة.

ـ بابا، لو طردتَها لما غفرتُ لك أبدًا! ـ أنذره، وما لبث أن شرع يُقنعه بأنَّ واجب المسيحيّ يملي عليه أن يحاول إنقاذها بأيِّ وسيلةٍ في متناول يده، على الرَّغم من توقُّعات الطبيب المتشائمة ـ سوف تتألَّم ڤيوليتا لو ماتت ميس تايلور، ولكنَّها سوف تفهم، فهي تبلغ من العمر ما يسمح لها بذلك. أمَّا اختفاء ميس تايلور فجأةً، فلن يسعها أن تفهمه. بابا، سأتولّى مسؤوليَّة ميس تايلور بنفسي، لا ينبغي لك أن تقلق بهذا الشأن.

وقد وفى بكلمته.

أجريَت الجراحة على يد فريقٍ يرأسه أشهر جرَّاحي جيله في المستشفى العسكريّ، أفضل مستشفى في البلد آنذاك، بفضل تدخُّلٍ شخصيٍّ من القنصل الإنجليزيّ الذي كان على صلةٍ بأبي، نظرًا إلى اشتغاله بالتصدير. بخلاف المستشفيات العموميَّة، الفقيرة بقدر مرضاها، والعيادات الخاصَّة القليلة التي يقصدها القادرون على الدفع على الرَّغم من رداءة الرعاية الطبِّيَّة، كان المستشفى العسكريّ يرقى إلى مستوى مستشفيات أوروبا والولايات المُتَّحدة الأوفر حظًّا من الوجاهة. كان حكرًا على أفراد القوَّات المُسلَّحة والسلك الدبلوماسيّ، من حيث المبدأ، ولكنَّ الصلات الجيِّدة تصنع الاستثناءات. كان البناء عصريًّا، جيِّد التجهيز، مُلحَقًا بحدائق واسعة يتنزَّه فيها المرضى وهم في طور النقاهة. أمَّا الإدارة، الخاضعة لإشراف كولونيل، فلقد ضمنَت للمكان نظافةً ورعايةً لا غبار عليهما.

مضَت أمِّي ومعها أخي بالمريضة إلى العيادة الأولى، ومن هناك صحبَتهم إلى مكتب الجرَّاح مُمرِّضةٌ ترتدي زيًّا مُنشًّى إلى الحدِّ الذي جعله يُصدِر صوت قرمشة مع كلِّ خطوة. كان الجرَّاح رجلًا في السبعين من العمر على وجه التقريب، أقرع، صارم القسمات، متغطرسًا، ما ينمّ عن شخصٍ دَرَج على ممارسة السلطة. وبعد أن فحصها طويلًا خلف الحاجز الذي يقسم الحُجرة، توجَّه بالحديث إلى خوسِّيه أنطونيو، مُتجاهِلًا حضور المرأتَين كلِّيًّا، ورجَّح أن تكون إصابةً بورم سرطانيّ، ثم قال بإمكانيَّة السعي إلى تقليص حجمه عن طريق الأشعَّة، لأنَّ استئصاله جراحيًّا يُمثِّل خطرًا جسيمًا.

ـ دكتور، لو أنّني ابنتك، هل كنتَ تجري محاولة؟ ـ تدخّلَت ميس تايلور، هادئةً كعهدها.

وبعد صمت، طال حتى بدا دهرًا، أومأ الطبيب بالإيجاب.

ـ إذن، فقُلْ لي متى تجري لي الجراحة؟ ـ طلبَت منه موعدًا.

أُجرِيَت المحاولة بعد يومَيْن. قبل الذهاب إلى المستشفى، ووفاءً بشعارها القائل بأنَّ التصريح بالحقيقة أيسر الأمور، أخبرَتني ميس تايلور بأنَّ في بطنها برتقالة، ولا بدَّ من استخراجها، الأمر الذي لن يكون هيِّنًا. توسَّلتُ كي تسمح لي بمرافقتها في أثناء الجراحة. كنتُ في السابعة من العمر آنذاك، وإن بقيتُ مُتعلِّقةً بها كعهدي في الصغر.

لأوَّل مرَّةٍ منذ تعرَّفنا بها، بكَت ميس تايلور. ثم ودَّعَت كلّ فردٍ من أفراد الخدمة، وعانقَت توريتو والخالتَيْن، اللتين أعطَتهما تعليمات بتوزيع حوائجها على من يرغب في الاحتفاظ بتذكارٍ منها، لو دعَت الحاجة، وسلَّمَت أمّي رزمةً من الجنيهات الإسترلينيَّة مربوطةً بشريط.

ـ من أجل المساكين يا سيِّدتي.

ذلك أنَّها ادَّخرَت راتبها كاملًا كي تعود إلى أيرلندا يومًا، وتبحث عن أشقَّائها المُتفرِّقين واحدًا واحدًا.

أمَّا أنا، فأهدَتني كنزها الأكبر، دائرة المعارف البريطانيَّة، وأكَّدَت لي أنَّها سوف تحاول العودة قدر المستطاع، بَيْد أنَّها لا تملك الوعد بذلك. عرفتُ أنَّ شيئًا مُروِّعًا قد يحدث في

المستشفى، بعد أن ألفت سلطان الموت الذي لا يرقى إليه شكّ. سبق لي أن رأيت جدّي في النعش، وكأنَّه قناعٌ من الشمع يرقد بين ثنايا الساتان الأبيض، كما رأيت القطط والكلاب التي أودَت بحياتها الشيخوخة أو الحوادث، زِدْ عليها الطيور بصنوفها كافَّة، والعنزات والنعاج والخنازير التي يذبحها توريتو لطبخها في القِدر.

كان آخر شخصٍ تراه چوزِفين تايلور قبل حملها إلى غرفة العمليَّات على المحفَّة هو خوسِّيه أنطونيو، الذي مكث إلى جوارها حتى تلك اللحظة. أعطوها مُهدِّئًا قويّ المفعول استعدادًا للجراحة. وهكذا، تراءَت لها صورة الصديق يلفّها الضباب، فلا تمكَّنَت من فهم كلماته اللاهثة ولا اعترافه بالحبّ، وإن أحسَّت بقبلته على شفتَيْها، فابتسمَت.

استمرَّت الجراحة سبع ساعاتٍ طوالًا، أمضاها خوسِّيه أنطونيو في قاعة استقبال المستشفى، بينما راح يرتشف القهوة من التُرمُس وهو يجوب المكان من أقصاه إلى أقصاه، مُتذكِّرًا ألعاب الورق، والوجبات المسائيَّة الخفيفة في الحديقة، والنزهات على مشارف المدينة، وأحاجي دائرة المعارف، وأمسيات الأغاني المصحوبة بالعزف على البيانو، والجدالات البيزنطيَّة في أمر الأجداد الذين مُزِّقَت أجسادهم إربًا. واستنتج أنَّها الساعات الأكثر سعادةً في حياته المُنظَّمة التي رُسِمَت فيها طريقه منذ لحظة الميلاد. واستقرَّ على أنَّها المرأة الوحيدة التي يمكنه الهرب معها من وصاية أبيه، ومن التواطؤ الذي وقع فيه أسيرًا، ذلك التواطؤ المُؤلَّف من خيوط عنكبوتٍ ملموسة. لم يسبق له أن اتَّخذ

قراراتٍ في شؤونه الشخصيَّة قطّ. بل إنَّه اكتفى بتنفيذ كلّ ما يُنتظَر منه، دون أن ينبس بكلمةٍ واحدة. كان ابنًا نموذجيًا، ولقد سئم ذلك. تحدَّته چوزِفين، وزعزعَت قناعاته، وسمحَت له برؤية عائلته ووسطه الاجتماعيّ على ضوءٍ شديد. ومثلما أرغمَته على رقص التشارلستون ومتابعة أخبار المُطالِبات بحقّ النساء في التصويت، دفعَته ليتخيَّل مستقبلًا يختلف عن ذلك الذي رُصِد له، مستقبلًا آخر حافلًا بالمغامرة والمجازفة.

في الرابعة والعشرين من العمر، صار أخي يتحلَّى بالصمت والحرص الذي كان يمقته. «لقد هرمتُ قبل الأوان»، تمتم شاعرًا بالنفور وهو يحلق ذقنه أمام المرآة. قضى أعوامًا وهو يساند أباه في أنشطةٍ تجاريَّةٍ لا يحفل بها، بدَت له مريبة. قضى أعوامًا وهو يحاول الطفو على سطح المحيط الذي شعر فيه كالدخيل، لأنَّه لم يشترك وأهل ذلك المحيط في المُثُل أو الاهتمامات.

وبينما هو يترقَّب في قاعة المستشفى، تخيَّل نفسه قادرًا على بدء حياةٍ جديدةٍ مع چوزِفين، في مكانٍ آخر. يمكنهما الذهاب إلى أيرلندا، وهناك يتملَّكان بيتًا بسيطًا في مسقط رأس ميس تايلور، فتشتغل هي مُدرِّسةً، ويشتغل هو عاملًا. أمَّا كونها تكبره بخمسة أعوامٍ، ولم تُبدِ نحوه أدنى ميلٍ عاطفيّ، فكلاهما عقبة هيِّنة بالقياس إلى وضوح إصراره. خُيِّل إليه سيل النمائم الذي سوف ينهمر متى أُعلن عن حفل الزفاف، وخزي عائلتنا التي كانت تنتظر رؤيته مُتزوِّجًا من فتاةٍ تنتمي إلى طبقته الاجتماعيَّة، كاثوليكيَّة، سليلة أسرةٍ معروفة، مثل ابنة العمّ فلورنسيا، ولكنَّ شيئًا من ذلك لن يؤثِّر فيهما، لأنَّهما سوف يبحران في طريقهما إلى أوروبا.

كاميلو، تسألني كيف أعرف كلّ هذا؟ تقصَّيتُ بعضه من أخي على مدى أعوام، ويمكنني أن أتخيَّل بعضه الآخر، لأنَّني أعرف خوسِّيه أنطونيو تمام المعرفة.

أمَّا البرتقالة التي كانت في بطن ميس تايلور، فثبت أنَّها ورمٌ حميد، بفضل تدخُّل الأب كيروغا السماويّ، على نحو ما أكَّدَت الخالتان. أوضح الجرَّاح أن تشعُّبات الورم قد بلغتا المبيضَيْن، اللذين اضطرّ إلى استئصالهما، وأضاف أنَّ المريضة لن تقدر على الإنجاب أبدًا، ولكنَّها عازبة، ولم تعُد في ريعان الشباب، ولذا فتلك التفصيلة عديمة الأهمِّيَّة. أكَّد أنَّ الجراحة قد تكلَّلَت بالنجاح، ولكنْ ميس تايلور فقدَت الكثير من الدماء، وأُصيبَت بالوهن، ما يُعَدّ أمرًا طبيعيًّا في مثل هذه الحالات. ومن شأنها أن تستردّ عافيتها بالراحة والعناية في وقتٍ مقبول. تولَّت الخالتان پيا وپيلار العناية بها، بينما رافقتُها أنا بوفاء الكلبَيْن اللذين لم يبارحا مكانهما بجوارها.

صارت ميس تايلور ظلَّ الشابةِ النضرة التي وصلَت منذ أعوامٍ بثياب «الفلاپر». أضنَتها شهور الألم الذي احتملَته في غير شكوى، ووحشيَّة الجراحة، فلم يبقَ من منعطفات جسدها إلَّا غمَّازات يدَيْها. أمَّا بشرتها فاكتسبَت درجةً صفراء تبعث على القلق. وحين تمكَّنَت من الوقوف على قدمَيْها أخيرًا، بعد قرابة شهر، بفضل حساء الدجاج الممزوج بالأعشاب المُقوِّية، ومُربَّى الفاكهة الموسميَّة الممزوجة بحبوب لقاح النحل، وقطرات الأفيون، وشراب الشمندر وخميرة البيرة، ذلك الشراب الذي يثير الغثيان، المُستخدَم في علاج الأنيميا.. عند ذاك، لُوحِظ تهدّل

ثيابها، وتساقط نصف شعرها. في حين تراءى لخوسِّيه أنطونيو أنَّها لم تكُن على هذا القدر من الجمال قطّ. راح يذرع حُجرة المريضة كالروح التائهة، مُترقِّبًا أن تتركها الخالتان بمفردها حتى يجلس إلى جوارها، ويقرأ لها قصائد باللغة الإسبانيَّة، تسمعها جزئيًّا، وقد فقدَت الوعي بتأثير القطرة، وأغمضَت أجفانها نصف إغماضة. اقترحتُ على شقيقي أنَّه من الأفضل أن يقرأ لها من دائرة المعارف، غير أنَّه كان في ذلك الطوْر الرومانسيّ المفعم بالمشاعر التي لم يعرب عنها بعد.

طالت فترة النقاهة أشهرًا، فاغتنمَتها ميس تايلور لمتابعة تعليمي من مكانها على أريكةٍ في رواق الباحة. وهناك تركَّزَت حياة البيت. نقلَت أمِّي آلة الحياكة إلى الرواق، حيث كان توريتو يصلِّح قطع الأثاث المُفكَّكة، بينما الخالة پيلار تُركِّب وتُفكِّك آلةً مُعقَّدةً ابتكرَتها لتجفيف القوارير، والخالة پيا تعدّ مساحيقَ وأصباغًا وأدوية شرب وكبسولاتٍ وأقراصًا من مخزونها الهائل من الأدوية الطبيعيَّة. حصلَت على ثمرة نخيل موتاكوه، التي أُرسِلَت إليها من حوض بوليفيا الأمازونيّ، تلك الثمرة التي استخلصَت منها زيتًا لعلاج الصلع، فأزالت الشعر القليل المُتبقِّي للمريضة، وشرعَت تُمسِّد رأسها مرَّتَيْن يوميًّا بذلك الزيت العجائبيّ. بعد سبعة أسابيع، أطلّ من رأس ميس تايلور زغبٌ ناعم. وما هو إلَّا وقتٌ قصير حتى بدأ ينمو شعرها غزيرًا، داكنًا، قويًّا، خليقًا بهنود الألتيپلانو، كما قالت الخالة پيلار بازدراء، على إقرارها بأنَّ ذلك الشعر أنسب لميس تايلور من نسالات القشّ التي كان يتألَّف منها شعرها الأصليّ.

مرَّت الأيَّام بطيئةً هادئة. وحده خوسِّيه أنطونيو شعر بنفاد الصبر، وهو الذي راح يترقَّب تلك اللحظة، حين يمكنه المضيّ بميس تايلور إلى صالون شاي ڤرساي، والبوح إليها بنيَّة الزواج. لم يشكّ يومًا في موافقتها، بل إنَّه لم يرتَب إلَّا في الجانب الاقتصاديّ، لأنَّ فكرة الاشتغال عاملًا حتى يكسب قوته في أيرلندا بدَت له أقلّ جاذبيَّة، زِدْ على ذلك أنَّ زوجة المستقبل في حاجةٍ إلى أمان العائلة ودعمها. لقد عمل خوسِّيه أنطونيو مع والده منذ السابعة عشرة من العمر، غير أنَّه لم يحصل على راتبٍ ثابت، وإنَّما كان يتلقَّى منه مبالغ تتبدَّل قيمتها، على فتراتٍ مُتفرِّقة، مبالغ أقرب إلى الإكراميَّة السخيَّة منها إلى الأتعاب، لم تسمح له بالادِّخار.

أكَّد له والده أنَّه سوف يشارك على نحوٍ مُرضٍ جدًّا في أنشطته التجاريَّة، وإن لم تُوزَّع الأرباح في واقع الأمر، بل أُعيد استثمارها في شركاتٍ أخرى. كان أرسينيو دِل باتّيه يحصل على قروضٍ لإقامة مشروعٍ جديد، ثم يبيعه حالما يتمكَّن من تمويل مشروعٍ آخر، ويكرِّر الشيء نفسه مرَّةً تلو أخرى، موقنًا من مضاعفة المال في ذلك الكَوْن الخفيّ، كَوْن البنوك والأسهم والسندات. سبق أن حذَّره خوسِّيه أنطونيو من ذلك الأسلوب، وشبَّهه بفأر تجاربٍ يركض في دولابٍ بلا هوادة، حتى يصل إلى لامكان. «بهذه الوتيرة، لن تفي بديونك أبدًا»، قال له، فاحتجّ والده بأن أحدًا لا يثري بالعمل في وظيفة، أو الاستثمار بحرص. المستقبل لأصحاب الجرأة.

4

بفضل الراحة الطويلة والوصفات العلاجيَّة التي كانت تعدّها الخالة بيا، استردَّت جوزِفين تايلور العافية والرغبة في الخروج. مضى عليها وقتٌ أطول ممَّا ينبغي وهي في الرواق ذي النوافذ الزجاجيَّة المُطِلَّة على الباحة. صارت في غاية الهزال، وإن تحسَّن لون بشرتها، وبات شعرها قصيرًا، فجعلها تبدو كالطائر الذي انتُزِعَت بعض ريشاته. خرجَت أوَّل ما خرجَت برفقتي أنا وأمِّي والخالتَيْن، إذ حضرنا حفل وداع العزوبيَّة الذي أُقيم لإحدى بنات الأشقَّاء من آل دِل بايّيه. تلقَّينا دعوةً إلى تناول وجبةٍ مسائيَّةٍ خفيفة مع العائلة، مطبوعةً على بطاقةٍ بسيطة، قلَّلَت من شأن الحفل، كما يليق ببلدٍ يُعَدّ التبجُّح فيه من سوء الذائقة. ولكنَّ الأمر لم يعُد كما كان منذ بعض الوقت يا كاميلو، فالجميع الآن يتباهى بأكثر ممَّا هم عليه، وبأكثر ممَّا يملكون. أمَّا «الوجبة المسائيَّة الخفيفة» التي أُقيمَت لابنة الشقيق، فكانت وليمةً عامرة

بكثيرٍ من مختلف أنواع الكعك، والشوكولاتة الحارَّة المُقدَّمة في الأباريق الفضِّيَّة، والمُثلَّجات، والمشروبات الروحيَّة الحلوة المُقدَّمة في كؤوسٍ من كريستال بوهيميا، كما أحيَت الحفل فرقةٌ من الآنسات اللاتي عزفن الآلات الوتريَّة، فضلًا عن ساحرٍ أخذ يلفظ المناديل الحريريَّة من فمه ويستخرج الحمام الحائر من فتحات صدور السيِّدات.

طبقًا لتقديراتي، اجتمعَت في تلك الصالونات خمسون امرأة على وجه التقريب، جميع قريبات العروس وصديقاتها. شعرَت ميس تايلور كالطائر في قنٍّ غريب، وهي المنفصلة عمَّا يُحيط بها، الغريبة، ذات الثياب الرثَّة. اغتنمَت انصراف الأنظار إلى الكعكة المُكوَّنة من ثلاثة طوابق، تلك التي جيء بها على طاولةٍ تسير بالدواليب، وسط جوقةٍ من الهتاف والتصفيق، فولَّت هاربةً إلى الحديقة، وهناك صادفَت مدعوَّةً أخرى هاربةً من الحفل مثلها.

كانت تيريسا ريباس من النساء القليلات اللاتي تبنَّيْن صيحة السراويل الفضفاضة والسترات الرجَّاليَّة، تلك التي فرضَتها مُصمِّمة أزياءٍ فرنسيَّة منذ عهدٍ قريب، فأضافَت إليها تيريسا القميص الأبيض المُنشَّى وربطة العنق. راحت تُدخِّن غليونًا له فُوَّهة من العظم وقاعدةٌ منحوتةٌ على هيئة رأس ذئب. في ضوء المساء الواهن، حسبَتها چوزِفين رجلًا، وذلك تحديدًا هو الأثر الذي أرادت الأخرى أن تتركه في النفوس.

جلسَتا لتجاذب أطراف الحديث على مقعدٍ وسط الشجيرات المُشذَّبة وأحواض الأزهار، وقد لفَّهما أريج الناردين والتبغ

الكثيف. عرفَت تيريسا أنَّ چوزِفين في البلد منذ عدَّة أعوام، غير أنَّها لم تتعرَّف إلَّا بعائلة مُستخدِميها، وبعض الأشخاص من الجالية الإنجليزيَّة، أولئك الذين تقابلهم خلال الشعائر الأنجليكيَّة بين الحين والآخر. حدَّثَتها عن البلد الآخر، الحقيقيّ، بلد الطبقة العاملة والفئات المُتعدِّدة التي تضمّها الطبقةُ المُتوسِّطة، وحدَّثَتها عن الأقاليم وعُمَّال المناجم والفلَّاحين والصيَّادين.

سمعَتني چوزِفين أناديها في الحديقة، فأدركَتْ أنَّ الحفل قد انتهى منذ حين، وصار الوقت ليلًا. ودَّعَت كلٌّ منهما الأخرى على عجل. بينما أسعفني الوقت لسماع تيريسا وهي تطلب منها أن تمرّ بها، كما ناولَتها بطاقة وردٍ فيها الاسم ومحلّ العمل.

ـ أودّ لو خرجتُ بكِ من كهفكِ يا چوي، وأريتُك شيئًا من العالَم. ـ قالت لها.

راق لچوزِفين اللقب الذي أطلقَته عليها تلك المجهولة. وعزمَت على قبول عرضها. لعلَّها تصبح أوَّل صديقةٍ لها على تلك الأرض التي بدأت تمدّ فيها جذورًا.

بعودتنا إلى البيت، قلتُ ما فكَّرن فيه جميعًا: لقد حان الوقت لمسايرة موضة التنانير القصيرة، والنسيج المنقوش، والصدور المفتوحة، والأكتاف العارية. كانت الخالتان تتَّشحان بالسواد حتى الكواحل، كالراهبتَيْن، حتى أمِّي لم ترَ ضرورةً لمواكبة العصر، إذ تدبَّرَت أمرها لتجنُّب الحياة الاجتماعيَّة تمامًا، بعد أن تعب زوجها من فرط ما طلب منها أن ترافقه. حضرَت ميس تايلور الحفل الذي أُقيم لعروس آل دِل بايّيه وهي ترتدي ثوبًا

بلون الخردل، هو نفسه الثوب الذي نزلَت به من السفينة التي جاءت بها من إنجلترا قبل أعوام، وإن اقتصَّت منه عدَّة سنتيمترات. أرسلَت أمِّي السائق ليشتري المجلَّات النسائيَّة الواردة من بوينوس آيرِس كي تستقي منها أفكارًا للثياب، فلم يرُق لميس تايلور سوى النمط الذي تبنَّته تيريسا ريباس. اشترَت بضعة أمتارٍ من قماش الجبردين والتويد، مع أنَّ المناخ لا يلائم الأقمشة الثقيلة. وباستخدام بعض القوالب، شرعَت تحيك القماش خلسةً كيلا تكشف عن مشروعها أمام العائلة.

ـ أبدو كولدٍ يعاني من نقص الغذاء. ـ همسَت حين وقع بصرها على صورتها في المرآة بعد الانتهاء من صنع طاقم الثياب.

وقد كان. فبقامتها التي تبلغ مترًا وخمسين سنتيمترًا، ووزنها الذي يبلغ ستَّة وأربعين كيلوغرامًا، وشعرها الجديد الجامح، المتناثر، شديد القصر، وسروالها، وسترتها، بدَت كما قالت فعلًا. وحدي رأيتُها ببدلة الرجال، في حميميَّة غرفتنا.

ـ لن يروق هذا لوالدَيَّ مُطلَقًا! ـ قلتُ، ولكنِّي وعدتُها بألَّا أخبر أحدًا.

في ذلك الأحد، صحبَتني ميس تايلور في نزهةٍ إلى ساحة أرماس، حيث كانت تنتظرنا تيريسا ريباس، التي شبكَت ذراعها بذراع ميس تايلور من دون أن تدلي بتعقيبٍ واحدٍ على ثيابها، ومضينا صوب متجر مُثلَّجاتٍ أصحابه من غاليثيا. مضَتا مُستغرِقتَين

في الحديث، بينما أرهفتُ أنا السمع حتى ألتقط شيئًا ممَّا تقولان.

ـ مُخنَّثتان! وقحتان! ـ هكذا رفع صوته بالصياح سيِّدٌ يعتمر قبَّعةً ويمسك عكَّازًا، مرّ بجوارنا.

ـ ولنا جزيل الشرف يا سيِّدي! ـ أجابته تيريسا بقهقهةٍ رقيعة، بينما تضرَّجَت ميس تايلور خجلًا.

وبعد المُثلَّجات، مضَت بنا تيريسا إلى مسكنها، الذي كان بعيدًا عمَّا توقَّعناه.

بسبب أسلوب تيريسا المفعم بالتحدّي وأناقتها العفويَّة، ظنَّت ميس تايلور أنَّها تنتمي إلى الطبقة الراقية، وأنَّها ربَّما تكون واحدةً من أولئك الوريثات اللاتي يملكن السخرية من الأعراف، مدعوماتٍ بالمال والعائلة. ما زالت ميس تايلور لم تكتسب القدرة على تمييز الطبقات الاجتماعيَّة، وجزءٌ من ذلك يرجع إلى عدم اتِّصالها إلَّا بعائلتي وخدم البيت.

كاميلو، إنَّ تلك القصَّة القائلة بأنَّ جميع البشر متساوون أمام القانون وأمام عينَي الربّ مُجرَّد خرافة. آمل ألَّا تصدِّقها. فنحن لا نلقى المعاملة نفسها، لا من القانون ولا من الربّ. وذلك شيءٌ جليٌّ في هذا البلد، فمتى تعرَّفنا بأحدهم، تكفينا نبرةٌ طفيفة في لكنته، أو طريقته في الإمساك بأدوات المائدة، أو السلاسة التي يعامل بها شخصًا أدنى منه منزلةً، حتى نعرف إلى أيِّ طبقةٍ من الطبقات الاجتماعيَّة اللانهائيَّة ينتمي، في ثانيةٍ واحدة. إنَّها مَلَكةٌ لا يتمكَّن منها إلَّا قلَّة قليلة من الأجانب. أعتذر عن التشديد

على هذه النقطة يا كاميلو، أعرف أنَّك تضيق بالمنظومة الاجتماعيَّة، شديدة الإقصائيَّة والقسوة، ولكنْ لا بدَّ من التطرُّق إليها كي تفهم جوزِفين تايلور.

عاشت تيريسا في علِّيَّة بيتٍ عتيق، يقع في شارعٍ فقيرٍ قذر، يحتلّ الطابق الأوَّل منه مشغلُ إصلاح أحذية، أمَّا الطابق الثاني فيقوم فيه مشغلٌ منزليٌّ لصنع الثياب، حيث عمل عددٌ من الخيَّاطات في حياكة أزياء المُمرِّضات ومآزر الأطبَّاء ذات اللون الأبيض. كان المرء يصل إلى العلِّيَّة عَبْر ممرٍّ غارقٍ في الغبش، يليه دَرَجٌ من الخشب تآكل من فرط ما استُخدِم، ومن فرط ما نخره النمل الأبيض الدؤوب.

وجدنا نفسَيْنا في حُجرةٍ فسيحة، سقفها خفيض، وبها كوَّتان قذرتان يتسلَّل منهما ضوءٌ خافت. حوَت الحُجرة أريكةً تقوم مقام الفراش، ومجموعةً من قطع الأثاث تبدو كالمهملات لأنَّها عديمة الفائدة، وصوانًا فاخرًا مصاريعه من مرايا، الأثر الوحيد الدالّ على ماضٍ أفضل حالًا. سادَت الحُجرة فوضى تليق بالأعاصير، إذ تناثرَت الثياب وتكدَّسَت الصحف ورزم الأوراق المربوطة بالأشرطة في ذلك المكان الذي لم يُنظَّف منذ شهور، طبقًا لحساباتي.

ـ ما صلتك بآل دِل بايّيه؟ ـ وجَّهَت ميس تايلور سؤالها لتيريسا.

ـ لا أمتُّ إليهم بصلة. ذهبتُ إلى الحفل برفقة أخي، روبِرتو، الساحر. أتذكرينه؟

ـ أخوكِ مذهل!

ـ السحر مُجرَّد هواية، لا أحد يكسب قوته بابتلاع السكاكين وإخفاء الأرانب.

أشعلَت تيريسا موقدًا لغلْي الماء، وقدَّمَت لنا الشاي في فنجانَيْن كلاهما مُثلَّم. حلَّت فنجاني بالسكَّر، بينما أضافَت جرعةً من العَرَق الشعبيّ إلى فنجان چوزفين. دخَّنَت كلتاهما السجائر الداكنة المريرة، التي قالت تيريسا إنَّها «تنظِّف الرئتَيْن». حكَت لنا أنَّ والدَيْها كانا مُعلِّمَيْن في إقليمٍ من أقاليم الجنوب، رحلَت عنه مع شقيقها روبِرتو حالما تسنَّى لهما الرحيل، إذ غادر هو للالتحاق بالجامعة، في حين ذهبَت تيريسا بحثًا عن المغامرة. قالت إنَّها لا تنسجم مطلقًا في تلك الأجواء حيث يعيش والداها، وعرَّفَت نفسها بأنَّها بوهيميَّة. أُصيب والدها بعدوى الإنفلونزا الإسبانيَّة قبل أعوام، ثم نجا بحياته، وإن ظلَّ يُعاني متاعب الرئة منذ ذلك الحين.

ـ تقاعد أبواي منذ وقتٍ قريب. يجني المُعلِّمون رواتب بائسة يا چوي. حتى منظومة معاشات التقاعد الجديدة بدأت مُتأخِّرًا بالنسبة إليهما، كما أنَّهما لم يدَّخرا شيئًا. ولذا ذهبا إلى الريف، حيث يمكنهما العيش بأقلّ القليل، والآن صارا يقدِّمان الدروس مجَّانًا. كنتُ أودّ لو ساعدتُهما، ولكنِّي حالةٌ ميؤوسٌ منها، أكاد لا أجني ما يكفي الطعام. أمَّا روبِرتو، فسوف يشتغل بمهنةٍ مرموقة، زيدي على ذلك أنَّه ابنٌ مسؤولٌ، كريم. سيكون سندًا لوالدَيَّ.

أوضحَت لميس تايلور أنَّ شقيقها اضطُرّ إلى تأدية الخدمة العسكريَّة، ولذا تأخَّر في دراسته، ولكنَّه سوف يتخرَّج من كلِّيَّة الهندسة الزراعيَّة خلال عامَيْن. كان يدرس نهارًا، ويعمل في الليل نادلًا بأحد المطاعم. بينما تعمل هي موظَّفة لدى شركة الاتِّصالات القوميَّة.

ـ لا أستطيع الذهاب إلى هناك بثياب رجل، طبعًا. ـ أردفَت ضاحكة.

أطلعَتنا على صورتَيْن لوالدَيْها، التُقِطَت كلتاهما في ساحة القرية، وصورة لأخيها بزيِّ الجنديّ المُستجَدّ، يظهر فيها فتًى أمرد، لا يوجد أدنى شَبَهٍ بينه وبين الساحر المُسلِّي ذي الشارب الذي رأيناه في الحفل.

بعد أعوام طوال، عندما تقدَّم بها العمر، أخبرَتني جوزِفين تايلور بأنَّها وتيريسا قد وثَّقَتا الصداقة التي نشأت بينهما في مساء ذلك اليوم، تلك الصداقة التي بدَّلَت حياتها. لم تكُن لها تجارب جنسيَّة سوى الاغتصاب والتعدّيات التي جرَّعها إيَّاها ذلك العسكريّ البريطانيّ وهي في طور المراهقة، فترك في جسد جوزِفين وذاكرتها أثرًا غائرًا، وأورثَتها نفورًا دفينًا من الحميميَّة الجسديَّة بصورها كافَّة. بل إنَّ فكرة المتعة الجنسيَّة بدَت لها عصيَّةً على التصوُّر، وربَّما لهذا السبب لم تدرِ كيف تُفسِّر اهتمام خوسِّيه أنطونيو. مع تيريسا، اكتشفَت الحبّ. وشيئًا فشيئًا، تمكَّنَت من صقل رغباتها الحسِّيَّة التي لم تشتبه في وجودها. كانت براءتها غير معهودة، في عمر الحادية والثلاثين.

أمَّا تيريسا، فكانت تزهو بتجربة كلّ ما تجد في طريقها، من دون أن تلقي بالًا إلى الآداب والقواعد التي يفرضها الآخرون. سخرَت من القانون والدِّين على حدٍّ سواء. وأفضَت إلى چوزِفين بأنَّها خاضَت علاقاتٍ غراميَّةً مع رجالٍ ونساء، وبأنَّها تعتبر الوفاء قيدًا عبثيًا.

ـ أؤمن بالحبِّ الحرّ. فلا تحاولي شدّ وثاقي. ـ حذَّرَتها بعد أسابيع، وهي تداعبها عاريةً على الأريكة.

قبلَت ميس تايلور، وفي صدرها غصَّة، فلم يُخيَّل إليها أنَّها لن تجد سببًا للغيرة أبدًا، طوال العلاقة طويلة الأمد التي جمعَتهما، لأنَّ تيريسا كانت هي أكثر العاشقات وفاءً وإخلاصًا.

في مطلع سبتمبر من عام 1929، شهدَت بورصة الولايات المتَّحدة هبوطًا يدعو إلى القلق. وفي أكتوبر، انحدرَت إلى هوَّة الكارثة المطبقة. طبقًا لحسابات أبي، ما دام أقوى اقتصادٍ في العالَم قد انهار، فلسوف تحلّ تداعيات ذلك الانهيار بسائر البلدان كالكارثة، ولن يُستثنَى منها بلدنا. كانت مسألة وقت، وربَّما أيَّام قليلة، قبل أن ينهار الصرح الاقتصاديّ الذي شيَّده أبي، ويُفلس كما أفلس كثيرٌ من الأثرياء في أميركا الشماليَّة. ماذا يكون من أمر تجارته، وصفقة بيع البيت التي كاد يُبرمها، والبناء الذي استثمر فيه كثيرًا؟ بهدف المضاربة في البورصة، رهن والدي ممتلكاته، وطلب قروضًا بالرِّبا، وأقحم نفسه في عمليَّاتٍ غير مشروعة أرغمَته على الاحتفاظ بحساباتٍ مزدوجة، واحدة رسميَّة، وأخرى سرِّيَّة، لم يشارك فيها أحدًا سوى خوسّيه أنطونيو.

شعر أرسينيو دِل بايّيه بالفزع، وكأنّه لهبٌ يتوهّج في دخيلة نفسه، وبردٌ قارسٌ يثلّج بشرته، وغمٌّ يمنعه من البقاء ساكنًا لحظةً واحدة والتفكير بوضوح. تهدَّجت أنفاسه، وتفصَّد عرقه. مضى يُحصي عدد الأشخاص الذين يعتمدون عليه، لا أفراد عائلته فحسب، وإنَّما الخدم وموظَّفي المكتب وعمَّال مشغل الخشب وعمَّال الكروم في الشمال، هناك حيث بدأ يُحقِّق حلمه بتقطير براندي فاخر يمكنه منافسة شراب البيسكو البيروانيّ. سوف يجدون أنفسهم في الشارع جميعًا. لم يساعده أيٌّ من أبنائه في تجارته، باستثناء خوسِّيه أنطونيو. بل إنَّ الأربعة الباقين كانوا يستغلُّون الرخاء الذي وفَّره من أجلهم، من دون أن يتساءل أحدهم كم تكلَّف ذلك! في يأس، مضى يفكِّر كيف يحميني أنا وزوجته ونسيبتَيْه، كيف ينجو من الإفلاس ومذلَّة الفشل، كيف يواجه المجتمع والدائنين وأمِّي.

لم يكُن وحده في تلك الحالة، بل إنَّ الخوف الذي شلَّ أطرافه قد خيَّم على أعضاء نادي أونيون، وراح يتضخَّم لحظةً بلحظة، بينما تنتقل عدواه من فردٍ إلى آخر. في الصالونات المفروشة على الطراز الإنجليزيّ، بلونَيْها الأخضر والأحمر القاني، وبما حوَت من رسومٍ تصوِّر رحلات صيْد الثعالب التي لم تحدث في بلدنا يومًا، وقطَع أثاثٍ أصليَّة من طراز تشيبينديل، كان سادة الطبقة الراقية يتابعون الأخبار عاجزين عن التصديق، وهم الذين قضى العرف بامتلاكهم السلطة الاقتصاديَّة، فألفوا أمان الامتيازات التي تمتَّعوا بها، مع أنَّ السلطة السياسيَّة لم تستقرّ بين أيديهم طوال الوقت. حتى ذلك الوقت، لم يمسسهم بضررٍ أيُّ

من الكوارث التي يكثر وقوعها على هذه الأرض الحافلة بالزلازل والفيضانات والجفاف والفقر والسخط الأبديّ.

مضى النُدُل مُسرعين يقدِّمون المشروبات الروحيَّة ويُمرِّرون صحون المحارّ الطازج، وسيقان سرطان البحر، والسمَّان المُملَّح، والفطائر المقليَّة، في حين بلغ الجزع من الشدَّة حدًّا لم يسمح لأحدٍ بالجلوس إلى المائدة. وفجأةً، كان يعلو صوتٌ متفائل، دافعًا بالحجَّة القائلة بأنَّ البلد قادرٌ على تجنُّب العاصفة الآتية، ما دامت أسعار معادن بعيْنها مُستقِرَّة، فلا يلبث الوهم أن ينسحق تحت وطأة الجَلَبة التي يُحدِثها الباقون. إنَّما الأرقام واقعٌ لا مفرّ منه.

كما توقَّع والدي، بغصَّةٍ في معدته، أدرك العالَم أنَّ سوق الأوراق الماليَّة العالميَّة قد انهار يومَ الثلاثاء الأخير من شهر أكتوبر. أوصد والدي باب المكتبة، وشرع يتحرَّى الموقف بدقَّةٍ مع خوسِّيه أنطونيو، مُدرِكًا أنَّ الذهول الذي أصابه يمنعه من اتِّخاذ إجراءٍ يحميه من الكارثة. بات يرتاب في كلِّ شيء، ولا سيَّما في نفسه. لقد خذلَته الأشياء التي قامَت عليها مكانته الاجتماعيَّة: مَلَكة ربح النقود التي جُبِل عليها، والبصر الثاقب الذي يتيح له الكشف عن أفضل الفرص التي لا يراها سواه، وحاسَّة الشمّ الخليقة بالكلاب التي تُحذِّره بالمشكلات في الوقت المناسب وتسمح له بحلِّها، وكاريزما البائع الجائل التي يبرع في الاحتيال بها على الآخرين حتى ليبدو وكأنَّه يُسدي إليهم صنيعًا، والخفَّة المثيرة للغيرة التي يراوغ بها الأزمات. ولكنَّ شيئًا لم يُعِدّه لمواجهة الهوَّة التي تنشقّ تحت قدمَيْه. لم يجد أبي عزاءً في

وقوف كثيرين سواه على حافَّة الهاوية نفسها. خطر على باله أنَّ ابنه قد يُسدي إليه المشورة، بكلِّ ما له من اتِّزانٍ وعقلانيَّة.

ـ آسف يا بابا، أعتقد بأنَّنا قد خسرنا كلّ شيء. ـ أخبره خوسِّيه أنطونيو بعد مراجعة دفاتر الحسابات للمرَّة الثانية، الرسميَّة منها والاحتياليَّة.

أوضح له أخي أنَّ الأسهم لم تعُد لها أدنى قيمة، وأنَّه مدينٌ بالنقود لأعدادٍ غفيرةٍ من الدائنين، وأنَّه من الأفضل لهما الإحجام عن التفكير في احتمال القبض على أبيه بتهمة التهرُّب الضريبيّ. لم يكُن أمامه طريقةٌ واحدة لسداد الديون، ولكنَّ أحدًا لن يتمكّن من الوفاء بديونه في ظلِّ الوضع الراهن. بل سيُضطَرّ الدائنون إلى الانتظار، بينما ينتزع البنك ملكيَّة مشغل الخشب، وكروم الشمال، ومشروعات الإنشاء، وحتى بيتنا، لعدم سداد القروض. وعلامَ يعيشون؟ لا بدَّ من ترشيد الإنفاق إلى الحدّ الأدنى.

ـ إذن، فلا بدَّ لنا من الهبوط إلى مستوى أدنى... ـ غمغم أبي بصوتٍ خافت.

لم يسبق أن خطر على باله ذلك الاحتمال قطّ.

كاد الانهيار الماليّ الذي شهده باقي أنحاء العالَم يصيب بلدنا بالشلل. لم نعرف آنذاك، ولكنَّ أمَّتنا ستكون هي الأشدّ تأثُّرًا بالأزمة، لأنَّ الصادرات التي عاش عليها البلد قد انهارت. كانت العائلات الثريَّة تذهب إلى المزارع التي تملكها، حيث تجد الغذاء على الأقلّ، تلك العائلات التي ما زالت تملك السبل اللازمة لهجر المدينة، على الرَّغم من خسائرها الفادحة. أمَّا

البقيَّة الباقية من الشعب، فأحسَّت ضربةَ الفقر بلا هوادة.

وبينما راحت الشركات تُشهر إفلاسها، ارتفعَت أعداد العاطلين. فما لبث أن عاد زمن قدور الطعام المُشترَكة، قدور الفقراء التي يُوزَّع منها على الآلاف والآلاف من الجيَّاع المُصطفِّين للحصول على صحنٍ من الحساء المائع. كانت جموع الرجال تهيم بحثًا عن العمل، بينما يستجدي الأطفال والنساء. لم يعُد أحدٌ يتوقَّف لإسعاف الشحَّاذين المتساقطين على الأرصفة. كما اندلعَت أعمال العنف بين اليائسين في كلِّ مكان. وارتفع مُعدَّل الجريمة في المدينة بشدَّة، حتى لم يعُد أحدٌ يشعر بالأمان في الشوارع.

كانت الحكومة بين يدَي الجنرال، الذي نفى الرئيس السابق وبات يمارس السلطة بيدٍ من حديد. قيل إنَّ أعداءه السياسيِّين غارقون في مياه المرفأ، ويمكن لأيِّ شخصٍ التحقُّق من الأمر لو غاص في المياه بالقدْر الكافي، لأنَّ الهياكلَ العظميَّة التي جرَّدَتها الأسماك من اللحم ما زالت هناك، وقد شُدَّت كواحلها إلى كُتَل من الإسمنت. وبرغم القمع الذي مارس به الحكم، مضى الجنرال يفقد سلطته دقيقةً بدقيقة، إذ لاحقته الاحتجاجات الشعبيَّة الحاشدة، فقابلها جهاز الشرطة الجديد بالرصاص، الجهاز الذي أُنشِئ بالأساليب العسكريَّة البروسيَّة. بدَت العاصمة مدينةً في حالة حرب. في حين أعلن الطلَّاب إضرابهم، ومعهم الأساتذة والأطبَّاء والمهندسون والمحامون، ونقاباتٌ أخرى، إذ اتَّحدَت جميعًا في صيحةٍ واحدة، مطالبةً بتنحِّي الرئيس. أمَّا الجنرال، الذي اتَّخذ مكتبه خندقًا، فلم يقتنع بأنَّ حظَّه قد انقلب بين عشيَّةٍ

وضحاها، وظلَّ يكرِّر أنَّ الشرطة تؤدِّي واجبها، وأنَّ ضحايا الرصاص يستحقُّون مصيرهم جزاءً لهم على خرق القانون، وأنَّ هذا بلدٌ من الجاحدين، وأنَّ حكمه قد شهد انضباطًا ونهضة، وأنَّه لا يحمل ذنب الكارثة العالميَّة، فماذا يريدون منه فوق ذلك!

في اليوم التالي، خرج خوسِّيه أنطونيو ومعه أشقَّائي الأربعة الآخرون للمشاركة في الأحداث الصاخبة، لا عن قناعةٍ سياسيَّة، وإنَّما للتنفيس عن الشعور بالإحباط، ومواكبة الركب، علمًا أنَّ أصدقاءهم ومعارفهم قد شاركوا أيضًا. في الشوارع، اختلط مُوظَّفون بالقبّعات وربطات العنق، وعمَّالٌ بلا أقمصة، وفقراء بالأسمال البالية، كلّهم على حدٍّ سواء. لم تسبق رؤية حشدٍ كهذا قطّ، يسير المشاركون فيه جنبًا إلى جنب، مختلفٌ عن مواكب العائلات البائسة في أسوأ عصور البطالة، تلك المواكب التي كانت الطبقتان المُتوسِّطة والراقية تراقبانها من الشرفات. أمَّا خوسِّيه أنطونيو، الذي دَرَج على التحكُّم في المشاعر، وعلى الحياة المُنظَّمة، فعاش تجربةً مُحرِّرة. ولساعاتٍ، شعر بالانتماء إلى جماعة. شقَّ عليه التعرُّف بذاته في الشخص الساخط الذي تحوَّل إليه، ذلك الذي راح يستفزّ صفًّا محكمًا من رجال شرطة مُسلَّحين ردُّوا على الاستفزاز بالعصيّ والرصاص المنطلق في الهواء.

وفي ما هو على تلك الحال، رأى چوزِفين تايلور في أحد الأركان، رآها ثائرةً كباقي أفراد الحشد، وقد تشبَّثتُ أنا بيدها، مذعورةً. وإذا بالنشوة تخبو في لحظةٍ واحدة. كان لا يزال محتفظًا بالعلبة الصغيرة التي حوَت الخاتم المُرصَّع بالعقيق

والماس في جيبه، الخاتم الذي رفضَته چوزِفين برقَّةٍ حين طلب منها الزواج على ركبتَيْه، على الطريقة القديمة.

ـ لن أتزوَّج ما حييت يا خوسِّيه أنطونيو، ولكنِّي سأحبُّك صديقًا صدوقًا إلى الأبد. ـ قالت، وظلَّت تعامله بالألفة نفسها، كما في سابق عهدها، وكأنَّها لم تسمع الاعتراف الذي أدلى به إليها.

ولكنَّ العلاقة الحميمة الودود التي جمعَتهما منذ تعرُّف أحدهما بالآخر كانت تبعث في خوسِّيه أنطونيو الأمل بأن تُبدِّل چوزِفين رأيها مع الوقت. ظلَّ الخاتم في حوزته ما يربو على ثلاثين عامًا.

قلَّت النساء وسط المتظاهرين، حيث كان الناظر يخلط بين ميس تايلور وبين الرجال، بسروالها وسترتها وقبّعتها البلشفيَّة. مضَت برفقة امرأةٍ أخرى، ترتدي ثياب الرجال هي الأخرى، لم يسبق لخوسِّيه أنطونيو أن رآها قطّ. كما لم تسبق له رؤية ميس تايلور بتلك الثياب، لأنَّها كانت نموذجًا للأنوثة التقليديَّة في دور المُربِّية الذي لعبَته. أمسك بذراعها، وبياقة معطفي، ومضى يقتادنا إلى أحد الأبنية، بعيدًا عن الشرطة، وهو يكاد يرغمنا على السَّيْر.

ـ ربَّما تعرَّضتما للدهس أو الرصاص! ماذا أنتِ فاعلة هنا يا چوزِفين؟ وبرفقة ڤيوليتا أيضًا! ـ وبَّخها، وهو لا يُدرك أيّ شيءٍ قد يهمّ تلك الآنسة الأيرلنديَّة من أمر الشرطة المحلِّيَّة.

ـ أحرقُ بعض الطاقة، كما تفعل أنت أيضًا. ـ ضحكَت بصوتها الذي بُحَّ من فرط الصياح.

لم يجد خوسّيه أنطونيو مُتّسعًا من الوقت لسؤالها عن السبب الذي دفعها إلى التنكُّر كما فعلَت، إذ قاطعَته مرافقةُ ميس تايلور في تلك اللحظة، وقدَّمَت نفسها قائلةً: «تيريسا ريباس، نسويَّة، في خدمتك». لم يكُن على درايةٍ بذلك المصطلح، فحسبها تقول «شيوعيَّة» أو «أناركيَّة»، ولكنَّ اللحظة لم تكُن مواتيةً للإيضاح، إذ تعالَت هتافات النصر فجأةً، وبدأ أفراد الحشد يقفزون ويطوِّحون بقبّعاتهم في الهواء ويتسلَّقون أسطح السيَّارات رافعين الرايات، هاتفين بصوتٍ واحد: «سقط!»، «سقط!».

وقد كان. فلمَّا أدرك الجنرال في النهاية أنَّه فقد السيطرة على البلد تمامًا، وأنَّ زملاءه في الشرطة والجيش، اللذَيْن شكَّلهما بنفسه، لا يطيعون أوامره، هجر القصر الرئاسيّ، ثم ولَّى هاربًا إلى الخارج مع أسرته، بقطار المنفى، القطار الذي لن يلبث أن يعود على متنه الرئيس السابق المعزول. في تلك الليلة، كرَّرَت ميس تايلور أنَّنا سنكون أفضل حالًا في ظلِّ نظامٍ ملكيّ، الأمر الذي وافقها عليه أبي تمام الموافقة. استمرَّت الاحتفالات الشعبيَّة في الشوارع لبضع ساعات، ولكنَّ ذلك النصر السياسيّ سريع الزوال لم يخفِّف مطلقًا من الفقر واليأس اللذَيْن غرق فيهما البلد.

5

خلال العام الأوّل من الكساد العالَمي، ظلّ أبي يقاوم، وإن لاحقه كلٌّ من البنوك والدائنين، بينما كانت مصادره الأخيرة في سبيلها إلى النفاد. طوال تلك المدَّة، أفلح في تجنُّب الغرق الحاسم مستعينًا بحيلةٍ هرميَّة نسخها من عمليَّات احتيالٍ مشابهة اعتُبِرَت غير مشروعة في أمكنةٍ أخرى، وإنْ لم تكُن قد عُرِفَت بعدُ في بلدنا. عرف أنَّه حلٌّ قصيرُ المدى. أخفق الحلّ، فهوى إلى القاع أخيرًا. عند ذاك، أدرك أنَّه ليس هناك من يلوذ به، وهو الذي ناصب العداء كثيرين طوال مسيرته الجامحة، سعيًا وراء المزيد والمزيد من الأرباح. احتال على عددٍ من معارفه بخطَّة الاستثمار الهرميَّة. أضفْ إليهم آخرين شاركوه في مشاريع انتهَت بالفشل، فلم يفسِّر لهم السبب الذي جعلهم يخسرون كلّ شيء، في حين خرج هو بلا أيِّ خسائر. حتى إخوته لم يستطِع أن ينتظر منهم العوْن، وهم الذين لجأوا إليه مع بدء الأزمة طالبين قروضًا

ماليَّةً عجز كلّ العجز عن توفيرها. اعترف لهم بإفلاسه، فلم يصدِّقوه، وافترقوا عنه غاضبين، زِدْ على ذلك أنَّهم لم ينسوا الطريقة التي اغتصب إرث العائلة بها. أحجم عن التردُّد إلى نادي أونيون لعجزه عن دفع الاشتراك، ولأنَّ كبرياءه لم تسمح له بأن يقبل إعفاءه من السداد بصفةٍ مُوقَّتة، كما أُعفِيت الغالبيَّة العظمى من أعضاء النادي الذين كانوا في الوضع نفسه. تمادى في التسلُّق، وأفرط في المخاطرة، فكان سقوطه مُدوِّيًا.

وحده خوسِّيه أنطونيو كان على درايةٍ بالحقيقة كاملةً. أمَّا باقي الأبناء، الذين انقطع مصروفهم الشهريّ المعتاد، فتفرَّقوا في بيوت أبناء العمومة والأصدقاء، في محاولةٍ للبقاء على هامش الفضيحة التي طالت الأب. في حين اضطُرَّت نساء العائلة إلى خفض المصاريف وصرف جميع الخدم تقريبًا، وإن لم يعرفن بمدى جدِّيَّة الكارثة حتى ما بعد الرصاصة. لم يحاولن التحقُّق من الأمر، فلا دخل لهنَّ فيه، كغيره كثيرٌ من الأمور، لأنَّها مشكلةٌ من مشكلات الرجال.

أمَّا الحماسة التي كانت هي المُحرِّك الأساسيّ لحياة أبي في الماضي، فلقد تبدَّدَت. وصار يتحمَّل هموم النهار بشرب الجِين، ويصارع أرق الليل بقطرة زوجته الإعجازيَّة. كان يفيق صباحًا والضباب يلفّ رأسه، بركبتَيْن خائرتَيْن، فيتنشَّق المسحوق الأبيض، ثم يرتدي ثيابه بمشقَّة، ويتسلَّل إلى المكتب، مُتجنِّبًا أسئلة أمِّي، حيث لم يكُن لديه ما يفعله عدا الترقُّب ريثما تمرّ الساعات ويتفاقم اليأس. بالكحول والكوكايين والأفيون، باشر أبي عمله جزئيًّا، وإن سبَّبَت له تلك الموادّ حموضةً منعَته من

الأكل. هزل، وأحاطت الهالاتُ السود بعينَيْه، ومال لون بشرته إلى الصفرة، وانحنَت قامته. في أشهرٍ قليلة، هرم أبي قرونًا من الزمان، فلم ينتبه إلى حالته سواي. كنتُ أتبعه في أرجاء البيت، بهدوء القطط، وأخرق حظر الدخول إلى المكتبة، وأجلس عند قدمَيْه، بينما هو خاملٌ على مقعده الجلديّ، شاخصٌ إلى الجدار.

ـ بابا، هل أنت مريض؟ لماذا أنت حزين؟ ـ كنتُ أسأله، وأنا لا أترقَّب جوابًا.

صار أبي شبحًا.

بعد سقوط الحكومة بيومَيْن، تلقَّى أرسينيو دِل بايّيه رصاصة الرحمة عندما تناهى إلى علمه أنَّه سوف يُطرَد من بيت الكاميليا الكبير، حيث وُلِد هو وجميع أبنائه. بات أمامه أسبوعٌ واحدٌ لإخلاء البيت. أضف إلى ذلك صدور أمرٍ بالقبض عليه بتهمة النصب والتهرُّب من دفع الضرائب، الشيء الذي كان يخشاه ابنه خوسّيه أنطونيو منذ أمدٍ بعيد.

لم يسمع أحدٌ دويّ الرصاصة في البيت الكبير ذي الحجرات الكثيرة، هناك حيث سادت الأصوات الآتية من المواسير، والأخشاب اليابسة، والفئران المختبئة في الجدران، وحركة ساكني البيت المعهودة. عثرنا على أبي صبيحةَ اليوم التالي، حين دلفتُ إلى المكتبة أحمل إليه فنجان القهوة، كما صرتُ أفعل في كثيرٍ من الأحيان، منذ أن صُرِفَت الخادمات. كانت الستائر المخمليَّة الثقيلة مُسدَلة، فلم يضئ الحُجرةَ إلَّا نور مصباح مكتبٍ من طراز تيفاني يُحيط به إطارٌ من الزجاج المُلوَّن. كانت حُجرةً

فسيحة، ذات سقفٍ مرتفع، بما حوَت من أرفف الكتب ونسخ اللوحات الكلاسيكيَّة المرسومة بالزيت، تلك التي نسخها رسَّامٌ أوروغوانيّ بدقَّةٍ بالغة، إلى الحدّ الذي قد يخدع مشتريًا خبيرًا، كما فعل أبي في مناسبتَيْن. والآن لم تبقَ هناك سوى لوحةٍ هائلة تصوِّر يهوديت بعد أن ذبحَت هولوفرنيس الذي استقرَّ رأسه المبتور على صينيَّة. كما اختفَت الأبسطة الفارسيَّة، والأريكتان الباروكيَّتان، والمزهريَّتان العملاقتان المصنوعتان من الخزف المُزيَّن بالنقوش الصينيَّة، وفراء الدبّ، وغالب التحف. وإذا بتلك القاعة تغدو مساحةً عارية، تطفو على صفحتها قطَعُ الأثاث الثلاث أو الأربع المُتبقِّية، بعد أن كانت أفخر قاعات البيت.

أغشى عينَيَّ ضوء الصباح الساطع في رواق الباحة، فوقفتُ مكاني بضعَ ثوانٍ حتى يألف بصري غبش المكتب، وعند ذاك، رأيتُ أبي مُستنِدًا بظهره إلى المقعد خلف مكتبه. خلتُه نائمًا، ولذا فضَّلتُ أن أتركه يستريح، ولكنَّ سكون الهواء ورائحة البارود الطفيفة استرعيا انتباهي.

أطلق أبي على صدغه رصاصةً من المسدَّس الإنجليزيّ الذي اشتراه في زمن الجائحة. فاستقرَّت في دماغه بدقَّة، مع أنَّها لم تُحدِث تلفًا شديدًا في باقي أجزاء رأسه، إن هو إلَّا ثقبٌ أسود بحجم العملة المعدنيَّة، وخيطٌ دقيق من الدماء التي سالت من الجرح على نقوش الكشمير التي زيَّنَت روب التدخين وارِد الهند، ومن هناك إلى البساط الذي تشرَّب البقعة. جمدتُ إلى جواره دهرًا. راقبتُه والفنجان يرتعش في يدي، بينما رحتُ أناديه همسًا، «بابا»، «بابا». ما زلتُ أذكر بوضوحٍ تامٍّ ذلك الشعور بالخواء

والهدوء المُروّع الذي استحوذ عليّ، واستمرَّ إلى ما بعد الجنازة بوقتٍ طويل. أخيرًا، وضعتُ الفنجان على المكتب، ثم ذهبتُ إلى ميس تايلور في صمت.

لقد حُفِر ذلك المشهد في ذاكرتي بدقَّة الصور الفوتوغرافيَّة، وكثيرًا ما تبدَّى في أحلامي. في الخمسين من العمر، خضعتُ للعلاج شهورًا على يدَي طبيبٍ نفسيٍّ جعلني أحلِّل ذلك المشهد إلى حدِّ الغثيان. وعلى الرَّغم من ذلك، لم تتحرَّك في نفسي المشاعر الخليقة بابنةٍ تقف أمام أبيها الذي لقي مصرعه بعيارٍ ناريٍّ، لا الآن ولا في حينه. لم أشعر بالرعب ولا بالحزن، لم أشعر بشيء. يمكنني إيضاح ما رأيت، الخواء والهدوء اللذَيْن وصفتُهما، ولكنْ لا أكثر من ذلك.

أفاق البيت بأسره على المأساة بعد مضيِّ أربعين دقيقة، حالما نظَّف خوسِّيه أنطونيو وميس تايلور الدماء، وسترا جرح أبي بقلنسوة النوم التي كان يعتمرها شتاءً. بذلا جهدًا يستحقّ الثناء، جعل في مقدورنا التظاهر بأنَّه قد مات بالسكتة القلبيَّة تحت وطأة الضغوط. لم يُصدِّق أحد، لا في إطار العائلة، ولا خارجه، ولكنَّ التشكيك في النسخة الرسميَّة ممَّا جرى كان ليبدو ضربًا من الفظاظة، تلك النسخة التي أكَّدها الطبيب حتى يعفينا من المشكلات، ويسمح لنا بدفن أبي في المقابر الكاثوليكيَّة بدلًا من مقابر البلديَّة، حيث تنتهي الحال بالمُشرَّدين والأجانب من أصحاب الديانات الأخرى. لم يكُن أوَّل السادة الأثرياء المفلسين الذين أنهوا حياتهم في تلك الحقبة، ولا آخرهم.

شعرَت أمِّي بأنَّ انتحار زوجها عملٌ جبان: إذ هجرها معدمةً

وسط كارثةٍ هو السبب فيها. أمَّا اللامبالاة التي أضمرَتها له طوال السنوات الأخيرة، التي ما عادا يشتركان خلالها حتى في الحُجرة، فاستحالت شعورًا بالاحتقار والغضب. كانت تلك الخيانة أفدح كثيرًا من الخيانات الزوجيَّة التي ارتكبها، وتأكَّدَتْ منها بنفسها، غير أنَّها لم تلقِ إليها أدنى بال. إذ جرَّعها أبي المذلَّة بما فعل، ووصم العائلة بوصمة عارٍ لا تنمحي. لم يسعها التظاهر بحزن الترمُّل ولا ارتداء ثياب الحِداد، على الرَّغم من علمها بأنَّ آل دِل بايّيه لن يغفروا لها ذلك. أُقيمَت الجنازة على عجل، فلم يُخطَر سوى الأبناء، نظرًا إلى ضرورة إخلاء البيت. وفي اليوم التالي، نُشِر النعي في الصحيفة اليوميَّة، بعد أن فات أوان تشييع الفقيد إلى المقابر. خلَت الجنازة من التأبين وأكاليل الأزهار، وقلّ فيها المُعزُّون. أمَّا أنا، فمُنِعتُ من حضور مراسم الدفن، لأنَّني أُصِبتُ بالحُمَّى بعد العثور على جثمان أبي في المكتبة، بل ويُقال إنَّني سكتُّ عن الكلام طوال أيَّام، فمكثَت ميس تايلور معي. وهكذا رحل أبي، أرسينيو دِل بايّيه، ذلك الرجل ذو السطوة الذي كان يطيعه أبناؤه وزوجته، ويهابه الكثيرون، رحل بلا مجد، كالشحَّاذ.

استقرَّت العائلة على الإمساك عن ذكره إلَّا في حالات الضرورة القصوى، لتجنُّب الحاجة إلى تقديم التفسيرات. ولقد نجحَت في ذلك إلى الحدِّ الذي جعلني لا أعلم شيئًا عن الإفلاس وعمليَّات الاحتيال التي ارتكبها أبي وأفضَت به إلى الانتحار إلَّا بعد مضيّ سبعةٍ وخمسين عامًا، حين عزمتَ أنت على كشف أسرار العائلة عن طريق النبش في الماضي، وأنتَ في طور

المراهقة يا كاميلو. لبعض الوقت، ارتبتُ. فلم أدرِ إن كنتُ قد رأيت تلك الفجوة في صدغ أبي فعلًا، مدفوعةً إلى ذلك الارتياب بالصمت الذي غلّف موته. ولقد تكرّر ذكر السكتة القلبيَّة حتى كدت أصدِّقه. سرعان ما أدركتُ أنَّها مسألةٌ محظورة، وعشتُ الحِداد الذي تخلَّلته الكوابيس المُتكرِّرة، وإن لم أبالغ في إبداء التأثُّر بفضل السيطرة على الذات التي لقَّنتني ميس تايلور إيَّاها. أحجمتُ عن طرح الأسئلة، وإلَّا كان يتجمَّد الهواء المحيط بأمِّي والخالتَيْن.

جمع خوسِّيه أنطونيو إخوتي وأمِّي وباقي نساء العائلة، ومعهم ميس تايلور. ومن دون لفٍّ أو دوران، أوضح لهم الكارثة الماليَّة التي ثبت أنَّها أسوأ من المُتوقَّع كثيرًا. بينما تركوني في الخارج، اعتقادًا منهم بأنَّني أصغر من أن أتفهَّم الأمر، وبأنَّني مُتألِّمةٌ لانتحار أبي. صرفوا الخادمتَيْن الوحيدتَيْن الباقيتَيْن في البيت، وقد تملَّكهم شعورٌ بالأسى، لأنَّهم عرفوهما منذ الأزل. في ذلك البيت الموحش، حتى الكلبان فارقا الحياة، وحتى القطط اختفت. أمَّا باقي الخدم والسائق والبستانيُّون فلقد رحلوا منذ شهور، في حين مكث أبولونيو تورو، لأنَّنا كُنَّا عائلته الوحيدة. لم يتلقَّ أجرًا قطّ، بل إنَّه عمل مقابل السقف والطعام والثياب والإكراميَّات التي كان يحصل عليها بين الحين والآخر.

أمَّا إخوتي، الذين كبروا، فلقد ابتعدوا للنجاة بأنفسهم من الخزْي الاجتماعيّ. سرعان ما وجد كلٌّ منهم عملًا، واستقلّ بنفسه تمامًا. لو أنَّنا حظينا بروح العائلة ذات مرَّة، فلقد خسرناها صبيحة اليوم الذي عثرنا فيه على والدي بالمكتبة. جمعَتني بهم

صلةٌ واهية في الطفولة، وقلَّما أُتيحَت لنا فرص اللقاء في وقتٍ لاحقٍ من الحياة. وهكذا، انتهَت بالنسبة إليَّ عشيرةُ دِل بايّيه الكبيرة وأنا في الحادية عشرة من العمر، تلك العشيرة التي لم تعرفها أنت يا كاميلو. وحده خوسّيه أنطونيو لم يهجرنا، لا أنا ولا أمّي ولا الخالتَيْن. إذ تولّى دور الأخ الأكبر، مُتصدّيًا للفضيحة والديون، وتحمَّل على عاتقه مسؤوليَّة العناية بنساء العائلة.

وضع خوسّيه أنطونيو مُخطَّطًا لم يناقش فيه أحدًا سوى ميس تايلور، إذ أدرك أنَّ والدتي والخالتَيْن لا يملكن الإسهام بشيء، وهنَّ اللاتي لم يُضطرَرن إلى اتّخاذ قراراتٍ مهمَّةٍ قطّ. خطر لِميس تايلور حلٌّ عمليّ، وإن شقَّ على خوسّيه أنطونيو التسليم بأنَّه الحلّ الأوفر حظًّا من المنطق، ذلك أنَّه عاش في دائرةٍ مغلقة، في محيط عشيرةٍ يحمي أفرادها بعضهم بعضًا، لئلّا يبقى فردٌ منهم أعزل. في حين وُلِدَت ميس تايلور فقيرة، وامتلكَت القدرة على التفكير خارج القيود المفروضة على خوسّيه أنطونيو. أوضحَت له أنَّ الأسلوب الفاتر البارد الذي قابلَتهم به العائلة يُعَدّ حُكْمًا بالنبذ. لقد لَطَّخ أرسينيو دِل بايّيه اسم العائلة. وها نحن، أبناءه، ندفع ثمن العواقب، ونغدو من المنبوذين.

بالمجوهرات القليلة ومجموعة التماثيل العاجيَّة التي لم يفلح أبي في بيعها أو رهنها، استطاع خوسّيه أنطونيو الحصول على شيءٍ من النقود ليأخذنا بعيدًا. كان يجب علينا البدء من جديد، حيث يمكننا العيش على الحدّ الأدنى حتى يصلح خوسّيه أنطونيو من وضعه. لقد طالته الفضيحة هو أيضًا، لا بسبب القرابة

فحسب، بل لأنَّه عمل مع أبيه جنبًا إلى جنبٍ منذ المراهقة، كما أوحى مظهره بأنَّه قد تورَّط على نحوٍ مباشرٍ في تجارة أبيه. لم يصدِّق أحدٌ بأنَّ شقيقي كثيرًا ما سعى إلى تحذير أبي من أخطار ذلك الأسلوب الذي اتَّبعه، وبأنَّ والدي لم يطلب رأيه أو يعمل بمشورته أو يمنحه سلطةً قطّ. لن يوظِّفه أحدٌ محاميًا ما لم يغسل اسمه. زِدْ على ذلك أنَّه لن يجد عملًا في مجالاتٍ أخرى في ظلِّ الكساد الاقتصاديّ العظيم الذي هزَّ العالَم كما عرفناه. ولذا، بات مقترح ميس تايلور هو المخرج الأَصْوَب.

ثبت أنَّ مُربِّيتي تملك رباطة جأشٍ غير معهودة في مواجهة الأوقات العصيبة. آمَنَتْ إيمانًا راسخًا بأنَّها قد نالَت حصَّتها من الشقاء الذي مُنيَت به في هذه الحياة. فالمستقبل لن يأتي بما هو أسوأ من طفولتها البائسة، ودار أيتام الراهبات في أيرلندا، وانحلال سيِّدها الأوَّل. رأت خوسِّيه أنطونيو يائسًا بعد جنازة أبيه، فخطر لها أنَّ الابتعاد عن الأجواء المعهودة أفضل كثيرًا، لفترةٍ من الزمن على الأقلّ.

ـ لا نريد من أحدٍ شرًّا ولا شفقةً. ـ قالت له، وقد ضمَّت نفسها لآل دِل بايّيه بعفويَّة، وأردفَت قائلة إنَّ بمقدورهم الاعتماد على مُدَّخراتها، أي رزمة الجنيهات الإسترلينيَّة التي ردَّتها لها أمّي، فاحتفظَت بها ميس تايلور في ثيابها الداخليَّة.

كانت تعرف تحديدًا إلى أين يمكنهم الذهاب، قالت له. ولقد خطَّطَت لكلِّ شيء. للمرَّة الألف، تقدَّم خوسِّيه أنطونيو للزواج منها، فكرَّرَت عليه أنَّها لن تفعل أبدًا، كعهدها في كلِّ مرَّة، ولكنَّها لم تخبره بالمُبرِّر الوحيد الذي يمكن أن يفهمه: لم

تخبره بأنّها قد تزوَّجت من تيريسا ريباس زواجًا روحيًّا.

تركَنا القطارُ في ناويل، المحطَّة الأخيرة، من حيث كان المسافرُ إلى الجنوب يستقلّ العربات، ويمتطي الخيل، ثم يسافر بحرًا، لأنَّ تلك المنطقة مُقسَّمةٌ إلى جزرٍ وقنواتٍ ومضائقَ تفضي إلى الأنهار المُثلَّجة الزرقاء. لم تُرَ نفسٌ واحدة على الرصيف الموحش، إن هي إلّا منصَّةٌ خشبيَّة، ونصف سقفٍ من المعدن المُموَّج، ولافتةٌ حالَ لونها بفعل الطقس، ورد فيها اسم البلدة. سافرنا ساعاتٍ طوالًا على المقاعد الصلبة، مُحمَّلين بسلَّة البيض المسلوق والدجاج البارد والخبز والتفّاح. قرب نهاية الطريق، لم يبقَ في عربة القطار سوانا. أمّا باقي المسافرين، فقد ترجّلوا عن القطار في القرى السابقة.

حملنا ما استطعنا وضعه في عددٍ من الصناديق والحقائب: بما في ذلك ثيابٌ ووسائدُ وملاءاتٌ وألحفة وأدوات زينةٍ وأغراضٌ ذات أهمّيّةٍ عاطفيّة. بينما شحنّا في عربة البضائع: آلة الخياطة وساعة الجدَّة ذات البندول، ومكتب أمّي المصنوع على طراز الملكة آنّا، وأجزاء دائرة المعارف البريطانيَّة، وآنيَّة المطبخ، وثلاثة مصابيح، وتماثيل صغيرة من اليشم اعتبرَتها أمّي ضروريَّةً في حياتنا لسببٍ غامض، تلك التماثيل التي أمكن اختلاسها قبل أن يجرِّد الدائنون محتويات البيت ويستحوذوا على كلِّ شيء. كما أُنقِذ البيانو ونُقِل إلى حُجرةٍ خاويةٍ في البيت الذي تسكنه تيريسا ريباس. ولأنَّ ميس تايلور هي الوحيدة القادرة على عزف البيانو، إلى حدٍّ ما، فلقد أهداها خوسِّيه أنطونيو إيّاه. وفي صندوقٍ آخر، أُودِعَت صيدليَّة الخالة پيا، وأدوات الخالة پيلار، وعبوات

الأطعمة المحفوظة، ولحوم الخنزير المُدخَّنة، والأجبان المُعتَّقة، وقوارير المشروبات الروحيَّة، وغير ذلك من أطايب الطعام التي جاؤوا بها من خزانة المؤن، ولم يرغبوا في التخلِّي عنها.

ـ كفى! لسنا ذاهبين إلى جزيرةٍ مهجورة! ـ قاطعهم خوسِّيه أنطونيو إذ رآهم يفكِّرون في السفر مُحمَّلين بالدجاج الحيّ.

ـ هنا تنتهي الحضارة. إنَّ هذه المنطقة للهنود. ـ قال لنا السائق، ونحن نترقَّب ريثما يُنزِل توريتو وخوسِّيه أنطونيو الأمتعة في محطَّة ناويل.

لم يسهم ذلك مطلقًا في تهدئة أمِّي والخالتَيْن، المرهقات من السفر، الخائفات من المستقبل، وإنْ رفع معنويَّاتنا، أنا وميس تايلور. ربَّما كان ذلك المكان الضائع أجدر بالاهتمام ممَّا توقَّعنا.

تحت السقيفة، جلسنا على الحقائب نتَّقي الرذاذ وننعش أجسادنا بالشاي الساخن الذي قدَّمه لنا موظَّفو السكك الحديديَّة، رجال المنطقة المُتجهِّمون الصامتون، على الرَّغم من حسن ضيافتهم. وعند ذاك، ظهرَت عربةٌ يجرّها بغلان، قائدها رجلٌ يعتمر قبَّعةً ذات حافَّةٍ عريضة، ويلتحف بغطاءٍ أسود ثقيل. قدَّم نفسه باسم آبيل ريباس، وشدَّ على يد خوسِّيه أنطونيو، كما ألقى التحيَّة على النساء رافعًا قبَّعته، أمَّا أنا فطبع قبلتَيْن على وجنتَيّ. كان مُتوسِّط القامة، لا يبدو عمره واضحًا، له بشرةٌ لفحها العراء، وشعرٌ رماديٌّ خشن، ويدان كبيرتان مُشوَّهتان بفعل التهاب المفاصل، ونظَّارةٌ عدستاها مستديرتان وإطارها معدنيّ.

ـ أبلغَتني ابنتي تيريسا بقدومكم على متن القطار. ـ قال، ثم

أردف أنَّه سوف يأخذنا إلى السكن ـ وفي وقتٍ لاحق، أعود لإحضار الأمتعة. لا أستطيع زيادة أحمال البغلَيْن إلى هذا الحدّ. لا تقلقوا، فلن يسرق أحدٌ شيئًا منكم هنا.

طالَت مسيرة العربة البطيئة دهرًا، عَبْر الطريق الموحلة التي أغرقها المطر، فأدركنا كم يبعد المكان الذي وصلنا إليه! مضى خوسِّيه أنطونيو جالسًا على مقعد الحوذيّ بجوار آبيل ريباس. في حين ساندَت بيلار أمّي التي أصابتها نوبةُ سعالٍ أخرى، وجعلَتها تنكمش على نفسها، كتلك النوبات التي صارت تتكرَّر وتمتدّ أكثر فأكثر. راحت الخالة بيا تبتهل في صمت، بينما اتَّخذتُ لي مجلسًا على لوحٍ بين ميس تايلور وتوريتو، ورحتُ أمعن النظر إلى المساحات الخضراء، وأترقَّب ظهور الهنود الذين أخبرنا السائق بشأنهم، إذ تخيَّلتُهم كأفراد قبائل الأپاتشي المُتوحِّشين الذين رأيتُهم في فيلمٍ لم يسبق لي أن شاهدت سواه، ذلك الفيلم المُربِك الصامت من أفلام الغرب الأميركيّ.

كانت ناويل مُؤلَّفة من شارعٍ قصيرٍ يقوم على جانبَيْه عددٌ من البيوت الخشبيَّة المتهالكة نوعًا ما، فضلًا عن منشأةٍ صغيرةٍ أُقفِلَت أبوابها في تلك الساعة. بناءٌ وحيدٌ من الآجرّ مُتعدِّد الاستخدامات، حسبما قال آبيل: فهو مكتب البريد، والقاعة حيث يجتمع السكَّان للبتّ في شؤون المجتمع وإقامة الاحتفالات، والمصلَّى الذي يبتهل فيه المُصلُّون متى حضر الكاهن. استلقَت قطعان الكلاب ذات الشعر الأشعث تحت أطناف البيوت للوقاية من المطر، وطفقَت تنبح بلا حماسةٍ على البغلَيْن اللذين مضيا تاركَيْن القرية خلفهما، وتابعا المسير نصف

كيلومترٍ آخر. توغَّلا في دربٍ تحفّه الأشجار التي عرَّاها الشتاء، ثم توقَّفا أمام بيتٍ يشبه سائر بيوت القرية، مع أنَّه أكثر اتِّساعًا. خرجَت لاستقبالنا امرأةٌ، تحتمي من المطر بمظلَّةٍ كبيرةٍ سوداء. ساعدَتنا على الترجُّل عن العربة، وعانقَتنا مُرحِّبةً، وكأنَّها تعرفنا منذ الأزل. كانت تلك هي لوسيندا، زوجة آبيل وأمّ تيريسا ريباس. المرأة ضئيلة القامة التي لا تكفّ عن الحراك أبدًا، كثيرة الأوامر، صاحبة الحنان الغامر، التي لا تميِّز بين الأقرباء والغرباء، بين البشر والحيوانات. كانت على مشارف الستِّين آنذاك، طبقًا لحساباتي، العمر الذي لم يظهر إلَّا على شعرها الأبيض وتجاعيد بشرتها، لأنَّها كانت رشيقةً سريعةً كالفتاة، بعكس زوجها المُتروِّي، الصموت في بعض الأحيان.

وهكذا، بدأ الطور الثاني من حياتي، ذلك الذي أطلقَت عليه عائلتي «المنفى»، بألف ولام التعريف، الحقبة التي كانت عندي حافلةً بالاكتشافات. أمضيتُ الأعوام التسعة التالية جنوبيّ البلد، في ذلك الإقليم الذي يكاد يخلو من السكّان، الذي بات اليوم وجهةً سياحيَّة، تلك المنطقة الحافلة بالغابات الباردة، والبراكين التي تكسوها الثلوج، وبحيرات الزمرّد، والأنهار الدفَّاقة، حيث يمكن لأيِّ شخصٍ أن يملأ سلَّةً بأسماك التروت والسلمون والطربوت في ساعةٍ واحدة، مستعينًا بلا شيءٍ سوى الحبل والخطّاف. كانت السماوات تقدّم عرضًا يتجدَّد أبدًا: سيمفونيَّةٌ من الألوان، سحبٌ سريعةٌ تحملها الريح، أسرابٌ من الإوزّ البرِّيّ، بل ولمحاتٌ من طائر الكندور أو النسر في طيرانه المهيب، بين الحين والآخر. كان الليل ينسدل فجأةً كوشاحٍ أسود

مُطرَّزٍ بملايين الأنوار، تعلَّمتُ كيف أميِّزها بالأسماء الكلاسيكيَّة والأسماء التي يطلقها عليها السكّان الأصليُّون أيضًا.

كان آبيل ولوسيندا ريباس هما المُعلِّمَيْن الوحيدَيْن في محيط كيلومتراتٍ كثيرة. حكَت تيريسا لِميس تايلور أنَّ والدَيْها قد تقاعدا منذ سنوات، وتركا البلدة التي اشتغلا فيها بالتدريس دائمًا حتى ينتقلا إلى حيث كانت الحاجة إليهما أشدّ وطأةً. رجعا إلى المزرعة المملوكة لعائلة آبيل، التي بقيَت في عناية برونو، شقيقه الأصغر. كانت مزرعة سانتا كلارا ملكيَّةً صغيرة، تكفي لمدِّ العائلة بالمؤن، ومقايضة بعض منتجات الأرض أو بيعها في القرى المجاورة، من قبيل العسل والأجبان واللحوم المُقدَّدة. ولكنْ شتَّان بين سانتا كلارا والمزارع الضخمة النموذجيَّة التي يملكها المهاجرون الألمان والفرنسيُّون! فضلًا عن البيت الأساسيّ، اشتملَت المزرعة على بنائَيْن كلاهما بدائيّ، وحُجرةٍ لتدخين الأطعمة، وسقيفةٍ تحجب المغطس المعدنيّ المُخصَّص للحمَّام الأسبوعيّ، وموقدِ خبز، ومعدَّاتٍ، وحظيرةِ خنازير، وإسطبلٍ يُحتفَظ فيه بالخيل والأبقار والبغلَيْن.

كان برونو رجلَ أرضٍ، في الخمسين من العمر، مجتهدًا، قويَّ البدن والقلب ـ حسبما قيل عنه ـ أصغر من شقيقه بكثير. فقد برونو زوجته وجنينها في أثناء الولادة التي انتهَت نهايةً وخيمة، ثم لم يُعرَف له حبٌّ سواها. خيَّمَت عليه الجدِّيَّة والسكوت، وإنْ ظلَّ ودودًا، على أهبَّةٍ لتقديم العون دائمًا، وإعارة الآخرين أدواته أو بغلَيْه، وإهداء البيض أو الحليب الفائض عن حاجته.

التحقَت فاكوندا بالعمل في بيته منذ أعوام، وهي شابَّةٌ من السكَّان الأصليِّين، ذات قسماتٍ مُعبِّرة، وظهرٍ عريض، وقوَّةٍ تليق بعامل شحن. كان لها زوجٌ في مكانٍ ما، وابنان تربِّيهما الجدَّة، لم ترَهما إلَّا قليلًا. برعَت فاكوندا في صناعة الخبز والفطائر والكعك. عاشت حياتها في الغناء، والهيام بحبّ السيِّد برونو، على حدِّ قولها، ذلك الذي كانت توبِّخه وتُدلِّله كالأمّ، مع أنَّها في عمر ابنته.

شغل آبيل ولوسيندا واحدًا من البيوت الصغيرة التي تبعد أمتارًا قليلة عن البيت الأصليّ. ولقد انتفع برونو برفقة شقيقه وزوجته ومساعدتهما. فلطالما كان العمل المطلوب كثيرًا، حتى ليبدو اليوم قصيرًا، مهما بدأوا في العمل مُبكِّرًا.

خلال الصيف والربيع، الفصلَيْن الأشدّ ازدحامًا بالعمل، كان برونو يُكلِّف اثنيْن من العمَّال بمساعدته، لأنَّ لوسيندا وآبيل يغتنمان الطقس الحسن لتعليم التلاميذ، فيتنقَّلان على ظهور الخيل والبغال، ويقطعان مسافةً شاسعة مُحمَّلَيْن بصناديق الدفاتر والأقلام الرصاص التي يشتريانها من مالهما الخاصّ، لأنَّ الحكومة هجرَت تلك المناطق الريفيَّة النائية. كان التعليم الأساسيّ ابتداءً من عمر الرابعة إجباريًّا. وعلى الرَّغم من ذلك، صعُب نشره في جميع المناطق، نظرًا إلى نقص الطرق والموارد والمُعلِّمين المُستعدِّين للاستقرار في تلك الأنحاء.

كان الزوجان ريباس يصلان إلى ضيعةٍ، فيعلنان عن وصولهما بجلاجل الأبقار التي يستدعيان بها الأطفال، ويمكثان بضعة أيَّامٍ هناك، حيث يلقيان الدروس من مطلع الفجر حتى

يتلاشى الضياء، ويوثِّقان صداقتهما بالجيران الذين يستقبلونهما كملاكَيْن أرسلَتهما السماء. لم يمكنهم دفع أتعاب المُعلِّمَيْن، برغم إصرارهم على مكافأتهما بشيءٍ ممَّا يملكون، مهما يكُن من شيء: لحومٌ مُجفَّفة، أو جلود أرانب، أو صنادل، أو أنسجة منزليَّة. كانا ينامان حيث يُوفَّر لهما المأوى، ثم ينطلقان إلى الوجهة التالية بعد تكليف التلاميذ بواجباتٍ تكفي لعدَّة أسابيع، مع تنبيهٍ بعقد امتحانٍ لدى عودتهما، وهكذا يمكن للتلاميذ الحصول على شهادة المرحلة الابتدائيَّة ذات يوم. راودهما حلمٌ بامتلاك مكانٍ خاصٍّ بهما لتعليم الأطفال وإطعامهم وجبةً ساخنة يوميًّا، الوجبة الساخنة التي قد لا يتناول بعضهم غيرها طوال اليوم، ولكنَّه مشروعٌ لا يمكن تحقيقه، نظرًا إلى عجز الطلَّاب عن التنقُّل عدَّة كيلومتراتٍ على الأقدام وصولًا إلى المدرسة. ولذا بات من الضروريِّ أن تذهب المدرسة إليهم.

ـ أخي برونو يرتِّب البيت الآخر من أجلكم. لم يشغله أحدٌ منذ سنوات، ولكنَّه سيكون في أفضل حال. ـ قال لنا آبيل.

تحلَّقنا حول الموقد، روح البيت، وأخذنا نحتسي المتَّة، تلك العشبة الخضراء المريرة التقليديَّة في الجنوب، مرفقةً بالخبز الحارّ والقشدة وحلوى السفرجل التي جاءتنا بها فاكوندا. في ساعة المغيب، حضر برونو لإلقاء التحيَّة، ثم تبعه الجيران، الذين أقبلوا تاركين الأوشحة الغارقة في ماء المطر والأحذية التي علق بها الوحل عند الباب، مُسلِّمين على استحياء، واضعين هداياهم فوق الطاولة: عبوة مربَّى، أو دهن خنزير، أو جبن ماعزٍ مُغلَّفٍ بالقماش. جعلوا يتفرَّسون فينا بفضول. ومن يدري رأيهم في

الزوّار الآتين من العاصمة! أولئك الزوّار، بأياديهم البيضاء، وطريقتهم المختلفة في الكلام، ومعاطفهم الخفيفة التي لا جدوى منها تحت دفقةٍ من المطر الغزير. وحده توريتو بدا من البشر، بيدَيْه الكبيرتَيْن الخشنتَيْن من فرط العمل، وجسده العملاق الذي ينحني به لئلّا يصطدم رأسه في دعائم السقف، وابتسامة الرجل الطيِّب الأبديَّة المرتسمة على وجهه.

أقبل الليل، فانسحب الجيران واحدًا تلو الآخر.

ـ إلى اللقاء غدًا. سوف تحمل إليكم فاكوندا خبزًا طازجًا على الفطور. ـ أخبرَتنا لوسيندا وهي ترتدي عباءة البونتشو.

وعند ذاك، عرفنا أنَّ آبيل ولوسيندا ريباس سوف ينامان في مكانٍ آخر ليتركا لنا بيتهما.

ـ لبضعة أيَّامٍ وحسب. قريبًا يُجهَّز بيتكم. نعمل على إصلاح السقف، ولا بدّ من تركيب الموقد. ـ أوضح لنا آبيل.

أمضينا الأيّام الأولى في زيارة الجيران بناويل والضياع القريبة حتى نقدِّم أنفسنا ونردّ لهم التحيَّة. كان الصواب يقضي بردّ الهدايا التي تلقّيناها منهم بمثلها، فالمرء لا يأتي زائرًا بيدَيْن خاويتَيْن في هذا البلد، القاعدة التي تُطبَّق بصرامةٍ في الأقاليم. وهكذا، وجدَت عبوات الأطعمة التي أعدَّتها الخالتان وجهتها المناسبة، وإن لم يسعها منافسة الأطعمة الريفيَّة المحفوظة. انضمَّ خوسّيه أنطونيو وتوريتو إلى الرجال في عمليَّة ترميم البيت الذي أعطونا إيَّاه. وبعد أسبوع، نزلنا في ذلك البيت، وفرشناه بقطع أثاثٍ مُستعمَلة حصل عليها برونو من أجلنا.

في تلك الحُجرات المتواضعة المُشيَّدة بالألواح، التي كانت تئنّ في مهبّ الريح، بدا المكتب المصنوع من خشب الكرز والساعة ذات البندول كما لو كانا من المسروقات. أمَّا مصابيح تيفاني، فثبت أنَّها عديمة الجدوى في ظلّ غياب الكهرباء. لا أذكر ماذا كان من أمر التماثيل المنحوتة من اليشم، على الرَّغم من اعتقادي بأنَّها ظلَّت محفوظةً ومُغلَّفةً بالقطن إلى الأبد. استحالَت النجاةُ من دون الموقد الضخم المصنوع من الحديد الأسود، على نحو ما حذَّرونا، فهو ضروريّ لتدفئة الأجواء والطهو وتجفيف الثياب المغسولة وجمع الناس حوله. كان الموقد يُضرَم بالحطب شتاءً وصيفًا، منذ الفجر وحتى الليل. تعلَّمَت الخالتان استخدامه، وإن لم تكُن أيٌّ منهما قادرةً على إعداد فنجانٍ من الشاي إلَّا بصعوبة. أمَّا والدتي، فلم تُجرِ حتى محاولة، بل إنَّها راحت تذوي على الأريكة أو الفراش، وقد أنهكها البرد والسعال.

منذ البداية، لم يعثر على الراحة في ظلّ تلك الظروف سوانا، أنا وتوريتو. أمَّا الباقون، فتظاهروا بأنَّهم في مُخيَّم مُوقَّت، إذ شقَّ عليهم التسليم بأنَّ أعراض الحرمان والعزلة، التي لم يرغب أحدٌ في تسميتها «فقرًا»، هي واقعنا الجديد. طوال الأسابيع الأولى، عانينا من الرطوبة وكأنَّها وباءٌ عضال. في العواصف، كانت الريح تهبّ عاتيةً على الأسقف المعدنيَّة، وتُحدِث أصواتًا كأنَّها لسعات السياط. أمَّا الرذاذ اليوميّ، فكان حليمًا، لا ينتهي. حتى وإن لم يهطل المطر، كان يخيِّم الضباب. لم تبلغ الأجواء حدَّ الجفاف التامّ قطّ، إذ لم تكَد الشمس تنشر

الدفء في تلك اللحظات القصار التي كانت تشقّ فيها طريقها وسط السحاب. ما جعل إصابة أمّي بالنزلة الشعبيَّة تزداد سوءًا.

ـ إنَّه داء السلّ الذي عاد إليَّ مرَّةً أخرى. سيقتلني هذا المناخ، لن أعيش حتى الربيع. ـ قالت مُتنهِّدةً وقد تلفَّعَت بالأغطية، بينما هي تتناول الحساء.

طبقًا لما قالت الخالتان، فلقد تحسَّنَت طباعي وهدأ تمرُّدي بفضل هواء الريف. لطالما كنتُ مشغولةً في سانتا كلارا، ولديَّ ألف مهمَّة، جميعها يروقني، وهكذا مرَّت الأيَّام سريعًا، وكأنَّها تطير. تعلَّقتُ بالخال برونو، كما سمَّيتُه منذ البدء، ويمكنني الجزم بأنَّه قد بادلني الحبّ الذي شعرتُ به نحوه. اعتبرني إعادة تجسيدٍ لابنته التي قضَت في الولادة، واعتبرتُه بديلًا عن أبي الذي فقدتُه. برفقتي، عاد الرجل المبتهج المُحِبّ للّهو الذي كان في الشباب، وما زال بعض الناس يذكرونه. «لا تتعلَّق بالصغيرة إلى هذا الحدّ يا سيِّد برونو، لأنَّهم سوف يرجعون إلى المدينة ذات يوم، ويتركون قلبك مُحطَّمًا»، قالت فاكوندا مُتبرِّمة. معه، تعلَّمتُ صيد الأسماك، وصيد الأرانب بالشراك، وحلب الأبقار، وسرج الخيل، وتدخين الجبن واللحوم المُقدَّدة ولحوم الخنزير والأسماك في كوخٍ مستديرٍ مصنوعٍ من الطين، حيث تتصاعد الأبخرة من الجمر المُستخدَم في تجفيف الأطعمة باستمرار. تقبَّلَتني فاكوندا لأنَّ برونو طلب منها أن تفعل. حتى ذلك الوقت، لم يسبق لها أن تحمَّلَت أحدًا في مملكة المطبخ الخاصَّة بها. ولكنْ، في النهاية، علَّمَتني فاكوندا كيف أعجن الخبز، وكيف أعثر على البيض الذي تضعه الدجاجات في أيِّ مكان، وكيف أطهو يخنة

الشتاء، وكيف أخبز كعكة التفَّاح الشهيرة التي فرضها الألمان على المنطقة.

وأخيرًا، جاء الربيع، مُشرِقًا بضوئه على المناظر ونفوس «المنفيِّين»، كما راق لنا أن ندعو أنفسنا، ما لم يكُن آل ريباس على مقربةٍ منّا، وإلَّا بدا قولنا إهانةً لحسن الضيافة التي استقبلونا بها. امتلأ المنظر بالأزهار البرِّيَّة والفاكهة والأشجار والطيور الصاخبة. كما سمحَت لنا الشمس بخلع البوط وعباءة البونتشو، في حين جفَّت الحفر الموحلة على الدروب، وتسنَّى لنا حصدُ أولى خضروات الموسم وجمع عسل النحل. حان موعد رحيل خوسِّيه أنطونيو وجوزِفين تايلور، على نحوٍ ما وطَّن كلاهما النيَّة منذ البدء. كانا يخطِّطان للرحيل وترك باقي أفراد العائلة التي استقرَّ بها المقام مع آل ريباس، لأنَّ كليْهما عاجزٌ عن كسب قوته في الريف، وهما في حاجةٍ إلى العمل.

اتَّخذَت جوزِفين قرارها بالعودة إلى العاصمة، حيث يمكنها تدريس الإنجليزيَّة، فلطالما كان هناك أشخاصٌ مُهتَمُّون بذلك، على حدِّ قولها، وإن أحجمَت عن الاعتراف بأنَّ السبب الحقيقيّ هو رغبتها في البقاء مع تيريسا، فكلُّ لحظةٍ تمرُّ بعيدًا عنها حياةٌ ضائعة. أمَّا خوسِّيه أنطونيو، فأصبح مُضطرًّا إلى كسب ما يكفي للإنفاق على نساء العائلة، إذ لم يكُن في مقدورهنَّ الاعتماد على إحسان آل ريباس إلى أجلٍ غير مُسمًّى. حتى وإن توافر لنا المسكن والمأكل بلا مقابل، فالحاجة تدعو إلى بعض النفقات دومًا، بدءًا بأحذيتي ووصولًا إلى دواء أمِّي.

خلال فصل الشتاء، عمل أخي في الحقل مع برونو، فساعده

ما وسعه ذلك، غير أنَّه لم يأتِ إلى الدنيا لدفع المحراث أو لتقطيع الحطب. أغوَته العودة إلى العاصمة برفقة چوزِفين، فربَّما نال حبّها بالمثابرة، الأمر الذي فكَّر في تحقيقه مستقبلًا، متى انقشع ظلٌّ أرسينيو دِل بايّيه المشؤوم.

ـ خوسّيه أنطونيو، لستَ مُضطرًّا إلى دفع ثمن الآثام التي ارتكبها والدك. لو كنتُ مكانك، لذهبتُ مباشرةً إلى نادي أونيون، وطلبتُ كأسًا مزدوجةً من الويسكي، ووقفتُ أمام النَّمامين وجهًا لوجه. ـ اقترحَت عليه ميس تايلور، ولكنَّها تجهل القواعد التي يُعمَل بها في وسطنا.

لا بدَّ من الانتظار، وحده الزمن قادرٌ على أن يمحو خزي الماضي.

وفي تلك الأثناء، خلال الأشهر الماطرة، راح أخي يخطِّط. لو أمكن، سوف يستقرّ في ساكرامِنتو، عاصمة الإقليم التي لا يفصلنا عنها أكثر من ساعتَيْن على متن القطار، ومسافةٌ قصيرةٌ تُقطَع على ظهر البغل.

أخذ موظَّفُ تلغراف ناويل على عاتقه مهمَّةَ العثور على ماركو كوزانوفيتش، إذ اختفى ماركو بعدما أقفل البنك أبواب مشغل الخشب الذي قدَّمه أبي ضمانًا لواحدٍ من القروض التي حصل عليها. ولمَّا عجز أبي عن السَّداد، انتزع البنك ملكيَّة المشغل وصرف العمَّال، وأوقف إنتاج الخشب ريثما يعثر على مُشترٍ. ولكنْ مرَّ أكثر من عام، وزحف الصدأ على الآلات. طبقًا لما تحقَّق منه خوسّيه أنطونيو، فلقد استقرَّ معظم أبناء الجالية

الكرواتيَّة في الإقليم الواقع بأقصى جنوب البلد. جمعَت صلات المعرفة الشخصيَّة وروابط الزواج بين كثيرٍ من المهاجرين الآتين من الأمكنة نفسها في أوروبا الوسطى، ولذا كان الواصلون حديثًا يجدون أنفسهم بين أذرع مواطنيهم المفتوحة، ما حدا بخوسِّيه أنطونيو إلى الاعتقاد بوجود أصدقاءٍ أو عائلةٍ لماركو في تلك الأنحاء.

اتَّصل موظَّف التلغراف بالنادي النمساويّ ـ المجريّ، حيث يسجِّل أعضاء الجالية الكرواتيَّة أنفسهم. وبعد مضيّ تسعة أيَّام، تمكَّن خوسِّيه أنطونيو من التحدُّث إلى كوزانوفيتش عَبْر اللاسلكيّ. لم تجمع بينهما إلَّا معرفةٌ شخصيَّةٌ طفيفة. ومع ذلك، اكتفى كلاهما بذلك الحديث الذي قطعَته خشخشة الاتِّصال الرديء وطنينه لإرساء دعائم الصداقة التي امتدَّت طويلًا.

ـ ماركو، تعالَ إلى ساكرامِنتو، فالمستقبل هنا. ـ قال له أخي، فلم يتمنَّع الكرواتيّ.

6

في تلك الأيَّام، تأهَّب آبيل ولوسيندا لجولةٍ أخرى في ضياع المنطقة. رأى كلاهما أنَّ حصيلتي الدراسيَّة أكبر كثيرًا ممَّا يسعهما تقديمه، وأنَّ الوقت قد حان لوضع معرفتي في خدمة الآخرين. علَّماني كيف أمتطي الحصان، وأتغلَّب على الرعب الذي كانت تثيره في نفسي تلك الدواب الضخمة ذات الأنوف التي يتصاعد منها البخار. اتَّخذاني مساعدةً لهما في المدرسة الصغيرة الجائلة، وأعلنا أنَّنا «سوف نعود في أواخر الصيف».

أراد توريتو الانضمام إلى البعثة لحمايتي، خشية أن يختطفني الهنود، على حدِّ قوله. فأوضحا له أنَّ السكَّان الأصليِّين في تلك الأنحاء ينتمون إلى أعراقٍ مختلفة، باستثناء المهاجرين الأجانب القادمين لاستيطان الجنوب بإذنٍ من الحكومة. أمَّا السكَّان الأصليُّون الخالصون، فلقد طُرِدوا من هناك على عجل، عن طريق شراء أراضيهم بأسعارٍ هزليَّة، أو حملهم على السُّكر وتوقيع

المستندات التي يعجزون عن قراءتها، وإلّا، فبالقوّة، في حال أخفق الأسلوب الأوّل. منذ الاستقلال، عزمَت الحكومة على غزو أولئك «الهمج»، ثم دمجهم وإخضاعهم وتحويلهم إلى أفرادٍ مُتحضِّرين، وحملهم على اعتناق الكاثوليكيَّة قدر المستطاع، عن طريق الاحتلال والقمع العسكريّ. بدأت ممارسات قتل السكّان الأصليّين منذ القرن السادس عشر، إذ ارتكبها الغزاة الإسبان أوّلًا، ثم استمرّ فيها كلّ من تهيّأ له الإفلات بفعلته. لدى السكّان الأصليّين أسبابٌ وجيهةٌ لكراهية الغرباء بوجه العموم، وحكومة الجمهوريَّة على وجه الأخصّ، ولكنَّهم لا يختطفون الأطفال، ولا يجدر بالمرء أن يخشاهم، حسبما قال آل ريباس لتوريتو.

ـ كما يجب عليك أن تبقى لمساعدة برونو والعناية بالنساء أيضًا. فيوليتا آمنة معنا.

في الثالثة عشرة من العمر، أمضيتُ الصيف في التدريس بالضِّياع الصغيرة والأراضي الواقعة على خطّ سير آل ريباس. عانيتُ خلال الأيّام الأولى، إذ كنتُ أحسّ بألم في الردفَيْن، وأفتقد أمّي وميس تايلور والخالتَيْن. ولكنّي ما كدتُ آلف الحصان حتى لذّت لي المغامرة. مع آل ريباس، لم تكُن الشكوى مجدية، إذ لم يبدِ لي أيٌّ منهما تعاطفًا ولا مواساة. وهكذا، زالت عنّي آخر بقايا نوبات الهياج والإغماء التي كنتُ أتظاهر بها طفلةً. بفخرٍ، يسعني القول إنّ صحّتي نموذجيَّة، ومعنويّاتي مرتفعة، ولا أشعر بالخوف إلّا من أشياءَ قليلة.

تنقّلَت المدرسة الصغيرة الجائلة في غير استعجال، على وقع خطى البغل الذي حمل الأدوات المدرسيَّة وأغطية النوم والأمتعة

الشخصيَّة القليلة على ظهره. كان المسار يسمح لنا بالوصول إلى موضعٍ مأهولٍ بالسكَّان قبل أن يهبط الليل في غالب الأحوال، وإنْ نمنا في الهواء الطلق عدَّة مرَّات. ابتهلتُ إلى الأب خوان كيروغا ليحمينا من الضواري والوحوش المفترسة، برغم تأكيد آل ريباس أنَّ الأحناش غير مؤذية، وأنَّ الحيوان الخطير الوحيد بين السنُّوريَّات هو أسد الجبال، الذي لا يقترب ما دامت النار مُضرَمة.

كان آبيل مصابًا بذات الرئة، يسعل طوال الوقت، وتنقطع أنفاسه في بعض الأحيان، كمن يحتضر، وهو المُعلِّم بالفطرة، الذي يغتنم ليالينا في العراء حتى يُرينا كوكبات النجوم، ويعلِّمنا أسماء النباتات والحيوانات نهارًا. أمَّا لوسيندا، فلقد حفظَت عددًا لا نهاية له من حكايات الفولكلور والميثولوجيا التي لم أملّ سماعها. «احكي لي حكاية الثعابين التي صنعَت العالَم مرَّةً أخرى»، كنتُ أطلب منها.

قطعنا جزءًا طويلًا من المسيرة عَبْر دروبٍ ضيِّقة. وفي مناطقَ أخرى، وجدنا الشتاء قد محا آثارَ الأقدام، فلم يعُد هناك ما يشير إلى الاتِّجاه. ومع ذلك، لم يضلَّا الطريق، بل تمكَّن كلاهما من التوغُّل في الغابات بلا تردُّد، وعبور الأنهار بلا مجازفة. في مناسبةٍ واحدة، زلَّت أقدام حصاني على الأحجار، فألقى بي في الماء، ولكنَّ آبيل كان هناك، مُتأهِّبًا، فأمسك بثيابي وسحبني إلى الضفَّة الأخرى. وفي اليوم نفسه، علَّمني أوَّل درسٍ في السباحة.

كان التلاميذ مُتفرِّقين على مساحةٍ شاسعة، عرفتُها مع الوقت مثلما عرفها آبيل ولوسيندا ريباس، كما تعلَّمتُ كيف أميِّزهم

جميعًا بأسمائهم، أولئك الأطفال الذين رأيتُهم يكبرون عامًا بعد عام، ويدخلون حياة الكبار من دون المرور بشكوك المراهقة، لأنَّ المتطلّبات اليوميَّة لا تترك مساحةً للمخيّلة. علقوا في ذلك الفقر الذي كان أكرم للنفس من فقر المدينة، مع أنَّ ذلك البؤس لا يُقهَر على كلِّ حال، إذ تغدو الصبايا أمَّهاتٍ قبل أن تجد أجسادهنَّ الوقت الكافي للنضج، ويعمل الفتية في أراضي الآباء والأجداد، ما لم يتسنَّ لهم أداء الخدمة العسكريَّة التي تسمح لهم بالهرب عامَيْن.

سرعان ما فقدتُ براءتي التي حافظوا عليها في طفولتي. لم يُخفِ آل ريباس عنّي مآسي إدمان الكحول، وتعنيف النساء والأطفال، والشجارات التي تدور بالسكاكين، ووقائع الاغتصاب أو الجنس مع ذوي القربى. اختلف الواقع بشدَّة عن تلك الفكرة الرعويَّة التي كوَّناها عن الحياة في الريف لدى وصولنا. وأدركتُ أنَّ المرء لا يكاد يخدش سطح قرية ناويل المأهولة بالجيران المُرحِّبين، حتى يكتشف القبح والآفات الكامنة فيها، ولكنَّ آبيل ولوسيندا ريباس كرَّرا عليَّ أنَّه ليس شرًّا أصيلًا في البشر، بل إنَّه الجهل والبؤس. وقالا إنَّ «الكرم وإيثار الآخرين ببطنٍ ممتلئ، أيسر منه ببطنٍ خاوٍ». الأمر الذي لم أصدِّقه يومًا، لأنَّني رأيتُ الشرّ والخير في كلِّ مكان.

في بعض الضياع الصغيرة، استطعنا جمعَ دزّينةٍ من الصغار من مختلف الأعمار. ومع ذلك، فكثيرًا ما عرَّجنا على مساكنَ منعزلة، ليس فيها من الأطفال إلّا ثلاثة أو أربعة صغارٍ حفاة الأقدام. عندئذٍ، كنَّا نحاول محو أُمِّيَّة الكبار أيضًا، أولئك الذين

لم يتلقَّ أغلبهم أيّ شكلٍ من أشكال التعليم. ولكنَّ جهدنا لم يؤتِ من الثمار إلّا قليلًا، فهم ليسوا في حاجةٍ إلى التعليم، مع الأخذ في الاعتبار أنَّهم عاشوا جاهلين بالقراءة والكتابة حتى ذلك الوقت. وتلك هي الحجَّة التي ساقها توريتو عندما حاولنا إقناعه بمزايا الكتابة.

أمَّا السكَّان الأصليُّون، الفقراء المُضطهَدون من سائر الشعب، فعاشوا هنا وهناك، في أراضٍ صغيرة، بما لهم من الأكواخ والحيوانات المنزليَّة القليلة وزراعات البطاطس والذرة والخضروات. بدَت لي حياةً بائسة، حتى أوضح لي آل ريباس أنَّها طريقةٌ مختلفة من طرائق العيش، فللسكَّان الأصليّين لغتهم، وديانتهم، واقتصادهم، بل إنَّهم لا يرغبون في المادِّيّات التي نقدِّرها نحن. إنَّهم أهل الأرض الأصليُّون. أمَّا الغرباء، فمغتصبون، ولصوص، ورجالٌ بلا كلمة شرف، عدا استثناءاتٍ قليلة. في ناويل، وغيرها من القرى، اندمجوا بباقي السكَّان إلى حدٍّ ما، فصاروا يملكون بيوتًا من الخشب، ويتحدَّثون الإسبانيَّة، ويعملون في كلِّ شيءٍ متاح، ولكنَّ الغالبيَّة العظمى تعيش في مجتمعاتٍ ريفيَّةٍ مُكوَّنةٍ من عدَّة عائلات، كان آبيل ولوسيندا ريباس يزورانها كلّ عام. وهناك، قُوبِلنا بحفاوة، على الرَّغم من الاشتباه المُتوارَث في القادمين من الخارج، لأنَّ مهنة المُعلِّم اعتُبِرَت مهنةً نبيلة. ولكنَّ آبيل ولوسيندا ريباس لم يذهبا لتقديم الدروس، وإنَّما لتلقِّيها.

كان زعيم القبيلة، الشيخ ذو المظهر المتين المربَّع والقسمات الحجريَّة، يستقبلنا في بيت القبيلة المُؤلَّف من بناءٍ بدائيٍّ مُشيَّدٍ

بالدعائم الخشبيَّة، خالٍ من النوافذ، سقفه وجدرانه من القشّ. كان يحضر بزينته وقلائده الاحتفاليَّة، محاطًا بعددٍ من الفتيان ذوي الملامح الخشنة المُنذِرة، والكلاب والأطفال الذين يذرعون المكان جيئةً وذهابًا، فيقدِّم آبيل آيات الاحترام: أي التبغ والكحول، بينما أبقى أنا ولوسيندا في الخارج مع باقي النساء، حتى يُسمَح لنا بالدخول.

بعد ساعتَيْن من الشراب في صمت، في ظلِّ غياب اللغة المشتركة، كان زعيم القبيلة يُعطي الإشارة إيذانًا بدعوة المرأتَيْن، وعندئذٍ تؤدِّي لوسيندا مهمَّة المترجم، لأنَّها تعرف شيئًا من لغة السكَّان الأصليِّين، بمساعدة أحد الشباب الذين تعلَّموا الإسبانيَّة خلال الخدمة العسكريَّة، فيدور الحديث عن الخيل والحصاد والجنود المُخيِّمين في الأنحاء القريبة، وعن الحكومة التي كانت تأخذ أبناء زعماء القبائل كالرهائن، والآن تحاول إرغام الصغار على نسيان لغتهم وعاداتهم وأسلافهم وكبريائهم.

كانت الزيارة الرسميَّة تستمرّ عدَّة ساعات، بلا أدنى استعجال، فالزمن يُقاس بالمطر والحصاد والمصائب، أمَّا أنا فأقاوم الضجر من دون شكوى، بينما يأخذني الدوار مُتأثِّرةً بالدخان المُتصاعِد من النار المُتوهِّجة في تلك المساحة الخالية من التهوية، ويتملَّكني الخوف لشعوري بأنَّ الرجال يحدِّقون إليَّ بوقاحة. ثم تنتهي الزيارة أخيرًا، وأنا أتساقط من فرط الإعياء.

كانت لوسيندا، متى أقبل الليل، تأخذني إلى كوخ المداوية يايما، إلى حيث تذهب لتتعلَّم عن النباتات ولحاء الأشجار والأعشاب الطبِّيَّة التي تشاطرها المداوية إيَّاها في كلِّ مرَّة، على

زعمها بأنَّ تلك الأشياء ذات نفعٍ قليلٍ ما لم تكُن مصحوبةً بالسحر الملائم، مُشدِّدةً على قولها بتلاوة التعاويذ والضرب الإيقاعيّ على طبلٍ من الجلد المُزيَّن برسومٍ تصوِّر فصول العام، والاتِّجاهات، والسماء، والأرض، وما تحت الأرض. «ولكنَّ الطبل للناس»، كانت تقول، أي أنَّ الطبل ينتمي إلى شعبه وحسب. أمَّا الآخرون فلا يمكنهم لمسه، لأنَّهم ليسوا من الناس. كانت لوسيندا تدوِّن الدرس في دفتر، وتكتب اسم كلّ نبتةٍ بلغة السكَّان الأصليِّين، مرفقًا برسمٍ مُبسَّط للتعرُّف عليها في الطبيعة. ثم تتقاسم ملاحظاتها والخالَة پيا، التي عملَت على التوسُّع في قائمة الأدوية المنزليَّة بمُركَّباتٍ جديدة، وإن استخدمَت يدَيْها اللتيْن تداويان بهمَّة، بدلًا من الطبل السحريّ. وفي تلك الأثناء، كنتُ أستغرق في النوم أرضًا، على التراب المُملَّس، منزويةً على نفسي برفقة كلبَيْن تستشري البراغيث في جسدَيْهما.

بدَت يايما في الخمسين من العمر،على الرَّغم من زعمها بأنَّها كانت واعيةً على الدنيا حين رحل الإسبان يجرِّرون أذيال الهزيمة، ووُلِدَت الجمهوريَّة. «في الماضي، لم يكُن هنالك شيءٌ واحدٌ حسن، ثم بات الحال أسوأ»، هكذا كانت تختم حديثها. لو صحَّ قولها، لكانت تبلغ من العمر نحو مئة وعشرة أعوام، طبقًا لحسابات لوسيندا، ولكنَّ الواحد لن يجني بتفنيدها شيئًا، فكلُّ امرئٍ حرٌّ في سرد حياته كما يحلو له. ارتدَت يايما ثياب قريتها التقليديَّة التي كانت تُصنَع كاملةً على النول اليدويّ فيما مضى، غير أنَّها تبدَّلَت بتأثير المدينة. وفوق الثوب الطويل الفضفاض المصنوع من النسيج المُزيَّن بنقوش الأزهار، كانت

تلتفع بوشاحٍ أسود يشدّه مشجبٌ كبير، وتغطّي رأسها بمنديل، وترتدي الصديريّ، وتزيّن جبينها بالحليّ الفضيَّة.

عندما بلغتُ الرابعة عشرة من العمر، طلب الزعيم يدي من آبيل ريباس، لنفسه أو لأحد أبنائه، فالزواج خير وسيلةٍ لتوثيق الصداقة، على حدّ قوله، كما أهداه أفضل جياده ثمنًا للعروس. رفض آبيل عرض الزعيم برقَّة، مُتعلِّلًا بطباعي شديدة السوء، زاعمًا بأنَّني واحدةٌ من زوجاته، بينما راحت لوسيندا تترجم الرفض بصعوبة. اقترح عليه زعيم القبيلة أن يقايض بي زوجةً أخرى. ومنذ ذلك الحين، ما عدتُ أرافقهما إلى تلك المنطقة خلال الجولة، لتجنُّب الزواج قبل الأوان.

في المدرسة الصغيرة الجائلة، تأكَّدَت لي المقولة التي طالما ردَّدَتها ميس تايلور: يتعلَّم المرء بتعليم الآخرين. في أوقات الفراغ، كان يجب عليَّ تحضير الدروس تحت إشراف لوسيندا وآبيل. وهكذا، كشفتُ طلاسم الرياضيَّات أخيرًا، وتمكَّنتُ من حفظ نصوص التاريخ والجغرافيا القوميَّة، بعد أن درست على يد ميس تايلور ستَّة أعوام، فبتُّ قادرةً على تلاوة أسماء ملوك الأمبراطوريَّة البريطانيَّة وملكاتها بالترتيب الزمنيّ، وإن لم أتعلَّم عن بلدي سوى أقلّ القليل.

في واحدةٍ من زيارات خوسّيه أنطونيو الكثيرة، طُرِحَت إمكانيَّة إرسالي إلى المدرسة الملكيَّة البريطانيَّة الداخليَّة، التي أسَّسها زوجان من المُبشِّرين الإنجليز، على بعد ثلاث ساعاتٍ بالقطار. كان الاسم الرنَّان أكبر ممَّا يليق بتلك المنشأة، التي لا تزيد على بيتٍ يضمّ حُجراتٍ لاثني عشر طفلًا، وللمُبشِّرَيْن اللذَيْن

لم يكُن في المدرسة مُعلِّمون سواهما. وعلى الرَّغم من ذلك، ذاع صيتها باعتبارها أفضل مدرسة في الإقليم. كدتُ أدخل في واحدةٍ من نوبات الهياج القديمة. وأنذرتُهم بأنَّني، لو أُرسِلتُ إلى هناك، لولَّيتُ هاربة، وما عادوا لرؤيتي أبدًا.

ـ هنا أتعلَّم أكثر ممَّا أتعلَّمه في أيِّ مدرسة. ـ جزمتُ بحزم بلغ من الشدَّة حدًّا جعلهم يصدِّقونني. ولقد أكَّد الزمن صحَّةَ كلامي.

انقسمَت حياتي إلى فصلَيْن: فصلٌ ماطر، وآخر مشمس. كان الشتاء طويلًا، معتمًا، رطبًا، نهاره قصير، وليله مُثلج، غير أنَّني لم أشعر بالضجر. فبخلاف حلب الأبقار، والطهو مع فاكوندا، والاعتناء بالطيور والخنازير والتيوس، وغسل الثياب وكيّها، عشتُ حياةً اجتماعيَّةً حافلة. صارت الخالتان پيا وپيلار هما روح ناويل ونواحيها، إذ نظَّمَت كلتاهما لقاءاتٍ للعب الورق، والحياكة، والتطريز، والخياطة بالآلة ذات الدوَّاسة، والاستماع إلى الموسيقى على مُشغِّل الأسطوانات الذي يعمل بذراع التدوير، وتلاوة الصلوات التساعيَّة من أجل الحيوانات والمرضى والحزانى والحصاد والطقس الجيِّد. ولكنَّ الغَرَض الذي لم يُعلَن عنه قطّ من الصلوات التساعيَّة هو انتزاع المؤمنين من بين أيدي الرعاة الإنجيليِّين، الذين راحوا يشقُّون طريقهم في البلد رويدًا رويدًا.

بسخاء، كانت الخالتان تقدِّمان الشراب الروحيّ الذي تعدَّانه بنفسَيْهما من الكرز أو البرقوق، والذي كان من سماته الترويح عن النفس. زِدْ على ذلك استعدادهما الدائم للإنصات إلى شكاوى واعترافات النساء، اللاتي يحضرن في أوقات الراحة، أو هربًا من

الضجر. اشتهرَت الخالة پيا في محيط كيلومترات بمَلَكة العلاج بيدَيْها، وإن وُجب عليها التكتُّم كيلا تعادي يايما. لاقَت كلتا المداويتَيْن إقبالًا أكبر ممَّا يلقاه الأطبَّاء.

كنتُ أمضي ساعات الضوء في مساعدة الخال برونو في العناية بالحيوانات أو مراعي المواشي، ما لم ينهمر المطر بشدَّة، ثم أنصرف خلال المساء إلى الغزل بالنول والإبر، والدراسة، والقراءة، وتحضير الأدوية مع الخالة پيا، وإلقاء الدروس على الأطفال في ذلك المكان، وتعلُّم شفرة مورس مع موظَّف التلغراف. في الحوادث نادرة الوقوع، أو حالات الولادة، ربَّما كانت تحضر المُمرِّضة الوحيدة بالمنطقة، صاحبة الخبرة التي امتدَّت نصف قرن، وإن لم تحظَ بمنزلةٍ تضاهي مكانة يايما أو الخالة پيا، اللتين يلوذ بهما الناس في الحالات الخطيرة.

كانت ميس تايلور وتيريسا ريباس تَحْضران لتمضية أسبوعَيْن في أوجِّ الشتاء، فيتسلَّل حضورهما العفويّ بيننا طاردًا الطقس السيِّئ. لا مجانين سواهما يقضون الإجازة في أسوأ طقس بالعالَم، على حدِّ قولهما. كانت كلٌّ منهما تأتي من العاصمة بالأخبار، والمجلَّات والكتب، والموادّ المدرسيَّة من أجل آبيل ولوسيندا ريباس، والقماش والأدوات من أجل الخالة پيلار، وطلبات الجيران الصغيرة التي لم تقبلا ثمنها قطّ، والأسطوانات الجديدة. كانت المرأتان تعلِّمانا الرقصات الرائجة، فتنطلق جوقةٌ من القهقهة، وترتفع المعنويَّات التي خدَّرَتها الأمطار. حتى الخال برونو شاركنا الرقص والغناء، مفتونًا بابنة شقيقه والأيرلنديَّة معًا.

شهدَت الخالة پيلار تحوُّلًا في الريف، إذ صقلَت معرفتها

بالميكانيكا، واستبدلَت بالتنُّورةِ السروالَ والبوط، ونافسَتني على اهتمام الخال برونو، الذي وقعَت في حبِّه، حسبما زعمَت ميس تايلور. كانا في عمرٍ واحدٍ على وجه التقريب، وجمعَت بينهما قائمةٌ طويلةٌ من الاهتمامات المُشترَكة، ولذا لم تبدُ الفكرة ضربًا من الشطط.

خطر لهاتيْن المرأتَيْن الرائعتَيْن، ميس تايلور وتيريسا ريباس، أنَّ الاحتفال بعيد ميلاد توريتو واجبٌ علينا، وهو الذي لم يسبق له الاحتفال بعيد ميلاده يومًا، ولم يعرف حتى في أيِّ عامٍ وُلِد، إذ قيَّده والداي في السجلِّ المدنيّ يافعًا، ولذا فعمره المُدوَّن في شهادة الميلاد أصغر من عمره الحقيقيّ باثني عشر أو ثلاثة عشر عامًا. ولأنَّه صعب المراس، وفي غاية الوفاء، ولقبه تورو، استقرُّوا على أنَّه من برج الثور، بلا شكّ، ولذا فهو من مواليد الفترة ما بين إبريل ومايو، كما تقرَّر الاحتفال بعيد ميلاده متى اجتمعنا.

اشترى الخال برونو نصف حَمَلٍ من السوق، حتى لا يذبح النعجة الوحيدة في المزرعة، تلك التي اتَّخذها توريتو حيوانًا أليفًا. كما صنعَت فاكوندا كعكةً بحلوى الحليب. أمَّا أنا، فأعددتُ هديَّةً من أجله بمساعدة الخال برونو: إذ نحتُّ صليبًا صغيرًا من الخشب، ونقشتُ على أحد الجانبَيْن اسمه، وعلى الجانب الآخر اسمي، ثم علَّقتُه بحبلٍ من جلد الخنزير. لو كان الصليب من الذهب الخالص، لما اعتزَّ به أكثر ممَّا فعل. علَّق توريتو الصليب من عنقه، ولم ينزعه قطّ. أُخبرك بذلك يا كاميلو، لأنَّ الصليب المذكور لعب دورًا أساسيًّا بعد أعوام.

كان خوسِّيه أنطونيو، متى بلغَته أخبار زيارة ميس تايلور وتيريسا، يحاول الحضور في الوقت نفسه، ويغتنم الفرصة لطلب يد الأيرلنديَّة مُجدَّدًا، حتى لا تنقطع تلك العادة. عمل مع ماركو كوزانوفيتش، على مسافةٍ قريبةٍ نسبيًّا، يقطعها الطائر مُحلِّقًا، وإن كان شقيقي يُضطَرّ إلى النزول من الجبل عَبْر دروبٍ غادرة حتى يبلغ القطار في أوَّل الأمر، قبل أن يصبح له مكتبٌ في المدينة. كنتُ والخال برونو نذهب حتى نقلّه من المحطَّة، فنخبره بمُستجدَّات العائلة، بعيدًا عن أسماع أمِّي والخالتَيْن. شعرنا بقلقٍ مُتزايِدٍ حيال أمِّي، التي كانت تأبى مغادرة الفراش ما استمرَّت رطوبة الشتاء الثقيلة، وتلتحف بالأغطية حتى أذنَيْها، وتضمِّخ صدرها بلبخةٍ حارَّةٍ من بذور الكتَّان، مُستغرِقةً في سيلٍ دائمٍ من الصلوات.

في العام الثالث، استقرُّوا على أنَّها لن تتحمَّل شتاءً آخر، وعلى ضرورة إرسالها إلى مصحَّة الجبال، حيث سبق لها الذهاب عدَّة مرَّات. أصبح خوسِّيه أنطونيو يجني ما يكفي من النقود لإرسالها إلى هناك. ومنذ ذلك الحين، باتَت لوسيندا والخالة پيلار ترافقان المريضة بالقطار ثم بالحافلة المُتَّجهة إلى المصحَّة، هناك حيث تمضي أربعة أشهر في التعافي من ذات الرئة والشجن، ثم تعودان في الربيع لإحضارها، فترجع وقد ارتفعَت روحها المعنويَّة بالحدِّ الكافي للعيش أطول قليلًا. طالت غياباتها، ورأيتُها عاجزةً عن العيش حياةً طبيعيَّة طوال الوقت. ولذا، أصبحَت ذكريات أمِّي أقلّ دقَّة إذا قُورِنَت بذكريات غيرها من أولئك الذين كبرتُ معهم، من أمثال توريتو والخالتَيْن وميس تايلور وآل ريباس. أدين لمرض أمِّي الأبديّ بصحَّتي الجيِّدة،

فلقد عشتُ أتجاهل المتاعب الصحّيّة التي أُصبتُ بها في كبرياء، لئلّا أسير على خطاها. وهكذا، تعلّمتُ أنّها غالبًا ما تبرأ من تلقاء نفسها، ما دمتُ أقابلها غير حافلة، وأمهل الطبيعة وقتًا كافيًا.

لم أنعم بالراحة في مزرعة آل ريباس خلال فصلَي الربيع والصيف. فعلى مدى الجزء الأطول من فصل الصيف، كنتُ أرافق آبيل ولوسيندا في جولة المدرسة الصغيرة، وأمضي بعض الوقت في سانتا كلارا، حيث أساعد الآخرين ممّن يحصدون الخضروات والبقول والفاكهة، ويعدُّون الأطعمة المحفوظة في عبواتٍ محكمة الغلق، ويعدُّون الحلوى والمربّى، ويصنعون الأجبان من حليب الأبقار والماعز والنعاج، ويدخّنون اللحوم والأسماك. أضف إلى ذلك أنّه موسم ولادة صغار الحيوانات، الذي اعتبرتُه حفلًا سريع الزوال، أُطعِم خلاله صغار الحيوانات بالرضّاعة، وأُطلق عليها الأسماء، ولكنّي لا أكاد أتعلّق بها حتى تُباعَ أو تُذبَح، فأُضطَرّ إلى نسيانها.

كان الخال برونو وتوريتو، متى حان يومُ ذبح الخنزير، يتولّيان المهمّة تحت السقيفة، فيصلني صياح الحيوان الذي ينفطر له القلب مهما اختبأتُ بعيدًا، وبعد ذلك تشرع فاكوندا والخالة بيلار في إعداد نقانق اللونغانيسا والتشوريسو والخامون والسلامي، غارقتَيْن حتى مرافقهما في الدماء، تلك اللحوم التي كنتُ ألتهمها من دون إحساسٍ بالذنب. لقد عزمتُ على التحوُّل إلى النباتيّة غير مرّةٍ في حياتي، ولكنَّ إرادتي تضعف عن ذلك يا كاميلو.

هكذا، مرَّت سنوات المراهقة، أي زمن المنفى الذي أذكره باعتباره أصفى أطوار حياتي. كانت أعوامًا هادئةً مُنعَّمة، كرَّستُها إلى الأشغال البدائيَّة في الحقل، والإخلاص في التعليم برفقة آبيل ولوسيندا ريباس. أكثرتُ من القراءة، لأنَّ ميس تايلور أخذَت على عاتقها إرسال الكتب من العاصمة، تلك الكتب التي كنَّا نعقِّب عليها في مراسلاتنا، أو حين تصل هي إلى المزرعة لقضاء الإجازة. كما شاطَرْنا لوسيندا وآبيل أفكارًا وقراءاتٍ فتحَت لي آفاقًا جديدة. منذ صغري، بدا لي من الجليّ أنَّ والدتي والخالتَيْن ينتمين إلى حقبةٍ ماضية، فلا العالَم الخارجيّ يهمّهنَّ، ولا شيء يهزّ معتقداتهنَّ، غير أنَّني تعلَّمتُ احترامهنَّ.

كان بيتنا صغيرًا، ومساحة التعايش في غاية الضيق، فلطالما وجدتُ نفسي برفقة أحدهم، ولكنِّي حين بلغتُ السادسة عشرة، أهدوني كابينةً خاصَّة، ابتناها توريتو والخالة پيلار والخال برونو من أجلي في غمضة عين، على بعد أمتارٍ قليلة من البيت الرئيسيّ. أطلقتُ عليها بيت الطيور، فهكذا رأيتُها، بشكلها مُسدَّس الأضلاع، وكوَّة السقف. هناك، وجدتُ مساحةً للعزلة الضروريَّة والخصوصيَّة اللازمة للدراسة والقراءة وتحضير الدروس، والحلم بعيدًا عن ثرثرة العائلة التي لا تنقطع. ظللتُ أنام في البيت، مع أمّي والخالتَيْن، على الفراش الذي كنتُ أبسطه كلّ ليلةٍ على مقربةٍ من الموقد، ثم ألملمه في الصباح، فآخر ما أرغب فيه مواجهة أوجال الظلام وحيدةً في بيت الطيور.

مع الخال برونو، كنتُ أحتفي بمعجزة الحياة مع كلِّ فرخٍ يخرج من القشرة، وكلّ حبَّة طماطم تصل من الأرض إلى

المائدة. تعلَّمتُ معه المراقبة والإنصات بانتباه، وتحديد موقعي في الغابة، والسباحة في أنهارٍ وبحيراتٍ مُثلَّجة، وإضرام النار من دون أعواد ثقاب، والاستسلام لمتعة الغوْص بوجهي في بطِّيخةٍ غزيرة العصارة، وتقبُّل الأسى المحتوم المُتجسِّد في مفارقة الناس والحيوانات، فلا حياة من دون موت، حسبما قال.

لم تكُن لي مجموعةٌ من الأصدقاء في مثل سنِّي، ولذا كوَّنتُ صداقاتٍ مع الكبار والأطفال المحيطين بي. فلم أجد من أُقارن به نفسي، ولم أعانِ اضطراب المراهقة الشديد، فلقد انتقلتُ من موسمٍ إلى آخر، ببساطة، من دون أن أنتبه، كما تخطَّيت الأوهام الرومانسيَّة المألوفة في مثل هذا العمر، إذ لم أجد هناك مَن يُلهمني إيَّاها. وبخلاف زعيم القبيلة الذي حاول مقايضتي بجواد، لم يكُن هناك مَن يعتبرني امرأة، فأنا مُجرَّد صبيَّة، في مقام ابنة شقيق برونو ريباس.

أمَّا الطفلة العصيَّة على الاحتمال التي كنتُها، فلم يبقَ منها إلَّا القليل. وطبقًا لما قالت ميس تايلور، التي عرفَتني طفلةً تزبد من فرط الغضب وتهزّ الجدران بصرخاتها، فلقد ترك الريف والعيش مع آل ريباس في نفسي أثرًا أقوى من جميع الدروس التي يمكن أن تلقِّني إيَّاها. فلحلب الأبقار قيمةٌ تعليميَّةٌ أكبر إذا ما قورِن بحفظ قائمة الملوك الموتى، حسبما أكَّدَت. منحني العمل اليدويّ والاتِّصال بالطبيعة ما لم أكُن أحصل عليه في أيِّ مدرسة، كما تنبَّأتْ حين عرفتْ برغبتهم في إرسالي إلى المدرسة الداخليَّة، لصاحبَيْها المُبشِّرَيْن الإنجليزيَّيْن.

أرى الصورتَيْن اللتين لم تبقَ صورٌ غيرهما من تلك الحقبة،

فيتأكّد لي أنّني كنتُ جميلةً وأنا في الثامنة عشرة من العمر ـ وإلّا بات الإنكار تواضعًا زائفًا ـ غير أنّني لم أعرف ذلك في حينه، فهو شيءٌ غير ذي نفع كبيرٍ في محيط عائلتي وأهالي تلك المنطقة. لم يخبرني أحدٌ بذلك، حتى مرآة البيت الوحيدة لم أستخدمها إلّا في تصفيف شعري. كانت لي عيْنان سوداوان ـ أخطأت الطبيعة إذ حبَتني إيّاهما، لأنَّ بشرتي في غاية الشحوب، ولا تلائمني هاتان الحدقتان الزيتونيّتان ـ وخصلاتٌ جامحة من الشعر الفاحم اللامع، كنتُ أجدّلها في ضفيرةٍ خلف ظهري، وأغسلها برغوة لحاء شجرةٍ أصليّة، تشبه رغوة الصابون. أمّا يداي، بما اتّصل بهما من أصابعَ طويلة ورسغَيْن مرهفَيْن، فأسأتُ معاملتهما كثيرًا بأعمال الزراعة وغسل الثياب بالمُبيِّض. كانت يداي تليقان بغسّالة، على حدّ قول ميس تايلور، التي قالتها عن خبرة، مع الأخذ في الحسبان تجربتها في دار الأيتام الأيرلنديّة. ارتديتُ الثياب التي حاكَتها الخالتان، بالنظر إلى فائدتها العمليّة، لا الموضة الرائجة. للاستخدام اليوميّ، كنتُ أرتدي أفرول أو بدلة عملٍ من القماش الخشن، وأنتعل خفًّا من الخشب وجلد الخنزير. أمّا للخروج من البيت، فكنتُ أرتدي ثوبًا بسيطًا من القطن، له ياقةٌ من الدانتيل وأزرارٌ من الصدف.

حتى الآن، أخبرتُك بالقليل عن أبولونيو تورو، توريتو، العصيّ على النسيان، ذلك الذي يستحقّ التكريم لأنّه رافقني أعوامًا طوالًا وهو على قيد الحياة، وما زال يرافقني حتى بعد أن فارق الحياة. أعتقد بأنّه قد وُلِد وبه عددٌ من الاختلافات الوراثيّة، لأنّه لا يُشبه أحدًا. مبدئيًا، وُلِد توريتو عملاقًا في بلدنا، حيث كان

الناس قصار القامة فيما مضى. ثم لم يعودوا قصارًا، بل صارَت أجيال الشبابِ الآن أطول من أجدادهم بشبرٍ واحد. وبسبب ضخامته الهائلة، كان يتحرَّك ببطءٍ خليق بالأفيال، الأمر الذي أبرز مظهرَه الغليظ المُنذِر، ما يتنافى وطبيعته الوديعة الحقيقيَّة. كان توريتو قادرًا على خنق أسد جبال بيدَيْه العاريتَيْن، برغم إحجامه عن الدفاع عن نفسه في حال سخر منه أحدهم، كما جرى في بعض المرَّات، وكأنَّه على وعيٍ تامّ بقوَّته التي أبى استخدامها في مواجهة الآخرين. كان له جبينٌ ضيِّق، وعينان صغيرتان غائرتان، وفكٌّ بارزٌ، وفمٌ منفرجٌ نصف انفراجة طوال الوقت.

ذات مرَّة، طوَّقه بعض الصبية في السوق، على مسافةٍ حذِرة، ولاحقوه صارخين: «مُتخلِّف!»، «أبله!»، بينما هم يرشقونه بالأحجار، فتحمَّل توريتو مجروحَ الحاجب، دامي الوجه، ولم يضطرب أو يحاول الاحتماء. تجمَّعَت حلقةٌ صغيرةٌ من الفضوليِّين حوله، وعند ذاك وصل الخال برونو، الذي جاء على وقع الجَلَبة، مُتصدِّيًا للمعتدين في ثورةٍ عارمة. «لقد هاجمنا الغوريلا!»، «لا بدَّ من حبسه!»، مضوا يصيحون، غير أنَّهم تراجعوا، ثم ذهبوا أخيرًا وهم يطلقون الشتائم.

أراه جالسًا على دكَّة، لأنَّ الكراسي أصغر ممَّا يتَّسع له، بعيدًا عن الموقد، لأنَّه يضيق بالحرّ. أراه ينحت حيوانًا خشبيًّا صغيرًا بسكِّينه، من أجل الأطفال الذين يُقبلون إلى البيت منجذبين إلى كعكات فاكوندا. سرعان ما بات الأطفال يمضون في أثره إلى كلِّ مكان، وهم الذين فزعوا منه في أوَّل الأمر. كنَّا، نحن النساء، نخلد إلى النوم في البيت، بينما ينام هو تحت السقيفة

بالغطاء، ما لم يتساقط المطر، مدفوعًا بحاجته الشديدة إلى الهواء. قلنا عنه إنَّه ينام فاتحًا إحدى عينَيْه، يقظًا طوال الوقت. ولقد انتهى بي المطاف بين ذراعَيْه ألف مرَّة، بسبب الكوابيس. كان توريتو يسمع صراخي، فيسبق الجميع إليَّ، ويهدهدني كالطفلة الوليدة، ويرتِّل قائلًا: «صغيرتي نامي، واشبعي نومًا. لقد ذهب الغول، ولن يرجع يومًا».

في الريف، عثر توريتو على مكانه في هذا العالَم. أعتقد بأنَّه فهم لغة الحيوانات والنباتات. كان يمتلك القدرة على تهدئة حصانٍ هائجٍ بالهمس في سمعه، وحثِّ المزروعات بالعزف على الهارمونيكا. كان يحدس بالتقلُّبات الجوِّيَّة قبل أن تظهر العلامات التي يعرفها الخال برونو بوقتٍ طويل. وهكذا، تحوَّل في الطبيعة إلى كائنٍ مرهف، له قرون استشعارٍ يرصد بها الأجواء من حوله ومشاعر الناس، بعد أن كان عملاقًا ثقيلًا مرتبكًا في المدينة.

كان يختفي بين الحين والآخر، فنعرف أنَّه ذاهبٌ متى رأيناه قد بدَّل البوط بالنعل، وحزم الفأس والسكِّين والخنجر وصنَّارة الصيد وأدوات الشراك التي ينصبها والمؤن التي تمدُّه بها فاكوندا، التي عاملَته بالعطف نفسه، كما عاملَت الخال برونو، ذلك العطف المُستبدّ المشوب بحدَّة الطباع. كان يلفّ كلّ شيءٍ بالغطاء، ويعلِّقه بالسيور على صدره، مائلًا، ثم يودِّعنا بلا كلماتٍ كثيرة، وينطلق سائرًا، رافضًا امتطاء الدواب، إذ قال إنَّه أثقل ممَّا يحتمل ظهر الحصان أو البغل. كان يغيب طوال أسابيع، ثم يعود نحيفًا، ملتحيًا، سعيدًا، وقد اسمرَّت بشرته تحت الشمس. عندئذٍ نسأله إلى أين ذهب، فيُجيبنا بالردِّ نفسه في كلِّ مرَّة: «أتعرَّف»،

مُدلِيًا بتلك الكلمة، التي حوَت الغابات العصيَّة على الاختراق ذات الأدغال الباردة، والبراكين ذات القمم وسلاسل الجبال، والأجراف والمُدرَّجات المنحدرة على التخوم الطبيعيَّة، والأنهار الجارفة، ومساقط المياه البيضاء من كثرة ما تخلَّلها من الزبد، والأهوار المختبئة بين فجوات الصخور، كما حوَت الأدلَّاء الذين يعرفون المنطقة شبرًا شبرًا، والرعاة، والصيَّادين، والسكَّان الأصليِّين، الذين وقَّروه وأطلقوا عليه فوتشان، لضخامة جسده. وسط أولئك الناس، لم يعُد توريتو أبله القرية، وإنَّما صار هو العملاق الحكيم.

ذات سبت، والخريف في أواخره، جاء عاملٌ من مزرعةٍ قريبةٍ إلى بيت آل ريباس مُتذرِّعًا بحجَّة شراء بعض الخنازير، بعد أن رآني على أحد الطرقات. لم يُخيَّل إليَّ أنَّه قد جاء مُنجذِبًا إليَّ. أذكر لحيته غير المُهذَّبة، وصوته المُتسلِّط، ومظهره المُتغطرِس، وأذكر أنَّه حدَّثنا من على ظهر مطيَّته. كانت الخنازير صغيرة جدًّا، ولم يناسبنا بيعها آنذاك، فطلب منه الخال برونو أن يعود بعد شهرَيْن. جاذبه الآخر أطراف الحديث حينًا، فدعاه الخال برونو إلى داخل البيت حتى ينعش نفسه. قدَّمتُ لهما عَرَق التفَّاح، وهممتُ بالمغادرة، فاستوقفني الرجل بطقطقةٍ من لسانه، كما لو كنتُ كلبًا.

ـ إلى أين أنتِ ذاهبة يا حلوة؟ ـ سألني.

وإذا بالخال برونو يهبّ واقفًا، متفاجئًا أكثر منه غاضبًا، فنحن لم نعهد تلك الوقاحة. ثم أرسلني إلى أمِّي، بينما يتدبَّر حاله للتخلُّص من ذلك المجهول.

صادف موعدُ حمَّامي الأسبوعيّ مساء ذلك اليوم. تحت السقيفة، كان توريتو وفاكوندا يضرمان النار لتسخين الماء في مرجلٍ ضخم، ويسكبانه في مغطسٍ من خشب، ثم يسدل توريتو الستار الكتَّانيّ الذي اتَّخذناه بابًا، ويغادر المكان، بينما تساعدني فاكوندا على غسل شعري وفرك جسدي كاملًا، إلى أن تتركني مُتورِّدةً مشرقة. كان ذلك طقسًا طويلًا حسّيًا: الماء الدافئ، وهواء المساء البارد، وزبد لحاء الشجر على شعري، والليف الخشن على بشرتي، والعطر النظيف الآتي من أوراق النعنع والحبق التي تنقعها فاكوندا في المغطس. وبعد ذلك، كنتُ أُجفِّف بشرتي بِقُطَع من القماش، نظرًا إلى نقص المناشف، بينما تُصفِّف شعري فاكوندا. ثم أكرِّر الأمر معها هي ولوسيندا والخالتَيْن. أمَّا والدتي، فكنَّا نحمِّمها شيئًا فشيئًا، لئلَّا يصيبها البرد. في حين يغتسل الرجال بدلاء الماء البارد، أو في النهر.

ودَّعتُ فاكوندا والظلام يخيِّم، فذهبتُ إلى بيتنا بقميص نوم وصديريّ ثقيل، حتى أشارك خالتَيّ عشاءنا المعتاد المُؤلَّف من الحساء والخبز بالجبن. وإذا بي أعاود سماع طقطقة اللسان فجأةً، تلك التي أطلقها الرجل منذ ساعات. وقبل أن يسعفني الوقت لآتي بردّ فعل، ظهر أمامي.

ـ إلى أين أنتِ ذاهبة يا حلوة؟ ـ كرَّر سؤاله بنبرةٍ وقحة.

على بُعْد خطوات، وشَت رائحته بالخمر الذي احتسى. لا أدري أيُّ فكرةٍ تكوَّنَت لديه عنِّي. لعلَّه حسبني خادمة آل ريباس، أيْ شخص عديم الأهمِّيَّة يمكن استغلاله. حاولتُ الذهاب إلى البيت مسرعةً، غير أنَّه اعترض طريقي، وانقضَّ عليَّ، فجذبني من

عنقي بإحدى يدَيْه، وبالأخرى كمَّم فمي.

ـ لو صرختِ، قتلتُكِ. أحمل سكِّينًا. ـ تمتم وهو يمضغ الكلام مضغًا، ثم ضربني في بطني بركبته ضربةً جعلَتني أنثني على نفسي.

جرجرني إلى بيت الطيور، ودفع الباب بركلةٍ من قدمه، فوجدتُ نفسي في الكوخ تحت جنح الظلام المطبق. كان بيت الطيور قريبًا من البيت الرئيسيّ، ولو صرختُ لسمعني أحدهم، بَيْد أنَّ الخوف حال دوني ودون التفكير. طرحني أرضًا، ولم يفلتني من يده، فأحسستُ بمؤخِّر عنقي يرتطم بألواح الأرض الخشبيَّة. وبيده الحرّة، مضى يحاول رفع قميص النوم، ونزع الثوب الداخليّ. رحتُ أركل في وهن، بينما هو يسحقني بثقله. كمَّم فمي وجزءًا من أنفي بيده التي تصلَّب جلدها، فعجزتُ عن التنفُّس، ورحتُ أختنق. خدشتُ ذراعه في محاولة للإفلات منه، إذ شعرتُ بالحاجة إلى التقاط أنفاسي أشدّ إلحاحًا بكثيرٍ من الحاجة إلى الدفاع عن نفسي.

لا أذكر ماذا جرى بعد ذلك، ربَّما فقدتُ الوعي، أو لعلَّ الصدمة قد طمسَت ذكرى الواقعة البشعة إلى الأبد، ببساطة. ربَّما لاحظ توريتو أنَّني تأخَّرتُ في الوصول إلى البيت، فخرج باحثًا عنِّي. لا بدَّ أنَّه سمع شيئًا، لأنَّه ذهب إلى بيت الطيور في الوقت المناسب حتى يمسك الرجل بيدَيْه الكبيرتَيْن، ويزيحه من فوقي قبل أن يغتصبني، حسبما حكَت الخالتان في وقتٍ لاحق، كما أخبرتاني بأنَّ توريتو قد حمله في الهواء، ومضى به إلى مخرج سانتا كلارا، ثم ألقى به على قارعة الطريق كجوال البطاطس، مُودِّعًا إيَّاه بركلةٍ خارقة.

بعد يومَيْن، جاء رجال الشرطة لاستجواب الناس في الأنحاء المحيطة، إذ عثر بعض الصيَّادين على جثمان الرجل المدعو پاسكوال فريري، ناظر العزبة المجاورة المملوكة لآل موريار، وسط أعواد القصب النامية على ضفاف النهر، على بعد كيلومترَيْن. سهُل التعرُّف عليه، لأنَّه شخصٌ معروفٌ بالمنطقة، له أكثر من سابقة، سيِّئ السمعة، اشتهر بالسكر والعربدة. طبقًا للتفسير المعقول، سَكِر فريري، ثم غرق. غير أنَّ آثار الجروح قد وُجِدَت على عنقه، فلم يخلص رجال الشرطة إلى أيّ نتيجةٍ واضحة، بل إنَّهم أجروا التحقيق بلا أدنى حماسة، في واقع الأمر، ثم غادروا المكان بعد قليل.

من وجَّه أصابع الاتِّهام إلى توريتو؟ لن أعرف ما حييت. كما لن أعرف من هو المسؤول عن مصرع الرجل. أُلقِي القبض على توريتو خلال العطلة الأسبوعيَّة، ثم كان أن زُجَّ به في الحبس بناويل، ترقُّبًا لصدور الأمر بنقله إلى ساكرامِنتو. سرعان ما اتَّصلنا بخوسِّيه أنطونيو، الذي استقلّ أوَّل قطارٍ في اليوم التالي. وفي تلك الأثناء، ذهب أفراد آل ريباس الثلاثة للشهادة بأنَّ تورو شخصٌ مُسالِم، لم تظهر عليه بوادر العنف قطّ، كما يمكن للكثيرين سواهم أن يشهدوا، ولا سيَّما الأطفال. لم يتمكَّنوا إلَّا من الحيلولة دون نقله إلى ساكرامِنتو يومذاك. وهكذا، وجد أخي وقتًا كافيًا للحضور.

قلَّما مارس خوسِّيه أنطونيو مهنة المحاماة، ولكنَّ رجال شرطة ناويل البسطاء الذين لا يُجيدون القراءة إلَّا بمشقَّة، لم يكونوا على درايةٍ بذلك. حضر خوسِّيه أنطونيو إلى المكان، الذي

لم يعدُ أن يكون بيتًا صغيرًا يضمّ قفصًا للسجناء. جاء يعتمر القبّعة ويلفّ حول عنقه ربطة، ممسكًا بحقيبةٍ سوداء خاوية، ولكنّها مهيبة، مُتكلّمًا بنبرةٍ حانقة تليق بمَلِكٍ يشعر بأنّه قد تعرّض للإهانة. أفحمهم بمصطلحاته القانونيّة. وما كاد يبثّ الرهبة في نفوسهم، حتى ناولهم بعض الأوراق الماليّة لتعويضهم عن الإزعاج. وهكذا، أطلقوا سراح المُتّهم، مع تحذيرٍ بأنّه سوف يخضع للملاحظة. رجع توريتو إلى البيت في شاحنة الخال برونو، فدعَت الحاجة إلى مساعدته على النزول من الشاحنة، لأنّ جسده قد سُحِق ضربًا بالعصيّ.

لم يسأله أحدٌ عن شيء، لا أفراد عائلتي ولا آل ريباس. تفنّنَت فاكوندا في مواساته بخيرة مخبوزاتها، بينما تعاونَت على مداواته الخالة پيا وبايما، المتنافستان. تبوّل توريتو دمًا، لأنّه أُصيب في كليتَيْه، فضلًا عن إصابته بكسورٍ في عددٍ كبيرٍ من أضلاعه، حتى صار يتنفّس بمشقّة. لم أبرح مكاني بجواره، والشعور بالذنب يأكلني، علمًا أنّه قد أنقذني مُجازِفًا بحرّيّته، وربّما بحياته. وعلى الرّغم من ذلك، فعندما وددتُ الإعراب له عن امتناني، كرّر ما سبق أن أخبر به رجال الشرطة وهم يستجوبونه بشأن پاسكوال فريري:

ـ لم أكُن أعرف ذلك الميت.

الأمر الذي يمكن تفسيره بطرقٍ شتّى، حسبما قال خوسّيه أنطونيو.

الجزء الثاني

الشغف

(1940 - 1960)

7

في الصيف التالي، وبينما شبح پاسكوال فريري لا يزال مُخيِّمًا على أحاديثنا، ما لم يكُن توريتو حاضرًا، إذ وجب علينا إعفاؤه من ذكرى ذلك الكابوس، تعرَّفتُ بفابيان شميدت ـ إنغلر، الابن الأصغر لعائلةٍ كبيرة العدد من المهاجرين الألمان الذين جاؤوا وهم لا يملكون شيئًا، ثم باتوا من المواطنين الموسرين خلال عقدَيْن من العمل الشاقّ، والرؤية المستقبليَّة، وبفضل الأراضي والقروض التي حصلوا عليها من الحكومة. امتلك والد فابيان أفضل مصنع منتجات ألبانٍ في المنطقة، بينما أدارت أمّه وأخواته فندقًا خلّابًا على ضفاف البحيرة، على بعد أربعة كيلومتراتٍ من ناويل، الفندق الأثير لدى السائحين القادمين من الجانب الآخر من العالَم لصيد الأسماك.

في الثالثة والعشرين من العمر، كان فابيان قد انتهى من دراسة الطبِّ البيطريّ، وشرع يقدِّم خدماته لإتمام التدريب اللازم

كي يحصل على الدبلوم. حضر إلى بيت آل ريباس على صهوة الحصان، مُحمَّلًا بحقيبتَيْن من الجلد تتدلَّيان على جانبَي المطيَّة، وقد ارتدى قميصًا وسروالًا فيه ثلاثون جيبًا، يليق بالمستكشفين. جاء وقد ضمَّخ شعره بالمُلمِّع، بمظهر الرجل الأجنبيّ التائه، ذلك المظهر الذي لازمه دائمًا. وُلِد في هذا البلد، ولكنَّه بلغ من الخشونة والرسميَّة وصعوبة المراس والدقّة في المواعيد حدًّا جعله يبدو وكأنَّه قد وصل لتوِّه من مكانٍ بعيدٍ كلّ البعد.

كنتُ خارجةً من البيت بثياب الآحاد، ذاهبةً إلى محطَّة ناويل بشاحنة الخال برونو. يومذاك، جاء شقيقي من ساكرامِنتو، حيث اتَّخذ مكتبًا بالشراكة وماركو كوزانوفيتش. كان ذلك أوَّلَ صيفٍ لا أنضمّ فيه إلى جولة آبيل ولوسيندا، إذ رحتُ أستعدّ للانتقال إلى المدينة متى أقبل الخريف. رأيتُ ذلك الشابّ في ثياب علماء الجغرافيا، فخلطتُ بينه وبين الأجانب الذين حضروا إلى هناك قبل أيَّام، مُتعلِّلين بمراقبة الطيور، تلك البدعة الجديدة. لم يصدِّقهم أحد، لأنَّ فكرة البقاء ساعاتٍ في جمودٍ لمراقبة الهواء بالمنظار حتى يلمح أحدهم نسرًا أحمر الرأس ويدوِّن ذلك في المُفكِّرة، بدَت عصيَّةً على الفهم تمامًا. لعلَّهم يمسحون المنطقة لإقامة نشاطٍ تجاريٍّ من تلك الأنشطة التي لا تخطر لغير الغرينغو، كما قال الجيران.

ـ لا طيور نادرة هنا. ـ بادرتُه بالتحيَّة.

ـ أتملكون... أبقارًا؟ ـ تلعثم الواصل حديثًا.

ـ نملك بقرتَيْن، كلوتيلدي وليونور، ولكنَّهما ليستا للبيع.

ـ أنا طبيب بيطريّ. فابيان شميدت ـ إنغلر. . . ـ قال وهو يترجَّل، فسقط على قرصٍ من الروث الطازج، وغاص فيه بقدمَيْه.

ـ لا مرضى هنا.

ـ ولكنْ ربّما مرضَت الحيوانات مُستقبَلًا. ـ قال مقترحًا، وأذناه تتوهَّجان.

ـ الخال برونو والخالة ﭘيا يعالجان الحيوانات. كما نستدعي يايما في الحالات شديدة الخطورة.

ـ حسنًا، لو دعَت الحاجة، يمكنكم الوصولُ إليَّ في فندق باڤاريا.

ـ آه! أنت من آل شميدت هؤلاء، أصحاب الفندق.

ـ أجل. في الفندق تليفون.

ـ لا تليفون في هذا المكان، ولكنْ هناك واحدٌ في ناويل.

ـ بالمجّان. . . أعني، أعالج الحيوانات بالمجّان. . .

ـ ولمَ؟

ـ أنا في مرحلة التدريب.

ـ أشكّ في أن يسمح لك الخال برونو بالتدريب على كلوتيلدي أو ليونور.

ولكنَّ ذلك لم يصدّ فابيان، الذي عاد في اليوم التالي، في ساعة الشاي. فجاء يحمل كعكة كوشن بالدرّاق خُبِزَت في الفندق. بات ليلته مُعذَّبًا، والعشق المباغت يؤرّقه، حسبما عرفتُ لاحقًا. فتخلّى عن الحذر المُتوارَث، واختلس كعكة كوشن من

المطبخ، ثم قطع أربعين دقيقة على صهوة الحصان، والأمل يحدِّثه برؤيتي مرَّةً أخرى. استقبلَته عشيرة دِل بايّيه الصغيرة مجتمعةً، ومعهم الخال برونو وتوريتو. لم يرفع أحدٌ عينَيْه عن الطبيب البيطريّ الدخيل، خشية أن يكون قد وطَّن النيَّة على غوايتي. في حين قدَّمَت فاكوندا الشاي بمزاجٍ عكر.

ـ لا حاجة إلى إحضار الطعام هنا يا سيِّدي، فلدينا ما يفيض عن الحاجة. ـ غمغمَت حين رأت كعكة الكوشن.

تحلَّى فابيان بالمثابرة والانضباط اللذين صنعا ثروة عائلته. ولقد عزم على الفوز بي، فلم تكُن هناك طريقةٌ واحدة لإقناعه بالعدول عن رأيه. لم يتراجع أمام اللامبالاة التي قابلتُه بها، ولم يشعر بالرهبة أمام الارتياب المبدئيّ الواضح الذي استقبله به الخال برونو، ولا حتى التأفُّف الذي لقيه من فاكوندا. لم أنتبه إلى هذيانه العاطفيّ إلَّا بعد مضيّ وقتٍ طويل، وهكذا عاملتُه وكأنَّه قريبٌ غير جدير بالأهمِّيَّة، تجمعني به صلةٌ غير وثيقة. داوم على زيارتنا كلّ يومٍ طوال شهرَي الصيف، بتواضع المُتوسِّل. وفي جهدٍ بطوليّ، تحمَّل عددًا لا يُحصَى من فناجين الشاي، بينما راح يُطري على كعكات فاكوندا وحلواها ـ إذ لم يعاود ارتكاب خطأ الزيارة مُحمَّلًا بكعكة الكوشن ـ ومضى يُسلِّي أمّي والخالتَيْن بألعاب الورق الأبديَّة، بينما أتسلَّل أنا إلى بيت الطيور حتى أقرأ في سلام. كان محايدًا، باعثًا على الضجر، إلى الحدّ الذي جعله يفوز بثقة الآخرين من فوره.

حالما شعر بالراحة، تغلَّب فابيان على طريقته المُتردِّدة في الكلام، تلك الطريقة التي ضقتُ بها. وعلى الرَّغم من ذلك، لم

يكثر من الكلام، بل آثر الإحجام عن الإدلاء برأيه ما لم يكُن خبيرًا في المسألة، بخلاف سائر الرجال الذين عرفتُهم في حياتي. ولكنَّ تلك الرصانة، التي يمكن اعتبارها جهلًا، لم تمنعه من النجاح الباهر الذي لقيه في تلك المهنة الجديرة بالثناء، مهنة علاج الحيوانات، كما سأروي لاحقًا، لو تذكَّرت. أمَّا الخال برونو، الذي طرد شبابًا آخرين بكلِّ وقاحة، فلقد انتهَت به الحال وقد أَلِفَ رؤيته رائحًا غاديًا. ذات يوم، سمح له بحضور ولادة عجل كلوتيلدي. عند ذاك، عرفنا أنَّ الشابَّ قد نال كلّ القبول.

خفَّفَت صحبته من ضجر عائلتي، التي لم تجد سوى مواضيعَ قليلةٍ للحديث، بسبب العزلة. فلطالما تحدَّثنا عن الأمور نفسها: الريف، والجيران، والأكل، والأمراض، والأدوية. ما كانت الحياة تدبّ في جلسة السمر إلَّا بوصول ميس تايلور وتيريسا. في حين بدَت لنا الأخبار المذاعة عَبْر الراديو وكأنَّها آتيةٌ من كوكبٍ آخر، لأنَّها لا تمتّ إلينا بصلة. أسهم فابيان في الحديث بأقلّ القليل، ولكنَّ قدرته على الإنصات نجحَت في إلهام الآخرين. وهكذا، وقفتُ على بعض جوانب ماضينا التي كنتُ جاهلةً بها. فعلى سبيل المثال، حكَت له الخالتان عن الزلزال الذي ضرب البلد سنة ميلاد خوسِّيه أنطونيو، والجائحة التي استشرَت حين وُلِدتُ أنا، وغيرها من الكوارث التي تزامن وقوعها وميلاد كلّ واحدٍ من أشقَّائي الأربعة الآخرين. لا أعتقد بأنَّها علاماتٌ من القدر، كما ظنَّت الخالتان، بل إنَّ الكوارث دائمة الحدوث في هذا البلد، ولا يصعب الربط بينها وبين أيّ حدثٍ آخر في الحياة، بدءًا بالميلاد، ووصولًا إلى الموت. كما عرفتُ أنَّ جدَّتي

لأبي، نيبيا، قد لقيَت مصرعها مبتورة الرأس في حادث سيّارةٍ تقشعرّ له الأبدان، وأنَّ رأسها ضاع في أحد المراعي. وعرفتُ بأمر الخالة القادرة على مخاطبة الأرواح، والكلب الذي راح يكبر ويكبر حتى بلغ حجم الجمل.

وهكذا، ثبت أنَّ عائلة أبي أكثر أصالةً من المُتوقَّع. فندمتُ على فقدان الاتِّصال بهم. أولئك هم أسلافك يا كاميلو، وحريٌّ بك أن تعرف أكثر عنهم، فعادةً ما تُورَّث بعض السمات. لم يأتِ أحدٌ على ذكر أبي قطّ، بطبيعة الحال، ولا حتى الأسباب التي أبعدَتنا عن أولئك الأقرباء وقضَت علينا بالنفي إلى سانتا كلارا، كما امتنع الشابّ عن السؤال.

عجز فابيان عن مداراة الاضطراب الذي استبدّ بمشاعره، فانتبه إليه الجميع، إلّا أنا. رأت شقيقاته ما يجري لأصغر أفراد العائلة، فتحرَّيْن أمر آل ريباس، تلك العائلة المتواضعة، برغم الاحترام الكبير الذي حظيت به في المنطقة، وكذلك آل دِل بايّيه، أصحاب اللقب الأرستقراطيّ في العاصمة، الذين يُرجَّح انتماؤهم إلى فرعٍ ضاق به الحال من فروع العائلة، وإلّا فلا تفسير لعيشنا في مزرعة آل ريباس كما لو كنّا من الأقرباء. وفي حال بلغَتهم فضيحة أرسينيو دِل بايّيه، فهم لم يربطوا بيني وبينه. أعتقد بأنَّ عشيرة شميدت ـ إنغلر ناقشَت الوضع فيما بينها، ورأت ضرورة إلقاء نظرةٍ على تلك الفتاة التي اختارها فابيان. قبَيْل ذهابي إلى ساكرامِنتو بوقتٍ قصير، تلقَّيتُ وأمّي والخالتان دعوةً إلى الغداء في فندق باڤاريا، فأقلّنا برونو إلى هناك بشاحنته، التي بدّلها بعربة البغال العتيقة.

استقبلَتنا الفرقة النسائيَّة من آل شميدت ـ إنغلر، المُؤلَّفة من الأمِّ والشقيقات وزوجات الأشقَّاء، زِدْ عليهنَّ جمعًا من الأطفال الذين تباينَت أعمارهم، الشقر المُهندَمين مثل فابيان، بدمائهم الآريَّة النقيَّة. كان الفندق، وما زال حتى الآن، بناءً بسيطًا من خشب السكويا، أُقيم على الطراز الإسكندينافيّ، وله نوافذ هائلة، يقوم فوق ربوةٍ مشرفةٍ على البحيرة، على منظرٍ مذهلٍ يتراءى فيه البركان المُغطَّى بالثلوج الذي أشرق في تلك الساعة كالفنار في السماء الصافية. ترامَت الحدائق في مُدرَّجاتٍ تنحدر وصولًا إلى شريط الضفاف الضيِّق المُطِلّ على المياه، تلك الحدائق الزاخرة بفيضٍ من الأزهار التي تخلَّلَتها دروبٌ ضيِّقة راح يتنزَّه خلالها بعض الضيوف.

بعيدًا عن جلبة قاعة الطعام، وُضِعَت مائدةٌ طويلة في أحد المُدرَّجات، يعلوها مفرشٌ أبيض ويزيِّنها الورد الذي استقرَّ في المزهريَّات الزجاجيَّة، وسط صواني السلاطة واللحم البارد. في وقتٍ لاحق، قالت الخالتان إنَّهما لم تنعما بهذا القَدْر من الفخامة منذ انقضى عهد بيت الكاميليا الكبير، قبل أن يبدأ ذلك الطريق المشؤوم الذي أفضى بأبي إلى الخراب.

أعتقد بأنَّني تركتُ انطباعًا طيِّبًا في نفوس أولئك النساء، بضفيرتي، وثوبي الصبيانيّ، ومسلكي الخليق بآنسة، مع أنَّني لستُ من الجنس الآريّ، وبرغم فقري الذي لم أفلح في مداراته جيِّدًا. لو تزوَّجتُ من فابيان، لبرزتُ بينهم كما تبرز اللطخة، وما أسهمتُ بشيءٍ في الجانب الاقتصاديّ. لا شكَّ أنَّهم فكَّروا في الأمر، وإن سكتوا عنه، لأنَّهم أكثر تهذيبًا من ذكر هذه

الاعتراضات بصوتٍ مسموع. كان الاختلاط بأهل بلدهم بالتبنّي أمرًا لا بدَّ منه، طال الأمد أو قصر، ولكنَّ المؤسف أن يصبح ذلك من نصيب عائلتهم على وجه التحديد. ليس هذا حكمًا مسبقًا من جانبي يا كاميلو، ففي تلك الحقبة، استمرّ بعض المستوطنين الأجانب في العيش داخل حلقاتٍ مُغلَقة.

كانت هناك نصف دزّينة من الفتيات الألمانيّات الرائعات المرموقات، في عمر الزواج، أنسب لفابيان منّي. زِدْ على ذلك أنَّ عمره أصغر ممّا يسمح بالزواج، وما زال ينقصه الحصول على الدبلوم، وكسب قوته بنفسه، علمًا أنَّه رفض العمل لحساب أبيه.

ولمّا تأكَّد له أنَّ ذويه لم يرفضوني رفضًا قاطعًا، قرَّر فابيان التحرُّك قبل أن يبدِّلوا رأيهم، وأذهب أنا إلى ساكرامِنتو. فحاصرني في اليوم التالي، في سهوةٍ من الخالتَيْن، وأخبرني مُرتجِفًا بأنَّه يحتاج إلى التحدُّث معي على انفراد. مضيتُ به إلى بيت الطيور، الملاذ الذي قلَّما يدخله أحدٌ سواي، الذي استقرّ فوق بابه تنبيهٌ كُتِب على قطعةٍ من الخشب: يمنع دخول «الأشخاص من الجنسَيْن». أنار ضوء المساء الحُجرة التي ما زالت تنبعث منها رائحة خشب الصنوبر. كان الأثاث مُؤلَّفًا من لوحٍ خشبيٍّ مُرتكِز على قوائمَ من الحديد، اتَّخذتُه طاولةً، فضلًا عن أرفف الكتب، وصندوق السفر، والأريكة المتهالكة التي أشرتُ إليها وأنا أتَّخذ لنفسي مجلسًا على المقعد الوحيد.

ـ تعرفين... ما... ما... ما... سأخبرِك به، أليس كذلك؟ ـ تلعثم فابيان بصعوبة، وأخرج واحدًا من المناديل الثلاثة التي يحتفظ بها في جيوبه الكثيرة طوال الوقت.

ـ لا، وكيف لي أن أعرف؟

ـ أرجوكِ، تزوَّجيني. ـ ألقاها دفعةً واحدة، في ما يشبه الصراخ.

ـ أتزوَّج؟ ولكنِّي لا أتجاوز العشرين يا فابيان. كيف لي بالزواج؟

ـ لا يجب أن يتمَّ لنا ذلك... فورًا... يمكن... يمكن... يمكننا الانتظار... قريبًا أتخرَّج.

في أكثر من مناسبة، سخر الخال برونو والخالتان پيا وپيلار من زيارات الطبيب البيطريّ اليوميَّة، الأمر الذي كان يجب أن يلفت نظري إلى اهتمامه. لم يكُن في سانتا كلارا من يجذب انتباه ذلك الشابّ سواي. وعلى الرَّغم من ذلك، فُوجِئتُ بتصريحه. شعرتُ نحوه بالمودَّة، وإن ضقتُ بحضوره الدائم. كنتُ،إذا تأخَّر عن موعده المعتاد، أبدأ في النظر إلى الساعة ذات البندول بشيءٍ من القلق.

عندما حدَّثني عن الزواج، شعرتُ أوَّل ما شعرتُ بالتوجُّس من احتمال الانضمام إلى المستوطنة الألمانيَّة، حيث كنتُ سأجد نفسي كالبطَّة العارية من الريش وسط الإوزّ. بدا الزواج بفابيان ضربًا من الشطط، ولكنِّي رأيتُه هناك، أمامي، مُضطرِبًا، وقد جرفه سيل الحبّ الأوَّل، فلم يطاوعني قلبي في الرفض رفضًا حاسمًا.

ـ معذرة، ولكنِّي لا أملك الردّ في الوقت الحالي، يجب عليَّ التفكير في الأمر. فلننتظر لبعض الوقت، بينما تتوطَّد معرفتنا في هذه الأثناء، أيبدو لك هذا مناسبًا؟

تنشَّق فابيان دُفعةً من الهواء، بعد ما يربو على دقيقةٍ كاملةٍ قضاها مُنقطِع الأنفاس، ثم جفَّف جبينه بالمنديل، وقد بلغ من الشعور بالراحة حدًّا ترك عينَيْه دامعتَيْن. خفتُ أن يجهش بالبكاء، فاقتربتُ منه خطوتَيْن وشببتُ على أصابع قدمَيّ طابعةً قبلةً على وجنته، إلَّا أنَّه جذبني إليه بحزم، وطبع قبلةً بملء شفتَيْه على ثغري. تراجعتُ إلى الوراء، مذعورةً من ردِّ الفعل اليائس الذي بدر عن ذلك الرجل، برغم مظهره الذي وشى بأنَّه في غاية الرصانة والتأنِّي، غير أنَّه لم يفلتني، وظلَّ يقبِّلني حتى استرخيت بين ذراعَيْه، وبادلته القبل، مُستكشِفةً تلك الحميميَّة المُبتكَرة حديثًا.

من الصعب وصف المشاعر المُتضارِبة التي هزَّتني في تلك اللحظة يا كاميلو، لأنَّ لجاجة الرغبة تضيع بمضيّ الأعوام، ويغدو ذلك الصنف من الذكريات عبثيًّا، وكأنَّه أزمة نفسيَّة أصابت شخصًا آخر. أعتقد بأنَّني شعرتُ بصحوة النشاط الجنسيّ، واللذَّة، والرغبة، والفضول، ممزوجًا بالخوف من الإفراط في التورُّط، والعجز عن التراجع، غير أنَّني لم أعُد على يقين من كلِّ ما يتَّصل بالجنس. نسيتُ كيف كان الجنس.

لم أُخبر أحدًا بما جرى، وإنْ حدس به الجميع، حتى توريتو، بما له من براءة، لأنَّ الهواء صار يتبدَّل كلَّما اجتمعتُ بفابيان. صرنا نختفي عن الأنظار في بيت الطيور، مُتذرِّعيْن بأيِّ حجَّة، مدفوعيْن بريحٍ عاتيةٍ من الشوق الذي يستحيل إخفاؤه. احتدمَت المداعبات، كالمُتوقَّع، ولكنَّ أفكاره عن حدود المسموح قبل الزواج كانت راسخة، فلم يضعف لأيِّ سبب، لا

حبّه المُتَّقِد ولا إرضائي سهل المنال. على الرَّغم من المجازفة بالحَمْل، والتربية الصارمة التي نشأتُ عليها، كنتُ أتمرَّد على قداسة فابيان الزائفة، بل كنتُ على استعدادٍ لمشاركته الفراش وكلانا عارٍ لو أنَّه سمح بذلك، بدلًا من تلك المناوشات المُرهِقة التي كنَّا نخوضها وقد علقَت بنا الثياب. دعني أوضح لك يا كاميلو أنَّه، في تلك الحقبة، كان يُفترَض بالبنات من محيطي الاجتماعيّ ألّا يذهبن إلى الفراش مع أحدٍ قبل الزواج، لا العشّاق ولا غيرهم. وعلى الرَّغم من يقيني بأنَّ كثيرات قد فعلنها، لم تكُن واحدةٌ منهنَّ لتقرّ بذلك حتى لو خضعَت للتعذيب. كما لم تكُن حبوب منع الحمل قد اختُرِعَت بعد.

في تلك الأيّام التي تهيّأ لنا اللقاء خلالها، قبل ذهابي، وبينما رحنا نستكشف أحدنا الآخر في الكابينة، أو مختبئَيْن في الإسطبل أو حقل الذرة، ترسَّخ إصرار فابيان على الوقوع في حبّي أبدًا، الأمر الذي كرَّره ألف مرَّةٍ في رسائله. استيقظَت في نفسي قناعةٌ هادئة بأنَّني سوف أتزوَّج منه يومًا، لأنَّ الأمومة والزواج كانا هما المصير الطبيعيّ لكلِّ امرأة آنذاك.

ـ فابيان رجلٌ صالحٌ، ومحترم، ومجتهد، وشفّاف، تجمعه صلةٌ وثيقةٌ بعائلته، كما ينبغي، ومهنة الطبيب البيطريّ تحظى باحترامٍ كبير. ـ قالت الخالة پيلار.

ـ إنَّ ذلك الشابّ من الأوفياء الذين يُولَد الواحد منهم ليعيش حبًّا واحدًا عظيمًا. ـ أضافَت الخالة پيا، الرومانسيَّةُ حتى النخاع.

ـ بل إنّه ثقيل الظلّ، ويسهل توقُّعه كثيرًا، حتى إنَّ المرء يعرف ماذا هو فاعلٌ خلال عشرة أعوام، أو عشرين، أو خمسين!
ـ تعلَّلتُ.

ـ زوجٌ ثقيل الظلّ خيرٌ من زوجٍ كثير اللهو.

وماذا تعرف عن الحبّ والزواج هاتان العانستان؟ راقتني لعبة الجنس مع فابيان، وإنْ أورثتني شوقًا وهياجًا، مع أنَّني لم أشعر بانجذابٍ جسديٍّ أو عاطفيٍّ شديدٍ نحو ذلك الرجل فارع القوام، النحيل، المُتخشّب في جلسته، الرصين في أسلوبه، المُتزمّت في عاداته. رجَّحتُ أن يكون زوجًا ممتازًا، ولكنِّي لم أشعر بأدنى استعجالٍ على الزواج. وددتُ لو أتذوَّق شيئًا من الحرِّيَّة قبل الاستقرار على الحياة الوديعة بجواره، وتربية الأولاد في كنف الأمان المُستقِرّ الذي توفِّره عشيرته. تخيَّلتُ ذلك المستقبل كالسهل الهادئ الذي لا يمكن أن يحدث فيه شيءٌ خارجٌ عن المألوف، هناك حيث لا مفترقات، ولا ملتقيات، ولا مغامرات، إن هي إلَّا طريقٌ مستقيمةٌ حتى الموت.



8

هاجر ماركو كوزانوفيتش من كرواتيا في أواخر القرن التاسع عشر، وهو في الرابعة عشرة من العمر. جاء وحيدًا، بلا نقود، لا يحمل إلَّا اسم قريبه ـ الذي رحل منذ عشر سنواتٍ إلى أميركا الجنوبيَّة ـ مكتوبًا على قطعةٍ من الورق. لا سبقَت له رؤية الخارطة يومًا، ولا تخيَّل المسافة التي سوف يقطعها، ولا عرف الاتِّجاه الذي يجب السير فيه معرفة اليقين، ولا كان يُتقن كلمةً واحدةً باللغة الإسبانيَّة. دفع ثمن الرحلة بالعمل على متن سفينة الشحن، حيث أشفق عليه القبطان، الكرواتيّ أيضًا، واتَّخذه مُساعِدًا للطاهي. وصل إلى وجهته المنشودة، فعجز عن تحديد موقع الشخص المُدوَّن اسمه في الورقة، إذ وصل إلى البلد الخطأ، لأنَّ قريبه في بيرنامبوكو. كان قويًّا بالقياس إلى عمره، فكسب قوته بالاشتغال حمَّالًا في المرفأ، وعاملًا في المناجم، وغير ذلك من المهن، حتى انتهَت به الحال وقد صار مُشرِفًا على

العمَّال في مشغل الخشب المملوك لأرسينيو دِل باتِّيه. تحلَّى بمَلَكة القيادة، وأحبَّ الحياة الخشنة على سلاسل الجبال، هناك حيث عمل أحد عشر عامًا، حتى أُقفِلَت أبواب المشغل. وعند ذاك، تأهَّب للبدء من جديد، والاشتغال بأيِّ عملٍ آخر ما دام في الهواء الطلق، لأنَّه ليس من رجال المدينة. وهكذا، أرسلَت إليه العناية الإلٰهيَّة اتِّصالَ خوسِّيه أنطونيو.

عقد أخي شراكةً بينه وبين ماركو كوزانوفيتش، مُوثِّقًا الاتِّفاق بشدِّة اليد التي اكتفى بها كلاهما، وإن اضطُرّا إلى تسجيل العقد بمكتب الشهر العقاريّ في ساكرامِنتو، لأسبابٍ قانونيَّة. وعند توقيع المستندات، غيَّر خوسِّيه أنطونيو لقبه إلى دِلباتِّيه، في لفتةٍ رمزيَّة أراد بها قطع صلته بالماضي، ولفتةٍ عمليَّةٍ أيضًا، أراد بها التميّز عن والده.

كانت البيوت الخشبيَّة الجاهزة موجودةً بالفعل في أمكنةٍ أخرى، حسبما قرأ خوسِّيه أنطونيو في إحدى المجلَّات، ولكنَّ صُنْعَها في بلدنا لم يخطر على بال أحد، برغم الزلازل التي تضرب بين الحين والآخر، فتقلقل أساسات الحضارة، ثم تقضي الضرورة بإعادة البناء على عجل. امتلك ماركو الخبرة في الأخشاب، بينما عرف خوسِّيه أنطونيو كيف يحصل على القروض ويتولَّى الشؤون القانونيَّة والإداريَّة، إذ تعلَّم كثيرًا من تجارة أبيه، كما تعلَّم من سقوطه الأخير أيضًا.

ـ أمَّا نحن، فسنُعرَف بالأمانة. ـ قال لماركو.

في البدء، وضع رسمًا أوَّليًا يصوِّر ألواحًا خشبيَّةً ذات

قياساتٍ ثابتة، بعضها خالٍ وبعضها الآخر يحوي أبوابًا أو نوافذ، ما جعل مضاعفة الوحدات كافيةً لتوسعة البناء. وبتلك الطريقة، صار إنشاء الأبنية ممكنًا، بدءًا بالبيوت متناهية الصغر، وصولًا إلى المستشفيات. تأبّط خوسّيه أنطونيو الرسوم التخطيطيّة مُتّجهًا إلى بنك ساكرامِنتو الإقليميّ، حيث نجح في الحصول على القرض الضروريّ لتخليص المشغل الذي كان لأبيه في الماضي. وبينما هو يودّعه، طلب مدير البنك من خوسّيه أنطونيو أن يقبله شريكًا مُموِّلًا، الأمر الذي فتح لشقيقي أبواب العالَم الماليّ في المقاطعة، حيث لم يُشكِّك أحدٌ في لقب دِلبايّيه. وهكذا، بدأتْ شركة البيوت الريفيّة، التي ما زالت قائمة، وإن لم تعُد مملوكةً لعائلتي.

في العام الأوّل، خيّم خوسّيه أنطونيو برفقة ماركو في الغابات الجبليّة، وانطلقا في العمل على إعادة مشغل الخشب الميّت إلى الحياة، وتنظيم عمليّة نقل الخشب إلى مصنع الألواح المتواضع الذي أنشأه كلاهما على مشارف ساكرامِنتو. وفي العام التالي، اقتسما العمل، فتولّى ماركو الإنتاج، بينما فتح خوسّيه أنطونيو مكتبًا لبيع البيوت. تقدّم أصحاب أملاكٍ من الإقليم بالطلبات الأولى، إذ كانوا في حاجةٍ إلى مساكنَ متناهية الصغر للعمّال المُوقّتين، تلَتها وحداتٌ للأسر محدودة الدخل. لم تُسبق رؤية نشاط كهذا في تلك الأنحاء. كان يحضر اثنان من العمّال لوضع الأساسات ومدّ المواسير، فلا يكاد يجفّ الإسمنت حتى تصل شاحنةٌ مُحمّلة بالوحدات التي تُنَصَّب في أقلّ من يومَيْن، وفي اليوم الثالث يُثبّت السقف، ثم يحتفل العمّال بمناسبة الانتهاء

من المهمَّة بالشواء والكثير من النبيذ، على سبيل الهديَّة المُقدَّمة من شركة البيوت الريفيَّة، الأمر الذي حقَّق دعايةً جيِّدة للشركة.

كانت العيِّنة الأولى من البيوت الجاهزة صالحةً للاستخدام، برغم مظهرها الذي يليق بأقفاص الكلاب. بلغ البيت من البدائيَّة حدًّا يكاد يثير الشفقة، الأمر الذي أجمعنا عليه أنا وماركو وخوسِّيه أنطونيو. اقترحا تغطية السطح بالنباتات، ولكنَّ تغطية المسكن كلّه تستلزم غابةً كاملة. وفي ومضةٍ من ومضات الإلهام، خطرَت لي تغطية السطح بطبقة من الكويرون، ذلك القشّ الذي يستخدمه السكَّان الأصليُّون لتغطية أكواخهم، وبذلك نبرِّر اسم البيوت الريفيَّة، ونحجب الألواح المُموَّجة، التي أضفَت على المسكن مظهرًا شديد السوقيَّة. فلاقت الفكرة نجاحًا. نُشِرَت صورة خوسِّيه أنطونيو في صحيفة الإقليم وهو بجوار أحد البيوت النموذجيَّة، مُرفَقةً بتعقيبٍ جاء فيه أنَّ البيت يبدو فاتنًا بتلك القبّعة المصنوعة من القشّ، أضف إلى ذلك أنَّه وثيرٌ ورخيص. سرعان ما سمح النشاط التجاريّ بالتوسُّع في مصنع الوحدات وتعيين مهندسٍ معماريّ.

في ذلك العام، أقنعتُ شقيقي بأن يوظِّفني، مع الأخذ في الاعتبار أنَّه مدينٌ لي بخدمة الأسطح المصنوعة من القشّ. اختنقتُ في أجواء سانتا كلارا شديدة الضيق، هناك حيث عشتُ أعوامًا طوالًا. وشعرتُ بالحاجة إلى رؤية شيءٍ من العالَم قبل أن يُشَدّ وثاقي إلى الأبد، وأُقيَّد إلى ذلك الواقع الثابت الذي سوف أشترك فيه مع فابيان. أراد منِّي آل ريباس الالتحاق بدراسةٍ تؤهِّلني لأصبح مُعلِّمة، مع الأخذ في الحسبان موهبتي في

التعليم، فضلًا عن خبرتي، ولكنِّي لستُ من مُحبِّي الأطفال، فالشيء الإيجابي الوحيد في الأطفال أنَّهم يكبرون.

اتَّفقَت أمِّي والخالتان على أنَّ البقاء في ساكرامِنتو عامًا أو عامَيْن قد يفيدني. وحده توريتو اعترض، إذ لم يسعه أن يتخيَّل الحياة من دوني. وكذلك فابيان، للسبب نفسه. أمَّا آل شميدت ـ إنغلر، فلا بدَّ من أنَّهم قد احتفلوا بذلك الفراق المُوقَّت الذي ربَّما كان حاسمًا، بقليلٍ من الحظِّ. لعلَّهم ظنُّوا بأنَّ شابًّا مناسبًا لفتاةٍ مثلي قد يظهر في المدينة. وفي تلك الأثناء، يمكنهم استنفار بعض المُرشَّحات الأكثر ملاءمةً لفابيان في المستوطنة الألمانيَّة.

بدأت إعدادات السفر قبل موعدها، إذ كنتُ في حاجةٍ إلى ثياب، وإلَّا ما أمكنني التجوال في ساكرامِنتو وأنا أنتعل القبقاب الخشبيّ، وأرتدي بدلة العمَّال الكتَّانيَّة وعباءة الپونتشو الخاصَّة بالسكَّان الأصليِّين. من العاصمة، أرسلَت إلينا ميس تايلور عددًا من القوالب لصنع الثياب، فضلًا عن الخامات اللازمة لصنع القبَّعات، فلم تنعم آلة الخياطة بهدأةٍ واحدة على مدى أسابيع. حتى الخالة پيلار انضمَّت إلى الجهود الجماعيَّة، وهي التي عادةً ما كانت تفضِّل تثبيت حدوات الخيل وحرث الأرض مع الخال برونو. ارتجلوا مشجبًا باستخدام قضيبٍ من الحديد، ومضوا يراكمون فوقه أطقم الثياب التي سوف أرتديها في المدينة، الثياب المنسوخة من مجلَّات ميس تايلور، والسترات، والمعطف ذي الياقة والأردان المصنوعة من فراء الأرانب، والقمصان الداخليَّة الحريريَّة، وقمصان النوم. فضلًا عن الأقمشة التي جاء بها خوسِّيه أنطونيو، اعتمدنا على ثياب والدتي الأنيقة، التي لم تُستخدَم منذ

عشرة أعوام، فعمدنا إلى تفكيك الخياطة لصنع ثيابٍ جديدةٍ تساير الموضة.

ـ يجب عليكِ الاعتناء بهذه الثياب يا ڤيوليتا، لأنَّكِ سوف تُجهَّزين بها للزواج، نبَّهَتني الخالة پيلار والمقصّ في يدها، لأنَّ موعد قصّ ضفيرتي قد حان.

ذهبوا لوداعي في محطَّة القطار جميعًا، بمن فيهم أمِّي، التي لا تبرح الفراش وكرسيّ الخيزران إلَّا في ما ندر. سافرتُ مُحمَّلةً بصندوقٍ من القبَّعات وثلاث حقائب ثقيلة، هي نفسها الحقائب التي استخدمناها قبل سنوات، لمَّا هربنا إلى المنفى، زِدْ عليها سلَّة الطعام الهائلة التي أعدَّتها فاكوندا من أجلي، فوجدتُ فيها ما يكفي لمشاركة غيري من المسافرين. وفي اللحظة الأخيرة، حتى لا أتمكَّن من رفضه، مرَّر إليَّ فابيان ظرفًا من خلال نافذة القطار، فوجدتُ فيه نقودًا ورسالة حبٍّ كُتِبَت بلهجةٍ مفعمةٍ بالشغف، إلى الحدِّ الذي جعلني أتساءل مَن ذا الذي أملاها عليه، إذ وجدتُ صعوبةً في تصوُّره قادرًا على التعبير عن نفسه بمثل هذه البلاغة. كان يتلعثم بشدَّة في الحديث عن مشاعره، ولكنَّه يتجاوز تلك العراقيل متى أمسك بالورقة والقلم.

في الأيَّام الأخيرة، أُصِبتُ بعدوى التوتُّر العامّ. كانت أوَّل مرَّة أُسافر فيها وحيدة، فعرض عليَّ فابيان مرافقتي إلى محطَّة ساكرامِنتو، حيث ينتظرني خوسّيه أنطونيو، ولكنِّي أبيتُ، بتشجيعٍ من لوسيندا التي قطعَت جولتها الصيفيَّة كي تحضر برفقة آبيل لوداعي.

ـ لستِ طفلة. دافعي عن استقلالك، ولا تسمحي لأحدٍ بأن يتّخذ القرار نيابةً عنكِ. ومن أجل هذا، يجب عليكِ أن تتمكّني من الاعتماد على نفسك. أفهمتِ؟ ـ قالت لوسيندا.

فلم أنسَ تلك الموعظة قطّ.

بعد عام قضيتُه في ساكرامِنتو، حيث عملتُ مساعدةً لشقيقي خوسّيه أنطونيو، اتّصل بنا الخال برونو لأنَّ حال والدتي قد ساءت كثيرًا. لم تكُن المرَّة الأولى التي نتلقّى فيها واحدًا من تلك الاتّصالات المُفزِعة. بدأت صحّة أمّي في التدهور منذ عشرين عامًا، وكثيرًا ما خُيِّل إليها أنَّها تلفظ أنفاسها الأخيرة، الأمر الذي لم يكُن له أساسٌ من الصحّة، حتى انتهَت بنا الحال ونحن لا نلقي لأمراضها من الانتباه إلّا قليلًا. ولكنَّ الوضع كان حرجًا في تلك المناسبة. طلب منّا الخال برونو أن نحضر على وجه السرعة، ونحدِّد مكان أشقّائي، حتى يجدوا الوقت الكافي لوداع أمّي.

وهكذا، اجتمع الإخوة دِل بايّيه الستّة لأوّل مرّةٍ منذ جنازة والدنا، بعد عشرة أعوام. تعرّفتُ أربعةً منهم بمشقّة، فكلّهم صار أبًا لعدّة أبناء، وبات من المهنيِّين أصحاب المنزلة الرفيعة في المجتمع والسادة المحافظين الموسرين. حتى هم شعروا بأنّني مجهولة، على ما أعتقد. كانوا يذكرونني طفلةً ذات ضفائر، رأوها لآخر مرّةٍ من خلال نافذة القطار، وإذا هم يجدون أنفسهم أمام امرأةٍ في الحادية والعشرين من العمر. كاميلو، إنَّ المودّة تُغرَس، ولا بدَّ من ريِّها كما تُروَى النبتة، بَيْد أنّنا تركناها تذوي.

ألفينا أمّي غائبةً عن الوعي، وقد تضاءلَت وباتَت لحمًا على عظم. ظننتُ أنّنا وصلنا مُتأخّرًا، وأنّها قد فارقَت الحياة، وأنَّ الوقت لم يسعفني لأخبرها بحبّي، فأحسستُ بتقلُّصاتٍ في معدتي التي عادةً ما أشقى بها في أشدّ لحظات الهمّ. مالت بشرةُ أمّي إلى الزرقة، كما اصطبغَت شفتاها وأصابعها باللون الأرجوانيّ، بتأثيرٍ من الاختناق الذي صارعَته طوال أعوام، حتى غلبها أخيرًا. كانت تحاول التنفُّس بصعوبةٍ أليمة، على جرعاتٍ مُتفرّقة، ثم تنقطع أنفاسها دقيقتَيْن، فنظنُّها قد رحلَت، وإذا هي تبتلع الهواء باستماتة. نُقِل فراشها إلى الصالون، بعد إخلائه من الطاولة والأريكة، لتصبح العناية بها ممكنة.

علم فابيان بما يجري، فجاء بعد ساعتَيْن، وأحضر زوج شقيقته الطبيب. صار نقل المريضة ضربًا من المحال. وعلى الرَّغم من وجود مصحَّتَيْن في المنطقة، كان أقرب مستشفى يقع في ساكرامِنتو. شخَّص الطبيب حالتها على أنَّها إصابةٌ بالنفاخ الرئويّ في طورٍ مُتقدّم جدًّا. لم يعُد هناك ما يمكن عمله، حسبما قال، ولم يبقَ أمام المريضة من الحياة سوى أيّام قليلةٍ جدًّا. كانت رؤيةُ أمّي وهي تتعذّب كما تعذَّبَت على مدى أيّام تمثّل احتمالًا مُروِّعًا، الأمر الذي اتَّفقنا عليه جميعًا. ولمَّا تأكَّدَت الخالة پيا أنَّ يدَيْها السحريَّتَيْن عاجزتان عن التخفيف من عذاب شقيقتها، أرسلَت في إحضار يايما، الملاذ الأخير.

ذهب آبيل ولوسيندا إليها في مجتمعها. كانت المرأة تنحدر من سلالة المداويات اللاتي مرَّرن إليها مَلَكة الشفاء، والأحلام المُنذِرة، والرؤى الخارقة للطبيعة، تلك المَلَكة التي طوَّرَتها

بالمراس والسلوك الحسن. قالت إنَّ: «بعضهنَّ يستخدم تلك القدرات في الشرِّ، وبعضهنَّ يتقاضى أجرًا مقابل الشفاء. الأمر الذي يقتل المَلَكة». كانت يايما حلقة وصلٍ بين الأرواح والأرض، وهي الخبيرة في النباتات والطقوس، القادرة على استئصال الطاقة السلبيَّة واسترداد العافية، متى لزم الأمر. أخرجَت أشقَّائي من البيت، فما عاد يحيط بها إلَّا الخالتان لوسيندا وفاكوندا وأنا. عند ذاك، بدأت في مساعدة ماريَّا غارسيا في العبور إلى «الجانب الآخر»، كما يتلقَّى الوليد مساعدةً في العبور إلى «هذا الجانب»، حسبما فسَّرَت لنا.

أُدخِلَت الكهرباء إلى مزرعة آل ريباس منذ ثلاثة أعوام، إذ استرقناها من أسلاك الجهد العالي دون تصريح، ولكنَّ يايما أمرَت بإطفاء الأنوار والراديو، وأوقدَت الشموع التي رصَّتها في حلقة حول الفراش، وعبَّأت الأجواء بدخان نبتة المريميَّة، لتطهير الطاقة.

ـ الأرض هي الأمّ التي تبعث فينا الحياة، وإليها نبتهل. ـ قالت.

شدَّت عصابةً سوداء على عينَيْها، ثم أخذَت تفحص المريضة وهي تتلمَّسها بدقَّة.

ـ إنَّها ترى بيدَيْها ما لا يُرَى. ـ قالت لي فاكوندا.

بعد ذلك، نزعَت يايما العصابة عن عينَيْها، وفتَّشَت عن بعض المساحيق في حقيبتها، ثم مزجَتها بقليلٍ من الماء، وسقَت أمِّي بملعقةٍ صغيرة. لا أظنّ المُحتَضرة كانت قادرةً على البلع،

ولكنَّ شيئًا من تلك الشَّرْبة استقرّ في فمها. التقطَت يايما الطبل، الذي سبق أن رأيته في الكوخ حين ذهبتُ لأوّل مرّةٍ إلى مجتمعها. بدأت تضرب الطبل ضربًا إيقاعيًّا وهي ترتِّل بلغتها. وفي وقتٍ لاحق، أوضحَت لنا فاكوندا أنَّها كانت تُنادي الأب السماويّ، والأرض الأمّ، وأرواح أسلاف الراحلين كي يحضروا لأخذ والدتي.

استمرَّت طقوس الطبل ساعاتٍ لم تنقطع خلالها إلَّا مرَّةً وحيدة لإيقاد عود المريميَّة مُجدَّدًا، وتطهير الطاقة بالدخان، ومناولة المريضة جَرعةً أخرى من الشَّرْبة. في البدء، راحت الخالتان بيا وبيلار تتلوان صلواتهما المسيحيَّة، بينما لوسيندا تراقب في محاولةٍ لحفظ التفاصيل كي تدوِّنها في المُفكِّرة، وفاكوندا تردِّد تلاوات يايما بلغتها، أمَّا أنا فانطويتُ على نفسي مُتأثِّرةً بالمغص، ورحتُ أربِّت على أمّي. ولكنْ بعد وقتٍ قصيرٍ من الحبس، أورثنا الدخانُ والطبلُ وحضورُ الموتِ ذهولًا لم نملك منه فكاكًا. ما عاد أحدٌ يتحرَّك. وأمسَت كلّ دقَّةٍ على الطبل تتردَّد في جسدي، حتى أمسكت عن مقاومة الألم والتقلُّصات، فسلَّمت نفسي لذلك السبات العجيب.

رحتُ في غيبوبة، وإلّا فلا تفسير لذلك الشرود عن الزمان والمكان. يستحيل وصف تجربة التلاشي في خواء الكَوْن الأسود، والانفصال عن الجسد والمشاعر والذاكرة، وعن الحبل السرِّيّ الذي يصلنا بالحياة. لم يبقَ شيء، لا حاضر ولا ماضٍ، وإذا بي أغدو جزءًا من جميع الموجودات في آنٍ واحد. لا أملك القول بأنَّها كانت رحلةً روحيَّة، إذ تلاشى معها حتى ذلك الحدس

الذي يسمح لنا أن نؤمن بالروح. أعتقد بأنَّ الأمر كان أشبه بالموت، وبأنّني سأعاود الشعور به مرَّةً أخرى متى حانت ساعتي. عدتُ إلى الوعي حين توقَّف وقع الطبل الباعث على النوم بالإيحاء.

بانتهاء الطقوس، قبلَت يايما شراب المتَّة الذي حملَته إليها فاكوندا خائرة القوى، شأن باقي النساء، ثم انهارت في أحد الأركان طلبًا للراحة. بدأ الدخان يتبدَّد، وتحقَّقتُ من استغراق أمّي في سباتٍ عميق، خالٍ من عذاب الاختناق. وطوال البقيّة الباقية من الليل، صارت أنفاسها غير محسوسة، لا جهد فيها. قرَّبتُ المرآة من فمها مرَّتَيْن للتأكُّد أنَّها ما زالت على قيد الحياة. في الرابعة فجرًا، ضربَت يايما الطبل ثلاثًا، وأعلنَت رحيلَ ماريًا غارسيا لرؤية الأب. أمَّا أنا، فاستلقيتُ على الفراش بجوار أمّي، مُتشبّثةً بيدها، ولكنْ عبورها بلغ من النعومة حدًّا جعلني لا أُدرك أنَّها قد فارقَت الحياة.

مضى الإخوة دِل بايّيه الستَّة بنعش أمّي إلى العاصمة على متن القطار، لدفنها مع زوجها في المقبرة العائليَّة. لم يسعني البكاء على موتها طوال أشهر. كثيرًا ما فكَّرتُ بها شاعرةً بغصَّةٍ في صدري، وأنا أتأمَّل تلك الأعوام عندما كانت أمّي في حياتي، وألومها على تلك الكآبة، وألومها لأنَّها لم تحبّني بالقدر الكافي، ولأنَّها لم تسعَ للتقريب بيننا إلَّا قليلًا. غضبتُ لأنَّ الفرصة قد فاتتنا، أُمًّا وابنةً.

ذات مساء، بقيتُ وحدي في المكتب، مُنشغِلةً ببعض الطلبات، فشعرتُ بأجواء المكان تثلج فجأةً. رفعتُ بصري

أتحقَّق من النافذة، لعلَّها تُرِكَت مفتوحة، وإذا بي أرى أمِّي واقفةً قرب الباب، بمعطف السفر وحقيبة اليد، وكأنَّها تترقَّب القطار في المحطَّة. لم أتحرَّك، بل كتمتُ أنفاسي حتى لا أفزعها.

ـ ماما، ماما، لا ترحلي. ـ طلبتُ منها بلا صوت، ولكنْ ما هي إلَّا لحظة حتى اختفَت.

بكيت، وفقدتُ السيطرة على نفسي، فغسلني سيل الدموع من الداخل حتى لم يبقَ شيءٌ من الضغينة والشعور بالذنب والذكريات البغيضة. ومنذ ذلك الوقت، أصبحَت روح أمِّي تحوم حولي بخطًى خفيفة.

9

تأخَّر زواجي من فابيان بسبب الحِداد على موت أمّي، الذي استمرّ عامًا كاملًا طبقًا لعادات الحقبة، أضف إلى ذلك الحرب العالميَّة الثانية. لم تلقَ مهنته من التقدير إلَّا قليلًا آنذاك، لأنَّ الزراعة لم تزَل راكدةً في القرن الماضي، الأمر الذي سرى على الحيوانات أيضًا. في عددٍ من مزارع المهاجرين الأوروبيِّين، استُنسِخَت الأساليب الفعَّالة المعمول بها في الولايات المتَّحدة، ولكنَّ صغار المزارعين، من أمثال آل ريباس، ما زالوا يحرثون الأرض بالبغال والثيران المُستعَارة. كانت قطعان الماشية مُؤلَّفةً من أبقارٍ صبورة، جيِّدة، متواضعة، مثل كلوتيلدي وليونور، مع أنَّها تفتقر إلى مظاهر العظمة.

في ذلك الإقليم، عمل الأطبَّاء البيطريُّون كالباعة الجائلين، فراحوا يتنقَّلون من بابٍ إلى باب وهم يعالجون الحيوانات المريضة أو المصابة في الحوادث، ويناولونها اللقاح. لم يكنز

أحدهم ثروةً بهذا العمل، كما لم يطمح أيٌّ منّا إلى ذلك. أحبَّ فابيان الحيوانات، فاعتبر مزاولةَ المهنةِ رسالةً، وليسَت سعيًا وراء المال. أمّا أنا، فعشتُ حياةً بسيطة، لم أتخيَّل سواها. اكتفينا بقدْرٍ معيَّن من وسائل الراحة، من دون مغالاةٍ في الطلب، إذ حظينا بدعم عشيرة شميدت ـ إنغلر، التي سلَّمَت بحتميَّة زواجي بواحدٍ منهم. قدَّم الأب عدَّة هكتارات من الأراضي إلى فابيان على سبيل الهديَّة، كما أهدى سائر أبنائه. بينما اقترح خوسّيه أنطونيو أن يُقيم واحدًا من بيوتنا الريفيَّة هناك، لي أنا وفابيان، البيت الذي صمَّمتُه بنفسي، آخذةً في الحسبان أبناءنا القادمين مُستقبَلًا.

كانت أخبار الحرب العالميَّة الثانية الدائرة في أوروبا مُروِّعة، ولكنَّها بعيدة. وعلى الرَّغم من الضغوط التي مارسها الأميركان علينا حتى نعلن الحرب على دول المحور، ظلَّت دولتنا على الحياد لأسبابٍ اقتصاديَّةٍ وأمنيَّة. إذ كُنَّا في غاية الضعف بحرًا، لا نملك الدفاع عن أنفسنا في حال شنَّت الغوَّاصات الألمانيَّة المهيبة هجومًا. كما أُخِذَت المستوطنات الألمانيَّة والإيطاليَّة العديدة بعين الاعتبار. زِدْ على ذلك الحزب النازيّ الذي تأسَّس في البلد، فأحدث جلبةً مُدوِّية، وانطلق أعضاؤه يجوبون الشوارع رافعين الرايات، والصلبان المعقوفة على أذرعهم. على ما أذكر، خلا البلد من اليابانيِّين آنذاك.

أبدى آل شميدت ـ إنغلر تعاطفًا نحو دول المحور، شأنهم شأن جميع الألمان في المنطقة، وإن تجنَّبوا معاداة الباقين، من داعمي الحلفاء. بينما لزم فابيان الصمت، لأنَّ النزاع ليس من

اختصاصه. لم أفهم تفاصيل الحرب ولا أسبابها، فسواءٌ عندي من يخرج منها مُنتصِرًا، برغم محاولة إخوتي وآل ريباس تحريضي ضدَّ هتلر والفاشيَّة. لم تكُن أسوأ فظائع معسكرات الإبادة وعمليَّات الإبادة الجماعيَّة المُمنهَجة قد عُرِفَت بعد، إذ وقفنا على تلك الأمور بالتفصيل بعد انتهاء الحرب، عندما نُشِرَت الصور الفوتوغرافيَّة وصُنِعَت الأفلام التي صوَّرَت تلك الأهوال.

تابع خوسِّيه أنطونيو وآل ريباس تحرُّكات القوَّات، التي كانوا يُشيرون إليها بالإبر على خارطة أوروبا، فبدا من الجليّ أنَّ الألمان يلتهمون القارَّة قضمةً تلو أخرى. في عام 1941، قصفَت اليابان الأسطول الأميركيّ في بيرل هاربور، فأعلن الرئيس روزفلت الحرب على دول المحور، وصار تدخُّل الولايات المتَّحدة هو الأمل الوحيد في ردع الألمان.

بينما أخذ الرجال في أوروبا يتناحرون، ويدكُّون المدن القديمة حتى لم يبقَ منها سوى الجمر والأنقاض، تاركين الملايين من الأرامل والأيتام واللاجئين، كرَّس فابيان نفسه إلى التلقيح الصناعيّ. تلقيح الحيوانات، لا البشر، طبعًا. لم تكُن فكرته، إذ لجأ الناس إلى تلقيح النعاج والخنازير صناعيًّا منذ سنوات، غير أنَّه فكَّر في تطبيق الفكرة على الأبقار. لن أخوض تفاصيل مضجرة، حسبنا القول بأنَّ تلك العمليَّة كانت وما زالت تبدو لي ازدراءً هائلًا نحو الأبقار. أمَّا كيف يُستخرَج من الثيران ما لا غنى عنه لتلك العمليَّة، فلا أودّ التفكير في ذلك. قبل نجاح فابيان في تجاربه، كان التكاثر يحدث بموجب قواعد الطبيعة، بمزيجٍ من الغريزة والحظّ، إذ يمتطي الثور عروسه، فتصبح النتيجة

عجلًا، في غالب الأحوال. كانت خيرة الثيران تُستأجَر، ما يستلزم نقلها، وتوفير المراعي اللازمة، ومراقبتها، لأنَّ طباع الثيران تفتقر إلى الوداعة، ما يفسِّر اعتراض الأبقار في كثيرٍ من الأحيان.

درس فابيان طريقة حفظ نطاف الحيوانات التي تنتمي إلى سلالاتٍ جيِّدة على مدى أيَّام، الأمر الذي سمح بتلقيح مئات الأبقار من ثورٍ واحد، وإن تكُن مُوزَّعةً على مسافةٍ تُقدَّر بالكيلومترات، شريطة أن تُنفَّذ العمليَّة باستعجال. الآن، أصبحَت النطاف تُحفَظ أعوامًا، وتسافر حول العالَم، حتى صار معقولًا أن يكون لثورٍ ميِّتٍ من تكساس نسلٌ من بقرةٍ باراغوانيَّةٍ صغيرة، الأمر الذي كان يُعَدّ ضربًا من الخيال العلميّ آنذاك.

بمساعدة والده، الوحيد الذي ما لبث أن أدرك مزايا الفكرة، نظرًا إلى امتلاكه جيشًا من الأبقار في مصنع الألبان الخاصّ به، أنشأ فابيان معملًا في أحد المخازن، حيث طوَّر التقنيَّة والأدوات الضروريَّة وطريقة الاستخدام المُثلَى. على مدى الشهور والأعوام التالية، عاش مهووسًا بتلك المسألة، التي بدَت لي إباحيَّة، ومضى يحلم باحتمالاتها المُتعدِّدة: خيل السباق، والكلاب والقطط التي تنتمي إلى السلالات النقيَّة، والحيوانات العجيبة، وغيرها من الحيوانات المُهدَّدة بالانقراض. أعترف بأنَّني سخرتُ منه طويلًا، بينما ظلَّ هو منصرفًا إلى شؤونه، فلم ينزعج من سخريتي. لم يطلب منِّي سوى الامتناع عن السخرية منه بتعليقاتي أمام الآخرين.

توقَّفتُ عن الضحك عندما تأكَّدَت لي الفوائد التي عاد بها

مشروع فابيان على حماي وغيره من المزارعين. ظلَّ هو الطبيب البيطريّ الأشهر في البلد لوقتٍ طويل، ومضى يشارك في اللقاءات الصحافيَّة، ويُلقي المحاضرات، ويضع الكتيِّبات الإرشاديَّة، ويسافر لتدريب العمَّال في الحقل، كما أدخل تحسيناتٍ على تربية الأبقار في عددٍ من بلدان أميركا اللاتينيَّة. كانت مشكلته الكبرى تكمن في التوصُّل إلى طريقة حفظ النطاف لوقتٍ طويل، حسبما أوضح لي مرَّاتٍ كثيرة، الأمر الذي لم يتمّ له حتى الستِّينيَّات، وفق ما يبدو لي. غير أنَّ الوجاهة التي حظي بها لم تُترجَم إلى نقود، فلولا دعم أبيه ما استطاع فابيان مواصلة أبحاثه.

على الرَّغم من متطلِّبات عمله، التي لم تترك لباقي شؤونه إلَّا وقتًا قصيرًا، ظلَّ فابيان يطلب منِّي الزواج بمثابرة ألمانيَّة. فماذا ننتظر؟ لقد بلغتُ الثانية والعشرين، كما أمضيتُ عامَيْن وأنا «أجرِّب جناحَيّ» في ساكرامِنتو، على حدِّ قوله. أمَّا «تجربة الجناحَيْن»، فكانت مزحة: لأنَّني عشتُ وعملتُ مع أخي، الذي راقبني كالسجَّان، في مدينة ساكرامِنتو الناعسة، بأهلها المحتشمين، المُتعصِّبين، النمَّامين. كان المرء يجد في مزرعة آل ريباس من التحدِّيات الذهنيَّة أكثر ممَّا يجد في عاصمة الإقليم.

كانت مُربِّيتي القديمة وتيريسا ريباس عاشقتَيْن في زمنٍ اعتُبِرَت فيه المثليَّة ترفًا يتمتَّع به الأرستقراطيُّون والفنَّانون. الأوائل لأنَّهم يتحلُّون بالكتمان، شأن أحد الأقرباء الذين جمعتنا بهم صلةٌ غير وثيقة، لا يستحقّ ذكر اسمه العناء؛ والأواخر لأنَّهم لم يحفلوا بقواعد المجتمع ووصايا الدين. اقتصر الأمر على حالاتٍ

معروفةٍ قليلةٍ جدًّا: بعض الصحافيِّين، والكُتَّاب، وشاعرة ذات شهرة عالميَّة، وزوج من المُمثِّلين، فضلًا عن الكثيرين ممَّن حافظوا على السرِّيَّة.

في البدء، عاشتا في العلِّيَّة الخاصَّة بتيريسا، معدمتَيْن كالجرذان. ولكن ما هو إلَّا زمنٌ قصير حتى وجدَت ميس تايلور وظيفة، واشتغلَت بتعليم اللغة الإنجليزيَّة في مدرسةٍ للبنات، حيث درَّسَت طوال عشرين عامًا، لم يَرْتَب خلالها أحدٌ في حياتها الشخصيَّة. كانت في نظر العالَم عانسًا، لاجنسيَّة، مثلها كمثل الأميبا. جنَت راتبًا هزيلًا، ولكنَّها اشتغلَت بتقديم الدروس الخاصَّة أيضًا، ما سمح لهما باستئجار بيتٍ صغيرٍ متواضع في حيٍّ ينتمي إلى الطبقة المُتوسِّطة، حيث نصَّبَتا البيانو أخيرًا. ما إنْ تسنَّى له ذلك حتى بدأ خوسِّيه أنطونيو يمرِّر لها مبلغًا شهريًّا، لأنَّ راتب ميس تايلور كاد لا يكفي النفقات الأساسيَّة.

تركَت تيريسا ريباس وظيفتها لدى شركة الاتِّصالات القوميَّة كي تنذر نفسها تمامًا للكفاح النسويّ، فعاونَت مُنظَّماتٍ مُكرَّسةٍ لحقوق المرأة: الحقّ في التصويت، وحضانة الأبناء التي كانت حكرًا على الآباء، والحقّ في الحصول على دخلٍ خاصّ، والحماية في العمل، والحقّ في الدفاع عن النفس ضدَّ العنف، وتغييراتٍ كثيرةٍ أساسيَّة في القانون، نعدّها اليومَ أمرًا مفروغًا منه. كما نادَت بالحقِّ في الإجهاض والطلاق، ذلك الحقّ الذي أدانَته الكنيسة الكاثوليكيَّة بأشدِّ العبارات حدَّةً. في تلك الحقبة، كان الجحيم لا يزال على قيد الوجود. قالت تيريسا إنَّه لو اضطُرَّ الرجال إلى الولادة وتحمُّل الزوج، لبات الإجهاض والطلاق من

الأسرار المُقدَّسة. في اعتقادها، لا يحقّ للرجال إبداء رأيهم في جسد المرأة، دَعْ عنك سَنِّ القوانين المُقترِنة به، لأنَّهم يجهلون مشقَّة الحمل وألم الولادة وعبوديَّة الأمومة الأبديَّة.

بلغَت تلك الأفكار من الراديكاليَّة حدًّا أفضى بتيريسا إلى السجن على فتراتٍ شبه منتظمة، بتهمة نشر أفكارها، وإثارة الشعب في الشوارع، والتحريض على الإضراب، واقتحام المجلس. وفي إحدى المناسبات، اتُّهِمَت بالتعدِّي على رئيس الجمهوريَّة في محفلٍ عامّ. كما نشرَت الصحف أنَّ نسويَّةً مجنونة ألقَت حبَّة طماطم ناضجة على الرئيس خلال افتتاح مصنعٍ للحليب المُجفَّف، الذي زعمَت تيريسا بأنَّ الأميركان هم الذين ابتدعوه لاستبدال تلك القمامة المُعلَّبة بلبن الأمّ الإعجازيّ. زُجّ بها في السجن أربعة أشهر، حتى أفلح خوسِّيه أنطونيو في إطلاق سراحها.

احتفينا بزيارات هاتيْن المرأتَيْن إلى سانتا كلارا في الشتاء كالعيد السنويّ. كانت كلتاهما تحضر مُحمَّلةً بأخبار العاصمة، وأفكار العالَم التقدُّميَّة، التي أورثَتنا مزيجًا من الهوْل والإعجاب. أعتقد بأنَّ خوسِّيه أنطونيو قد سلَّم في إحدى اللحظات بالحقيقة التي مُؤدَّاها أنَّ ميس تايلور لن تتزوَّج منه أبدًا، وإن كنتُ أشكّ في معرفته بالسبب. لم يشتبه أيٌّ منَّا في وجود شيءٍ يفوق الصداقة الاستثنائيَّة بينهما. أقرُّ بأنَّ ذلك الاحتمال لم يخطر على بالي قطّ.

أمَّا الكفاح الذي خاضَته تيريسا ريباس وأخريات مثلها في سبيل تغيير العادات والقوانين، فآتى ثماره رويدًا رويدًا. مضيْن

قُدُمًا بخطى السلاحف، وإن تأكَّد لي كم أحرزنَ من التقدُّم على مدى حياتي الطويلة. أعتقد بأنَّ كلًّا من تيريسا ريباس وميس تايلور كانت لتزهو بما تحقَّق، وتستمرّ في الكفاح من أجل ما لم يتحقَّق بعد. قالت تيريسا: لا أحد يمنحنا شيئًا، بل إنَّ الأشياء تُؤخَذ عنوةً. ولو سهوتَ، انتُزِعَت من بين يدَيْك انتزاعًا.

لم أتطرَّق إلى تلك الأمور مع أمّي، ولا الخالتَيْن، ولا حتى فابيان، دَعْ عنك عائلته. في غفلةٍ من خطيبي، كنتُ أقرأ الكتب والمجلّات التي تعطيني تيريسا إيّاها، ولا أعقِّب عليها إلّا مع لوسيندا وآبيل، وهما الراديكاليّان بقدر ابنتهما تقريبًا. كنتُ أفكِّر أنّني سوف أتزوّج وأنجب وأتحوَّل إلى ربَّة بيت، وأعيش حياةً تافهة في ظلِّ زوجي، فيستحوذ عليَّ تمرُّدٌ مكتوم، وغضبٌ مكبوت.

ـ لا تتزوَّجي إنْ لم تكوني مقتنعةً بقدرتك على قضاء البقيَّة من حياتكِ مع فابيان. ـ قالت لي ميس تايلور.

ـ لقد انتظرني طويلًا. ما لم أتزوّج الآن، أصبح عليَّ إنهاء تلك الخطوبة الأبديَّة.

ـ ذلك أفضل من الزواج برغم الشكوك التي تضمرينها يا ڤيوليتا.

ـ سأتمّ الخامسة والعشرين، وأنا في عمرٍ أكثر من ملائم للزواج والإنجاب. كما أنَّ فابيان رجلٌ رائع، يحبّني كثيرًا، سيكون زوجًا صالحًا جدًّا.

ـ وماذا عنكِ؟ في اعتقادك، هل ستكونين زوجةً صالحة؟

فكِّري في الأمر يا ڤيوليتا. لا يبدو لي أنَّكِ واقعةٌ في حبّه. لطالما كنتِ مُتمرِّدة، أنصتي إلى صوت حدسكِ.

شكَّكَت ميس تايلور في أمورٍ مشابهةٍ لتلك التي شكَّكتُ فيها أنا الأخرى. وعلى الرَّغم من ذلك، عُقِدَت خطوبتي على فابيان. كنَّا خطيبَيْن في نظر الجميع، ولا من سببٍ وجيهٍ يجعلني أتخلَّى عن رجلٍ صالح. تكوَّنَت لديَّ فكرةٌ بأنَّني لولاه لقُضِي عليَّ بالبقاء عانسًا. لم أمتلك الموهبة المُميَّزة أو الملكة التي قد ترشدني إلى طريقٍ مختلفةٍ عن تلك التي يُتوقَّع من المرأة أن تسلكها. أمَّا ذلك التمرُّد الذي ذكرَته ميس تايلور، فلقد سحقني، بدلًا من أن يمدّني بالطاقة اللازمة للأخذ بمصيري بين يدَيّ. وددتُ لو كنتُ مثلها ومثل تيريسا، ولكنَّ الثمن فادح. لم أجرؤ على التنازل عن الأمان مقابل الحرِّيَّة.

تزوَّجتُ من فابيان عامَ 1945، بعد قرابة خمسة أعوام من الخطوبة، التي كان يُفترَض أنَّها خطوبةٌ أفلاطونيَّة، كما شاع آنذاك، مع أنَّني فقدتُ عذريَّتي قبل فترة. فقدتُها من دون قصد، في إحدى المناورات التي جمعَتني بفابيان، كما اكتشفتُ ليلتذاك حين وجدتُ ثيابي الداخليَّة مُلطَّخةً بالدماء، مع أنَّه لم يكُن موعد العادة الشهريَّة. غير أنَّني تكتَّمتُ الأمر، فلم أخبر فابيان بشيء. لا تسألني عن السبب يا كاميلو. استمرَّت مناوشاتنا كعهدها: فكنتُ وفابيان نتَّقد هياجًا إلى حدِّ الجنون، وقد خلعنا بعض ثيابنا، شاعرَيْن بالذنب، وعدم الارتياح، خائفَيْن، مُتعجِّلَيْن، حتى ينتهي به الحال مُحرَجًا، وأبقى أنا مُحبَطة. قلَّت لقاءاتنا كثيرًا منذ استقرّ بي المقام في ساكرامِنتو. كان يحضر، وينزل في أحد

الفنادق حيث يمكننا اللقاء، لو أنَّه سمح بذلك. على فراش الفندق الجيِّد، كان في وسعنا ممارسة الحبّ مع سبق الإصرار، وباستخدام الواقي، الذي أصبح في متناول أيّ رجل، وإن حُظِر شراؤه على النساء. لو تمَّ لنا ذلك، لتعيَّن علينا التكتُّم بشدَّة، وإلَّا قتلني خوسّيه أنطونيو لو ارتاب في الأمر، كما توعَّدني غير مرَّة. لأنَّ واجبي يملي عليَّ أن أصون شرفه وشرف العائلة، حسبما قال، ولكنَّه استشاط غضبًا حين سألتُه عن الصلة بين شرفه وعذريَّتي.

ـ وقحة! تلك هي الأفكار التي تدسُّها تيريسا في رأسكِ!

في بعض الجوانب، بدا شقيقي كالرجل البدائيّ، ولكنِّي لا أظنّ بأنَّه كان ليفي بوعيده، فهو شخصٌ دائم الطيبة.

كاميلو، دعني أفتح جملةً اعتراضيَّةً أعقِّب فيها على وسائل منع الحمل، مع أنَّني لا أظنّ المسألة من اختصاصنا. لم تملك أمّي إلَّا أن تنجب ستَّة أبناء، فضلًا عن الحَمْل الذي انتهى بإسقاط الجنين عدَّة مرَّات، حتى استعانَت بالوسيلة التي أوصَت بها أوَّل طبيبةٍ امرأة في البلد، تلك التي عملَت على نشر المعلومات، مُجازِفةً بالحرمان الكَنَسي، والاعتقال بأمرٍ من السلطات.

عملًا بالتعليمات الواردة في كُتيِّب الطبيبة، الذي درسَته أمّي من وراء زوجها، كانت تغسل المهبل بالجلسرين قبل اللقاء، ثم بمحلولٍ من الماء الفاتر والبيروكسيد بعد اللقاء، مستعينةً بالأدوات التي أخفَتها عن الأعيُن في صندوق القبّعات. عرفَت والدتي أنَّ أرسينيو دِل باييه ـ الذي تزوَّج لإطالة عمر الوجاهة المقترنة باسم

عائلته عن طريق إنجاب أكبر عددٍ ممكنٍ من الأبناء ـ كان ليُصاب بالسكتة لو اكتشف محتوى صندوق القبّعات. كثيرًا ما سمعَته يبشّر بواجب المرأة المُقدَّس الذي يملي عليها أن تجلب الأبناء إلى العالَم، مثلما فعلَت أمّه.

حين أعلنتُ عن زواجي أخيرًا، سلَّمَتني الخالة پيا المُكوِّنات اللازمة للاغتسال، كما كانت تغتسل أمّي، ولفَّتها بورق الصحف لمداراتها عن الأعين، ثم أوضحَت لي كيف تُستخدَم همسًا، وهي تكاد تموت من فرط الحَرَج.

في النهاية، لم تعُد لديَّ أعذارٌ للتأجيل من جديد، فأعلنَّا عن الزواج في شهر أكتوبر، ونحن لا نتوقَّع انتهاء الحرب العالميَّة قبل ذلك الموعد بشهر. قضَت العادة بإقامة حفل الزفاف على نفقة عائلة العروس. ومع ذلك، أصرّ آل شميدت ـ إنغلر على إقامته في فندق باڤاريا، بطريقةٍ في غاية الرقّة، لئلَّا نشعر بالإهانة، نظرًا إلى تفوُّقهم الاجتماعيّ والاقتصاديّ.

نفضَت خالتاي الغبار عن آلة الخياطة التي تعمل بالدوَّاسة لإتمام جهاز العروس، بمساعدة لوسيندا، التي ما عادَت تذهب في جولاتها التعليميَّة على صهوة الحصان، لأنَّ جسدها لم يعُد قادرًا على تحمُّل كلّ هذا الترنُّح وهي في أواخر الستّينيّات، على حدِّ قولها. نُسِجَت ملاءاتٌ تحمل الحروف الأولى من اسمَي العروسَيْن، ومفارش بأحجام شتّى، غير أنَّني لم أرغب في إصلاح الثوب الذي زُفَّت به أمّي، ذلك الذي نجا محفوظًا بالنفتالين في أحد الصناديق منذ أواخر القرن الماضي. أردتُ ثوبًا لي أنا، خاليًا من الدانتيل المُلوَّن بلون الزبد. اشترَت ميس تايلور ثوب

عروسٍ على الموضة من العاصمة، وأرسلَته إليَّ بالقطار. كان من الساتان الأبيض، خاليًا من الزينة، مرفقًا بغطاء رأسٍ جعلني أبدو كالمُمرِّضة. كما أنَّه صُنِع بميْلٍ حتى يُبرِز القوام.

تزوَّجنا في كنيسةٍ خلَّابة، شيَّدها المهاجرون الألمان الأوائل في تلك المنطقة. دلفتُ إلى الكنيسة وذراعي في ذراع خوسِّيه أنطونيو، الذي لم يحضر الزفاف من أشقَّائي سواه، بينما أجهشَت الخالتان في البكاء من فرط التأثُّر، برفقة آل ريباس وتوريتو وفاكوندا وميس تايلور وتيريسا وجميع ساكني ضيعة ناويل الصغيرة. على أحد جانبَي صحن الكنيسة، استقرَّت عائلة الزوج وأصدقاؤه، بأطوالهم الفارعة، وإشراقتهم، وثيابهم الأنيقة. بينما استقرَّت عائلتي على الجانب الآخر، بمظهرهم الأكثر تواضعًا بكثير.

كما فاجأنا بالحضور ماركو كوزانوفيتش، الذي لا بدَّ أنَّه قارب الستِّين، وبات ناسكًا لا نراه إلَّا في مناسباتٍ نادرةٍ للغاية. صارت له شقَّةٌ مُتقشِّفة في ساكرامِنتو، حيث يُشرِف على المصنع، وإن كان يذهب في جولةٍ إلى مزارع الصنوبر الشاسعة حالما يتسنَّى له الذهاب، تلك المزارع التي أقمناها للحصول على الخشب من دون ارتكاب المجازر في الغابات الأصليَّة، أو كان يذهب إلى مشغل الخشب في الجبال، حيث يشعر بالسعادة. أمَّا إدارة الشركة وحساباتها وأرباحها فلم يلقِ لها أدنى بال، حتى صار في يد شقيقي أن ينهبه بسهولةٍ لولا أنَّه تعهَّد بالأمانة.

جاء ماركو بلحيةٍ كثيفةٍ تليق بنبيٍّ، وثياب صيَّاد، مع أنَّه عاجزٌ حتى عن قتل أرنبٍ بريٍّ. أحضر إليَّ تمثالًا من الحجر نحته

بنفسه على سبيل الهديَّة، وهكذا اكتشفنا تلك الموهبة التي احتفظ بها لنفسه جيِّدًا. عرفنا بأمر ابنه الذي بلغ الرابعة أو الخامسة من العمر، الابن الذي ظهر في حياته مُتأخِّرًا. كانت الأمّ شابَّة من السكَّان الأصليِّين، أتمَّت تعليمها الثانويّ، والآن تعمل في مصنع أنسجة، وتربِّي الطفل حتى يبلغ من العمر ما يسمح له بالالتحاق بمدرسةٍ جيِّدة. اعترف ماركو بأبوَّته للطفل أنطون كوزانوڤيتش، الذي كان ثاقب الذكاء، حسبما قال والده.

ـ سأوفِّر له أفضل تعليم. كلاهما يعيش حياةً هانئة، الطفل وأمّه. ـ قال لنا، مُتأثِّرًا.

أمَّا انتهاء الحرب، وهزيمة الألمان، وموت هتلر، فكلّها أمورٌ خيَّمَت على الهواء كغيمةٍ سوداء وسط المستوطنين الألمان، لم يذكرها أحدٌ في زفافي. كان إبداء التعاطف نحو دول المحور أو دول الحلفاء من شأنه أن يصنِّف الناس ويثير جدالاتٍ كريهة، تجنَّبناها طوال ستَّة أعوام، ولا داعي لإفساد العرس لسببٍ كهذا. لم يهتمّ أهل ناويل بالنزاع الدائر في أوروبا إلَّا قليلًا، لأنَّه يبعد عنهم كثيرًا، ولا يؤثِّر فيهم، على الرَّغم من أهمِّيَّته لدى آل ريباس وشقيقي وميس تايلور وتيريسا. في الثاني من شهر سبتمبر من ذلك العام، احتفلنا بالسلام بلحم الضأن المشويّ، والكثير من شراب العَرَق، ومخبوزات فاكوندا الرائعة، غير أنَّنا لم ندعُ فابيان إلى الاحتفال.

أخيرًا، صار لنا أن نمارس الحبّ وكلانا عارٍ من الثياب، على فراش الفندق، كما خُيِّل إلينا مرَّاتٍ بالغة الكثرة. فتأكَّد لي أنَّ زوجي مُتفهِّمٌ حنون.

في اليوم التالي بعد الزفاف، ركبنا القطار المُتَّجه إلى العاصمة، التي لم أذهب إليها منذ جنازة أمّي، حين لم تسعفني الفرصة لعمل شيءٍ سوى الذهاب إلى المقابر، وزيارة إخوتي. أمَّا فابيان، فلم يجد في العاصمة شيئًا جديدًا، ذلك أنَّه كثيرًا ما تردَّد إليها بحكم عمله. تبدَّلَت المدينة كثيرًا عمَّا سبق. كنتُ أودّ لو بقيتُ هناك بضعة أيَّام حتى أجوب المدينة، وأرى الحيّ الذي عشتُ فيه طفولتي مرَّةً أخرى، وأذهب إلى المسرح، وإن تقرَّر قضاء شهر العسل في ريو دي جانيرو، حيث ذهب فابيان لإلقاء بعض الدورات التدريبيَّة. استؤنِفَت الرحلات التجاريَّة، بعد أن اقتصرَت على رحلاتٍ محدودةٍ جدًّا طوال أعوام الحرب. أمَّا تجربتي الأولى في الطيران، فلقد تُرجِمَت إلى ساعاتٍ طوالٍ من الحبس في طاقم السفر الذي كنتُ أرتديه: المشدّة، والجورب، والكعب العالي، والبدلة ذات التنُّورة والسترة الضيِّقة، والقبّعة، والقفَّاز، والوشاح المصنوع من الجلد، بينما تملَّكني الدوار والذعر، ورحتُ أتقيَّأ طوال الرحلة التي تخلَّلَتها فترات راحةٍ كلّ أربع ساعاتٍ على وجه التقريب، كلَّما توقَّفَت الطائرة للتزوّد بالوقود.

أكاد لا أذكر شهر العسل، إذ أُصِبتُ بفيروس معويّ، فأمضيتُ معظم الوقت في مراقبة شاطئ كوپاكابانا الرائع من خلال النافذة، وتناول الشاي بدلًا من كؤوس الكايپيرينيا الشهيرة. في غير أوقات العمل، شملني فابيان بعنايته في حنان. ووعدني بالعودة إلى البرازيل مستقبلًا لقضاء شهر عسلٍ حقيقيّ.

وفَى شقيقي بكلمته، وشيَّد بيتنا في أسبوعٍ واحد، ثم كلَّله

بسطحٍ مزدوج من أفضل صنوف الكويرون في المنطقة. خلال الأعوام التي أمضيتُها في العمل لحسابه، ازدهر خوسِّيه أنطونيو أكثر ممَّا كان يحلم به في أيِّ وقتٍ مضى، ويمكنني أن أنسب جزءًا من ذلك النجاح لنفسي، إذ خطرَت لي أفكارٌ كان يجب أن يأتي بها المهندس المعماريّ، لو شئنا الإنصاف. ومن الأفكار الأكثر تحقيقًا للربح، كانت فكرة إقامة حيٍّ سكنيٍّ لشركة البيوت الريفيَّة على ضفاف البحيرة، وعرضها للبيع بأسعارٍ ربويَّة في العاصمة، باعتبارها بيوتًا للاصطياف.

ـ إنَّ هذا ضربٌ من الغباء يا ڤيوليتا، نحن في موقعٍ يبعد عن العاصمة كثيرًا، لن يسافر أحدٌ ساعاتٍ طوالًا بالسيَّارة أو القطار حتى يأتي للسباحة في بحيرةٍ مُثلَّجة! ـ احتجّ خوسِّيه أنطونيو، ولكنَّه عمل بفكرتي التي آتت نتائجَ مذهلة، حتى وجدنا من المُهتمِّين بالاستثمار في مشروعاتٍ من هذا القبيل أعدادًا تكفي وتفيض عن حاجتنا. بينما تولَّيتُ أنا البحث عن الأمكنة المناسبة والإشراف على شراء الأراضي واستخراج تصاريح البناء.

ـ سوف تعطيني نسبةً سخيَّةً عن كلِّ واحدٍ من تلك البيوت التي نبيعها. ـ طالبتُ أخي.

ـ ولكنْ كيف يا ڤيوليتا؟ ألسنا عائلة؟ ـ أجابني سائلًا.

ـ لهذا السبب.

في تلك الحقبة، كنتُ شديدة الاقتصاد، أنفق من المال قليلًا، إذ عشتُ برفقة أنطونيو، أضف إلى ذلك أنَّ ساكرامِنتو قد خلَت من المغريات. ادَّخرتُ مبلغًا من المال، فضلًا عن القرض

الذي حصلتُ عليه من البنك الإقليميّ، حيث أودِعَتْ حسابات شركة البيوت الريفيَّة، ثم اشتريتُ أرضًا، وموَّلتُ ثمانيةً من بيوتنا، مرفقةً بمسبحٍ مُشترَك، مُطوَّقةً بالحدائق، لتبرير السعر المرتفع. بعتُها بأسعارٍ مجزيةٍ للغاية، فسدَّدتُ القرض، وأعدتُ الكرَّة. وجدتُ من الوقت مُتَّسعًا لبناء أربعة مُجمَّعاتٍ سكنيَّة قبل الزواج، وفكَّرتُ في مواصلة الاستثمار في ذلك النشاط التجاريّ وسواه ممَّا قد يعرض لي مستقبلًا، كما أوضحتُ لفابيان. كان ذلك شيئًا خارجًا على المألوف، فالنساء في محيطي الاجتماعيّ لا يعملن، دَعْ عنك نساء ذلك الإقليم، حيث تخلَّفنَ عن الركب عقودًا.

أكَّدتُ لفابيان أنَّ عملي لن يخلّ بدور الزوجة الصالحة، وربَّة البيت، وأمّ المستقبل، فاضطُرَّ إلى الموافقة على مضض، ما ترتَّب عليه تنقُّل زوجته بين الريف والمدينة، زِدْ على ذلك الخزي الاجتماعيّ. ولكنِّي صعبة المراس، لا أتخلَّى عن شيءٍ ما دام راسخًا في رأسي. وهكذا، بينما انصرف هو إلى الدراسة وإجراء التجارب والكتابة والتدريس باندفاعةِ حكيم مجنون، تولَّيتُ أمر النفقات المنزليَّة، وشرعتُ في الادِّخار، كما صرتُ أعطي الخال برونو معاشًا شهريًّا من أجل الخالتَيْن، كان يرفضه في كلِّ مرَّةٍ، فأودعه في حسابٍ للطوارئ، التي لا تخلو منها الحال أبدًا: إذ ماتت البقرة كلوتيلدي، فاضطُرَّ إلى استبدالها، كما سقط السياج في مهبّ العاصفة، وهزُل الحصاد، وجفَّت البئر، وأصيبَت فاكوندا بالتهاب المرارة فاقتضَت الضرورة سداد تكاليف الجراحة التي خضعَت لها.

أمّا كوني أعمل وأجني النقود وأُنفق على البيت، فلقد اعتُبِر إهانةً مُوجَّهةً لزوجي. شعرتُ بالذنب، وحاولتُ التقليل من شأن الجهد الذي بذلتُ إلى الحدّ الأدنى، فلم أذكر عملي في العلن قطّ. وفي حال تطرَّق أحدهم إلى الأمر، كنتُ أقول إنَّها هوايةٌ مُوقَّتة أتسلَّى بها، وأنوي التخلّي عنها متى أنجبتُ، بطبيعة الحال. بَيْد أنَّني، في قرارة نفسي، ما عدتُ أعتبر ذاتي عاجزةً وعديمة النفع، إذ أدركتُ براعتي في كسب المال. تلك البراعة التي ورثتُها عن أبي، الذي كان طائشًا، فتميَّزتُ أنا عنه برصانتي. كنتُ أفكِّر وأحسب، بينما عمد والدي إلى التحايل وتجريب الحظّ.

لماذا يموت الحبّ؟ كثيرًا ما تساءلت. لم يعطِني فابيان سببًا واحدًا للتوقُّف عن حبّه، بالعكس، فهو زوجٌ مثاليّ، لا أزعجني ولا طلب منّي شيئًا. كان، وظلّ حتى موته، رجلًا راقيًا. بمكاسبي ومساعدة عائلته، عشنا حياةً رغدة. امتلكنا بيتًا وثيرًا، نُشِرَت صورته في مجلَّة الهندسة المعماريَّة بوصفه نموذجًا للبناء الجاهز. كما تقبَّلني آل شميدت ـ إنغلر بقدر ما تقبَّلوا غيري من زوجات الأبناء، فاندمجتُ في الجالية الألمانيَّة، وإن لم أنجح في تعلُّم كلمةٍ واحدة من لغتهم. بفضل عمله، صار زوجي هو الخبير الأوفر حظًّا من الشهرة في البلد، بينما رحت أجني ثمار كلّ صفقةٍ يتفتَّق عنها ذهني. خلاصة القول إنَّ حياتنا بدَت مثاليَّةً في عيون الآخرين.

شعرتُ نحو فابيان بالمودَّة، على الرَّغم من علمي بأنَّني لم أقع في حبّه قطّ، كما أوضحَتْ لي ميس تايلور في غير مناسبة.

وعلى مدى الأعوام الخمسة التي استغرقَتها خطوبتنا، عرفتُه كظاهر يدي، وتزوَّجتُه علمًا منِّي بطباعه، وبأنَّه لن يتغيَّر. أمَّا هو، فلم يعرفني إلَّا قليلًا، أضف إلى ذلك أنَّني تغيَّرتُ كثيرًا. ضجرتُ بشخصه الودود سهل التوقُّع، وهوسه بالتلقيح والأبقار الحبلى، وعدم اكتراثه بكلِّ ما لا يهمّه على المستوى الشخصيّ، وصلابته، ومبادئه العتيقة التي لا تتزعزع، وغروره الخليق بالجنس الآريّ النقيّ، ذلك الذي عزَّزَته أعوام البروباغاندا النازيَّة، التي كانت تصل إلينا هنا أيضًا، في أقصى الطرف الآخر من العالَم. لا يسعني لومه على ذلك الاستعلاء، فكلّنا اعتبرنا المهاجرين القادمين من أوروبا أفضل منّا.

إنَّ هذا البلد شديد العنصريَّة. لك أن ترى كيف عاملنا السكَّان الأصليّين يا كاميلو. كان أحد أقربائنا يشغل مقعدًا بالمجلس في أواسط القرن التاسع عشر، فتقدَّم بمقترحٍ لإخضاع السكَّان الأصليّين بالقوَّة، أو القضاء عليهم، كما حدث في الولايات المتَّحدة، لأنَّهم من الهمج الذين لا يمكن ترويضهم، بل إنَّهم يعادون الحضارة، ويعيشون حياتهم مستغرقين في الآفات والبطالة والسُّكر والكذب والخيانة، وجميع الفظائع التي تنطوي عليها الحياة الهمجيَّة، كما جاء في كلماته نصًّا. شاع ذلك الحكم المسبق إلى الحدِّ الذي جعل الحكومة تدعو أهل أوروبا، ولا سيَّما الألمان والسويسريّين والفرنسيِّين، إلى المجيء واستيطان الجنوب لتحسين العِرْق. لم يصلنا مهاجرون من إفريقيا أو آسيا، لأنَّ القناصل قد تلقُّوا تعليماتٍ بالحيلولة دون ذلك. حتى اليهود والعرب لم يُقابَلوا بالترحاب، وإن جاؤوا على كلِّ حال. أعتقد

بأنَّ المستوطنين الأجانب، الذين احتقروا السكَّان الأصليِّين، لم يشعروا بالاحترام نحو الخلاسيِّين أيضًا.

ـ لستِ خلاسيَّة يا ڤيوليتا، فأسلافنا جميعًا من الإسبان والبرتغاليِّين، بل إنَّ عروق العائلة لا تشوبها قطرةٌ واحدة من الدماء الهنديَّة. ـ قالت لي الخالة پيلار حين تطرَّقنا إلى الأمر.

ظلَّت تراودني الشكوك نفسها التي راودَتني قبل الزواج. بينما لم يشكِّك فابيان في علاقتنا قطّ، ولم يُدرك أنَّني آخذةٌ في الابتعاد عنه، إذ كان الأمر عنده عصيًّا على الإدراك. قطعنا عهدًا أمام الربّ والمجتمع بأن نحبَّ ونحترم بعضنا بعضًا حتى الموت. ولكنَّ ذلك أمدٌ طويل. لو خُيِّل إليَّ حينئذٍ كم يمكن للحياة أن تطول، لبدَّلتُ ذلك البند من بنود عقد الزواج. ذات مرَّة، ألمحتُ إلى إحباطي بالأدب المعهود بيننا، فلم ينزعج زوجي البتَّة. كان يجب عليَّ التحدُّث بلهجةٍ أشدّ حسمًا حتى ينتبه إليَّ. أجابني بأنَّ الأزواج عادةً ما يواجهون المصاعب في البدء، وذلك أمرٌ طبيعيّ، غير أنَّهم يتعلَّمون التعايش مع الوقت، فيشغلون موقعهم في المجتمع، ويؤلِّفون العائلات. هكذا كان منذ الأزل، فذلك ما قضَت به البيولوچيا، ومتى أنجبت زاد شعوري بالرضا عن نفسي. «إنَّ قَدَر المرأة الأمومة»، قال.

وكانت تلك هي كبرى المشكلات التي واجهتنا: الأبناء الذين لم يأتوا. في اعتقادي، لا بدَّ من أنَّ عقم الزوجة قد شكَّل تحدِّيًا شخصيًّا لخبيرٍ في التكاثر مثل فابيان، الأمر الذي لم يُفصح عنه أمامي قطّ، بل اكتفى بسؤالي بين الحين والآخر، مستفسرًا برجاءٍ عمَّا إذا كانت لدينا أخبارٌ جديدة. وفي إحدى المناسبات،

أخبرَني في معرض حديثه بأنَّ البشر قد عرفوا التخصيب الصناعيّ منذ عهد السومريِّين، وبأنَّ خوانا ملكة البرتغال قد أنجبَت ابنةً بتلك الوسيلة عام 1462. أجبتُه بألَّا يحسبني واحدةً من بقراته، فلم يأتِ على ذكر الملكة خوانا مرَّةً أخرى.

أخافني احتمال الإنجاب، وعرفتُ بأنَّها ستكون نهاية الحرِّيَّة النسبيَّة التي حظيتُ بها، غير أنَّني لم أحاول منع الحمل إلَّا عن طريق النذور التي نذرتُها للأب كيروغا، والتي لا تدخل في نطاق وسائل منع الحمل. كنتُ أتحقَّق من عادتي كلّ شهر، فأتنفَّس الصعداء وأفي بنذري للقدِّيس في كنيسة ساكرامِنتو، التي ضمَّت لوحةً مريعةً مرسومةً بالزيت، تُصوِّر الكاهن مُمسِكًا بمجرفة، محاطًا بالأيتام.

أراد فابيان لنفسه زوجةً حبُّها غير مشروط بقدر حبّه، زوجةً تقاسمه مشروع حياته، تدعمه وتقرّ له بالإعجاب الذي يستحقّ، وفق ما يرى، غير أنَّه مُنِي بسوء الحظّ الذي أوقعه في حبّي أنا. لم يسعني إعطاؤه شيئًا من ذلك. ولكنْ أُقسم أنَّني حاولتُ بعناد، لأنَّ تلك هي المهمَّة التي وجب عليَّ أداؤها. ظننتُ بأنَّني سأغدو الزوجة المثاليَّة المُنتظَرة في النهاية، من فرط ما تظاهرتُ بذلك، الزوجة التي لا تملك طموحاتٍ خاصَّةً بها، بل تعيش حياتها من خلال الزوج والأبناء. من بين معارفنا، وحدها تيريسا ريباس تحدَّت ذلك الأمر الإلهيّ والاجتماعيّ، فصرَّحَت من دون مداراة بأنَّ الزواج يروِّعها، واعتبرَته وخيمًا على النساء.

أفلحتُ في خداع الآخرين بسلوك الزوجة السلسة الذي

اتَّبَعتُه، إلى الحدِّ الذي جعل أخوات زوجي، الفالكيريات[1] المبتهجات المجتهدات، يسخرن برقَّةٍ من طريقتي في تدليل زوجي وخدمته كما لو كنتُ من فتيات الغيشا. ذلك ما بدوتُ عليه في ظاهر الأمر، ولا سيَّما إذا كُنَّ في الجوار. أردتُ لفابيان أن يشعر بالراحة والإطراء، على نحو ما أوصَت به المجلّات النسائيَّة، لأنَّ الأمر يسير، وهكذا لا يتحقَّق فابيان من حقيقة مشاعري. كنتُ على قناعةٍ بأنَّه ما دام هو سعيدًا، فأنا أيضًا سعيدة. ولكنَّ ثياب الغيشا التنكُّريَّة حجبَت وراءها امرأةً غاضبة.

إنَّ رحلة الحياة مُؤلَّفةٌ من مسافاتٍ طويلة باعثةٍ على الضجر، نقطعها خطوةً إثر خطوة، يومًا بعد يوم، من دون أن تقع أمورٌ شديدة الأثر. أمَّا الذاكرة، فمُؤلَّفةٌ من حوادث غير مُتوقَّعة، تترك في المسيرة أثرًا. وتلك هي الحوادث التي يستحقّ سردها العناء. في الحياة الطويلة، مثل حياتي، بعض الشخصيَّات وكثيرٌ من الحوادث التي لا تُنسَى، ومن حسن حظّي أنَّ عقلي لم يخذلني. فعلى عكس جسدي المسكين المتداعي، ما زال دماغي لم يمسسه ضرر. إنَّ آفتي التذكُّر، يا كاميلو. ولكنّي سوف أتجاوز ثلاثة أعوام وبضعة أشهرٍ هي عمر زواجي من فابيان، إذ خيَّم هدوء الأديرة على تلك الفترة التي لم يتخلَّلها شيءٌ مأساويٌّ أو مذهلٌ أحكيه لك. كانت بالنسبة إليه أعوامًا هانئة للغاية. ولذا، فهو لم يُدرك أيّ لعنةٍ وقعَت، ولماذا رحلتُ ذات يوم.

(1) ڤالكيريات: ربَّات من الميثولوجيَّات الإسكندينافيَّة. (المترجم)

10

كان خوليان برابو طيّارًا في القوّات الجويّة الملكيّة لبريطانيا العظمى إبّان الحرب، وهو واحدٌ من أبناء أميركا اللاتينيّة القلائل الذين شاركوا في النزاع بتلك الطريقة. نال تكريمًا عن شجاعته ومهارته الانتحاريّة في مبارزة الطائرات الألمانيّة في الهواء. تقول الأسطورة إنّه قد أسقط ما يربو على ثمانين طائرة معادية بطائرته السبيتفاير، الأسطورة التي لم يُردّدها، وإن كان هو الذي أطلقها بنفسه، في غالب الظنّ.

ذات يوم، سقط على حياتي من السماء، فجاء تسبقه شهرة المحارب.

ولكنْ حتى لو لم يكُن له ذلك الماضي الرومانسيّ لترك في نفسي انطباعًا قويًا بالقدر نفسه، ذلك أنّه بطلٌ من أبطال الروايات.

هبط على صفحة البحيرة بطائرةٍ جومائيّة، إذ جاء يُقِلّ اثنيْن من

أفراد العائلة المالكة الدانماركيَّة، أقبلا إلى البلد في زيارةٍ رسميَّةٍ مع مرافقيْهما، بنيَّة الصيد في أنهارنا. نزلوا في فندق بافاريا، خير فنادق المنطقة، حيث استُقبِلوا من دون جَلَبَة، وكأنَّهم من نزلاء الفندق المعهودين. تفتَّق ذهن حماتي عن فكرة البساطة المدروسة، التي لاقت نجاحًا، فمدّ النبيلان الدانماركيَّان زيارتهما ومكثا معنا أسبوعًا. وهناك، في فندق بافاريا، تحت نظرات حماتي الداهية، وضحكات شقيقات زوجي المكتومة، تعرَّفتُ بخوليان.

كان جالسًا على دربزين الشرفة، مستندًا بإحدى قدمَيْه إلى الأرض، والسيجارة في إحدى يدَيْه، وكأس الويسكي في الأخرى، وقد ارتدى سروالًا باللون الكاكيّ وقميصًا أبيض قصير الأكمام، أبرز صدره وذراعَيْه الخليقتَيْن برياضيٍّ. كانت تشعّ منه طاقةٌ جنسيَّةٌ محفوفةٌ بالخطر، وكأنَّها قوَّةٌ مكبوتة في حيوانٍ ضخم، أدركتُها بوضوحٍ على بُعْد أمتارٍ منه. لا أملك وصفها بطريقةٍ أخرى، تلك الطاقة الفحوليَّة العصيَّة على المقاومة التي كانت تشعّ من خوليان، فميَّزَته في شبابه، ولم تتغيَّر حتى موته، بعد أكثر من أربعين عامًا.

وبينما أنا عاجزةٌ عن الحراك، قبلتُ أن تنقلب حياتي في تلك اللحظة انقلابًا لا رجوع فيه، بمزيجٍ من الهوْل والشوْق الطارئ. لا بدَّ من أنَّه قد أحسَّ بقوَّة هواجسي، إذ التفت إليَّ بنصف ابتسامةٍ تشي بالفضول. استغرق ثواني طوالًا في إنزال قدمه الأخرى على الأرض، ثم ترك الكأس على الدربزين، وتقدَّم نحوي بطريقته المعهودة، بينما هو يختال في مشيته كالطاووس، كما يفعل رعاة الأبقار في أفلام الغرب. في وقتٍ لاحق، أكَّد لي

أنَّه قد شعر بالشيء نفسه: اليقين بأنَّنا عشنا نبحث عن بعضنا بعضًا حتى ذلك الوقت، وأخيرًا عثر كلٌّ منَّا على الآخر.

توقَّف على بعد خطوتَيْن منِّي، وراح يجيل بصره فيَّ، من قمَّة رأسي إلى أخمص قدمَيَّ، بنظرة بائعٍ في المزاد. شعرتُ كالعارية في ثوبي الصيفيّ الأبيض المحتشم.

ـ أنا وأنتِ نعرف بعضنا بعضًا، أليس كذلك؟ ـ سألني.

أومأتُ بالإيجاب، في صمت.

ـ تعالي معي. ـ أردف وهو يسحق السيجارة بقدمه ويمسك يدي.

نزلنا إلى الشاطئ فيما يشبه الركض عَبْر الدرب الذي يتلوَّى كالثعبان وسط شرفات الحديقة. مضيتُ في أثره وأنا مُنوَّمةٌ بالإيحاء، فلا أفلتُّ يده ولا فكَّرتُ أنَّ زوجي ونصف عائلته قد يشاهدونني وأنا على تلك الحال. لم أقاوم عندما نزل بركبتَيْه على الرمال، وجذبني إلى جواره، ثم قبَّلني بقوَّةٍ جديدةٍ مهولة.

ـ قدرنا أن نحبَّ بعضنا بعضًا. ـ قال مُؤكِّدًا، فأومأتُ من جديد.

وهكذا، بدأ الشغف الذي سوف يضع نهاية زواجي ويحدِّد مستقبلي. ضرب لي خوليان برابو موعدًا في حُجرته. وبعد نصف ساعة، كان كلانا عاريًا في أوجِّ النهار، يستكشف الآخر باستماتةٍ مُنحرِفةٍ في فندق حماتي، على بعد أمتارٍ قليلةٍ من زوجي، الذي مضى يحتسي البيرة برفقة الدانماركيَّيْن، ويوضح لهما عن طريق المترجم تقنيَّته المدهشة في التلقيح الصناعيّ. وفي الطابق الثاني، بين أربعة جدران من الخشب الذي تنبعث منه رائحة الغابة

الأصليَّة، وتحت الضياء الذي تسلَّل منخولًا عَبْر ستارةٍ ريفيَّةٍ من القماش الخامّ، على فراشٍ من الريش وملاءاتٍ من الكتَّان، كتلك المفروشة في سائر حُجرات الفندق، تعلَّمتُ وأنا في الثامنة والعشرين احتمالات اللذَّة المُفاجِئة، والفارق الجوهريّ بين زوجٍ حظّه من الإلهام قليل، وعاشقٍ يليق بالروايات.

حتى الأمسية التي أمضيتُها يومذاك مع خوليان برابو، كنتُ شديدة الجهل بجسدي، الجهل الذي لا يمكن تفسيره إلَّا في ضوء الزمن والمكان اللذين وُلِدتُ فيهما. نشأتُ مع أمٍّ مُتكلِّفةٍ أنجبَت ستَّة أبناءٍ جاء بهم الطفل يسوع من السماء، حسبما أكَّدَت لي هامسةً، وخالتَيْن كلتيْهما عانس، لم تذكر أيٌّ منهما منطقة «البلاد السفلى» قطّ، أي المنطقة الواقعة بين الخصر والركبتَيْن. ماتت الخالة پيا عذراء. أمَّا الأخرى، فمن يدري! لعلَّها شاركَت برونو ريباس الفراشَ في شيخوختها، بَيْد أنَّها لم تعترف لي بذلك يومًا. في حين اكتفَت چوزِفين تايلور بأن أطلعَتني على رسومٍ توضيحيَّةٍ تُظهِر الجسد البشريّ في أحد الكتب، لأنَّها كانت محتشمةً بقدر الخالتَيْن، على الرَّغم من أفكارها الثوريَّة. معها تعلَّمتُ خلع الثياب وارتداءها بمناوراتٍ خليقةٍ بالسيرك، تجنُّبًا لابتذال العري. لم تكُن لي صديقاتٌ في مثل عمري، ولم أذهب إلى المدرسة. أمَّا معرفتي القليلة بذلك الشأن، فاستقيتُها من تزاوج الحيوانات في المزرعة. تزوَّجتُ، ولكنِّي ما برحتُ أخلع ثيابي كما تعلَّمتُ مع ميس تايلور. كنتُ وفابيان نمارس الحبّ في صمت، تحت جنح الظلام، فلم أتصوَّر خياراتٍ أخرى، وأعتقد بأنَّه لم يهتمّ باللقاءات التي جمعَتنا بقدر اهتمامه بتكاثر الأبقار.

نزع خوليان ثوبي بضربتَيْن من مخالبه، بتلقائيَّة الفهد، فلم يتِح لي فرصةً للاعتراض، بل أخمد صيحة الخوف الأولى بقبلةٍ على ثغري. ومن ذلك الوقت فصاعدًا، تخلَّيتُ عن كلِّ بادرةٍ من بوادر المقاومة، فوددتُ لو أتفتَّتُ وأتلاشى بين يدَيْه، ووددتُ لو أبقى هناك خلف الباب المُقفَل إلى الأبد، فلا أرى أحدًا ما حييت، لا أرى أحدًا سواه. راقبني من جميع الجوانب، ومضى يقيسني ويقدِّرني مُعقِّبًا بإعجابٍ مفعمٍ بالإطراء على شكل نهدَيَّ وخصري ولمعان شعري ونعومة بشرتي ورائحة الصابون المنبعثة منِّي وجوانب أخرى لم أكُن قد انتبهتُ إليها قطّ، جوانبَ لم تكُن استثنائيَّةً، لو شئنا الصراحة.

أدرك أنَّ تعديد مفاتني يُشعِرني بالخجل، فمضى بي إلى مرآة الخزانة الكبيرة، وهو يكاد يحملني في الهواء حملًا، وهناك رأيتُ امرأةً مجهولةً، عارية، مُرتجِفة، شعرها متناثر، وإذا هي صورةٌ مُجسَّدةٌ للمجون، كان من شأنها أن تروِّع الخالتَيْن لو وقع بصرهما عليها، غير أنَّها جعلَتني أشعر بالاسترخاء، فعند ذلك الحدّ لم يعُد هناك مُتَّسعٌ للشكوى، ولم يعُد شيءٌ يهمّني. حينذاك، اقتادني إلى الفراش مرَّةً أخرى، واستغرق كلّ ما في العالَم من وقتٍ حتى يداعب جسدي كاملًا، بجرأةٍ وئيدةٍ لذيذة، وهو لا ينتظر شيئًا في المقابل، هامسًا إليَّ بقائمةٍ من كلمات الجنون والتدليل والبذاءة. لا بدَّ من أنَّ التفاوت بين ارتباكي وحكمته كان هزليًّا، الأمر الذي لم يُخمِد حماسته، وإنَّما زاد جهدَه المبذول من أجل مرضاتي.

آمل ألَّا تثير حفيظتك الإشارةُ العابرة إلى الجنس يا كاميلو،

فهي ضروريّةٌ كي تفهم السبب الذي أخضعني لسلطان خوليان برابو على مدى أعوامٍ طوال. عرفتُ عددًا من العشّاق في حياتي، ولكنّي لن أتباهى، إذْ لم يكُن عددهم كبيرًا.

تكمن التجربة المثاليّة في ممارسة الحبّ مع من تحبّ. الأمر الذي لا ينطبق على ما جرى بيني وبين خوليان مساء ذلك اليوم، لأنَّه خلا من كلّ أثرٍ للحبّ، واقتصر على محض الرغبة البسيطة، الرغبة الوحشيّة، الخالصة، الخالية من اللفّ والدوران ووخز الضمير، من دون أدنى اعتبارٍ لأيّ شيءٍ ولأيّ شخص. وإذا بنا الرجل الوحيد والمرأة الوحيدة في الكون، وإذا بنا قد هُجِرنا للذّة المطلقة. أمّا اكتشاف النشوة، فكان جارفًا بقدر اكتشاف المرأة التي حملتُها مختبئةً في داخلي، تلك المرأة المجهولة التي بدَت صورتها على صفحة المرآة، تلك المستهترة، الخائنة، الجامحة، السعيدة.

أمضينا المساء معًا. لا شكّ أنَّ فابيان راح يسأل عمّا إذا كان أحدهم قد رآني في تلك الساعات، على ما أعتقد. سمعتُ الجرس يدقّ معلنًا فتح قاعة الطعام لتناول العشاء، فأدركتُ ضرورة نفض ذلك الوسن الذي منعني من الحراك ومن فتح عينَيّ، وأنا خائرة القوى. تركني خوليان مُستكِنّةً في الفراش، وارتدى ثيابه على عجلٍ، ثم خرج. لا أدري كيف تدبَّر أمره حتى يحصل على خبزٍ وجبنٍ وسلمونٍ مُدخَّن وعنبٍ وقنّينة نبيذ من المطبخ، ولا كيف صعد إلى حُجرته بتلك الوجبة الخفيفة من دون أن يُثير الشكوك. أكلنا جالسَيْن أرضًا، وكلانا عارٍ من الثياب. رشفتُ نبيذًا من فمه، وأكل عنبًا من فمي.

استطعتُ مراقبته، وتقديره، كما فعل بي من قبل. لا شكَّ أنَّه كان أوسم الرجال الذين رأيتُهم عن كثب مدى الحياة: بما له من عضلاتٍ مفتولة، ومرونةٍ، وسمرةٍ اكتسَبتْها بشرته من رأسه إلى قدمَيْه بتأثير الرياضة والهواء الطلق، وكأنَّه قد تشمَّس عاريًا من الثياب، أضف إلى ذلك ابتسامته العصيَّة على المقاومة التي تضيق لها عيناه فتبدوان كالخطَّيْن، وشعره الداكن، وحدقتَيْه المُشرقتَيْن، اللتين تتلوَّنان بالأخضر أو الأزرق بحسب الإضاءة، فضلًا عن بعض التجاعيد الغائرة وكأنَّها منحوتةٌ بالإزميل في وجهه. لم أدرِ يومذاك، ولكنِّي سرعان ما اكتشفتُ أنَّ له صوتًا يداعب الأسماع، خليقًا بمُغنِّي تينور، وأنَّه كان يجني قوته بالغناء في الملاهي الليليَّة بإنجلترا والولايات المتَّحدة، في فترةٍ مرَّ خلالها بضائقةٍ ماديَّة.

ليلتذاك، لم أعُد إلى بيتي. استيقظتُ فجرًا، وقد التحفتُ بذراعَي خوليان في عشٍّ من الملاءات المُجعَّدة التي تركها العرقُ والجنسُ رطبةً. أفقتُ ذاهلةً، لا أذكر بوضوح أين أنا. استغرقتُ أكثر من دقيقةٍ حتى أدركت أنَّ شيئًا لن يعود كما كان. يجب عليَّ أن أواجه فابيان وأوضح له ما جرى.

ـ هدِّئي من روعكِ يا ڤيوليتا. أمامكِ حلٌّ. أخبري زوجكِ بأنَّكِ لم تكوني على ما يُرام، فنمتِ في الفندق. ـ اقترح عليَّ خوليان حين رأى الاضطراب الذي استحوذ عليَّ، ولكنَّها حجَّةٌ عبثيَّة.

ـ كنَّا في فندق حماتي. لو نمتُ وحدي لعرفَتْ، لأنَّني كنتُ سأشغل إحدى حُجرات الفندق.

ـ ماذا تنوين أن تقولي لفابيان؟

ـ الحقيقة. لعلَّك تفهم أنَّني لا أستطيع العودةَ إليه.

ـ اسمعي، كثيرٌ من الأزواج يتغافلون عن الأمر لتجنُّب المشكلات. سوف يصدِّقك مهما قلتِ له. ـ أجابني، في ترقُّب.

ـ أتلك هي تجربتك؟ ـ سألتُه، وشعورٌ مبهمٌ يراودني بأنَّني أخطو على أرضٍ زلقة.

ـ ڤيوليتا، لستُ مرائيًا، بل إنَّني عملي. لم يرَنا أحد، في وسعنا تجنُّب المشكلات. لا أنوي تخريب حياتك...

ـ لقد خُرِّبَت حياتي بالفعل. وما العمل الآن؟

ارتدينا ثيابنا على عجل، فسبقني هو إلى الخروج. صفَّفتُ شعري بمشط خوليان، ثم خرجتُ من دون أن أغتسل، على أطراف أصابعي، عَبْر الأروقة، وأنا أبتهل كيلا يراني أحد. ترقَّبتُ مختبئةً في الحديقة. وبعد ثوانٍ، أقلَّني خوليان بإحدى السيَّارات التي كانت في خدمة الدانماركيَّيْن، ومضى بي إلى المحطَّة لركوب القطار المُتَّجه إلى ساكرامِنتو. في العاشرة صباحًا، كنتُ في مكتب شركة البيوت الريفيَّة مع شقيقي.

ـ ماذا أنتِ فاعلة هنا يا ڤيوليتا؟ ظننتُكِ في فندق باڤاريا مع الدانماركيِّين.

ـ لقد تركتُ فابيان.

ـ أين؟

ـ لقد هجرتُه، يا خوسّيه أنطونيو. لن أعود إليه، لقد ذهب زواجنا إلى الجحيم.

ـ ربَّاه! ماذا جرى؟

أصغى إليَّ شقيقي وقد ارتسم على وجهه الارتياع والاستنكار، وجهه الخليق بالبطريرك الوريث، المسؤول عن شرف العائلة؛ بَيْد أنَّه، كما حسبتُ، اكتفى بسؤالي كيف يستطيع مساعدتي، وهو يجفِّف جبينه بردن القميص، بدلًا من محاكمتي ومحاولة إقناعي بإمكانيَّة إصلاح الخطأ. ثم التقط التليفون وترك لفابيان رسالةً في مزرعة آل شميدت ـ إنغلر، وأخرى في فندق بافاريا.

وبانتصاف النهار، اتَّصل زوجي بالمكتب وقد هدَّأ من روعه إذ علم بأنَّني مع شقيقي في المدينة، بعد أن اتَّضح الأمر برمَّته أخيرًا. طلب فابيان إخطاره بموعد وصولي حتى ينتظرني في المحطَّة.

ـ أخشى أنَّه يجب عليك الحضور إلى هنا يا فابيان. لدى فيوليتا أمرٌ جادّ لتخبرك به. ـ أخبره خوسِّيه أنطونيو.

وصل زوجي إلى ساكرامِنتو بعد ساعات، حيث واجهنا بعضنا بعضًا في المكتب، وقد نصَّب شقيقي نفسه حارسًا في الحُجرة المجاورة، خشية أن ينهال عليَّ زوجي بالضرب المبرِّح، الذي كان سيبدو لخوسِّيه أنطونيو مُبرَّرًا تمامًا.

ـ فيوليتا، أمضيتُ ليلةً عصيبةً وأنا أفتِّش عنكِ في كلِّ مكان. ذهبتُ إلى ناويل حتى أسأل خالتَيْكِ عنك. لماذا رحلتِ ولم تُخبريني؟

ـ فقدتُ عقلي وولَّيتُ هاربة.

ـ لن أفهمكِ أبدًا يا فيوليتا. حسنًا، لا يهمّ، فلنعُد إلى البيت.

ـ أريد الانفصال.

ـ ماذا تقولين؟

ـ أقول إنَّني لن أعود إليك. لقد وقعتُ في حبّ خوليان برابو.

ـ الطيَّار؟ ولكنَّكِ تعرَّفتِ به أمس! لقد جُننتِ!

أرغمه وقع الخبر على الجلوس. تراءى له فراقي احتمالًا بعيدًا، بقدر اختفائي بالاحتراق الذاتيّ.

ـ لا أحد ينفصل يا ڤيوليتا! مشكلات الأزواج طبيعيَّة، وتُحلّ خلف الأبواب، من دون إثارة الفضائح.

ـ سوف نُبطِل عقد الزواج يا فابيان.

ـ لقد فقدتِ رشدكِ تمامًا. لا يمكنكِ أن تضيِّعي زواجنا بسبب نوبة طيش.

ـ أريد إبطال الزواج، صمَّمتُ. وقد بلغتُ من التوتُّر حدًّا جعل صوتي يرتجف.

ـ لا تتفوَّهي بحماقاتٍ يا ڤيوليتا. لقد اختلط عليكِ الأمر. أنا زوجكِ، ومن واجبي أن أحميكِ. سأتولَّى الموقف. ابقي هادئة، سأحلّ هذه الورطة، لا يجب أن يعلم أحدٌ بما جرى. سأتحدَّث إلى ذلك الوغد.

ـ لا صلة لخوليان بذلك، فالأمر بيني وبينك. يجب علينا إبطال الزواج يا فابيان. ـ كرَّرتُ للمرَّة الثالثة.

ـ لن أقبل بهذه الأكذوبة ما حييت! نحن زوجان أمام

القانون، والربّ، والمجتمع، ولا سيَّما أمام عائلتَيْنا! ـ قال، مُتلعثِمًا.

ـ فكِّر في الأمر يا فابيان! فإبطال الزواج سوف يحرِّرك أنت أيضًا. ـ تدخَّل شقيقي الذي جاء حين سمع الموقف يحتدم.

ـ لستُ في حاجةٍ إلى التحرُّر! أنا في حاجةٍ إلى زوجتي! صرخ زوجي، وما لبث أن استنفد الغضب قواه، فانهار فابيان على أحد المقاعد، دافنًا وجهه بين يدَيْه، وهو يغصّ بالبكاء.

كما تعلم يا كاميلو! لم يُسمَح في هذا البلد بالطلاق حتى القرن الحادي والعشرين، عندما بلغتُ الرابعة والثمانين من العمر، ولم يعُد في وسعي الانتفاع به. قبل ذاك، كان المخرج القانونيّ الوحيد من الزواج إبطاله بحِيَل المحامين، وإثبات عدم اختصاص مسؤول السجلّ المدنيّ، بسبب سوء تفاهم في بيت الطرفَيْن المتعاقدَيْن في غالب الأحوال. كان أمرًا يسيرًا ما اتَّفق الطرفان، إذ يكفي لإتمامه شاهدان على استعدادٍ للشهادة زورًا، وقاضٍ متساهل.

أبى فابيان أن يأخذ الفكرة حتى بعيْن الاعتبار، تلك الفكرة التي بدَت له مُنحلَّةً في الأصل، ومشينةً في التنفيذ. قال إنَّه موقنٌ بقدرته على الفوز بقلبي مرَّةً أخرى، كما طلب منّي فرصةً ثانية، وقال إنَّه قد وقع في حبّي منذ رآني، وإنَّه لم يحبّ امرأةً أخرى قطّ، وإنَّ الحياة لا معنى لها من دوني، وإنَّه قد انصرف إلى عمله بالكامل وأهملني، وانطلق يُفضي بما في روحه حتى انقطع صوته وبكاؤه.

اقترح خوسّيه أنطونيو أن نتمهّل حينًا للتفكير، وفي تلك الأثناء يمكنني البقاء معه في ساكرامِنتو، وبذلك نُسكِت أسئلة العائلة.

وأخيرًا، وافق فابيان على الهدنة ريثما تهدأ النفوس. اتّفق له أن كان مُسافِرًا إلى الأرجنتين لتخصيب تسعمئة بقرة في مزرعةٍ تقع في باتاغونيا، وتهجينها بسلالات هولستين وچيرسي ومونتبيلياردي، كما أوضح لنا، بما لا يلائم الموقف. وبذلك يتغيَّب عدَّة أسابيع، بينما أجد فرصةً لإعادة التفكير. طبع قبلةً على جبيني عند الوداع، طالبًا من شقيقي الاعتناء بي إلى حين عودته، لئلّا أرتكب المزيد من الأفعال المجنونة.

اتَّصل شقيقي بخوليان في مزرعة حمواي، حيث تلقّى دعوةً إلى ترويض الخيل. ثبت أنَّه بطلٌ في رياضة قفز الحواجز، تلك الموهبة الأخرى التي كنتُ جاهلةً بشأنها، بل إنَّه بلغ من الخبرة في الخيل حدًّا جعله لا يخسر نقودًا في المراهنة على سباق الخيل قطّ.

ـ خيرٌ لك أن تحضر فورًا إلى ساكرامِنتو أيُّها الشابّ. يجب علينا أن نتحدَّث. ـ أمره شقيقي بنبرةٍ مفعمةٍ بالوعيد لا تقبل التأجيل.

ولكنَّ ترهيب خوليان برابو ضربٌ من المحال، وهو الرجل الذي جازف بحياته في الحرب طوال أعوام، عاشق الرياضات الخطيرة الذي يقفز بالمظلّة في قلب الأمازون، ويركب الأمواج الأشدّ ارتفاعًا بالعالَم في البرتغال، ويتسلّق قمم جبال الأنديز

المنيعة من دون حبال، ويراقص الموت. إنَّ تلك الجرأة التي لا تلين هي التي أفضَت به إلى الأنشطة غير المشروعة، بطبيعة الحال، كما حدث في وقتٍ لاحق، عندما جنَّدَته المافيا. لم يلبِّ استدعاء شقيقي بدافع الخوف، وإنَّما ذهب لأنَّ الليلة التي أمضيناها معًا قد أثَّرَت في نفسه، وظلَّ يفكِّر فيّ.

وصل إلى ساكرامِنتو في أولى قطارات اليوم التالي، وقضى معي البقيَّة الباقية من الأسبوع، حتى صار عليه أن يرجع إلى فندق باڤاريا، وإلى طائرته الجومائيَّة الطافية على سطح البحيرة، حتى يقلّ الدانماركيِّين عائدًا إلى الحضارة مرَّةً أخرى.



11

أمضيتُ وخوليان تلك الأيَّام في حفل سرِّي، ولا شغل لنا إلَّا مطارحة الغرام وشرب النبيذ الأبيض. لم أُعطِ شقيقي أيَّ مُبرِّرات، ولكنَّه أدرك أنَّ شيئًا لن يقنعني بالعدول عن رأيي، وأنَّ خير الأمور الانتظار حتى ينطفئ الشغف وأعود إلى رشدي. غصتُ في مستنقعٍ لذيذٍ من الرغبة التي لا تكاد تخبو حتى تشتعل من جديد، لأنَّ شيئًا لم يروِ العطش البدائيّ الذي استبدّ بذلك الرجل. خُيِّل إليَّ أن أهجر نفسي بين ذراعَيْه إلى الأبد، فأنبذ العالَم الموجود خارج تلك الحُجرة، ذلك العالَم المُثلَّج، الذي يخلو منه هو.

لزمتُ حُجرته في الفندق، إمَّا عارية وإمَّا ملتحفة بواحدٍ من أقمصته، لأنَّني لم أحمل شيئًا غير الثياب التي كنتُ أرتديها عندما غادرتُ فندق بافاريا. كنتُ أنتظره في شوق، وأعدّ الدقائقَ والساعات التي أمضيها وحيدة. طالَت الساعات، لأنَّ خوليان لم

يحتمل الحبس، فكان يذهب لركوب الخيل في نادي الفروسيَّة أو مزارع أصدقائه. أمَّا أنا، فكنت أنسى كلّ شيءٍ حالما أسمع وقع خطواته على الجانب الآخر من الباب، وأراه واقفًا على أعتاب الحُجرة، فحلًا، باسمًا، مهيمنًا، مسرورًا، ببشرته التي ندَّاها العرق إثر التمارين. كانت الأوقات التي أمضيناها معًا، والليالي التي نمتُها مُستكِنَّةً إلى جسده، كافيةً لتبديد شكوكي وتغذية وهم الفتاة المُراهِقة في نفسي. سلَّمتُ نفسي إلى لهفة العشق، في خضوعٍ مُطلَقٍ يبدو لي الآن، في ضوء الأعوام، عصيًّا على الفهم. وإذا بي أفقد العقل والطمأنينة، فما عاد شيءٌ يهمّني سوى البقاء معه.

وفي وقتٍ لاحق، عندما اضطُرّ إلى الرحيل، اشتريتُ ما لا غنى عنه من الثياب للبقاء على قيد الحياة، وطلاء شفاه أحمر لرفع معنويَّاتي، ثم نزلتُ في شقَّة خوسّيه أنطونيو، وأنا لا أنوي الرجوع إلى حياتي السابقة، كما قلتُ لفابيان حين عاد من الأرجنتين، وجاء يحمل إليَّ باقةً من الأزهار. كرَّر أنَّه لن يُبطل الزواج ولا حتى على جثَّته، وسألني كيف أتدبَّر حالي وحيدةً، لأنَّ الطيَّار اللعين قد اختفى عن الأنظار، على ما يبدو.

لم يختفِ خوليان كما ظنَّ فابيان، بل إنَّه صار يحضر لرؤيتي متى سمح له عمله بذلك، فيضيف كلّ لقاءٍ بيننا حلقةً جديدةً إلى السلسلة التي شددتُ بها وثاقي، من دون أن يبذل خوليان من الجهد سوى أقلّ القليل. في أعقاب الحرب، عمل طيَّارًا تجاريًّا لفترة، حتى استطاع شراء طائرته الجومانيَّة الخاصَّة، وعمل في نقل المسافرين والبضائع إلى أمكنةٍ خاليةٍ من ممرَّات الهبوط. كانت الطائرة عبارةً عن آلةٍ صفراء لافتة للانتباه، قَطَع أميركا

الجنوبيَّة على متنها بعقود عملٍ خاصَّة. آنذاك، اشتهر جنوب هذا البلد بأنَّه جنَّة صيد الأسماك ومراقبة الطيور. ولذا، فكثيرًا ما حضر إلى هنا برفقة عملائه. كنتُ أستقبله وأنا أعدّ الساعات والدقائق التي سوف نقضيها معًا، ثم أودِّعه تاركةً علاماتٍ في التقويم أشير بها إلى غيابه.

أعتقد بأنَّ سذاجتي العمياء قد أربكَته، لعلّه خطَّط للتخلُّص منّي فلم يتسنَّ له ذلك، إذ وجد نفسه أسيرًا في خيوط الحبّ الذي لا مُتَّسع له في حياته الحافلة بالمغامرة. تشبَّثتُ به بلهفة الأيتام، وأبيتُ التفكير في جبال العقبات القائمة أمامنا، فلم يكُن ذلك الجبل هو الذي هزم مقاومتي، وإنَّما خوان مارتين.

في واحدٍ من أحاديثنا الحميمة، سألني خوسِّيه أنطونيو عمَّا إذا كنتُ أنوي البقاء عشيقةً لخوليان برابو حتى انقضاء أيَّامي. كلَّا، لم يكُن ذلك مُخطَّطي بالطبع. إذ فكَّرتُ في الزواج به حالما أتمكَّن من التغلُّب على عناد زوجي الشرعيّ، فلم يُخيَّل إليَّ أن تستمرّ ضغائن فابيان أعوامًا. أيقنتُ بقدرتي على الزواج من خوليان قريبًا، إلى الحدّ الذي جعلني لا أتوخَّى الحذر الواجب ونحن نتمرَّغ في الفراش بذلك الشغف المستميت الذي تمكَّن من إثارته في نفسي. كنَّا نتَّخذ احتياطنا، ولكنْ جزئيًا، فنستخدم الواقي تارةً، وننساه أو نتسرَّع تارةً. تكوَّنَت لديَّ فكرة، لا أساس راسخًا لها، ومفادها أنَّني عاقر، ولذا لم أنجب من زوجي. فبوغِتُّ بالعاقبة المنطقيَّة لكلِّ هذا التهاون فجأةً.

علم خوليان بحمْلي في إحدى زياراته، فسألني أوَّل ما سألني عمَّا إذا كان المسؤول عن ذلك هو فابيان.

ـ كيف يكون هو المسؤول عن ذلك وأنا لم أرَه منذ خمسة أشهر! ـ أجبتُه، شاعرةً بالإهانة.

احمرَّ وجهه من فرط الغضب، وراح يذرع المكان بخطًى واسعة، ويتَّهمني بأنَّني قد فعلتُها عمدًا، ويقول إنَّني لو نويتُ الإيقاع به في الأسر بما فعلت فأنا مخطئة تمامًا، وإنَّه لن يضحِّي بحرِّيَّته أبدًا.. وظلَّ على تلك الحال حتى انتبه إليَّ وقد انكمشتُ على الأريكة، ورحتُ أبكي مرعوبةً.

بدا وكأنَّه يفيق من نوبة، فانحسرَت موجة الانفجار في ثوانٍ قليلة، وإذا هو يجثو على ركبتَيْه إلى جواري، ويهمس إليَّ مُعتذِرًا، طالبًا منِّي الصفح لأنَّ ردّ فعله قد جاء تحت وطأة المفاجأة، وقال إنَّ ما جرى لم يكُن ذنبي وحدي بالتأكيد، فالمسؤوليَّة تقع على عاتقه هو أيضًا، ويجب علينا اتِّخاذ قرارٍ في كيفيَّة حلّ المشكلة.

ـ ليست مشكلة يا خوليان، بل إنَّه طفل. ـ أجبتُه.

فأسكَته ردِّي، إذ لم يكُن قد أخذ الأمر بعيْن الاعتبار حتى تلك اللحظة.

بعد حين، عندما هدأ كلانا، صبَّ خوليان لنفسه كأسًا من الويسكي، واعترف بأنَّه لم يجد نفسه أمام معضلة الأبوَّة في أيِّ وقتٍ مضى، طوال أكثر من ثلاثين عامًا حافلة بالمغامرات الغراميَّة في أربع قارَّات.

ـ إذن، فأنت أيضًا ظننتَ نفسك عقيمًا! ـ قلتُ له، ثم أغرق كلانا في الضحك، وإذا بنا نشعر بالراحة والبهجة فجأةً، ونرحِّب بالكائن الذي يبحر هائمًا في بطني.

ظننتُ فابيان سوف يُعيد التفكير في الأمر متى بلغه الخبر. وإلّا فلمَ يظلّ مُتزوِّجًا من المرأة التي حبلَت بابن رجلٍ سواه؟ ضربتُ له موعدًا بمتجر مخبوزاتٍ في ساكرامِنتو للوصول إلى اتِّفاق. كنتُ مُتوتِّرةً، أعدُّ نفسي لمعركة، ولكنَّه ما كاد يصل حتى جرَّدني من سلَاحي، آخذًا بكلتا يدَيّ، طابعًا قبلةً على جبيني. سُرَّ برؤيتي، لأنَّه كان يفتقدني، حسبما قال. وبينما هو يصبّ لنا الشاي، رحنا نتكلَّم على توافه الأمور، وآخر أخبار العائلة، فحكيتُ له عن الخالة پيا التي تعاني المغص والوهن. أخبرتُه بأنَّ الخالة پيلار سوف تحضر بها إلى مستشفى ساكرامِنتو لإجراء الفحوص اللازمة، لأنَّ طقوس يايما وأدويتها لم تُجدِ نفعًا. جاء كلامي متبوعًا بصمتٍ باعثٍ على الضيق، اغتنمتُه لأُخبره بحالتي، دفعةً واحدة، وأنا أداري نصف وجهي خلف الفنجان.

وإذا هو يهبّ واقفًا، متفاجئًا، وابتسامةٌ مفعمةٌ بالأمل تتراقص في عينَيْه، وقبل أن يسعفه الوقت للسؤال، أكَّدتُ له أنه ليس هو الأب.

ـ ستنجبين ابنًا غير شرعيّ! ـ غمغم تاركًا نفسه يتهاوى على المقعد.

ـ ذلك رهنٌ بك يا فابيان.

ـ لا تعتمدي على إبطال الزواج. تعرفين رأيي في الأمر.

ـ ليست هذه مسألة مبادئ، بل خُبث. تريد أن تؤذيني. حسنًا، لن أطلبه منك مرَّةً أخرى. ولكنْ، لا بدَّ من أن تُعطيني نصف ممتلكاتنا، مع أنَّها لي بالكامل، في واقع الأمر، لأنَّني

أنفقتُ عليك منذ تزوَّجنا، أمَّا النقود التي في حسابنا المشترك فلقد جنيتُها بنفسي، وهي لي أنا.

ـ من أين جئتِ بتلك الفكرة، وظننتِ أنَّكِ تملكين الحقّ في أيِّ شيءٍ بعد أن هجرت البيت؟

ـ سأطالب به يا فابيان، وإن لجأتُ إلى القضاء.

ـ اسألي أخاكِ، ولنرَ ماذا يقول؟ أليس محاميًا؟ حسابات البنك باسمي، والبيت أيضًا، وجميع ما نملك. لا أنوي أذيَّتكِ، كما تقولين، وإنَّما حمايتكِ يا ڤيوليتا.

ـ ممَّ تحميني؟

ـ من نفسكِ. لقد جُننتِ. أنا زوجك، أحبُّكِ من كلِّ روحي، وسأحبُّكِ ما حييت. بإمكاني الصفح عنكِ يا ڤيوليتا. لم يفُت أوان الصلح بعد...

ـ أنا حامل!

ـ لا يهمّ، أنا على استعداد لتربية ابنك كما لو كان ابني. دعيني أساعدكِ، أرجوكِ...

لم أعاود لقاء فابيان إلَّا بعد مضيِّ عام ونصف العام. ولقد أكَّد لي خوسِّيه أنطونيو أنَّني لن أستطيع الحصول على شيءٍ من النقود التي ظننتُها تحقّ لي، فأيّ مبلغٍ أحصل عليه رهنٌ بنوايا زوجي الحسنة. أمضيتُ الأشهر التالية بين شقَّة أخي والمكتب، فلم أرَ خلالها سوى بعض عملاء شركة البيوت الريفيَّة. أخبرتُ الخالتَيْن وآل ريباس وجوزِفين وتيريسا عَبْر التليفون، فهنَّأني الجميع باستثناء الخالتَيْن، إذ حزنَت كلتاهما بشدَّة حين بلغهما

أنَّني قد هجرتُ فابيان، ونزل عليهما ذلك الخبر كالهراوة. كان عزاؤهما الوحيد أنَّنا بعيدون عن العائلة ونميمة العاصمة.

ـ يا بنت! ربَّاه! لم يحدث أن كان بيننا لقيطٌ في أيِّ وقتٍ مضى. ـ قالت لي الخالة پيا وهي تنشج بالبكاء.

ـ في عائلتنا عشرات من اللقطاء يا خالتي، ولكنَّ أحدًا لا يُحصي عددهم لأنَّهم وُلِدوا لرجال العائلة. ـ أوضحتُ لها.

ولمَّا بدأ بطني في البروز، بقيتُ شبه متواريةٍ عن الأنظار حتى أتجنَّب عائلة فابيان والأصدقاء المشتركين.

وُلِد ابني في مستشفى ساكرامِنتو يومَ احتُجِزَت الخالة پيا هناك لإجراء عددٍ من الفحوصات. وبفضل تلك المصادفة، كنتُ برفقة هاتيْن العجوزَيْن العزيزتَيْن، وخوسِّيه أنطونيو الذي تظاهر بأنَّه زوجي. لم تحضر ميس تايلور ولا تيريسا، لأنَّ النساء قد فزن لتوِّهنَّ بالحقِّ في التصويت في الانتخابات الرئاسيَّة والبرلمانيَّة. كافحَت تيريسا أعوامًا من أجل ذلك الحقّ، ثم جاء النصر وهي في السجن، حيث زُجَّ بها مرَّةً أخرى بتهمة إثارة الشغب والتحريض على الإضراب. أُخلِي سبيلها في الأسبوع نفسه، وتمكَّنَت من الاحتفال بتصويت النساء رقصًا في الشارع.

كان خوليان في أوروغواي، وبلغه الخبر بعد مضيّ أسبوع، بعد أن عُمِّد الوليد وأُدرِج في السجلِّ المدنيّ باسم خوان مارتين برابو دِل بايّيه. سمَّيتُه خوان تيمُّنًا بالأب خوان كيروغا، حتى يشمله بحمايته في الحياة، وأضفتُ إليه مارتين، فلطالما راق لي هذا الاسم.

تبدَّل خوليان بسبب ذلك الطفل. لم أشتبه في أنَّه قد بلغ ذلك العمر، وصار يرغب في الاستمرار من خلال غيره. كان ابنه يُمثِّل استمرارًا، وفرصةً ليعيش خوليان من خلاله مُجدَّدًا، ويمنحه الفرص التي لم يحظَ بها، ويخلق نسخةً من نفسه أقرب إلى الكمال. وطَّن النيَّة على تربية خوان مارتين حتى يغدو امتدادًا له: جريئًا، شجاعًا، مغامرًا، يعشق الحياة والروح الحرَّة، ولكنْ بقلبٍ هادئ. لقد سعى خوليان إلى السعادة منذ الصغر، بَيْد أنَّها تتملَّص منه في اللحظة الأخيرة، كلَّما ظنَّها في متناول أصابعه. الأمر الذي يسري على مشروعاته أيضًا، فلطالما كان هناك مشروعٌ أجدر بالاهتمام على بُعد مسافةٍ قصيرة. لم يكتفِ بشيءٍ، لا أوسمة بطل الحرب، ولا أوسمة بطل الفروسيَّة، ولا آلة الطيران، ولا النجاح الذي كان يحالفه في كلِّ ما يُقدم عليه، ولا صوت مُغنِّي التينور، ولا الموهبة التي سمحَت له أن يكون محطّ الانتباه أينما ذهب. استمرّ بحثه الدائم عمَّا هو أفضل، حتى في العواطف والغراميَّات. كان بلا أسرةٍ، يتخلَّى عن الأصدقاء فور انقضاء المصلحة، ويغوي النساء بلهف جامعي التحف، ثم يهجرهنَّ لأنَّ امرأةً أكثر جاذبيَّةً مرَّت من أمامه. ولذا، تمنَّى لخوان مارتين قلبًا هادئًا. لن يتجشَّم ابنه عناء تلك اللهفة الدائمة، بل إنَّه سيكون رجلًا سعيدًا، وسيتكفَّل خوليان بذلك.

نزلنا في بيتٍ صغير بحيّ ساكرامِنتو العتيق، بما حوى من أشجارٍ يُقدَّر عمرها بالقرون، وورودٍ بريَّةٍ تنمو على الأرصفة بفعل السحر، حتى في فصل الشتاء، على الرَّغم من المطر والضباب. بدأ خوليان يتخيَّر عملاءه طبقًا لموقعهم الجغرافيّ، لتكون غياباته

قصيرة الأمد، ويتسنَّى له قضاء الوقت الكافي مع ابنه.

عندما بدأنا في التعايش كأسرةٍ طبيعيَّة، استعان بي خوليان حتى أساعده في إدارة شركته الصغيرة للنقل الجوّيّ إدارةً رشيدة، فهو لا يعرف حتى حاصل جمع اثنيْن واثنيْن، كما أقرَّ مستغرقًا في الضحك. وهكذا، وضعنا نسختَيْن من الحسابات، الأولى رسميَّة، والثانية لم يعرفها سوانا. في النسخة الأولى من الحسابات، التي تراجعها مصلحة الضرائب، والشرطة أحيانًا، كانت تُدوَّن تفاصيل كلّ رحلة، التواريخ والأمكنة والمسافة والمسافرين أو البضائع. أمَّا في النسخة الثانية، فدوَّنا هويَّات كلّ مسافر، وأين ركب الطائرة وأين نزل منها، وتاريخ الرحلة. كان المسافرون من اليهود الناجين من الهولوكوست، الذين رفضَتهم غالبيَّة بلدان أميركا اللاتينيَّة، فتسلَّلوا إليها عَبْر الطرقات الخالية من المراقبة، وهناك استقرّ بهم المقام، إمَّا بمساعدة الجماعات المتعاطفة وإمَّا عن طريق الرشوة. في أعقاب الحرب، استقبل البلدُ مئات المهاجرين الألمان الذين استضافهم الحزب النازيّ القوميّ، الذي اضطُرّ إلى تبديل اسمه إثر هزيمة ألمانيا، وإن لم يبدِّل الأيديولوجيا. ولكنْ، بين الحين والآخر، كان يظهر مجرمٌ مُتَّهمٌ بارتكاب الفظائع، هاربٌ من العدالة في أوروبا، فيتولَّى خوليان مهمَّة الدخول به إلى البلد على متن طائرته، بالسعر الملائم. يهودًا كانوا أو نازيِّين، سيَّان عند خوليان، ما داموا يدفعون المبلغ الذي يشترط.

عادت الخالة پيلار إلى سانتا كلارا، حيث كان في انتظارها عمل الصيف، ولكنَّ الخالة پيا بقيت معنا لتلقِّي علاج السرطان

في المستشفى. ما كادت تحمل خوان مارتين بين ذراعَيْها لأوّل مرَّةٍ حتى نسيت أنَّه ابنٌ غير شرعيّ، واستسلمَت لبهجة تدليله كجدَّته، فوجدَت في ذلك عزاءها طوال الشهور الأحد عشر المتبقِّية لها في هذا العالَم. كانت تستلقي في الفراش أو الأريكة، وتضع الطفل فوق جسدها بينما هي تغنِّي له بصوتٍ خفيضٍ حتى ينام، الشيء الذي كان أكثر فعاليَّةً في تسكين الألم من أقراص الأطبَّاء، على حدِّ قولها.

أكَّد لي القائلون إنَّني في مأمنٍ من الحمْل مرَّةً أخرى ما دمتُ أُرضع خوان مارتين، فثبت أنَّها أكذوبة أخرى من الأكاذيب التي لاقت رواجًا كبيرًا آنذاك. وفي هذه المرَّة، جاء ردّ فعل خوليان خاليًا من السخط، إذ جعله الابن أكثر عذوبةً، مع أنَّه أخبرني، بما لا يدع مجالًا للتأويل، بأنَّه سوف يكون الابن الأخير، فهو لا ينوي إنجاب عددٍ كبيرٍ من الأولاد، بعد أن وقع أسير المسؤوليَّة وفقد حرِّيَّته بسبب ابنٍ واحد، حسبما قال.

في حقيقة الأمر، ظلَّ خوليان حرًّا كما في سابق عهده. فأنا لم أعترض على أسفاره قطّ. وأعتقد بأنَّه قد بالغ حين زعم بوقوعه في الأسر. فهو لم يسهم في سدِّ احتياجات الأسرة إلَّا قليلًا جدًّا. راح وجاء بخفَّة الأقرباء المُقرَّبين، فما كان يتردَّد في استثمار نقوده في آخر طرازٍ من كاميرات التصوير الفوتوغرافيّ، أو شراء جوهرةٍ من أجلي، وإن لم يسدِّد فواتير الكهرباء والماء. تكفَّلتُ بالنفقات، كما فعلتُ طوال فترة زواجي، فلم يُثقل الأمرُ كاهلي، لأنَّني كنتُ أجني القَدْرَ الكافي من المال، ولكنِّي تعلَّمتُ مع فابيان الدرس الذي سأذكره دائمًا: لا يكفي كسب المال، بل

يجب أن يعرف المرء كيف يُديره. في شبابي، كان ذلك خبرًا جديدًا. وإن صار الآن أمرًا لا يقبل النقاش، وفق ما أرى. كان يُفترَض بالنساء أن يعشن على نفقة غيرهنَّ، الأب أوَّلًا، والزوج ثانيًا. أمَّا المرأة صاحبة الأملاك، سواءٌ أَورثَتها أم اقتنَتها، فهي في حاجةٍ إلى رجلٍ يديرها. لم يُعتبَر الحديث عن النقود أو كسبها أنثويًّا، دع عنك استثمارها. لم أخبر خوليان يومًا كم أملك ولا كم أُنفق، إذ امتلكتُ مدَّخراتي الخاصَّة وخضتُ أنشطتي التجاريَّة من دون الرجوع إليه أو طلب مشاركته. لم نتزوَّج، ولذا حظيت بالاستقلال الذي كان ليغدو مستحيلًا لو تبدَّل الحال. فالمرأة المُتزوِّجة لا تقدر على فتح حسابٍ في البنك إلَّا بموافقة الزوج وتوقيعه، الزوج الذي كان هو فابيان في حالتي. وتفاديًا لتلك العقبة، جعلتُ حساباتي باسم خوسِّيه أنطونيو.

12

ماتت الخالة پيا في بيتي، بهدوء، وهي تكاد لا تشعر بألم، والفضل يرجع إلى النبتة الإعجازيَّة التي أعطَتنا إيَّاها يايما، المُداوية التي تنتمي إلى السكَّان الأصليّين. زرعها توريتو بالمزرعة، لأنَّ فيها دواءً لأمراضٍ كثيرة. وبتعليمات يايما، استُخدِمَت البذور والأوراق كما ينبغي، وصنعَت بها فاكوندا الكعك الذي كان يُرسَل إليَّ على متن القطار. وقرب النهاية، حين لم تعُد المريضة قادرةً على الهضم، صار توريتو يعدّ صبغةً كنتُ أضعها تحت لسان الخالة بالقطّارة. في أيّامها الأواخر، أصبحَت الخالة پيا تقضي معظم الوقت نائمة، وتطلب منَّا أن نحضر إليها خوان مارتين، في لحظات يقظتها القصار. لم تعُد تتعرَّف أحدًا سوى الطفل.

ـ ستكون لك أختٌ صغيرة. ـ همسَت إليه قبل أن تفارق الحياة.

وهكذا، عرفتُ أنّني سوف أنجب بنتًا، وبدأتُ أفكِّر في الاسم الملائم.

دفنَّا جثمانها في مقابر ناويل متناهية الصغر، نزولًا عند رغبتها، لا في ضريح العائلة القائم بالعاصمة، وإلّا رقدَت وسط الموتى الذين ما عادت تذكرهم. حضر أهل البلدة جميعًا لوداعها، كما حضروا حفل زفافي، وكرَّمها وفدٌ من السكَّان الأصليِّين ترأَّسه يايما بالطبول والنايات. كان يومًا بديعًا، إذ تضوَّع أريج أزهار السنط في الهواء، وخلَت السماء من السحاب، وطفَت غلالةٌ من البخار على الأرض الرطبة التي سخَّنَتها الشمس.

وهناك، حول القبر الذي تلقَّى نعش خالتي، رأيتُ فابيان مرَّةً أخرى، إذ جاء من المدينة بالبدلة وربطة العنق السوداء، أشدّ شقرةً ورصانة ممَّا سبق، وكأنَّه قد طعن في العمر بعد فترةٍ تزيد على العام، لم نلتقِ خلالها.

ـ لقد أحببتُ خالتكِ كثيرًا، فلطالما عاملَتني بحنان. ـ قال وهو يناولني أحد مناديله، لأنَّ منديلي قد ابتلّ تمامًا.

عانقه كلٌّ من آل ريباس والخالة پيلار وحتى توريتو وفاكوندا، بعواطف جارفة، إلى الحدِّ الذي جعلني أشعر وكأنَّه عتاب: لأنَّ فابيان من العائلة، وأنا قد خنتُه. بعد ذلك، دُعِي إلى تناول الغداء في سانتا كلارا، حيث أعدَّت فاكوندا واحدًا من أطباقها المُميَّزة، فطيرة البطاطس باللحم والجبن.

ـ أرى أنَّ ذلك الرجل لم يأتِ برفقتك. ـ عقَّب فابيان، في تلك اللحظة، حين ابتعدنا قليلًا.

أجبتُه بأنَّ خوليان يحلِّق بطائرته مع بعض المسافرين في الأرخبيل، العذر الذي جاء منقوصًا، فالحقيقة الكاملة أنَّ عائلتي لم تنظر إلى خوليان بعين الرضا. غرسَت الخالة پيلار تلك الفكرة القائلة بأنَّه زير نساء، كثير المجون واللهو، أغواني بحِيَله الخبيثة، وخرَّب حياتي وزواجي وسمعتي، وتركني حبلى، وكاد يهجرني.

بالنظر إلى الوضع من الخارج، كان ذلك صحيحًا، ولكنْ لا شيء بالبساطة التي يبدو عليها، ولا أحدٌ يعرف ما الذي يجري بين اثنيْن في حياتهما الحميميَّة، أو ما السبب الذي يرغم شخصًا على تحمُّل شيءٍ يراه الآخرون ذنبًا لا يُغتفَر. إنَّ خوليان رجلٌ مذهل، لم أعرف مَن يضاهيه، ولم أعرف أحدًا يمتلك قدرته على اجتذاب الآخرين كالمغناطيس القويّ. كان الرجال إمَّا يتَّبعونه ويقلِّدونه، وإمَّا يحاولون تحدِّيه، بينما النساء يتطايرن حوله كالعثَّة حول المصباح. كان مفعمًا بالحيويَّة، ذكيًّا، بارعًا في الحكي وإلقاء النكات، يهوِّل ويكذب، ولكنَّ ذلك جزءٌ من فتنته، فلم يُؤخَذ عليه. تفتَّق ذهنه عن حِيَلٍ لا تقاوَم في الغواية، كما فعل حين غنَّى سيريناد من الشارع بصوته الأوپراليّ، مُعتذِرًا لي بعد شجارٍ دبّ بيننا. لطالما أعجِبتُ به، على الرَّغم من عيوبه الفظيعة.

شعرتُ بالزهو لأنَّ خوليان قد اختارني، ما يدلّ على تميّزي أنا أيضًا. منذ وُلِد خوان مارتين، قرَّرنا أن نقدِّم نفسَيْنا باعتبارنا زوجَيْن، وأن نعيش حياة الزوجَيْن الاجتماعيَّة. ومع ذلك، كنَّا على وعيٍ تامّ بأنَّ النميمة تهدر من خلفنا. ولقد نُبِذتُ في حلقاتٍ بعيْنها، كما حذَّرني خوسّيه أنطونيو، الذي أحجمَت زوجات

أصدقائه عن استضافتي. زِدْ على ذلك أنَّنا فقدنا بعض العملاء الذين رفضوا معاملتي في المكتب.

لم أجازف بالذهاب إلى أيٍّ من أندية المدينة، وإلَّا كان منعي من الدخول شيئًا واردًا. وبطبيعة الحال، لم يطِقني فردٌ واحدٌ من المستوطنة الألمانيَّة، دَعْ عنك عشيرة شميدت ـ إنغلر. في المرَّات القليلة التي التقيتُ فيها بعضهم، نظروا إليَّ من قمَّة رأسي إلى أخمص قدمَيّ، وقد ارتسمَت على وجوههم علامات الاحتقار. بل ويسعني القَسَم إنَّ أكثر من واحدٍ منهم قد نعتني بـ «العاهرة»، مُتمتِمًا. بينما كان خوليان قادرًا على الذهاب إلى كلِّ مكان، لأنَّه مُجرَّدٌ من الذنب. أمَّا أنا فخائنة، محظيَّة، امرأةٌ ضالَّة تجرؤ على التبختر بعد أن حملَت من عشيقها. ما دام سلوكي ينافي الأخلاق في نظر خالتَيَّ اللتيْن ربَّتاني وأحبَّتاني كثيرًا، فلي أن أتخيَّل كيف حاكمني الآخرون! «لا تقلقي، سوف يشعر فابيان بالرغبة في الزواج وتكوين أسرة، عاجلًا أو آجلًا، حينئذٍ يأتي ويقدِّم لكِ إبطال الزواج على صحنٍ من فضَّة»، قال خوليان.

بفضل لطفه الذي لا يُقاوَم، فُتِحَت لنا الأبواب. فهو ما إن يبدأ في سرد واحدةٍ من مغامراته أو إنشاد أغنيةٍ رومانسيَّةٍ من قائمته الطويلة حتى يتحلَّق الناس حوله. أمَّا جاذبيَّته العصيَّة على المقاومة، التي فتن بها النساء، فأشعرَتني بالإطراء، لأنَّني أنا المرأة المُختارَة. سعدتُ مع خوليان طوال العامَيْن الأوَّل والثاني، حتى حملت مُجدَّدًا.

في تلك الفترة، وبينما رحتُ أترقَّب ابنتي، ظننتُ أنَّني ما

زلت أعيش حبًّا استثنائيًّا، على الرَّغم من علاماتٍ لا تخطئها عيْن، حدَّثتني بأنَّ خوليان يشعر بخيبة الأمل نحوي، وبالضجر من حياته. كان استياؤه من الآثار التي تركها الحَمْل على جسدي ملموسًا، ولكنِّي خلتُها بلوى مُوقَّتة. صار ينام على أريكة الصالة، ويتجنّب لمسي، ويُكثِر من تذكيري بأنَّه لم يرغب في طفلٍ آخر، ويُلقي عليَّ باللائمة لأنَّني قد أوقعتُ به من جديد، ولم يتقبَّل أنَّه قد أسهم في الحَمْل بقدر ما أسهمتُ أنا أيضًا.

وحده خوان مارتين أبقاه في البيت، حسبما أعتقد. لم يكُن الطفل قد أتمَّ العامَيْن، ومع ذلك، بدأ والده يُدرِّبه ليصبح رجلًا، على حدِّ قوله، الأمر الذي اشتمل على مطاردته بخرطوم الماء، وحبسه في مكانٍ معتم، وحمله على الدوران في الهواء حتى يفرغ ما في جوفه، ووضع قطرةٍ من الصلصة الحرِّيفة على شفتَيْه، رافعًا شعار: «الرجال لا يبكون». كانت ألعاب خوان مارتين عبارةً عن أسلحة من البلاستيك. أهداه توريتو أرنبًا، فاستمرَّ الأرنب هناك حتى عاد والد خوان مارتين من إحدى رحلاته، وأخفاه عن الأنظار.

ـ الرجال لا يلعبون بالأرانب. ما دام يرغب في حيوانٍ أليف، سنشتري من أجله كلبًا.

أبيتُ، لأنِّي لم أجد من الوقت ولا الروح المعنويَّة ما يكفي للعناية بكلب.

أعتقد بأنَّه قد تورَّط مع امرأةٍ أخرى، أو نساءٍ أخريات، بينما راح وزني يزيد. بدا ضجِرًا، نافد الصبر، وصار يفقد رشده

بسهولة، ويفتعل الشجار مع رجالٍ آخرين من أجل متعة الضرب أو التعرُّض للضرب، ويراهن على سباقات الخيل والسيَّارات والبليياردو والروليت وجميع ألعاب الحظّ التي يجدها في متناول يده. وإذا هو يتحوّل فجأةً إلى الرفيق الأوفر حظًّا من العطف والحنان، فيغمرني بالعناية والهدايا، ويلعب مع خوان مارتين كأبٍ طبيعيّ، كما يخرج ثلاثتنا في نزهة، ونسبح في البحيرة. عند ذاك، يتراجع شعوري بالضغينة، وأعود مرّةً أخرى أنا العاشقة غير المشروطة.

تعلَّمتُ بالقوّة ألَّا أتدخَّل متى احتدّ خوليان، ما لم أكُن مُضطَرَّةً إلى الدفاع عن الطفل. فلو حاولت تنبيهه إلى الإفراط في الشراب أو المراهنة، كنتُ أتلقّى دفعةً من السباب، يتبعها بلكمةٍ متى انفرد بي وحدي. لم يضربني في وجهي يومًا، بل حرص على ألَّا تترك ضرباته أثرًا. واجهنا بعضنا بعضًا كالمصارعيْن، لأنَّ شعوري بالغضب فاق الخوف الذي استطاع أن يبثّه في نفسي بقبضتَيْه. كنتُ أنتهي طريحة الأرض في كلِّ مرّة، عند ذاك يطلب منّي المغفرة، ويقول إنَّه لا يدري ماذا جرى له، وإنّني أستفزّه وأجعله يفقد رشده.

بعد كلِّ معركة، أقسمُ فيها بأن أتركه إلى الأبد، كانت تنتهي بنا الحال وقد تعانقنا، فتستمرّ تلك المصالحات المُتوهِّجة حينًا، إلى أن ينفجر مُجدَّدًا لأيِّ سببٍ تافه، وكأنَّه يُراكِم الغضب مضغوطًا، حتى يُضطَرّ إلى التنفيس عنه في لحظةٍ بعيْنها. وعلى الرَّغم من ذلك، كان في وسعنا الشعور بالسعادة بين كلِّ واقعةٍ بغيضة وأخرى، تلك الوقائع التي لم يتخلَّلها التعدِّي بالضرب في

كلِّ مرَّة. بل إنَّ الإساءة كانت لفظيَّةً بوجه العموم. امتلك خوليان تلك المهارة النادرة التي سمحَت له بتخمين أضعف نقاط خصومه. وهكذا ضربني في النقاط الأشدّ إيلامًا.

لم يدرِ أحدٌ بشأن تلك الحرب التي دارت خلسةً، ولا حتى خوسّيه أنطونيو، الذي كنتُ أراه في المكتب كلَّ يوم. شعرتُ بخزيٍ لأنِّي احتملتُ عنف خوليان، وبخزيٍ أشدّ وطأةً لأنِّي صفحتُ عنه. سقطتُ عبدة الشغف الجنسيّ، والاعتقاد بأنَّني لولاه لأصبحتُ تائهة. كيف لي أن أمضي قُدمًا بالطفلَيْن؟ كيف أواجه المجتمع والعائلة بإخفاقٍ ثانٍ؟ كيف أنجو إذا علقَت بي وصمة العشيقة المنبوذة؟ لقد أنهيتُ زيجتي، وتحدَّيتُ العالَم حتى أكون مع خوليان، ولم أقدر على الاعتراف بأنَّ تلك الأسطورة التي ابتكرتُها بنفسي مُجرَّد خطأ.

قبل موعد الولادة المُرتقَب بعشرة أيَّام، عرفنا أنَّ الجنين في وضع أفقيّ. تحسَّرتُ مرَّةً أخرى لغياب الخالة پيا، لأنَّني رأيتُها بضع مرَّاتٍ وهي تستخدم يدَيْها السحريَّتَيْن لتقلب الجنين داخل رحم الأمّ، مثلما كانت تفعل بالعجول لتجعلها في وضع الولادة. قالت إنَّها قادرةٌ على رؤية الجنين بوضوحٍ من خلال عينَي الروح، وتحريكه بالتمسيد، وطاقة الحبّ، والابتهالات المرفوعة إلى العذراء مريم، الأمّ الكونيَّة. ذهبتُ إلى المزرعة، فمضى بي الخال برونو لطلب مشورة يايما، ولكنَّ المداوية لا تملك قدرة الخالة پيا على حلِّ تلك المشكلة. بعد طقوس التلاوات والطبول، وبعد أن مسَّدَت بطني وناولَتني شاي الأعشاب، لم يتغيَّر شيء. قرَّر الطبيب إجراء جراحةٍ قيصريَّة لتجنُّب التعقيدات.

خضتُ وخوليان واحدًا من شجاراتنا الهائلة، التي عادةً ما تستمرّ أطول من أسبوع. وبينما هو في العاصمة، يقلّ بعض المهندسين الذين يخطِّطون لإقامة سدّ، جاءت شابَّةٌ تبحث عنه في البيت، قدَّمَت نفسها على أنَّها خطيبته. أتخيَّل ما شعرَت به تلك الفتاة التعيسة إذ وجدَت أمامها امرأةً تحيط بعينَيْها الهالات السود، وتبدو على وجهها البقع، ويتأرجح بطنها الذي كان في حجم البطِّيخة فوق ساقَيْها المُنتفختَيْن، وتقول إنَّها زوجة خوليان. شعرتُ بأسًى شديدٍ لي ولها، إلى الحدّ الذي جعلني أسمح لها بالدخول إلى الصالة، وأقدِّم لها عصير الليمون، ثم بكينا معًا.

ـ قال لي إنَّ قدرنا أن نحبّ بعضنا بعضًا. ـ تلعثمَت.

ـ وأنا أيضًا قال لي الشيء نفسه عندما تعرَّف بي. ـ حكيتُ لها.

أكَّد لها خوليان أنَّه حرّ، لم يتزوَّج قطّ، بل عاش حياته في انتظارها.

لن أعرف أبدًا كيف حُلَّت المسألة بينهما. في الأيَّام التي أمضاها خوليان غائبًا، عشتُ في دوَّامةٍ من المشاعر المتناقضة. وددتُ لو أرحل بعيدًا، فلا أعود لرؤياه مرَّةً أخرى، وأهرب إلى الأبد، وأبتكر لنفسي هويَّةً جديدة في بلدٍ آخر، ولكنِّي لم أقدر حتى على الحلم بذلك، إذ كنتُ على مشارف الولادة، وقريبًا أجد طفلًا في الثانية من العمر مُتشبِّثًا بتنُّورتي، وطفلةً حديثة الولادة بين ذراعَيّ. كلَّا. لا يجب عليَّ التخلّي عن بيتي لأيِّ سببٍ كان. وإنَّما يجب عليَّ طرده. أمَّا هو، فليذهب مع عشيقة آخر ساعة، وليختفِ من حياتي وحياة الصغيرَيْن.

بعد مضيّ ثلاثة أيَّام، وصل خوليان يحمل دبَّابةً من الصفيح لخوان مارتين، وعقدًا من اللازورد من أجلي. بكيتُ حتى نفدَت دموعي، وحلَّت محلَّ الخذلان شراسةٌ تليق بالضباع، فتلقَّيتُه وأنا أصيح وأخدش وجهه. ولمَّا تمكَّن من السيطرة عليّ، رماني بواحدةٍ من حججه الأفعوانيَّة، حيث يحرّف الواقع بالكلمات، بمنطقٍ خبيث، مُبطِلًا قدرتي على إعمال العقل.

ـ من أين لكِ الحقّ في الشعور بالغيرة يا ڤيوليتا؟ ماذا تريدين منِّي أكثر من هذا؟ ما كدتُ أراكِ لأوَّل مرَّة حتى وقعتُ في حبّك. أنتِ المرأة الوحيدة التي تمكَّنَت من أسري، المرأة الوحيدة التي أردتُها زوجة.

ـ لم يستمرّ حبّك إلَّا قليلًا جدًّا!

ـ لأنَّكِ تغيَّرتِ، ولم تعودي حتى ظلّ الفتاة التي عرفتُها.

ـ الزمن يمرّ عليك أنت أيضًا.

ـ أنا كعهدي دائمًا، ولكنَّكِ لا تهتمّين بشيءٍ سوى عملكِ، وتجارتكِ، وكسب المال، وكأنَّني عاجزٌ عن الإنفاق على أسرتي.

ـ في يدك أن تحاول...

ـ وهل منحتِني الفرصة؟ ـ قاطعني صارخًا! ـ تحترمين أخاك أكثر ممَّا تحترمينني! ما زلتُ بجوارِكِ لأنَّكِ أمّ ابني، مع أنَّكِ لم تعودي الرفيقة ولا العشيقة التي أرغب فيها. تركتِ نفسك للسمنة، وصار جسدكِ مُشوَّهًا بعد الحَمْل الأوَّل، ولا أريد التفكير في كارثة الحمل الثاني. فقدتِ جمالكِ وأنوثتكِ وشبابك.

ـ لم أتجاوز الحادية والثلاثين!

ـ تبدين في الخمسين، لقد فات أوانكِ. بمظهرك وسلوكك، لن يذهب معكِ إلى الفراش حتى أشدّ الرجال يأسًا. أشعر بالأسف لكِ. أتفهّم أنّه ثمن الأمومة، لأنَّ الطبيعة لا ترحم النساء، ولكنّها لا ترفق بالرجال أيضًا، فهم مُضطرُّون إلى إشباع حاجتهم.

ـ الأبناء للمرأة والرجل معًا يا خوليان. لا أنت ولا أنا نملك ما يُبيح لنا الخيانة.

ـ لا يمكنني العيش مع راهبة والعالَم حافلٌ بالشابّات الجميلات. لعلّكِ لاحظتِ أنّهنَّ يلاحقنني. لا بدَّ من أن أكون عاجزًا حتى أرفضهنّ.

واسترسل في حديثه حتى تركني نسالًا مهترئًا. عند ذاك، حين رآني مُتهدِّمة، أخذني بين ذراعَيْه بحبٍّ، وبدأ يؤرجحني كالطفلة الوليدة، ويعزّيني مُتعهِّدًا بإمكانيَّة فتح صفحةٍ بيضاء والبدء من جديد، مُتعهِّدًا بأنَّ الأوان لم يفُت لإقامة الحبّ من الأموات، ما دمتُ أُساهم أنا الأخرى، وأعده بألّا أنجب مرّةً أخرى، وبأن أتّبع حميةً غذائيَّة، وأستردّ المظهر الذي كنتُ أتحلّى به في ما سبق. أمّا من جانبه، فلسوف يعينني حتى نفعلها معًا. كما أنّه سيرغم فابيان على إبطال الزواج، وإن اضطُرّ إلى منازلته، ثم نتزوَّج، حسبما قال.

وهكذا قبلتُ التعقيم.

استقرّ خوليان على اغتنام العمليَّة القيصريَّة لربط قناة فالوب. لو كان زوجي، لبات من الممكن أن يجري الطبيب هذه العمليَّة من دون سؤالي، ولكنَّه اضطُرّ إلى طلب موافقتي لأنَّ خوليان لم يكُن

زوجي. فعلتُها لأنَّ ذلك هو الشرط الذي وضعه خوليان للبقاء معي، واعتقادًا منّي بأنَّ اثنيْن من الأبناء يكفيان، ولم يُخيَّل إليَّ أنَّني سوف أضمر له ضغينةً لا تزول أبدًا لأنّه أرغمني على ذلك.

حين علمَت ميس تايلور بالأمر، سألَتني عن السبب الذي يمنعه من الخضوع لعمليَّة قطع القناة الدافقة، مع الأخذ في الحسبان أنَّه هو الذي لا يرغب في المجيء بمزيدٍ من الأبناء إلى العالَم. سبقَت ميس تايلور عصرها. ما كنتُ لأجرؤ على اقتراح ذلك الحلّ، الذي اعتُبِر عقابًا للمجرمين وهجومًا على رجولته. أمَّا الهجوم عليَّ أنا، فأقلّ أهمِّيَّة.

وُلِدَت ابنتي يومَ تصاعدَت الأبخرة من البركان المُغطَّى حتى قاعدته بالثلوج مع بزوغ الفجر. رأيتُ البركان من بعيد، عَبْر نافذة حجرتي في العيادة، وأنا ما زلتُ ذاهلةً تحت تأثير المُخدِّر، رأيتُه مهيبًا، بريشاته المُؤلَّفة من الأدخنة، مُتدثِّرًا بغطاءٍ أبيض تحت سماءٍ بلون الياقوت، فقرَّرتُ أن أُسمِّي البنت نييبيس[1]. لم يكُن من بين الأسماء التي سبق أن اخترتها. أراد خوليان مرضاتي، فقبل، مع أنَّه اختار لها ليونورا، على اسم والدته، الاسم الذي ذكَّرني ببقرة آل ريباس.

كانت العمليَّة أقلّ يسرًا من المُتوقَّع، فلقد أُصِبتُ بالتهابٍ تركني طريحة الفراش طوال أسبوعَيْن، واستغرق الجرح طويلًا في الشفاء، تاركًا ندبةً محمرَّةً بارزة، وكأنَّها جزرةٌ في بطني. تفانى خوليان في العناية بي. لعلَّه أحبَّني أكثر ممَّا ظننت، أو لعلَّه خاف

(1) نييبيس Nieves: تعني «ثلوج» باللغة الإسبانيَّة. (المترجم)

مأساة البقاء وحيدًا، والتكفُّل بطفلَيْن.

حصلَت چوزِفين تايلور على إذنٍ من المدرسة التي كانت تدرِّس فيها لتشملني بالعناية خلال الشهر الأوَّل، فاغتنمنا الفرصة للوقوف على ما استجدّ في حياتنا منذ آخر مرَّةٍ التقينا فيها. حكَت لي أنَّ تيريسا تحتفظ دائمًا بحقيبةٍ مُجهَّزةٍ بالثياب وأدوات النظافة الشخصيَّة تحسُّبًا للسجن، الذي كانت تذهب إليه في كثيرٍ من الأحيان بتهمة إثارة التمرُّد، فضلًا عن تعاطفها والحزب الشيوعيّ الذي يُجري عمليَّاته في الخفاء. تحمَّلَتها الشرطة، لأنَّها سيِّدةٌ شبه مجنونة، بينما كانت السجينات يستقبلنها كالبطلة. أمَّا القضاة، الذين أدركهم التعب من فرط ما رأوها تعود إلى أفعالها، فكانوا يطلقون سراحها بعد أيَّامٍ قليلة، مع توصية عديمة الجدوى يطالبون فيها تيريسا بأن تسلك سلوك السيِّدات المُهذَّبات. كان لديها من الأسباب ما يكفي ويفيض للموافقة، بعد أن كافحَت أعوامًا من أجل حقِّ النساء في التصويت. ولكنَّ الحاجة تدعو إلى عمل الكثير، حسبما قالت ميس تايلور، فهناك قائمةٌ طويلة من المطالب النسائيَّة التي لم تخطر لي على بالٍ قطّ. بعد أشهرٍ يصبح في مقدورنا، نحن النساء، التصويت لأوَّل مرَّةٍ، في الانتخابات الرئاسيَّة المقبلة. وهكذا، انطلقَت تيريسا من بابٍ إلى باب تفسِّر العمليَّة، لأنَّ شيئًا لن يتغيَّر ما لم نمارس ذلك الحقّ. أمَّا أنا، فلم أكُن قد أدرَجتُ حتى اسمي في السجلَّات.

صارت چوزِفين سيِّدةً مكتنزة، ترتدي ثياب المُبشِّرات، بشعرها الرماديّ وبشرتها التي ظهرَت عليها تجاعيدُ طفيفة وعروقٌ حمراء في غاية الدقَّة، وإن احتفظَت بالعينَيْن الزرقاوَيْن

المستديرتَيْن، وطاقة الشباب. صار خوسِّيه أنطونيو يزورنا يوميًا، مُتعلِّلًا بحجَّة الاطمئنان على صحَّتي، وإن كان يحضر لرؤية حبّ حياته الوحيد، في واقع الأمر. حتى هو تقدَّم في العمر قبل الأوان، مُتأثِّرًا بعادة العزلة. رأيتُه جذِلًا، يحتسي الشاي ويلعب الدومينو مع ميس تايلور، كعهده في زمن بيت الكاميليا الكبير، فخطر لي أن أنذر نذرًا للأب كيروغا حتى يجعل ميس تايلور توافق على الزواج منه أخيرًا، الأمر الذي من شأنه إقصاء تيريسا رياس، وتلك فكرة قاسية.

في الثامنة من العمر، بدا من الواضح أنَّ خوان مارتين لا يشبه أباه جسديًا، كما أنَّه لم يرث عنه الطباع أيضًا. كان طفلًا هادئًا يتسلَّى وحيدًا طوال ساعات، وطالبًا مجتهدًا، حذِرًا، هيَّابًا. أمَّا الألعاب العنيفة التي استعان بها أبوه في محاولة لإيقاظ الرجولة في نفسه، فكانت تصيبه بالذعر. عانى الكوابيس والربو والحساسيَّة من غبار الطلع والتراب والريش والجوز، على الرَّغم من فطنته السابقة على أوانها وطباعه العذبة التي جعلَته لا يُقاوَم.

طالبه خوليان بما لم يقدر الطفل على تقديمه، فلم يُخفِ إحباطه. «حتى متى تُدلِّلينه يا ڤيوليتا! تربِّينه ليغدو مُخنَّثًا»، كان يصرخ في وجهي أمام خوان مارتين. وتملَّكه الهوس بالأمر. فبات يرى علاماتٍ مزعجة تدلُّ على مثليَّةٍ مُحتملة، إذ كان الطفل يُفرِط في القراءة، ويرافق البنات في المدرسة، ويترك شعره طويلًا. أرغمه أبوه على شرب النبيذ، حتى يتعلَّم كيف يتحمَّل الشراب من دون أن يصل إلى درجة السكر أبدًا. كما أرغمه على وضع مراهناته على طاولة البوكر، حتى يعرف كيف يربح ويخسر

في غير مبالاة. وأرغمه على لعب كرة القدم، التي لم يملك الصغير أدنى مهارةٍ تسمح له بممارستها. كان يصحبه للصيد ومشاهدة مباريات الملاكمة، ويستشيط غضبًا لو بكى خوان مارتين على الحيوان الجريح، أو حجب عينَيْه أمام وحشيَّة الاستعراض. كبر ابني وهو يطمح إلى الحصول على قبول والده، ذلك الطموح المستحيل، علمًا منه أنَّ شيئًا ممَّا قد يفعله لن يكفي. عادةً ما كان يأمره خوليان بقوله: «تعلَّم من أختك»، إذ تهيَّأت لنيبيس جميع السمات التي أرادها لابنه.

كانت نيبيس رائعة الجمال، منذ اللحظة التي أطلَّت فيها على العالَم. وُلِدَت في غير مشقَّة، بوجهٍ يليق بدمية، وعينَيْن مفتوحتَيْن. جاءت كثيرة الصراخ، صعبة الإرضاء، شرهة. توقَّفَت عن استخدام الحفَّاضات وهي في عامها الأوَّل، وبدأت تمشي كالبطَّة في أنحاء البيت، وتفتح الجوارير، وتبتلع الحشرات، وتضرب رأسها بالجدران. في السادسة من العمر، صارت تمتطي الخيل وتُلقي بنفسها رأسًا من فوق أعلى المنصَّات في مسبح النادي. تحلَّت نيبيس بصعوبة المراس وحسّ المغامرة مثل أبيها. ولقد بلغَت من الجمال حدًّا جعل الغرباء يستوقفوننا في الشارع إعجابًا بها، ومن القدرة على الغواية حدًّا جعل شقيقي يرجوني ألَّا أتركه معها وحده، وإلَّا فكلّ طلباتها مُجابة ـ كما جرى في إحدى المناسبات، عندما أرادت ضرسه الذهبي، فطلب خوسّيه أنطونيو من طبيب الأسنان أن يصنع من أجلها ضرسًا مماثلًا، وعلَّقه من رقبتها بسلسلة صغيرة. كانت تغنِّي بصوتٍ أجشّ مثيرٍ لا يليق بعمرها، كما لقَّنها خوليان قائمة أغانيه حتى يشدوَا بها معًا في ثنائيٍّ موسيقيٍّ،

بما في ذلك أغاني البحَّارة الفجّة. شبَّت نيبيبس مُدلَّلةً أنانيَّةً. حاولتُ أن أفرض عليها شيئًا من الانضباط، ولكنَّ خوليان أفسد محاولاتي، فكانت هي تحصل على طلباتها، بينما أتلقَّى أنا التوبيخ. لم أملك سلطةً على ابنَيّ، السلطة التي كان من شأنها أن تفيد نيبيبس، وإن لم يكُن خوان مارتين في حاجةٍ إليها.

بعد ميلاد نيبيبس، أرغمتُ نفسي على الالتزام بانضباطٍ إسبرطيٍّ لاستعادة شيءٍ من مظهري السابق، مدفوعةً بالتمرُّد على خوليان، لا بالحبّ، لأنَّ مظهري هو سمتي الوحيدة الجديرة بالذكر، حسبما زعم هو. وددتُ لو أثبت له أنَّه قد أخطأ بشأني، وأنَّني أملك السيطرة على جسدي وحياتي. فما عدتُ آكل سوى الأعشاب، مثلي كمثل الحمير، واستعنتُ بمُدرِّب كرة قدمٍ حتى يُخضِعني لتدريبات اللاعبين الصارمة، كما جدَّدتُ ثيابي بما يلائم الموضة التي فرضَتها ديور، موضة التنانير الفضفاضة للغاية، والسترات الضيِّقة عند الخصر. أمَّا النتيجة، التي ظهرَت بعد وقتٍ قصير، فلم تُسهم في تلطيف الأجواء بيني وبين خوليان، غير أنَّها زوَّدَتني بما يلزم لإثارة الغيرة في نفسه، الأمر الذي تسلَّيتُ به، وإن اضطُرِرتُ إلى تحمُّل نوبات غضبه العارم. في إحدى المرَّات، رماني بصينيَّة الجمبري بصلصة الطماطم، إذ أبيت استبدال الثوب الحريريّ الأسود الذي رأى خوليان أنَّه يُبرِز صدري كثيرًا. كنَّا في حفلٍ أُقيم بهدف جمع التبرُّعات من أجل مدرسةٍ للصُمّ، واتَّفق حضور صحافيٍّ يحمل كاميرا تصويرٍ فوتوغرافيّ، فنُشِرَت صورتنا في الصحيفة اليوميَّة، وكأنَّنا اثنان من المجانين.

مرَّت سنوات ونحن معًا، فألِفَ الناس رؤيتنا زوجَيْن. أمَّا

أولئك الذين شكَّكوا في حالتنا المدنيَّة، فاكتفوا بالتشكيك حيث لا يتمكَّن خوليان من سماع حديثهم. ازدهرنا، وعشنا حياةً ميسورة، وتقبَّلَنا المجتمع. ومع ذلك، لم نتمكَّن من إلحاق خوان مارتين ونييبيس في أفضل المدارس، لأنَّها مدارس كاثوليكيَّة. على الرَّغم ممَّا حقَّقناه، عشتُ وفي معدتي غصَّة، عشتُ فريسة ذعرٍ دائم لم أدرِ له سببًا في واقع الأمر. قال خوليان إنَّني لا أملك ما يدفعني إلى الشكوى، أمَّا توجُّساتي فهي مُجرَّد جحود، وأيّ شيءٍ أريد فوق ما حقَّقت! قال إنَّني لا أقنع بشيء، بل إنَّني بَرِّ بلا قرار.

ماديًّا، لم يعوزنا شيء، صحيح. وعلى الرَّغم من ذلك، شعرتُ وكأنَّني أتأرجح على حبلٍ مُرتخٍ طوال الوقت، وأكاد أسقط وآخذ معي الطفلَيْن. كان خوليان يختفي عن الأنظار طوال أسابيع، ثم يعود من دون سابق إنذار، فيأتي سعيدًا مُحمَّلًا بالهدايا تارةً، ويأتي مُكتئبًا خائر القوى تارةً، من دون أن يوضح شيئًا عن الأمكنة التي ذهب إليها ولا الأشياء التي فعلها. أمَّا الزواج، فبدا مستحيلًا، على الرَّغم من الوعود التي قطعَتها تيريسا ريباس بإقرار قانون الطلاق مستقبلًا. لا عُرِفَت لفابيان عشيقة، ولا كان هناك أملٌ في أن يأتي إليَّ عارضًا إبطال الزواج على طبقٍ من فضَّة، كما تنبَّأ خوليان. ولكن إضفاء المشروعيَّة على صلتنا، ذلك الهوس الذي استحوذ عليَّ طوال سنوات، صار يهمّني بقدرٍ أقلّ كثيرًا، لأنَّ انفصال الأزواج وارتباطهم بآخرين صار أكثر فأكثر شيوعًا. كما أدركتُ في قرارة نفسي أنَّ الارتباط بخوليان لا يناسبني. إذ منحَتني العزوبيَّة قدرًا أكبر من السلطة والحرِّيَّة.

حتى خوسّيه أنطونيو لم يبدُ مُتعجّلًا في الزواج. «من المُؤكّد أنَّه مُخنَّث»، هكذا زعم خوليان، الذي كاد لا يطيقه، لأنَّ شقيقي هو مصدر دخلي والحماية الوحيدة التي حظيت بها في مواجهة سلطة خوليان المُستبِدَّة. تفاوتَت أرباحه من العمل طيَّارًا إلى الحدِّ الذي جعلها تبدو ضربة حظٍّ على طاولة المراهنة. أمَّا أنا، فكنتُ أجني إيراداتٍ مضمونة، لأنَّ شركة البيوت الريفيَّة تضخَّمَت وصارت كالأخطبوط ذي المجسَّات المُمتدَّة إلى شتَّى الأقاليم. قبل أعوام، أقنعتُ خوسّيه أنطونيو وماركو كوزانوفيتش بضرورة التفكير في الألواح العازلة، المُتوافرة في مناطقَ أخرى، مع الأخذ في الحسبان مناخ بلدنا، بشتائه الذي تتخلَّله العواصف وصيفه الذي يتخلَّله الجفاف. وهكذا، ذهبتُ إلى الولايات المتَّحدة، وبحثتُ في صناعة الإنشاءات الجاهزة، ثم نسخنا التقنيَّة نفسها في شركة البيوت الريفيَّة: فصنعنا شطيرةً قوامها لوحان من الخشب المُثبَّت بالموادِّ اللاصقة، وبينهما أليافٌ صوفيَّة عازلة. وإذا بتلك البيوت البدائيَّة الخشبيَّة المُخصَّصة لمزارعي الأرياف، ومساكن العمَّال، وكبائن الشاطئ، تغدو هي البيوت الجاهزة الأثيرة لدى الأزواج الشباب من الطبقة المُتوسِّطة. كانت تحمل البصمة الخاصَّة بنا: الجدران البيضاء، وإطارات النوافذ والأبواب والمصاريع المطليَّة باللون الأزرق النيليّ، والسقف المُغطَّى بالقشّ.

في أواخر الخمسينيَّات، أكثر خوليان من السفر إلى الأرجنتين في رحلات طيرانٍ غامضة دُوِّنَت في الحسابات الثانية برمزٍ سرِّيٍّ لا يعرفه سواه، لأنَّها شؤونٌ عسكريَّة، حسبما أوضح لي. طوال الأعوام التي ارتبطتُ خلالها بخوليان، شعرتُ بالأسف لأنَّه قد لجأ

إلى حيلة الحسابات المُزدوَجة التي أفضَت بوالدي إلى الإفلاس. آنذاك، مضى خوان بيرون[1] يتنقَّل من بلدٍ إلى آخر، وقد نُفِي وحلَّ محلّه حكّامٌ عازمون على محو الإرث الذي تركه، والقضاء على كلِّ شكلٍ من أشكال المعارضة. لم تكُن بي حاجةٌ إلى كشف الرمز السرِّيّ حتى أعرف بالحدس أنَّ رحلات خوليان مقترنةٌ بمالٍ فاسدٍ وشخصيَّاتٍ من الحكومة تسافر في مهمَّاتٍ سرِّيَّة.

فضلًا عن ذلك، بدأ يسافر إلى كوبا وميامي، فتكرَّرَت أسفاره إليهما بقدر رحلاته إلى الأرجنتين، وإن لم تنطوِ على تلك الأسرار العسكريَّة التي يحجم عن مناقشتها معي. بفضل سمعة الطيَّار الجسور المُكتَسَبة بجدارة، استعانَت به المافيا، التي نشطَت أمبراطوريَّتها الإجراميَّة في كوبا منذ العشرينيَّات، وازدهرَت تحت رعاية ديكتاتوريَّة فولخينسيو باتيستا[2]، حتى فرضَت هيمنتها على كازينوهاتٍ وملاهٍ ليليَّة وبيوت دعارة وفنادق، كما سيطرَت على تجارة المخدِّرات، وأسهمَت في إفساد الحكومة إلى درجةٍ مذهلة. كان خوليان يهرِّب المشروبات الروحيَّة والمخدِّرات والفتيات، وغير ذلك من الخدمات التي تلقَّى عنها أجرًا سخيًّا. غير أنَّه، بين الحين والآخر، كان يهرِّب الأسلحة عَبْر طرقٍ سرِّيَّةٍ لحساب مُتمرِّدي فيديل كاسترو، أولئك الذين قاتلوا بهدف إسقاط باتيستا.

ـ إذن، فأنت تعمل في خدمة عدوَّيْن. لو انكشف أمرك...

---

(1) خوان بيرون (1895 ـ 1974): رئيس الأرجنتين الذي انتهَت فترة رئاسته الأولى بانقلاب عام 1955.

(2) فولخينسيو باتيستا (1901 ـ 1973): عسكريّ وديكتاتور تولَّى رئاسة كوبا حتى هزمته الثورة الكوبيَّة عام 1959. (المترجم)

لا أريد التفكير فيما سيفعلون بك. ـ حذَّرتُه.

ولكنَّه أكَّد لي أنَّه لا يعرِّض نفسه للخطر، ويعرف ما هو فاعلٌ جيِّدًا.

في إحدى الرحلات التي رافقتُه خلالها، نزلنا بفندق ريڤيرا الذي افتُتِح منذ عهدٍ قريب، وكأنَّنا من العائلة المالكة، بدعوةٍ من بعض الرجال المُتبجِّحين، المرحين، المضيافين، الذين أعطوني أكوامًا من الفيشات حتى أتسلَّى بالمراهنة في الكازينو ريثما يؤدِّي خوليان بعض الخدمات من أجلهم. لم أدرِ أنَّهم من المافيا إلَّا بعد مضيِّ سنوات، حين تعرَّفتُ بصورة رجل العصابات الشهير لاكي لوتشيانو التي نُشِرَت بمناسبة جنازته الحاشدة في نيويورك.

على هدهدة صوت فرانك سيناترا شخصيًّا، أمضيتُ تلك الأيَّام في هاڤانا وأنا أراهن على الروليت وأخسر الرهان، وأتشمَّس في مسبح الفندق حيث تختال الجميلات المُدلَّلات في ثياب سباحةٍ متناهية الدقَّة، وأحتسي الپينك مارتيني في ملهى تروپيكانا الشهير، وأرقص في دور الديسكو على الإيقاع الأفروكوبي الذي لا يُقاوَم، ذلك الإيقاع الذي اكتسب شعبيَّةً في كلِّ مكان، وأنا في ضيافة رفاق الليل.

ثم كان أن دعاني أحدُ المضيفين، لا شكَّ أنَّه من زعماء عالَم الجريمة، إلى حفلٍ أُقيم في القصر الرئاسيّ، وهناك حيَّاني باتيستا بقبلةٍ على يدي، بينما راحت المركبات العسكريَّة تجوب الشوارع. لم يتخيَّل أحدٌ أنَّ ذلك الحفل الصاخب المُستمِرّ في جزيرة كوبا على وشك الانتهاء قريبًا جدًّا.

بالنظر إلى رزم النقود التي أصبح من عادة خوليان أن يحتفظ

بها في الخزانة، إذ لم يكُن في مقدوره إيداعها في البنك وإلّا لفت الأنظار، اقترحتُ عليه شراء طائرةٍ أخرى يقتصر استخدامها على نقل السائحين ورجال الأعمال، والاستعانة بطيّارين محلّ ثقة، فيكون له بذلك نشاطٌ مشروعٌ، نظيف، يدرّ أرباحًا وفيرة. عرضتُ عليه تمويل خمسين بالمئة من الاستثمار بمُدَّخراتي، شريطة أن نثبت إسهامي بصفتي شريكةً أمام كاتب عدل. وإذا هو يستشيط غضبًا لأنّني لا أثق بكلمة شرفٍ منه. ثم وافق أخيرًا، لأنَّ الفكرة قد أغوَته. كان الطيران التجاريّ رهنًا بالمطارات القائمة بالفعل، التي تُعَدّ على أصابع اليد الواحدة. أمّا الطائرات الجومائيَّة، فقادرةٌ على الوصول إلى أيِّ مكان، ما دام يشتمل على المُسطّحات المائيّة الكافية.

وُلِدَت الشركة الخاصّة، خطوط نورس الجوِّيَّة، التي ربطَت بين معظم الأراضي القوميَّة بعد زمن، عندما صارت لدينا عدَّة طائرات. وهكذا، ومن دون سابق نيّة، حقّقتُ الحلم الذي راود أبي قبل مولدي بالاستثمار في الطائرات. تعيّن عليَّ الإكثار من السفر إلى العاصمة، حيث اضطُرِرنا إلى فتح مكتب، لأنَّ البلد بأسره مُتمركِزٌ في العاصمة، وكلّ ما لا يحدث فيها كأنّه غير موجود. ولكنَّ خوليان شعر بالضجر من الشركة حالما انتظمَت أمورها، لأنّها تفتقر إلى الإثارة، ولا تعرِّضه للخطر. كان يسعى وراء البطولات. أمّا الروتين، فلغيره من الطيّارين. أُدرِجَت تلك الإيرادات في الحسابات الرسميَّة، وكان نصفها من نصيبي.

لم يفقد خوليان شيئًا من حيويّته المدهشة بمضيِّ الأعوام، تلك الحيويَّة التي سمحَت له بالشرب كما يشرب القراصنة،

والطيران أربعين ساعةً بلا نوم، والمنافسة في رياضة قفز الحواجز والمشاركة في عدَّة مباريات سكواش في نهارٍ واحد. كما لم يهدأ مزاجه العكر، الذي كان يتفجّر كالبارود مُتأثِّرًا بأيِّ شرارة عديمة الأهمِّيَّة، ولكنَّه أمسك عن التعدِّي عليَّ بالضرب. كنتُ موضع أسراره، وصار في يدي الإضرار به ضررًا شديدًا.

ـ فكِّري جيِّدًا يا ڤيوليتا. لو تركتِني، لاضطُرِرتُ إلى قتلكِ!

ـ صرخ فيّ ذات مرَّة.

ـ وأنت أيضًا يا خوليان، فكِّر جيِّدًا، لأنَّك في حاجةٍ إلى ما هو أشدّ من الوعيد لاستبقائي! ـ صرختُ فيه بدوري.

عقدنا هدنةً إلى أجلٍ غير مُسمًّى، واستسلمتُ للنجاة بالأقراص المُهدِّئة والمُنوِّمة.

ما الذي كنتُ أخشاه؟ انفجارات خوليان العنيفة، والشجارات المميتة التي دارت على مرأى من الطفلَيْن، وأصابت خوان مارتين بنوبات الربو والصداع، زِدْ على ذلك الضعف الذي دفعني إلى السقوط في الشراك التي ينصبها لي خوليان مرَّةً تلو أخرى، وتقبّل المصالحات المضطربة والصفح عنه. كنتُ أخشى أن تفضي به «المهمَّات» التي يؤدِّيها إلى السجن أو الموت، وأن تكشف السلطات أمر الحسابات المُزدوَجة، وأن تتحقَّق الأرباح لخوليان على حساب الدماء، وأخشى الرجال المريبين الذين يتَّصلون به في ساعات الفجر، وأخشى أن تكون عدوى الشرّ قد انتقلَت إليه من فرط ما رافق المجرمين. أمَّا خوليان، فما كان يخشى أحدًا ولا شيئًا. ظلَّ يتمتَّع بالحظِّ السعيد والحصانة على مدى أعوامٍ طوال، عاشها على نصل السكِّين. كان لا يُقهَر.

في عشيَّة رأس سنة 1958، ولَّى فولخينسيو باتيسا هاربًا مع أقرب معاونيه على متن طائرتَيْن، مُحمَّلًا بالمئة مليون دولار التي سوف تضمن له منفى من ذهب. في أواخر أيَّام الديكتاتوريَّة، لمَّا بات المرء يشتمّ في الهواء تلك الرائحة التي حدَّثَتنا بأنَّ عناصر حرب الشوارع لن يعترض سبيلهم شيء، كان خوليان برابو يذهب إلى ميامي ويأتي منها، مُحمَّلًا بالهاربين والنقود وبعض أعضاء المافيا المسافرين برفقة عشيقاتهم. سرعان ما احتلَّ الثوَّار الجزيرة بأسرها، شاهرين البنادق لإعدام الساسة الأعداء وأولئك الذين تحقَّقَت لهم الثروة بطرقٍ غير مشروعة إبَّان الحكم الديكتاتوريّ، عازمين على وضع حدٍّ للفساد والقضاء على أمبراطوريَّة الرذيلة. وهكذا، أُقفِل باب السياحة الجنسيَّة في وجه الأميركان، وهجرَت المافيا بيوت الدعارة والكازينوهات، فلم تعُد كوبا مُربِحة.

أرسى خوليان قاعدةً لنفسه في ميامي، ولكنِّي أبيتُ التخلِّي عن عملي لدى شركة البيوت الريفيَّة وخطوط نورس الجوِّيَّة، وعن شقيقي، وصداقاتي، وبيتي، ونمط حياتي في ساكرامِنتو، حتى أذهب للعيش سائحةً في تلك المدينة، حيث لا أعرف أحدًا، وحيث نبقى أنا والطفلان وحدنا، لمُجرَّد أنَّ خوليان كان أقرب إلى السحاب منه إلى أرض الواقع. كنَّا نذهب إلى ميامي لرؤيته بين الحين والآخر، فيضيِّق علينا الخناق بالعناية والهدايا، حتى ترغمه مهمَّةٌ أخرى على الرحيل، أو حتى نشتبك في واحدٍ من شجاراتنا الأسطوريَّة، يأتي متبوعًا بمصالحة غير لائقة. في إحدى المرَّات، حين سألتُ ابني خوان مارتين عمَّا يريد بمناسبة عيد ميلاده، همس في سمعي قائلًا: «أن تنفصلي عن بابا إلى الأبد».

13

باغتنا زلزال عام 1960 أنا وابني وابنتي في سانتا كلارا. كانت مزرعة آل ريباس لا تزال ملاذي، ومكاني الأثير للاصطياف والراحة، بعيدًا عن خوليان، الذي لم يرافقنا في رحلات الهرب قطّ. لم يبقَ من ساكني سانتا كلارا القدامى سوى الخالة بيلار وتوريتو وفاكوندا. إذ مات آبيل ولوسيندا ريباس منذ بضعة أعوام، وافتقدناهما كثيرًا. بمبادرةٍ من أهل ناويل، وُضِع لوحٌ برونزيٌّ يحمل اسمَيْهما في محطّة القطار. اذهبْ لرؤيته يا كاميلو. لا بدَّ أنَّه ما زال هناك، برغم غياب القطارات، إذ بات المسافرون يستقلّون الحافلات.

أصبحَت المزرعة ملكًا لتيريسا، الوريثة الوحيدة، لأنَّ شقيقها روبِرتو قد تنازل عن نصيبه لها، ولكنّي تكفَّلتُ بالمصاريف، إذ لم يكُن في وسعها الإنفاق على المزرعة، حتى آلَت إليَّ، مع أنَّني لم أوطِّن النيَّة على امتلاكها يومًا. استأجر المراعي آل موريباو،

الذين زرعوا الكروم. كانت لدينا بقرةٌ واحدة، أمَّا الخيل والبغال فاستُبدِلَت بها الدرَّاجات والشاحنة. بينما اقتصرَت حظيرة الخنازير على أنثى خنزيرٍ وحيدة، شملها توريتو بالعناية وكأنَّها ابنته، لأنَّ صغارها كانوا مصدر دخله الوحيد. لم يزَل لدينا دجاجٌ وكلابٌ وقطط. وصار لفاكوندا موقدٌ حديث يعمل بالغاز، مُزوَّدٌ بفرنَيْن من الطين، كي تُعِدَّ كعكاتها وفطائرها التي كانت تُباع في ناويل وغيرها من القرى القريبة.

لم ألتقِ بزوج فاكوندا الذي حدَّثتنا عنه. بل إنَّ أحدًا لم يرَه قطّ، في واقع الأمر، ولذا اعتقدنا بأنَّها قد اختلقَت أمر ذلك الزوج. بمساعدة والدَيْها، تكفَّلَت بتربية الابنتَيْن، فعاشت الصغيرتان مع الجدّ والجدَّة، بينما زاولَت الأمّ عملها، إلى أن تهيَّأ لهما الاستقلال بنفسيْهما. في خمسة أعوام، أنجبَت إحداهما، وتُدعَى نارسيسا، ثلاثة أبناء يختلف كلٌّ منهم عن الآخر بشدَّة، حتى بدا من الواضح أنَّهم لا يشتركون في الأب نفسه. «لقد شبَّت هذه الفتاة طائشة»، تنهَّدَت فاكوندا وهي تفسّر طابور الرجال الذين يرافقون ابنتها، وحَمْل نارسيسا من دون أن يكون لها خطيبٌ مسؤول.

مات الخال برونو، وكاد البيت يخلو من شاغليه، عند ذاك اصطحبَت فاكوندا ابنتها نارسيسا وأحفادها حتى يعيشوا معها، وبذلك يمكنها أن تربّي الأطفال، كما تكفَّل والداها بتربية ابنتَيْها. أمَّا الآباء الذين لم يحظَ بهم أولئك الأطفال، فحلّ توريتو محلّهم، مع أنَّه كان في عمر الجدّ. لا بدَّ من أنَّه كان في الخامسة والخمسين من العمر على وجه التقريب، وإن لم يظهر

ذلك إلّا على أسنانه التي فقد بعضها، وظهره الذي بات أشدّ انحناءً. ما برح يذهب في رحلاته الطويلة حتى «يتعرّف». وأعتقد بأنّه قد احتفظ في ذاكرته بخارطةٍ مُفصّلةٍ للإقليم بأسره، وما ورائه.

بكَت فاكوندا على موت الخال برونو كالأمّ، في حين بكيتُ أنا كالابنة. لقد تبنّاني ذلك الرجل من قلبه حين وصلتُ إلى المزرعة في زمن المنفى، وغمرني بحبٍّ غير مشروط، كذلك الحبّ الذي غمرني به توريتو. ظلّت فاكوندا تحمل الأزهار إلى مقبرته كلّ سبت حتى موتها، عام 1997. دفنّا جثمانه بجوار الخالة پيا، هناك حيث أودّ منك أن تدفن جثماني أنا أيضًا يا كاميلو. إيّاك وأن تحرق جثماني وتنثر الرماد في أيِّ مكان، فالأفضل أن تخصّب عظامي الأرض. الآن، صار من الممكن وضع الجثامين في صندوقٍ يتحلّل بيولوجيًّا، أو لفّها بغطاء، هل كنتَ على درايةٍ بذلك؟ يروق لي الأمر، ولا بدّ من أنّه زهيد التكلفة.

مات الخال برونو، فانكسرَت الخالة پيلار. قالت إنّهما كالتوأمَيْن، ولكنّي أفضّل التفكير بأنّهما كانا عاشقَيْن. أردتُ استقصاء الحقيقة من توريتو وفاكوندا، فقابلاني بإجاباتٍ مُراوِغة، أكّدَت ظنوني. في الوقت المناسب. ناءت الخالة پيلار بسنوات عمرها السبعة والسبعين، وصارت تمشي بالعكّاز مُتأثّرةً بألم الركبتَيْن الشديد، ولم تعُد مُهتمّةً بأشغال الأرض، ولا الحيوانات، ولا الناس. تقوقعَت على نفسها، بعد أن كانت أعجوبةً من الطاقة والتفاؤل. أصبحَت تمضي الساعات وهي

صامتة، عاطلة اليدَيْن، شاردة النظرات. باغتُّها غير مرَّةٍ وهي تتحدَّث إلى الخال برونو. اقترحتُ عليها تركيب التليفون في سانتا كلارا، فأجابتني بكلِّ اقتناع، وقالت إنَّه ما دام التليفون لا يتَّصل بالموتى، فأيُّ لعنةٍ تجعلنا في حاجةٍ إليه.

في صيف ذلك العام، وصلَت تيريسا وميس تايلور مُحمَّلتَيْن بعددٍ من الصناديق، وببغاءٍ محبوسٍ في قفص. حضرَتا لقضاء بعض الوقت، وتنسّم الهواء، على حدِّ قولهما. والحقّ أنَّ تيريسا قد زُجَّ بها في الحبس الانفراديّ بتهمة مزاولة الأنشطة لصالح الشيوعيِّين، فتردَّت صحَّتها من جرَّاء الشهور الثمانية عشر التي قضَتها في زنزانة العقاب. بدَت هزيلة، رماديَّة اللون، وأصابها سعالٌ خليقٌ بمرضى السلّ، ونوبات دوارٍ تركَتها تائهة. ذهبنا نترقَّب وصول القطار، فاضطُرّ توريتو إلى إنزالها محمولةً على ذراعَيْه، لأنَّ الطريق الطويلة قد تركَتها خائرة القوى، بعد رفضهما السفر بإحدى الطائرات الجوماتيَّة التابعة لخطوط نورس الجوِّيَّة، كما عرضتُ عليهما.

ليلتذاك، بعد الوليمة التي أعدَّتها فاكوندا احتفاءً بوصولهما، اعترفَت لي ميس تايلور، دامعة العينَيْن، بأنَّ تيريسا تقضي نحبها رويدًا رويدًا، لأنَّها مُصابةٌ بسرطان الرئة، في طورٍ مُتقدِّمٍ للغاية.

كان ابني خوان مارتين يعيش تلك الأسابيع التي نمضيها في سانتا كلارا كلّ عامٍ وكأنَّه في الفردوس، فيبرأ من الحساسيَّة والربو بمعجزة، ويقضي يومه في الشمس، ويمضي في أثر توريتو، الذي علَّمه قيادة الشاحنة والاعتناء بصغار الخنزير. كان يغيب عن أنظارنا طوال ساعات يمضيها في القراءة، مستلقيًا على

أرضيَّةِ بيت الطيور، الذي ما زال قائمًا، وما زالت على بابه اللافتة التي تمنع دخول الأشخاص من الجنسَيْن. «ماما، اتركيني هنا في سانتا كلارا»، كان خوان مارتين يطلب منّي في كلّ عام، فأخمّن أنا باقي العبارة: «... بعيدًا عن بابا». في طور الحُلُم، رفض السعي إلى مرضاة خوليان. أمّا ذلك الإعجاب اللهوف الذي سبق أن شعر به نحو أبيه في الطفولة، فصار توجُّسًا. وبات يشعر نحوه بالخوف.

ومن جهةٍ أخرى، كرهَت نيبيس الريف. في إحدى المرَّات، قالت لخوليان إنَّ الخالة پيلار عجوزٌ جافية، وتوريتو عملاقٌ أبله، في معرض حديثها الذي قُوبِل بالقهقهات. أردتُ إرسالها إلى حجرتها، عقابًا لها على ما بدر عنها من وقاحة، ولكنَّ والدها منعني من ذلك، زاعمًا بأنَّ الصغيرة على حقّ، وبأنَّ پيلار مُشعوِذة وتوريتو أحمق. على الرَّغم من صفاقتها وريائها الظاهر، كانت ابنتي جديرةً بالإعجاب. أفكِّر فيها، فأراها طائرًا مُلوَّن الريشات، أجشّ الصوت، أراها مبتهجةً، رشيقةً، مُستعِدّةً للتحليق وترك كلّ شيءٍ خلفها، في غير اكتراث.

ولقد أثبتَت صلابتها يومَ ضرب أشدّ الزلازل المُسجَّلة على الإطلاق، ذلك الذي استمرّ عشر دقائق، ودمَّر إقليمَيْن، وتسبَّب في موجات تسونامي عملاقة وصلَت إلى هاواي، وحملَت مركبَ صيدٍ حتى استقرّ في وسط أحد الميادين بساكرامِنتو، تاركًا آلاف الضحايا. كانت مأساة، حتى بمقاييس هذا البلد، حيث ألفنا زلزلة الأرض وهياج البحر. ترنَّح بيت سانتا كلارا العتيق طويلًا قبل أن ينهار، فوجدنا الوقت الكافي للهرب، مُحمَّلين بقفص

الببغاء، وسط سحائب الغبار الكثيفة، على وقع دعائم السقف ورُقَع الجدران المتساقطة في كلِّ مكان، والهدير المُروِّع الآتي من بطن الكوكب.

انشقّ في الأرض شرخٌ هائل، فابتلع بضعَ دجاجات، بينما انطلقَت الكلاب في العواء. لم نتمكّن من البقاء وقوفًا على أقدامنا، إذ راح كلّ شيءٍ يدور، وانقلب العالَم رأسًا على عقب. استمرّ الزلزال دهرًا. كُنّا كلّما حسبناه قد انتهى، نجد هزّةً أخرى مُروِّعة. عند ذاك، سمعنا الانفجار ورأينا ألسنة اللهب، إذ انفجر الموقد واندلعَت النار في ما تبقّى من البيت.

وسط الفوضى وسحابة الدخان والرعب، لاحظَت نيبيبس أنّ الوحيدة التي لم تكُن بيننا هي تيريسا. لم نرَ الصغيرة تركض نحو البيت الذي شبّت فيه ألسنة النيران. فلو رأيناها لاعترضنا سبيلها. لا أدري كيف جرَت الأمور، فكلّ ما أعلمه أنّنا سمعناها تنادي توريتو بعد دقائق، وإن لم نتمكّن من تحديد اتّجاه صيحاتها. لم يخطر لأحدٍ أنّها آتية من البيت. وإذا بي ألمح ابنتي فجأةً، عَبْر الغبار والدخان، وهي تجرجر تيريسا من ثيابها بمشقّة. أدركهما توريتو أوّلًا، فحمل جسد تيريسا الهامد بإحدى ذراعَيْه، وحمل نيبيبس بذراعه الأخرى، ثم انطلق مبتعدًا بهما عن الحريق، بقوّة العملاق التي ضاعفَتها الحالة الطارئة. لم تكُن نيبيبس قد بلغَت حتى العاشرة آنذاك.

أمضينا يومًا وليلة في العراء، ونحن نرتجف بردًا وذعرًا، حينئذٍ عرفتُ قدرَ شخصيّة ابنتي التي ورثَتها عن أبيها، ابنتي التي أخذَت عنه الطباع البطوليّة نفسها. لم تذكر كيف فعلَت ما فعلَت

جيِّدًا، بل أجابت عن استفساراتنا بهزَّةٍ من كتفَيْها، ولم تولِ الأمر أدنى أهمِّيَّة. كلّ ما عرفناه أنَّها قد تسلَّلَت إلى أطلال البيت زاحفة، وناورَت العقبات المُتأجِّجة، ثم تجاوزَت بقايا الصالة حتى بلغَت كرسيّ الخيزران، حيث رأت تيريسا قبل الزلزال بلحظات. كادت تيريسا تختنق بالدخان، وغابت عن الوعي. أفلحَت نيبيبس في عبور الجحيم مرَّةً أخرى وهي تسحب وزنًا يفوق وزنها كثيرًا، بينما هي تزحف على أربعٍ طوال الوقت، إذ كان التنفُّس أيسر قرب مستوى الأرض، حسبما قالت.

راحت تيريسا تلفظ أنفاسها الأخيرة، لأنَّ رئتَيْها اللتيْن أضعفهما السرطان لم تحتملا الحريق، فقضَت نحبها بعد ساعاتٍ بين ذراعَي ميس تايلور، رفيقة حياتها. أمَّا نيبيبس، فخرجَت بشعرٍ شائطٍ وحروقٍ من الدرجة الثانية في ظهرها وساقَيْها، في حين لم يُصَب وجهها بأذى، ولم تتعرَّض لأيِّ صدمةٍ عاطفيَّة. لم يكُن الزلزال الذي دخل التاريخ عندها أكثر من حادثٍ جديرٍ بالفضول تحكيه لأبيها. في اليوم نفسه، مضينا بها إلى يايما، إذ تقطَّعَت السبل، والتوَت قضبان القطار، فبات الوصول إلى المستشفى الأقرب إلينا ضربًا من المحال.

في مجتمع السكَّان الأصليِّين، تناثرَت الأكواخ وكأنَّ ريحًا مُروِّعةً قد جرفَتها، فعبَّأت الهواء بالقشّ والغبار. ومع ذلك، لم يقع ضحايا. احتفظ الناس بالهدوء، ومضَوا يلملمون مقتنياتهم البائسة ويجمعون النعاج والخيل المذعورة. لقد صبَّت الأرضُ الأمّ والحيَّةُ الكبرى ساكنة البراكين جامَّ غضبهما على الرجال والنساء، ولكنَّ الروح الأوَّليَّة سوف تُعيد النظام. ولا بدَّ من

استحضارها. أجَّلَت يايما إعدادات الشعائر لتداوي نيبيبس بطقوسٍ سريعة ودهاناتٍ إعجازيَّة.

بعد موت تيريسا، ودَّعَتنا ميس تايلور عائدةً إلى أيرلندا، التي لم تضع قدمَيْها على أرضها منذ أربعة عقود. فكَّرَتْ في لقاء أشقَّائها الذين تفرَّقوا منذ الطفولة، ولكنَّها تراجعَت بعد أسبوعٍ واحد من الإقامة هناك، لأنَّ ذلك البلد لم يعُد بلدها، ولم تعُد لها عائلة سوانا، كما أخبرَت خوسِّيه أنطونيو بالتلغراف، فأجابها شقيقي بعبارةٍ وحيدة: «انتظريني، فأنا آتٍ لأُحضِرك».

جاء بها على متن إحدى السفن المسافرة عبر المحيط الأطلنطيّ، تلك التي كانت تستغرق تسعًا وعشرين يومًا من المرفأ إلى المرفأ، الأمر الذي منحه الوقت اللازم لإقناعها بأنَّها قد ارتكبَت خطأً برفضه رفضًا مُمَنهجًا، غير أنَّ الوقت ما زال سانحًا لإصلاح ذلك. قدَّم لها خاتم العقيق والألماس الذي احتفظ به منذ الأزل، فأوضحَت له أنَّها أكبر سنًّا وأشدّ حزنًا من أن تتزوَّج. ومع ذلك، قبلَت الخاتم واحتفظَت به في حقيبتها.

كان خوسِّيه أنطونيو شديد الخصوصيَّة، فلم يحكِ لي تفاصيل تلك الرحلة قطّ، ولكنِّي عرفتُ عن طريق ميس تايلور بأنَّهما قد اتَّفقا على عقد «زواج أبيض». وأمام تعابير الجهل البادية على وجهي، أوضحَت لي أنَّه قرانٌ أفلاطونيّ، كالصداقة الوثيقة. ولقد استمرَّ اتِّفاق العفاف حتى وصلا إلى بنما. كان خوسِّيه أنطونيو في السابعة والخمسين، وهي في الثانية والستِّين من العمر، فعاشا معًا أكثر من خمسة عشر عامًا، هي الأسعد في حياة أخي.

اعتنى توريتو وفاكوندا بالخالة پيلار في سانتا كلارا طوال العامَيْن اللذين تبقّيا لها من الحياة. راحت تنطفئ يومًا بعد يوم، وإن لم تُصَبْ بأيِّ داءٍ ظاهر للعيان، كلّ ما في الأمر أنَّها فقدَت الاهتمام بكلِّ ما هو بشريّ وإلهيّ معًا. على مدى حياتها الطويلة، تلَت صلاة المسبحة والصلاة التساعيَّة آلاف المرَّات. ولكنْ حين اشتدَّت حاجتها إلى سند الإيمان أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، فقدَت إيمانها بالربّ والسماء. «لا أرغب إلَّا في إغماض عينَيَّ، فلا أعود على قيد الوجود، بل أذوب في الخواء، كالضباب فجرًا»، كتبَت في رسالة الوداع التي سلَّمَتها لفاكوندا. مضَت أعوامٌ طوال منذ ذلك الحين، ولكنَّ ذكرى الخالتَيْن ما زالت تنتزع الدموع من عينَيّ، فهاتان المرأتان هما جنَّيَّتا طفولتي.

أمَّا ميس تايلور، التي ورثَت مزرعة سانتا كلارا عن تيريسا، فقرَّرَت أنَّ بيعها لا يستحقّ العناء، مع أنَّها تلقَّت عرضًا سخيًّا من آل مورياو، الذين راحوا يبتلعون الأراضي القريبة شيئًا فشيئًا لتوسعة أملاكهم، بعد إخلاء المكان من عدَّة عائلاتٍ من السكَّان الأصليِّين. استبدل خوسِّيه أنطونيو بالبيت المُحترِق خيرَ ما يمكن لشركة البيوت الريفيَّة تقديمه من البيوت، واستمرَّيتُ أنا في التكفُّل بالنفقات الزهيدة. أمضى توريتو معظم حياته هناك، فبات ذلك العالم هو عالمه الذي لم يعُد قادرًا على العيش في أيِّ مكانٍ سواه. وفاءً بما عزمتُ عليه، صرتُ أمضي أسبوعَيْن في المزرعة كلّ عام، حتى عندما تعقَّدَت الأقدار، وهكذا حافظتُ على الجذور مُمتدَّةً في أرضي.

قسَّم أهل المنطقة حياتهم إلى ما قبل الزلزال وما بعده، إذ

فقدوا أغلب ممتلكاتهم، التي استغرق تعويضها أعوامًا، ولكنَّ أحدًا لم يفكِّر في الرحيل بعيدًا عن البركان أو الصَّدْع الچيولوچيّ الذي استقرّ بنا المقام فوقه. أمَّا مركب الصيد، فظلَّ مكانه في وسط الميدان، تذكِرةً لنا بأنَّ صنع البشر لا يدوم، وبأنَّ العالم غير آمن. بعد مضيّ ثلاثين عامًا، بعد أن أكله الصدأ ونخره الزمن، نُشِرَت صورة المركب في إحدى المجلّات باعتباره صرحًا تاريخيًّا.

صاغ خوسّيه أنطونيو شعارًا بدا لي أشدّ رياءً ممَّا يُسمح بترديده: «عندما تضرب الكوارث، تُشترَى الأملاك». وفي واقع الأمر، لم يحدث يومًا أن شهدَت بيوتنا الجاهزة إقبالًا أكبر ممَّا شهدَت آنذاك، حين اضطُرِرنا إلى إقامة القرى والمدن من الأرض، كما لم يحدث يومًا أن تلقَّينا عروضًا أكثر ممَّا تلقَّينا آنذاك لبناء ڤيلّاتنا على الأراضي.

بدأتُ أشتري الذهب بمُدَّخراتي، بسبب انفجار التضخُّم في البلد، وفقدان عملَتنا كثيرًا من قيمتها، حتى خوليان فكَّر في شراء فيشات الكازينو والمضيّ بها إلى أحد كازينوهات لاس ڤيغاس، حيث الفيشات مُطابِقة، ثم صرفها بالدولار. نفَّذ تلك الحيلة مرَّتَيْن تحت أعيُن رجال المافيا، وإن تمكَّن منه الخوف في الثالثة. لأنَّ المجازفة بتصفية جسده بالرصاص في صحراء موهاڤي أكبر من لذَّة المخاطرة. وفي تلك الأثناء، شهدَت قيمة الذهب الذي أملكه ارتفاعًا مشروعًا في عتمة خزائن البنك. وحده شقيقي عرف بأنَّني في سبيلي إلى الإثراء، إذ كان يحمل مفتاح الخزانة الثاني.

ذات أحد، جاء فابيان شميدت ـ إنغلر إلى بيت خوسّيه أنطونيو يستشيره في مسألةٍ سرِّيَّة بصفته محاميًا، حسبما قال. فاستقبله أخي بمودَّة، وهو الذي طالما شعر نحوه بالأسى لأنَّه قد مُنِي بتعاسة الزواج منِّي. أوضح له فابيان أنَّ مجموعةً كبيرة من المهاجرين الألمان قد استقرُّوا في المنطقة، وأنشأوا مجتمعًا زراعيًّا، وباتوا في حاجةٍ إلى خدمات محامٍ كتوم.

سمعنا شائعاتٍ مُتناقِضة بشأن المستوطنة أمل. قيل إنَّها تخضع لإمرة مجرمِ حربٍ هارب، كما وقعَت أمورٌ غامضة هناك، فبدا المكان كالسجن المحاط بالأسلاك الشائكة الذي لا يقدر أحدٌ على الخروج منه أو الدخول إليه. نفى فابيان تلك الأكاذيب، وقال لأخي إنَّه يعرف الزعيم، وإنَّه قد ذهب إلى المكان عدَّة مرَّات بوصفه طبيبًا بيطريًّا. إذ عاش أولئك المهاجرون في سلام، عملًا بمبادئَ راسخة، مبادئُ العمل والنظام والتناغم. لم تواجه المستوطنة مشكلاتٍ قانونيَّة، ولكنَّ الضرورة تدعوهم أحيانًا إلى التعامل والسلطات، التي كانت تفرط في التدقيق بحكم العادة.

وجد خوسّيه أنطونيو المسألة شائكة، فاعتذر مُتعلِّلًا بالانشغال في شركته. وبينما هو يودِّعه، سأله بنبرةٍ عفويَّة عمَّا إذا كان قد فكَّر في مسألة إبطال الزواج.

ـ ليس هناك ما أفكِّر فيه. ـ أجابه فابيان.

وعلى الرَّغم من ذلك، فبعد أعوام قليلة، حضر زوجي إلى مكتب شركة البيوت الريفيَّة عارضًا إبطال الزواج للبيع، لأنَّه في

حاجةٍ إلى النقود لتمويل معمل. اكتشف طريقة تجميد النطاف إلى أجلٍ غير مُسمًّى، الأمر الذي من شأنه أن يسمح بعددٍ لا يُحصَى من الاحتمالات في كَوْن الهندسة الوراثيَّة الحيوانيَّة والبشريَّة معًا. فاوضه خوسِّيه أنطونيو على الثمن، ثم وضع اتِّفاقًا، وأعطى فابيان نصف المبلغ، أمَّا البقيَّة فأودعها باسمه حين مَهَر القاضي إبطال الزواج بتوقيعه. من أجل هذا الغرض، استخدمتُ جزءًا من العملات الذهبيَّة التي كانت في حوزتي. وصرتُ امرأةً عازبة، في الوقت الأبعد عن البال.



الجزء الثالث

الغائبون

(1960 ـ 1983)

14

أسترجعُ الماضي، فأُدرك أنَّني فقدتُ نيبيس قبل ما ظننتُ بأمدٍ بعيد. كانت ابنتي في الرابعة عشرة من العمر حين قرَّر خوليان أنَّها، بدلًا من الإجازة الإجباريَّة في سانتا كلارا، سوف تمضي ذلك الوقت برفقته، هي وهو وحدهما، في شهر عسلٍ يقضيه الأب والابنة معًا. فقد الأمل في أن يجعل من خوان مارتين «رجلًا»، أي رجلًا على صورته. كان ابنه مراهقًا رومانسيًّا أخرق، بدا أكثر اهتمامًا بقراءة ألبير كامو وفرانس كافكا منه بمطالعة مجلَّات بلايبوي التي كان يُحضِرها إليه والده من ميامي، وآثر مناقشة الماركسيَّة والإمبرياليَّة مع ثلَّةٍ من أصدقائه المُعذَّبين مثله على تلمُّس أجساد صديقات أخته في الأركان الخفيَّة.

في الأعوام التالية، اصطحب خوليان ابنته نيبيس في أسفاره وعلَّمها قيادة السيَّارة والمساعدة في قيادة الطائرة. وحين ضبطها تدخِّن وتحتسي بقايا كؤوس الكوكتيل، بدأ يمدّها بسجائر

المنتول، ولقَّنها فنَّ الشرب باعتدال، مع أنَّه هو نفسه أفرط في معاقرة الكحول. سرعان ما بدأت نيبيس ترتدي الثياب المثيرة وتضع زينة عارضات الأزياء للخروج والتباهي برفقة أبيها في الملاهي الليليَّة والكازينوهات، حيث يراهنان معًا على طاولات القمار، من دون أن يرتاب أحدٌ في عمرها، ويمزحان بحمل الآخرين على الظنّ بأنَّها آخر عشيقات خوليان. تركَت الحروق التي أصابتها في الطفولة ندوبًا طفيفةً جدًّا، بفضل تدخُّل يايما، على ما أعتقد. وقال خوليان إنَّ جمالها يوقف حركة السير. في الثامنة عشرة من العمر، صارت تشدو بالأغنيات الرائجة في الفنادق والكازينوهات، حيث تتلقَّى الإكراميَّات من الزبائن، الأمر الذي بدا لخوليان في غاية الطرافة. راقته تلك اللعبة، لعبة استفزاز رغبة الرجال الآخرين مزهوًّا بابنته، من مسافةٍ حذِرة، مع أنَّه كان يطرد أيّ شابٍّ يقترب منها. «هكذا لن أجد خطيبًا يا بابا»، شكَت نيبيس حالها. «إنَّ آخر ما تحتاجين إليه في هذا العمر خطيب. عليه أن يمرَّ على جثَّتي أوَّلًا»، أجابها والدها، وهو الغيور كالعاشق.

وفي تلك الأثناء، عشتُ في بلدنا مع خوان مارتين، الذي درس الفلسفة والتاريخ. اعتبر والده تلك الدراسة مضيعةً للوقت لا جدوى منها. كانت الجامعة في العاصمة، ولذا استأجرتُ شقَّةً هناك، وعشتُ معه فيها، غير أنَّنا لم نلتقِ إلَّا قليلًا. كنتُ أتردَّد إلى ساكرامِنتو، وأسافر بالطائرة إلى الولايات المتَّحدة لرؤية نيبيس في كثيرٍ من الأحيان، فيبقى ابني وحيدًا لفتراتٍ طويلة.

حصلتُ على إبطال الزواج حين لم تعُد بي رغبةٌ فيه، بعد أن

وطَّنت نفسي على مزايا الوضع، إذ حظيت بالحرِّيَّة من الناحية العمليَّة، وكان لي رجلٌ جامحٌ يُشبع متطلِّبات الشغف، رجلٌ ما زال قادرًا على فرض الهيمنة عليَّ بالقبلات، بعد كلّ هذه الأعوام، والعادات المُشترَكة، والتواطؤ الذي لا مفرّ منه، والأحقاد المتراكمة. ما أطول عبوديَّة الرغبة! لم أشعر بالمهانة يومًا كما شعرت بها في منتصف العمر، عندما ظهرَت آثار خمسين عامًا من الصراع والإعياء الجسديّ والروحيّ على المرأة صاحبة الصورة الظاهرة على صفحة المرآة. أمَّا خوليان، فكان العمر عنده مسألة اختيار، إذ استقرّ على البقاء في الثلاثين أبدًا، وكاد يتمّ له ما أراد. ظلَّ شابًّا، خليّ البال، مبتهجًا، زير نساء، حتى بلغ ذلك العمر، حين يتأمّل باقي الفانين موتهم المحتوم. «في النهاية، لا يندم المرء إلَّا على ما لم يرتكب من الخطايا»، كان يقول.

تلبَّدَت الفترات التي جمعَتني بخوليان بالاضطراب والشقاء. كنتُ أتهيَّأ لتلك اللقاءات كالعاشقة، وأصبو إلى اللحظة التي نبقى فيها وحدنا، فنتعانق بشغفٍ مُتجدِّد، ونمارس الحبّ بالخبرة المُكتسَبة من التجربة الطويلة، وأنام ملتصقةً بظهرِه، بينما أتنشَّق رائحة الرجل المفعم بالعافية والقوَّة، ثم أستفيق ذاهلةً على أثر المداعبات والأحلام، بعد ذلك نتقاسم قهوة الصباح الأولى وكلانا عارٍ، ثم نمضي في الشوارع ويد كلٍّ منَّا في يد الآخر، بينما نتبادل آخر ما استجدّ في غيابنا، فتمرّ بضعة أيَّامٍ ونحن على تلك الحال. ثم تبدأ عاصفة الغيرة. كان يراقبني على صفحة المرآة، ويقارن بيني وبين شابَّاتٍ في عمر ابنتي، يغويهنَّ بلا

مداراة. من جانبه، لامني خوليان على استقلالي، والوقت الذي أمضيتُه بعيدًا عنه، والثروة التي أخفيتُها حتى لا أشاركه إيَّاها، كما اتَّهمني بالطموح، الذي اعتُبِر مسبَّة آنذاك، إذا نُعِتَت به امرأة. مع أنَّ خوليان كان يتدبَّر حاله طوال الوقت حتى يختلس جزءًا من مدَّخراتي، في واقع الأمر. انسابَت النقود غزيرةً بين يدَيْه. ومع ذلك، عاش حياته على الحساب، وراح يُراكِم الديون.

أعترف إليك يا كاميلو بأنَّني قد ابتهلتُ إلى السماء غير مرَّةٍ حتى يصطدم خوليان بالطائرة، بل وبلغتُ حدَّ الحلم باغتياله كي أعتق نفسي منه. ما كانت لتغدو أوَّل ولا آخر مرَّة تقتل فيها امرأةٌ عشيقها لأنَّها لم تعُد تحتمله.

أصرَّ خوليان على أن نعيش معًا مرَّةً أخرى، إلى الحدِّ الذي جعلني أنتقل إلى ميامي. لم أفعلها مرضاةً له، بل إنَّني ذهبتُ في محاولةٍ للتقرُّب إلى نييبس، التي تخلَّت عن دراستها قبل إنهاء المرحلة الثانويَّة، وصارت تنام نهارًا، وتختفي ليلًا، حتى لم أعُد أجدها متاحةً كلَّما اتَّصلتُ بها عَبْر التليفون. فقدَت القدر القليل من الاحترام الذي شعرَت به نحوي ذات مرَّة، وأتقنَت ذلك الفنَّ على أكمل وجه، فنّ استخدام أبيها لإهانتي. أحبَّته إلى حدِّ العبادة. في حين كنتُ أنا التي منعتها من قضاء وقتٍ طيِّب: فأنا رجعيَّة، صارمة، بخيلة، مُتزمِّتة، عجوز مُنغِّصة، كما نعتَتني في وجهي.

آنذاك، عجَّت المدينة بالمنفيِّين الكوبيِّين، الذين كان بعضهم من أصحاب الثروات الضخمة. كما حفلَت السواحل باليخوت بقدر ما ازدحمَت الشوارع بالسيَّارات الكاديلاك، وزخرَت

الحانات والمطاعم بأفضل أطعمة جزيرة كوبا. تذبذب الهواء على وقع الموسيقى اللاتينيَّة، والأحاديث الصاخبة الدائرة بتلك اللهجة التي تبدو الحروف الساكنة فيها كالحروف المُتحرِّكة. لم تعُد ميامي تمتّ بصلةٍ إلى قاعة الانتظار حيث كان يترقَّب المُسنُّون المُتقاعِدون موتهم في الماضي.

استأجر خوليان ڤيلّا منعزلةً قريبةً من البحر، تُطوِّقها ستارةٌ من النخيل، ولها مسبحٌ تنساب فيه خيوط الماء والضوء، ڤيلّا تستلزم وجود عددٍ كبيرٍ من العاملين المنزليّين، نسخة مُقلَّدة من معمار البحر المُتوسِّط في إيطاليا، مُهيَّأة لتلائم ذائقة الأثرياء الجدد: فهي شاسعة، فسيحة، لشرفاتها بلاطٌ من الخزف المُلوَّن، ومظلّاتٌ زرق، ونباتاتٌ غائبة عن الوعي في الأصص الخزفيَّة من شدَّة القيظ. أمَّا الديكور الداخليّ، فبدا مبهرجًا بقدر المظهر الخارجيّ الذي جعلها أشبه بالكعكة الورديَّة. مراعاةً للتقاليد، حملني على ذراعَيْه حتى يجتاز عتبة الباب لأوَّل مرَّة، وأخذني في جولةٍ مزهوًّا بالمطبخ الخليق بفندق ـ علمًا أنَّ الطهو لا يروقني ولا يروقه هو أيضًا ـ، والحمَّامات الستَّة المُزيَّنة بنقوش حوريَّات البحر والدلافين، والصالونات التي تنبعث منها رائحة الطحالب والمُطهِّرات، والبرج المُزوَّد بالتليسكوب لاختلاس النظر إلى السفن التي عادةً ما ترسو على مقربةٍ من الشاطئ ليلًا.

صارت الڤيلّا مركزًا لتجارة خوليان واجتماعاته بأولئك الذين أطلق عليهم شركاءه. كان لبعض شركائه مظهر البيروقراطيّين، بما يرتدون من بدلاتٍ وصديريَّات، على الرَّغم من الرطوبة والقيظ. بينما كان بعضهم من الأميركان الذين يرتدون الأقمصة ذات

الأكمام القصيرة ويعتمرون القبّعات، وبعضهم الآخر من الكوبيّين الذين يرتدون أقمصة الغوايابيرا اللاتينيَّة وينتعلون الصنادل. فضلًا عن الرجال الذين يضعون في أصابعهم الخواتم المبهرجة ويُدخِّنون السيجار، ويتحدَّثون الإنجليزيَّة بلكنةٍ إيطاليَّة، وتصحبهم حراسةٌ خاصَّةٌ مهيبة، في صورٍ كاريكاتوريَّةٍ متنافرةٍ لرجال المافيا.

ـ عامليهم بمودَّة، فهم زبائني. ـ نبَّهني خوليان عندما أردتُ الاستفسار عنهم، ولكنِّي كدتُ لا أعاملهم قطّ، فالبيت كبيرٌ إلى حدٍّ جعلني لا ألتقي بهم.

بعد أربعة وعشرين ساعة من التعايش في تلك الكعكة الورديَّة، وضع خوليان على المائدة صندوقَيْن من الورق المُقوَّى، كلاهما يغصّ بالأوراق، وطلب منِّي مساعدته في ترتيب المحتويات. عند ذاك، أدركتُ أنَّ اهتمامه بالقرب منِّي لم يكُن عاطفيًّا، وإنَّما عمليًّا. لطالما كنتُ مديرة أعماله، وسكرتيرته، ومحاسبته. استقرّ كلّ شيءٍ في هذين الصندوقَيْن، بدءًا بالحسابات المُعلَّقة، وفواتير الشراء، والعناوين، وخطوط السير، وصولًا إلى الملاحظات المكتوبة بخطّ اليد، التي يعجز خوليان نفسه عن كشف طلاسمها. وبينما رحتُ أحاول وضع شيءٍ من النظام صبيحة ذلك اليوم، أدركتُ طبيعة الأنشطة التي يزاولها رفيقي، تلك التي يفتقر معظمها إلى المشروعيَّة، كما ظننت.

كانت الحقائب السوداء الثقيلة تدخل وتخرج ملأى برزم من الأوراق الماليَّة، على نحوٍ مُنتظِم. بينما زخرَت الحُجرات بترسانةٍ من السلاح، وإن أوضح لي خوليان، الذي لم يتسلَّح يومًا، أنَّه لا يملك شيئًا من ذلك، بل إنَّه يحتفظ بالأسلحة من أجل أصدقائه

وحسب. بعد أسبوع، تخلَّى عن محاولة خداعي، وأخبرني بأمر الكوبيِّين الذين يتآمرون ضدَّ ثورة فيديل كاسترو، والمافيا المُسيطِرة على الجريمة في فلوريدا ونيڤادا، والسي آي إيه التي تهدف إلى منع أفكار اليسار من الانتشار في أميركا اللاتينيَّة، مهما تكُن الوسيلة.

ـ تنتشر حركات حرب العصابات في معظم بلدان القارَّة. لعلَّكِ تفهمين أنَّه لا يمكن السماح باندلاع ثورةٍ أخرى بيننا على غرار الثورة الكوبيَّة. ـ أوضح لي.

ـ وما شأنك بهذا؟ ماذا تفعل من أجل السي آي إيه؟

ـ انتقالات، بين الحين والآخر. . . رحلات طيران لا يجب أن يعرف أحدٌ بها. أحمل معلومات من الكوبيِّين ونقاط اتِّصالٍ في أمكنةٍ أخرى، لا شيء ذا بال.

ـ أيدفعون لك؟

ـ قليلًا، ولكنِّي أتمتَّع بمزايا كثيرة. فالأميركان يتركونني وشأني، ولا يزعجونني.

يقول خوان مارتين إنَّ السي آي إيه تُسقِط الأنظمة الديموقراطيَّة، وتدعم الدكتاتوريَّات الوحشيَّة التي تخدم مصالح النُخَب وتبثّ الرعب في الشعوب، مُتذرِّعةً بحجَّة الحرب الباردة. لقد بلغ الظلم والتفاوت والبؤس حدًّا جعل انتشار الشيوعيَّة في بلادنا له ما يُبرِّره.

ـ شيء مؤسف، ولكنَّه ليس من اختصاصنا. لقد زجَّ خوان مارتين بنفسه في عشّ الحُمْر الذين يغسلون دماغه.

ـ إنَّها الجامعة الكاثوليكيَّة يا خوليان!

ـ ربَّما، ولكنَّ ابنكِ في غاية الرخاوة.

ـ هو ابنكَ أنت أيضًا.

ـ هل أنتِ موقنة من ذلك؟ لا يبدو ابني...

هكذا، كانت الأحاديث التي سرعان ما تفضي بنا إلى معاركَ ضارية، تبدأ بالكلام عن أيّ شيء، ثم تنتهي بتبادل الاعتداء.

أذكر سورايدا أبريو بإعجاب، لأسبابٍ أخبرك الآن بها. حينذاك، كانت شابَّةً جذَّابةً من بورتوريكو، قد يحسبها المرء بلهاء جميلةً بالنظر إلى ثيابها المثيرة وصوتها المزعج، مع أنَّها امرأةٌ أمازونيَّة في واقع الأمر. في إحدى رحلاته، وقع خوليان في حبّها، فلم يقوَ على مفارقتها، كما حدث له معي. في حالتي، لم يفارقني لأنَّني حملتُ منه. أمَّا في حالتها، فلا أملك معرفة السبب، على اعتقادي بأنَّ تلك المرأة كانت أشدّ جسارةً منه. مضَت سورايدا في أثر خوليان عندما ذهب للعيش في ميامي، وهي التي سبق أن كانت ملكة جمال رَمّ بوريكوا في السابعة عشرة من العمر. كره خوليان أيّ صنفٍ من القيود، فأبقاها على مسافة، زاعمًا بأنَّه مُتزوّجٌ منّي، وبأنَّ الطلاق ممنوعٌ في بلده، وبأنَّه يحبّ ابنَيْه ولن يتخلَّى عنهما أبدًا.

تعرَّفتُ بها لأنَّها تجرَّأت على دعوتي إلى تناول كأسٍ من الشراب في حانة فندق فونتينبلو. كانت فارعة القوام، مختالة، شعرها غزير، يكفي لصنع باروكتَيْن. جاءت تنتعل صندلًا ذا كعبٍ عالٍ،وترتدي سروال كابري ضيِّقًا وبلوزةً مشدودةً بعقدةٍ على

الخصر أبرزَت نهدَيْها. وعلى الرَّغم من ذلك المظهر الذي يشي بأنَّها امرأةٌ مُتسكِّعة تبحث عن الإثارة، لم تكُن سوقيَّة. دلفَت إلى الحانة، فالتفت إليها جميع الرجال الذين كانوا هناك، وصفَّر أكثر من واحد. طلبنا كأسَيْن من الكوكتيل، فشرعَت تقول، من دون مُقدِّمات، إنَّها عشيقة زوجي منذ أربعة أعوام وشهرَيْن.

ـ معذرة، كنتُ في حاجةٍ إلى الإفضاء بذلك، لأنَّني لا أقدر على العيش في أكاذيب.

ـ أتريدين إذنًا منِّي؟ إلى الأمام يا امرأة، فهو لكِ بالكامل. ـ قلتُ لها. علمًا أنَّني لن أتمكَّن من الحيلولة دون ذلك بأيِّ حال، وأنَّني ما عدتُ أهتمّ بغراميَّات خوليان آنذاك.

ـ لقد أخبرني خوليان بأنَّكما معًا لأنَّ الطلاق ممنوع، ولكنَّكما لا تحبَّان بعضكما بعضًا.

ـ ليس زوجي. لو شاء الزواج منكِ فهو حرٌّ في ذلك.

أمضينا ساعةً في تواطؤٍ غريب. مع الكأس الثانية، أفاقت سورايدا من المفاجأة والغضب، فقرَّرَت أن تترك الوضع على ما هو عليه، وألَّا تواجه خوليان بالحقيقة التي اكتشفَتها لأنَّها لن تجني بذلك إلَّا خسارته. أمَّا تلك المعلومة، فربَّما انتفعَت بها في اللحظة المواتية. من مصلحتها أن يتظاهر بالزواج، فهكذا يُبعِد منافساتٍ أخريات، ومن مصلحتي أن تبقيه منشغلًا.

ـ لستُ عاهرة، لا أريد نقوده، ولا أريد منه شيئًا، ولا أفكِّر في ابتزازه. أنا موفورة الصحَّة، وكاثوليكيَّة. ـ أوضحَت لي، بمنطقٍ لا عيب فيه.

يبدو أنَّني ما كنتُ أندرج تحت فئة المُنافِسات، فأنا غير مؤذية، بل إنَّني امرأةٌ في طور النضج ترتدي بدلةً من قطعتَيْن على طريقة جاكلين كينيدي، بدلةً لم تعُد تساير الموضة الآن وقد انتشرَت التنانير القصيرة. بدا لي من القسوة إخبارها بأنَّه قد يكون مع أخرى في تلك اللحظة، بينما نحن نشرب كؤوس المارتيني. ظنَّت سورايدا بأنَّه سوف يتزوَّجها، طال الأمد أو قصر. كان لها من الأعوام ستَّةٌ وعشرون، ومن الصبر حظٌّ كبير.

انشغلتُ بأمر السي آي إيه أقلّ كثيرًا ممَّا انشغلتُ بأمر رجال العصابات المسؤولين عن تلك الحقائب السوداء، وترسانة الحرب المودعة في البيت، والطرد الذي ظهر أمام بابنا مرَّتَيْن، خاليًا من أيِّ بيانات، فأمرني خوليان بألَّا ألمسه، وإلَّا فربَّما انفجر. وهناك بقي الطرد يتحمَّص تحت أشعَّة الشمس، حتى جاء خوليان برجلٍ هزيل، له وجه فأر، تولَّى حلَّ المشكلة. كان ذلك الفأر محاربًا قديمًا وخبيرًا في المفرقعات، فحص الطرد بالتسمُّع، ثم فتحه برهافة الجرَّاحين. كان الطرد الأوَّل يحوي عددًا من قوارير الويسكي، بينما اشتمل الثاني على بضعة كيلوغرامات من أفضل صنوف اللحوم البقريَّة ـ من شرائحَ وأضلاع ـ جيء بها مُغلَّفةً بالثلج، وإن استحالت كتلةً دامية كريهة الرائحة من فرط ما بقيت تحت أشعَّة الشمس. كانت هدايا أرسلها زبائنُ مُمتنُّون.

مرَّةً أخرى، أحسستُ في فم المعدة بغصَّة الخوف، كما هو دأبي كلَّما أمضيتُ فترةً برفقة خوليان. كنتُ أتساءل أيَّ شيءٍ لعين أفعل في ميامي.

في الصيف، اجتاحنا واحدٌ من تلك الأعاصير التي تقلب

العالَم رأسًا على عقب. سكنّا فوق ربوةٍ مرتفعة، ولذا لم نخشَ الأمواج، بل اكتفينا بسدِّ النوافذ وإقفال الأبواب بإحكامٍ في وجه الريح العاتية. كانت تجربةً جديرةً بالذكر. والإعصار يتميَّز عن الزلزال بأنَّه يضرب بعد سابق إنذار. انهالَت الريح والمياه على البيت، وانتزعَت عددًا من أشجار النخيل، كما حملَت جميع الأشياء المُتفرِّقة. وحين هدأت العاصفة، وجدنا طاولة تنس طافيةً في مسبحنا، مع أنَّ صاحبها يعيش على بعد كيلومترات، كما وجدنا في شرفة الطابق الثاني كلبًا مذعورًا، وصل مُحلِّقًا في الهواء، حيوانٌ مسكين.

بعد يومَيْن، حين بدأت تجفّ الأرض، انتبه خوليان إلى انسداد خزَّان الصرف، فثارت ثائرته. رفض الاتّصال بمَن يصلحه، وحاول تسليكه بنفسه، بقفَّازٍ وبوطٍ من المطَّاط، غائصًا حتى ركبتَيْه في حساءٍ مُقزِّز، بينما انطلق لاعنًا بأعلى صوت. سرعان ما رأيتُ السبب الذي منعه من طلب المساعدة، إذ استخرج من الحفرة كيسًا قذرًا، ومضى يجرجره إلى المطبخ، ناثرًا محتوياته على الأرض: وإذا هي رزمٌ من الأوراق الماليَّة، مُبلَّلة ومُلوَّثة بالخراء.

وبينما أنا على وشك إفراغ ما بجوفي، رأيتُ خوليان ينوي تنظيف الأوراق الماليَّة في الغسَّالة.

ـ لا! إيَّاك وأن تفكِّر حتى في ذلك! ـ صرختُ فيه، وقد تملَّكتني الهستيريا.

لا بدَّ من أنَّه قد حدس بعزمي على الحيلولة دون ذلك

بالدماء، إذ أمسكتُ أكبر سكّين في المطبخ، من دون تفكير.

ـ «أوكيه» يا فيوليتا! هدِّئي من روعك! ـ توسَّل إليَّ مذعورًا لأوَّل مرَّةٍ في حياته.

أجرى اتِّصالًا هاتفيًا. وبعد قليل، وجدنا في خدمتنا اثنيْن من قتلة المافيا. ذهبنا إلى المغسلة، حيث وضع رجلا المافيا ورقةً من فئة العشرة دولارات في يد كلّ واحدةٍ من النساء الثلاث اللاتي كُنَّ يغسلن ثياب ذويهم، وأخرجوهنَّ من المغسلة، مع تعليماتٍ بالانتظار في الخارج، ثم وقفا أمام الباب لمراقبة المكان، ريثما يغسل خوليان الأوراق الماليَّة المُلوَّثة بالخراء. بعد ذلك اضطُرَّ إلى تجفيفها ووضعها في كيس. اصطحبني خوليان لأنَّه لم يملك أدنى فكرةٍ عن كيفيَّة تشغيل تلك الأجهزة.

ـ آها! الآن فهمتُ ما غسيل الأموال. ـ قلتُ مُعقِّبةً.

كان ذلك ما ينقصني حتى أدرك مرَّةً وإلى الأبد أنَّ العلاقة الغراميَّة التي جمعَتني بخوليان أنسب من الزواج به. في اليوم التالي، رجعتُ إلى ساكرامِنتو.

تأخَّرتُ في إخبارك بالمزيد عن نييبيس، لأنَّها مسألةٌ شديدة الإيلام يا كاميلو. لعلَّني كنتُ مُجحِفةً إذ ألقيتُ باللائمة على خوليان في مصير ابنتي. لأنَّ كلّ امرئٍ مسؤولٌ عن حياته، في واقع الأمر. نُولَد ومعنا أوراقٍ مُحدَّدة، فنلعب بها لعبتنا. بعض الناس يحصل على أوراقٍ رديئة، فيخسر كلّ شيء. ولكنْ بعضهم يبرع في اللعب بالأوراق نفسها، فيربح. يُحدِّد ورقُ اللعب من نكون: العمر، والجنس، والعِرق، والأسرة، والجنسيَّة، إلى

آخره. لا نملك تغيير الورق، ولا يسعنا إلَّا استخدامه بأفضل ما يمكن. وفي تلك اللعبة عقباتٌ وفرص، استراتيجيَّاتٌ وحِيَل.

حظيت نيبيس بأوراقٍ استثنائيَّة: إذ تحلَّت بالذكاء، والشجاعة، والجرأة، والسخاء، والفتنة، والصوت الأخَّاذ، والجمال. أحببتُها من كلِّ روحي، كما تحبّ الأمّ أبناءها، ولكنَّ ذلك لا يُقارَن بحبّ العبادة الذي شعر به أبوها نحو نيبيس، فهي الشخص الوحيد الذي أحبّه خوليان أكثر من نفسه في هذا العالَم.

يُقال إنَّ جميع البنات يقعن في حبِّ الآباء في أوَّل الطفولة. أعتقد بأنَّها تُسمَّى عقدة إلكترا، التي تتجاوزها البنات بصورةٍ طبيعيَّة. ولكنْ حتى الآباء يقعون في حبِّ بناتهنَّ أحيانًا، عند ذاك تختلط المشاعر وكأنَّها كرةٌ من الصوف بين مخالب قطّ. ولقد وقع بين نيبيس وخوليان شيءٌ من هذا القبيل. ما كاد يحدس بأنَّ للصغيرة سماتٍ تثير إعجابه، سماتٍ يفتقر إليها الابن، حتى ولع بها. كانت مثله، من دمه وروحه، بخلاف خوان مارتين، الذي اعتبره والده رخوًا مُتأنِّثًا. لم يقدر خوان مارتين على منافسة شقيقته. وجاءت لحظةٌ أمسك فيها عن المحاولة، فاستسلم إلى شَغْل ركنٍ خفيٍّ في ظلّها، الشيء الذي أتقنه خوان مارتين حتى كاد أبوه ينسى وجوده.

في إحدى المناسبات، رأيتُ خوليان في المسبح يدهن جسد نيبيس بكْريم تسمير البشرة، كما سبق أن فعل مرَّاتٍ كثيرة، ولكنَّ شيئًا في ذلك المشهد أثار قلقي، فناديتُها حتى أدهن جسدها بنفسي.

ـ بابا يفعلها أفضل منك. ـ أجابَتني بتعبيرٍ هازئ.

في وقتٍ لاحق، تجرَّأتُ على مواجهة خوليان، فأجابني بصفعةٍ على وجهي بعد مضيّ وقتٍ طويل لم يضربني خلاله، مع أنَّه لم يترك أثرًا على وجهي من قبل. اتَّهمني بأنَّني شمطاء حقيرة ألوِّث كلَّ شيءٍ بالظنون والغيرة والحسد، وقال إنَّه قد احتملني أعوامًا، ولكنَّه لن يحتمل أن أدمِّر براءة نيبيس بخسَّتي.

خلال العام الذي عشتُ فيه مع خوليان بفيلَّا ميامي الورديَّة البشعة، مع رجال المافيا والمتآمرين والجواسيس، أقامت نيبيس معنا من الناحية النظريَّة. أمَّا من الناحية العمليَّة، فقلَّما رأيتُها. كان العقار يبعُد عن وسط المدينة، ولذا فكثيرًا ما باتت ليلها في أحد بيوت الصديقات، على حدِّ قولها. أحيانًا كنتُ أجدها مستلقيةً على الأريكة بجوار المسبح، وهي تحتسي البينيا كولادا، وتستريح بعد حفلٍ صاخب. في بعض الليالي، كان يصيبها خدرٌ شديدٌ من فرط ما تعاطَت من الكحول، والمخدّرات أيضًا، على ما أعتقد، إلى الحدِّ الذي يمنعها من القيادة، فتتَّصل بخوليان حتى يقلّها إنْ هي لم تجد من يحملها إلى البيت. كانت تُلطِّف من الخمور بالكوكايين المتاح في متناول يدها طوال الوقت، إذ اعتبرَته غير مُضِرّ، مثله كمثل التبغ.

غنَّت ابنتي في الملاهي الليليَّة والكازينوهات التي لا بدَّ من أنَّها خضعَت لسيطرة المافيا، فمضى بي خوليان إلى هناك بضع مرَّاتٍ للاستماع إليها. أراها الآن كما رأيتُها في تلك الليالي، صبيَّةً مُبهرَجةً كالبغايا، بثوبها الضيِّق المُزيَّن بالخرز والألماس الزائف، تداعب الميكروفون وتغري الحضور بصوتها الأجشّ المثير. كان والدها يصفِّق لها بحرارة ويتغزَّل بها كما يفعل باقي

الرجال الحاضرين، بينما أتلوَّى أنا مصابةً بتشنُّجاتٍ في المعدة، وأتضرَّع إلى السماء حتى ينتهي العرض سريعًا.

بعد مضيّ عامَيْن، «اكتشفها» أحد الرجال في واحدةٍ من تلك المغامرات، فمضى بنيبيس إلى لاس ڤيغاس بين عشيَّةٍ وضحاها، متُعهِّدًا إليها بالحبّ والنجاح على خشبة المسرح. كان يُدعَى چو سانتورو، ويقدِّم نفسه بصفته وكيلًا فنِّيًا، مع أنَّه مُجرَّد مُمثِّلٍ مغمور، من أولئك الشباب الأميركان الكثيرين الذين يتمتَّعون بالوسامة، مع أنَّ حظّهم من النباهة قليل، وحظّهم من الضمير دون القليل. حزمَت نيبيس أغراضها خلسةً ورحلَت من دون أن تُخبر أباها بشيء. وبعد يومَيْن، بعد أن لجأ إلى الشرطة حتى يعثر عليها، اتَّصلَت به من لاس ڤيغاس. لم يتردَّد في الذهاب ليأخذها، وقد جُنّ جنونه من فرط الغضب والغيرة. كانت لديه صلاتٌ في تلك المدينة التي يسافر إليها من أجل زبائنه، ويتلقَّى منها بعض الحقائب السوداء. خطَّط للاستعانة بأحد القتلة حتى يفتِّت ركبتَي ذلك المدعو سانتورو رميًا بالرصاص، والعودة بابنته مسحوبةً من أذنها.

عثر على نيبيس في بيتٍ رثّ، عاش فيه چو سانتورو مع عددٍ كبير من الهيبي والمُتشرِّدين العابرين الذين يمضون بضع ليالٍ في ذلك المكان ثم يختفون عن الأنظار، تاركين خلفهم أثرًا من الوسخ والأذى. كانت ابنتي مستلقيةً برفقة عشيقها الشابّ على مرتبةٍ دبقةٍ فوق الأرض، وسط فوضى الثياب المتناثرة وصفائح البيرة وبقايا البيتزا المُتحجِّرة، وكلاهما يُحلِّق في أكوانٍ أخرى بمزيجٍ من مخدِّرات الإل إس دي والماريجوانا، وإن احتفظَت

نيبيس بما يكفي من اليقظة كي تخمِّن الغاية التي يرمي إليها والدها. فوقفَت أمام رجل العصابات المأجور شبه عارية، بشعرها المُلبَّد، والهالات السود تزيِّن وجهها، ثم أمسكَت فوَّهة المسدَّس بكلتا يدَيْها، وأقسمَت لأبيها بأقدس ما تملك إنَّه لن يراها مدى حياته اللعينة لو مسَّ چو بأذى، لأنَّها سوف تنتحر.

وجَّهَت لخوليان الضربةَ الوحيدةَ القادرة على تقويض قلعة العملاق. ببساطة، هجرَته ابنته بشراسةٍ تليق بمَن يحاول الابتعاد عن خطر الموت. أحسَّت نيبيس في خلاياها بذلك الشيء الذي عجز عقلها عن قبوله، على ما أعتقد. اضطُرَّت إلى الهرب من شغف أبيها ومن تعلُّقها به واعتمادها عليه، فقطعَت الروابط بينها وبينه بضربة مقصٍّ واحدة، وأبت العودة إلى ميامي برفقته أو قبول أيّ شكلٍ من أشكال المساعدة.

وإذا الغضب الذي استحوذ على خوليان لدى وصوله إلى لاس ڤيغاس يغدو يأسًا، حين رأى نيبيس تقف كالعدوّ في وجهه. عرض عليها أن يعطيها كلّ ما تريد، ووعدها بأن يُرضيها في كلِّ شيء، قائلًا إنَّه على استعداد للتكفُّل بها في مستوى لائق، مع ذلك المدعوّ چو سانتورو أو أيّ بائسٍ آخر تختاره بنفسها، وإلَّا فمِن المستحيل أن تعيش ابنته في حظيرة خنازير. توسَّل إليها، تذلَّل، بكى، ولكنَّ شيئًا لم يؤثِّر في إرادة ابنته الحجريَّة. عند ذاك، أدرك أنَّها مثله تمامًا، جامحةٌ، جريئةٌ، على أهبَّةٍ لفعل ما يحلو لها من دون اعتبارٍ لأحد. امتلكَت نيبيس القدرة على زرع التعاسة في سبيلها باللامبالاة نفسها، مثل أبيها. كانت ابنته هي المرآة التي رأى فيها صورته.

مكثَت نيبيس في لاس ڤيغاس، فسعى خوليان إلى الاستقرار على مقربةٍ منها ليتدخَّل متى دعَت الضرورة، غير أنَّه اضطُرّ إلى العدول عن ذلك لأنَّها لم ترغب في رؤيته ولا حتى من بعيد، كما لم يقدر على التخلّي عن مصالحه في ميامي. أعتقد بأنَّ زبائنه لم يكونوا على استعدادٍ لإطلاق سراحه، نظرًا إلى صعوبة العثور على طيَّارين قادرين على التحليق ليلًا تحت مستوى الرادار في أراضي العدوّ، أو الهبوط في مستنقعٍ موبوءٍ بالتماسيح لتسليم طرودٍ غامضة أو استلامها.

لمراقبة ابنته، استعان بمُخبِرٍ يُدعَى روي كوپر، لعب دورًا أساسيًّا في حياتك يا كاميلو. كان من أرباب السوابق، وتخصَّص في الابتزاز، على حدِّ علمي، وإن لم أعرف بوضوح ما إذا كان يجني قوته بالابتزاز، أم بالعثور على مخرجٍ من حالات الابتزاز.

انفطر قلب خوليان مُتأثِّرًا بالتقارير التي قدَّمها إليه روي، إذ راحت ابنته تنزلق على منحدرٍ يُفضي مباشرةً إلى الموت. مكثَت مع چو سانتورو حينًا، ولكنَّها سرعان ما تركَته، أو لعلَّه هو الذي تركها. الشيء المُؤكَّد أنَّها وجدَت نفسها في الشارع. كان صيف الحبّ[1] الشهير قد أُقيم في سان فرانسيسكو قبل ذلك بعامَيْن، ولكنَّ ثقافة الهيبي المضادَّة ظلَّت مزدهرةً في كثيرٍ من مدن البلد، ومن بينها لاس ڤيغاس. أمَّا الشبَّان أصحاب الشعر الكثيف والوشوم، العاطلون، السعداء، الهائمون في جميع أنحاء كاليفورنيا، أولئك الذين صنعوا التاريخ بعد زمنٍ قصيرٍ في

(1) صيف الحبّ: تجمُّع حاشد لجماعات الهيبي عام 1967. (المترجم)

وودستوك، فلم يلقوا ترحيبًا في أمكنةٍ أخرى، وأصبحوا عرضةً لخطر الضرب المبرِّح أو الاعتقال. لم تسبق لخوليان رؤية واحدٍ منهم في ميامي.

اندمجَت نيبيس في تلك الجماعة اللافتة للأنظار المُؤلَّفة من الفتيات والفتيان ذوي البشرة البيضاء، أبناء الطبقة المُتوسِّطة، الذين اختاروا العيش كالشحّاذين والانغماس في التحرُّر الجنسيّ وموسيقى الهلوسة والمخدّرات. تتبَّعها روي عن كثب، ومضى يرسل تقاريرَ كثيرةً إلى خوليان. في الصور، ظهرَت نيبيس وهي ترتدي أسمالًا باليةً مُزيَّنةً بالخرز، وتزيِّن شعرها بالأزهار، في مظاهرةٍ مع ثلَّةٍ من الشبَّان المُحتجّين على حرب ڤيتنام، جالسةً في وضعيَّة اللوتس عند قدمَيْ مرشدٍ روحيٍّ أشعث، كما ظهرَت وهي تشدو بالأغنيات الشعبيَّة وتطلب الصدقة في المنتزه العموميّ. كانت تنام في تجمُّعات، أو الشارع، أو سيَّارةٍ متهالكة، ليلةً هنا وليلةً هناك، بالروح الهائمة التي تحلَّى بها كثيرٌ من الشبَّان سواها في تلك الحقبة. هجرَت نفسها لغواية الحرِّيَّة على غير هدى، ولحبّ اليوم الواحد، وللسُّكْر والخمول. اعتنقَت الجماليَّات المُستلهَمة من الهند، والمساواة، والزمالة، وإن لم تهمّها الفلسفةُ الشرقيَّة ولا المقاربات السياسيَّة والاجتماعيَّة التي تبنَّتها الحركة. احتجَّت على الحرب بدافع التسلية وتحدّي الشرطة، مع أنَّها لم تعرف أين يقع ذلك المكان المدعو ڤيتنام.

تلقَّى روي تعليماتٍ بأن يشمل الفتاة بالعناية كيلا تتضوَّر جوعًا، ويحميها قدر المستطاع، على ألَّا تشتبه في أنَّه مبعوث أبيها، الأمر الذي وجده روي يسيرًا، لأنَّها عاشت تائهةً في

سحابةٍ من الماريجوانا والمخدّرات. في سعيها إلى تجربة كلّ شيء، وابتلاع الحياة جرعةً تلو أخرى، بدأت نيبيس تتنشّق الهيرويّين أيضًا. خطر على بال خوليان أن يرخي زمامها حتى تسقط إلى القاع في غير معاناة، وعند ذاك يتسنّى له إنقاذها. صار إحصاء عدد الرجال الذين جمعَتهم بنيبيس علاقاتٌ عابرة ضربًا من المحال، كما أنَّ التأكُّد من أسمائهم لم يستحقّ العناء، لأنَّها حتى لو مكثَت مع أحدهم، ما كانت تبقى معه أبعد من ثلاثة أو أربعة أيّام. في الصور المُلتقَطة من مسافةٍ بعيدة، والصور العابرة التي أرسلها خوليان، بدا الجميع وكأنَّهم شخصٌ واحد: مُلتحٍ، طويل الشعر، يلفّ حول عنقه عقدًا من الخرز أو الأزهار، ينتعل صندلًا، ويحمل جيتارًا.

وحده چو سانتورو بدا مختلفًا، وظلّ يدخل إلى حياة نيبيس ويخرج منها بشيءٍ من الانتظام. لم يكُن مُجرَّد هيپي كغيره الكثيرين. أتجر في الميثامفيتامين والهيرويّين، ولكنَّ حجم تجارته بلغ من الضآلة والتفاهة حدًّا جعل الشرطة لا تضايقه. كان زبائنه من المُوظَّفين، والعاملين في صناعة الترفيه من الدرجة الثالثة، ونزلاء الفنادق. أمّا الهيپي، فآثروا الماريجوانا وعقاقير الهلوسة، التي كانت تُوزَّع مجّانًا، بل إنَّ الغالبيَّة العظمى منهم قابلَت المخدّرات القويَّة والكحول بالازدراء. لن نعرف أبدًا ما إذا كان هو الذي حمل نيبيس على الشروع في تعاطي الهيرويّين، أم أنَّه اكتفى بتوفيره لها كلَّما أدركها اليأس. الطريق إلى الإدمان مُمهَّدة ومستقيمة. ولقد قطعَتها نيبيس بخطًى سريعة.

لم أدرِ عن الأمر شيئًا إلّا بعد مضيّ عام، لأنَّ خوليان أكَّد

لي عَبْر التليفون وفي زياراته إلى بلدنا أنَّ نيبيبس بخير، وأنَّها تشترك في شقَّةٍ مع صديقتَيْن لها، وتدرس الفنّ. أخبرني بأنَّه يتحدَّث إليها مرَّتَيْن أسبوعيًّا، ولكنَّه لا يزورها لأنَّها تودّ «تجربة جناحَيْها» بمفردها حينًا، وذلك أمرٌ طبيعيٌّ في مثل عمرها. كما لم يُرِد منِّي الذهاب لرؤيتها. قال إنَّه لا ينبغي لي الشعور بالقلق إن لم تُجِب على رسائلي، فلطالما كانت نيبيبس خائبةً في التواصل. في إحدى المناسبات، عندما سافرتُ بالطائرة إلى ميامي لتنظيم أوراقه، رتَّب خوليان أمره حتى يبرِّر غياب ابنتي وصمتها. كان في يدي السؤال أكثر ممَّا سألت، غير أنَّني لم أفعل. حتى أنا مذنبة!

لم نبقَ أنا وخوليان معًا إلَّا بحكم تلك العادة طويلة الأمد، عادة الكراهية والرغبة المُتبادلتَيْن. وبسبب نيبيبس، طبعًا. أمَّا خوان مارتين، فلا يُحسَب. لو كان الأمر رهنًا بابني، لاضطررت وخوليان إلى الفراق منذ خمسة عشر عامًا مضَت. من المستحيل تفسير ذلك المزيج البذيء من الانجذاب والنفور، من الشغف والسخط، تلك العادة الضروريَّة التي قضَت بالمخاصمة والمصالحة. حتى أنا لا أفهم! مع الوقت، يذكر المرء الأفعال، أمَّا المشاعر فتنمحي. وأنا لم أعُد المرأة التي كنتُها آنذاك.

كنتُ كلَّما سافرتُ إلى ميامي خلال تلك الأعوام، أرجع منها إلى بيتي في ساكرامِنتو أو شقَّة العاصمة التي شاركتُ فيها ابني وقد وطَّنتُ العزم على ألَّا أستجيب لنداء خوليان مرَّةً أخرى ما حييت. ثم أعود عودةً لا مفرَّ منها، مثل الكلب الذي درَّبه صاحبه ضربًا. كان يستدعيني متى غرق في الفوضى حتى أُقيم

النظام، ويأتي لرؤيتي متى هرب من ورطةٍ أوقعَته فيها التنانير أو النقود. كان حضوره كالطوفان الذي يخلّ تمامًا بحياتي المُنظَّمة وسلام الروح الذي أشعر به في غيابه. وتلك هي المناسبات الوحيدة التي كنتُ أعاقر فيها الخمور إلى حدّ السُّكْر وأدخِّن الماريجوانا، التي زعم خوليان بأنَّني في حاجةٍ إليها حتى أنعم بالحياة كأيِّ شخصٍ طبيعيّ. «تروقين لي وأنت مسترخية. لا يمكنني قضاء وقتٍ طيِّبٍ معكِ ما دام رأسكِ يخلو إلَّا من المشاغل والأنشطة التجاريَّة»، قال لي.

كان ذلك من أسباب الشجارات المُتكرِّرة: أنشطتي التجاريَّة. لديَّ حاسَّة شمّ أهتدي بها لصنع المال، كما تعلم يا كاميلو. كنتُ أدَّخر المال، وأعرف كيف أستثمر، وأعيش حياةً زاهدة. غير أنَّ خوليان وجد ذلك التأنِّي في مسألة النقود جشعًا، واعتبره آفةً أخرى من آفاتي. وبرغم انتقاداته، كان يملك القدرة على خداعي واختلاس أرباح عامٍ كامل في خمس دقائق.

15

وحدهما شقيقي خوسّيه أنطونيو وچوزِفين تايلور كانا على درايةٍ بالاستغلال الذي تعرَّضتُ له على يد خوليان، وكثيرًا ما وبَّخاني لأنَّني سمحتُ له بذلك. وأمام الإصرار الذي أبداه كلاهما، ذهبتُ إلى عيادة أحد الأطبَّاء النفسيِّين حتى يساعدني على التخلُّص من ذلك التعلُّق العاطفيّ الذي تأذَّيتُ منه بشدَّة.

كان الدكتور ليڤي يهوديًّا، درس في ڤيينا مع كارل يونغ، وشغل منصب أستاذ في الجامعة، كما ألَّف عدَّة كتب، واعتُبِر نابغة. طبقًا لحساباتي، كان يبلغ من العمر ثمانين عامًا على وجه التقريب. أو لعلَّه كان أصغر عمرًا، وهرم قبل الأوان مُثقَلًا بالشقاء. عرف من هو خوليان، لأنَّ الدكتور واحدٌ من المهاجرين الذين جاء بهم إلى البلد سرًّا على متن طائرته الجومائيَّة في أعقاب الحرب. فقد الدكتور ليڤي عائلته كاملةً في معسكرات الإبادة، ولكنَّ ذلك الألم العظيم لم يورثه مرارة، بل أورثه رأفةً

لانهائيَّة بضعف البشر. خجلتُ من إهدار وقته في مشكلاتي العاطفيَّة البائسة، وهو الناجي من الهولوكوست، فهدَّأ من روعي بنظرةٍ واحدة. كان يوصِد باب العيادة، فيتجمَّد الهواء في تلك الحُجرة الزاخرة بالكتب، ولا يعود شيءٌ على قيد الوجود، إلَّا أنا وهو.

ـ لقد عشتُ حياةً تافهة يا دكتور ليڤي. لم أفعل شيئًا يستحقّ عناء ذكره، أنا شخصٌ ضحل. ـ قلتُ له في إحدى الجلسات. فأجابني بقوله إنَّ كلّ حياةٍ تافهة، وكلّنا ضحلٌ، غير أنَّ ذلك رهنٌ بمَن نقارن أنفسنا بهم.

ـ ڤيوليتا، ما رغبتكِ في حياة مأساويَّة؟ ـ سألني، بصوتٍ مُتهدِّج، والأرجح أنَّه راح يفكِّر في المعاناة التي مُنِي بها!

ـ هناك لعنةٌ صينيَّة بهذا المعنى، وتقول: «أتمنَّى لك حياةً جديرةً بالاهتمام». أمَّا الدعاء الذي يقابلها، فيقول: «أتمنَّى لك حياةً تافهة». ـ أردف.

وبفضل الدكتور ليڤي، الذي أخذ بيدي، نجحتُ في الافتراق عن خوليان. لم يحدث الأمر بسرعة، بل كان طريقًا طويلةً من تأمُّل الذات، بدأتْ بطفولتي في بيت الكاميليا الكبير، حيث عثرتُ على جثمان أبي، ثم اقتادني الدكتور عَبْر مشاهد الذاكرة: ميس تايلور، والخالتان، ومزرعة آل ريباس، والمدرسة الصغيرة الجائلة، واعتداء پاسكوال فريري الذي أنقذني منه توريتو، وفابيان، وخوليان، وابني، وابنتي، حتى وصلتُ إلى عمر الخمسين، وقد أدركني التعب من الكفاح والعزلة.

بدأتُ أُخبر خوليان بألّا يعتمدّ عليّ أبدًا حتى أنتشله من المآزق التي يزجّ فيها بنفسه، وأموِّل بذخه في الإنفاق، وأسدِّد مديونيَّاته، وأصنع الأعاجيب في حساباته، وألملم شظايا الخراب التي كان يتركها في طريقه. كما أخبرتُه بأنَّني لن أطأ بقدمي أرض الكعكة الورديَّة في ميامي. أمَّا غسيل الأوراق الماليَّة المُلوَّثة بالخراء في الغسَّالة، ورجال العصابات، والجواسيس، فلْينسَ أمرهم. ولو شاء الحضور لرؤيتي، فعليه أن ينزل في أحد الفنادق، ويعامل خوان مارتين باحترام. وأخيرًا، يجدر به العلم أنَّه لو لمسني بيده مرَّةً أخرى، فلسوف يندم حقًّا.

ـ ڤيوليتا، أنتِ في حاجةٍ إلى القوَّة والصفاء لتحقيق أهدافكِ. أنصحكِ بالإمساك عن شرب الكحول وأنتِ مع خوليان. ـ قال الدكتور ليڤي.

حتى تلك اللحظة، لم يسبق لي أن قرنت بين ذلك وبين السلطة التي مارسها عليّ خوليان.

ظنَّ خوليان بأنَّه مُجرَّد تهديدٍ آخر من تلك التهديدات الجوفاء التي رحتُ أردِّدها منذ أعوام. ولكنْ، في هذه المرَّة، صار عندي الدكتور ليڤي ليحمي ظهري. بعد شهرَيْن، حين أدركه التعب من التوسُّل إليَّ حتى أذهب لمساعدته في ميامي، سلَّم بتفويض شخصٍ آخر لتولِّي الأحجية التي أطلق عليها «شركاته»، وإن كانت في واقع الأمر سلسلة من عمليَّات التهريب والمعاملات القائمة بين العصابات. أمَّا الشخص الآخر، فكان سورايدا أبريو، العشيقة الشابَّة صاحبة المسيرة الطويلة والنوايا الحسنة، تلك التي شربتُ معها كؤوس المارتيني في فندق فونتينبلو. جاء اختياره

مثاليًّا، لأنَّها تشتغل بالمحاسبة، فضلًا عمَّا تميَّزَت به من كفاءةٍ وكتمانٍ واستعدادٍ لخدمته من أجل الحبِّ، كما سبق أن فعلتُ أنا الأخرى. وفي حين انبريتُ للأرقام المجنونة في الحسابات المزدوجة مدفوعةً بالغريزة، امتلكَت سورايدا الأسلوب والدراية التامَّة بالقوانين الأميركيَّة، وعرفَت كيف تدير الحسابات السرِّيَّة وتتهرَّب من الضرائب وتغسل الأموال. معها صار خوليان أفضل حالًا بكثير ممَّا كان معي.

أتخيَّل ملكة جمال رَمّ بوريكوا، صاحبة الجسد الغنيّ بالمنحنيات والشعر الذي يشبه لبدة الأسود، وهي تفرض سلطتها على شركاء خوليان وزبائنه، وتُبقي العشيقات المُوقَّتات بعيدًا. أخبرَتني بأنَّها مُنظَّمة، على نحو ما تقتضي مهنتها، ولا تحتمل التبذير. كان أبواها في غاية الصرامة، فألحقاها بمدرسة راهبات. بين الحين والآخر، كنتُ أتلقَّى اتِّصالًا من سورايدا عَبْر التليفون، تُخبرني فيه بالميلودراما الأخيرة أو تطلب مشورتي. كانت امرأةً مهيبة، آمِرة، واثقة في نفسها وآرائها التي بدَت هزليَّة بسبب طريقتها المزعجة الطفوليَّة في الكلام. أشكّ في قدرة خوليان على إخضاع سورايدا أو ترويعها. وأعتقد بأنَّها قادرة على سحقه كالصرصور لو دبَّ خلافٌ بينهما.

كان وجود سورايدا بالنسبة إليَّ نعمة، لأنَّها ساعدَتني على الفكاك من آخر القيود العاطفيَّة التي شدَّت وثاقي إلى خوليان.

بدأ خوليان في الحضور إلى البلد على فتراتٍ متقاربةٍ جدًّا، لتنفيذ مهمَّاتٍ في غاية السرِّيَّة مُتعلِّقة بمجتمع الألمان الغامض، المستوطنة أمل، حسبما أخبرني. قلتُ إنَّها لا يمكن أن تكون

على تلك الدرجة من السرِّيَّة ما دام قد أخبرني بها ونحن نتناول المحار وقنفذ البحر على الغداء في إحدى حانات المرفأ.

ـ ڤيوليتا، أنتِ روحي. تعرفينني خيرًا ممَّا يعرفني الجميع. معكِ، لا أخفي أسرارًا. ـ أجابني.

أمسكتُ نفسي عن سؤاله عمَّا إذا كان يخفي أسرارًا عن سورايدا، فمن الأفضل ألَّا يرتاب في تلك الزمالة غير المألوفة بينها وبيني.

قلَّما رأى خوليان ابنه. إذ رفض خوان مارتين دعوات أبيه النادرة إلى ميامي بلطف، مُتذرِّعًا بالدراسة. ولم يلتقيا خلال زيارات خوليان إلى العاصمة إلَّا في أضيق الحدود الممكنة. كما تجنَّب كلاهما التعمُّق في أيِّ موضوعٍ من شأنه أن يغدو الشرارة التي تشعل الكراهية بينهما، ولا سيَّما السياسة. رأى خوليان في ابنه خيبةَ أملٍ دائمة. بينما رأى خوان مارتين في والده محتالًا باع نفسه للإمبرياليَّة الأميركيَّة.

قبل زمنٍ يسير، فاز بالانتخابات الرئاسيَّة اشتراكيٌّ يُمثِّل ائتلاف الأحزاب اليساريَّة، شارك خوان مارتين في حملته الانتخابيَّة بلا كلل. بينما أيقن والده بأنَّ ذلك الرئيس لن يستمرّ في الحكم أطول من بضعة أشهر، إذ لن يسمح بذلك لا اليمين ولا الولايات المتَّحدة، غير أنَّه لم يُخبر خوان مارتين، بل آثر تحذيره من خلالي.

ـ قولي لابنك أن ينتبه لنفسه، فهذا البلد لن يغدو كوبا أخرى. وقد يسيل حمَّامٌ من الدماء.

فلم أحتَج إلى سؤاله كيف عرف.

قُدِّر لروي، المخبر الخاصّ الذي استعان به خوليان، أن ينقذ حياة نيبيبس. في واحدةٍ من تلك الأمسيات الحارَّة بصحراء نيفادا، تذكَّر أنَّه لم يرسل إلى مُستخدِمه التقرير الإجباريّ منذ أسبوع. تراءى له التلصُّص على الفتاة عملًا باعثًا على الضجر، لا يليق بشخصٍ مُؤهَّلٍ لتولِّي القضايا الإجراميَّة مثله، ولكنَّ الأجر يناسبه.

عبثًا راح يفتِّش عنها في الأمكنة المعهودة، وحتى في تلك الأركان، حيث كانت نيبيبس تعرض نفسها على العابرين في الأيَّام اليائسة، الأمر الذي لم يخبر به والدها، فلا بدَّ من أنَّه على درايةٍ بذلك، علمًا أنَّها الوسيلة المعهودة كلَّما دعَت الحاجة إلى جرعةٍ أخرى. كان على يقين بأنَّ شخصًا مثل خوليان برابو يعرف عالَم المخدِّرات تمام المعرفة، بدءًا بالإنتاج، مرورًا بالتوصيل والفساد والجريمة المقترنة بالمُنتَج، وصولًا إلى مذلَّة المُدمِن الأخيرة. أمَّا سقوط ابنته فيمن سقط من الضحايا، فيُعَدّ ضربًا من السخرية الأليمة. شعر روي بالقلق، إذ لم يسبق لها قطّ أن غابت عن عينَيْه كلّ هذا الوقت، فمضى يستفسر عنها وسط الهيپي الذين كانت تجتمع بهم، جماعات الشباب المُلقَى في الأمكنة المقفرة، بعيدًا عن حيّ ستريپ البرَّاق، حيّ الأنوار والشامبانيا.. وهكذا، عرف أنَّها قد شوهِدَت مع چو سانتورو.

كان الوقت ليلًا عندما حدَّد روي موقع چو في صالة بولينغ. وجده نظيفًا، مُهندَمًا، حليقًا، يلعب البولينغ ويحتسي البيرة برفقة اثنَيْن من أصدقائه.

ـ نيبيبس؟ لستُ حارسها الشخصيّ. ـ أجابه بازدراء.

لم يعُد مُهتمًّا بالفتاة، بل إنَّه اكتفى ببيعها المخدّرات القويَّة التي لا يتعاطاها، ولقد حذَّر نيبيبس من أنَّ المخدّرات طريقٌ لا رجوع منها، حسبما قال. أخذ روي بذراعه وساقه إلى الحمَّام، حيث بدأ بتسديد ضربةٍ من ركبته إلى منبت فخذ چو، ضربةٍ جعلَته ينكفئ على وجهه. وما لبث أن رفعه روي عن الأرض التي تناثر عليها رذاذ البول ممسكًا بحزامه، وهمّ بتهشيم أنفه، فاستوقفه چو وهو يحمي وجهه، مُتلعثِمًا، قائلًا إنَّ نيبيبس في الحافلة.

عرف روي إلامَ يشير، فهو يقصد هيكل حافلة بلا إطارات، تغطِّيه رسوم الغرافيتي بالكامل، يقع في باحة بناءٍ مهجور. قبل ساعات، ذهب روي إلى ذلك البناء، وكر المدمنين والمُشرَّدين، فلم يخطر على باله أن يبحث في الحافلة.

عثر على نيبيبس غائبةً عن الوعي، مطروحةً على الأرض، بين فتيَيْن كلاهما نائم، أو واقع تحت تأثير المخدّرات. حاول أن يحملها على النهوض، من دون أن يلقي حتى نظرةً على الآخرَيْن، اللذين لم يكونا من زبائنها، ولكنَّ الفتاة ذابت بين يدَيْه. لطمها بكفِّه مرَّتَيْن، وراح ينفض جسدها حتى يرغمها على التنفُّس. حاول جسَّ نبضها، فلم يحسّ به. وأخيرًا، حملها بين ذراعَيْه ومضى راكضًا إلى السيَّارة التي تركها على مسافة مُربَّعٍ سكنيٍّ واحد. كانت نيبيبس خفيفةً كالطفل الصغير، وهي التي صارت لحمًا على عظم.

اتَّصل المخبر بخوليان من المستشفى والليل يكاد ينتصف في ميامي.

ـ لقد سقطَت الفتاة الصغيرة إلى القاع، فاحضر سريعًا. ـ قال له.

وصل خوليان إلى لاس ڤيغاس عند منتصف الليل من اليوم التالي، إذ حلّق بطائرةٍ نفّاثةٍ صغيرة وفّرها له أحد زبائنه، ثم هبط في مطارٍ خاصّ. بعد يومَيْن اثنيْن، حين أُخلِي سبيل نيبيس، حملها أبوها وروي إلى الطائرة مباشرةً بلا أدنى اعتبارات. تعافت من الجرعة الزائدة التي كادت تودي بحياتها، ولكنّها الآن تُعاني تلك الآثار الفظيعة، آثار الإقلاع عن المخدّرات. تعاوَن الرجلان في ما بينهما على حملها بمشقّة، إذ راحت تقاوم بقوّةِ اليأس الخارقة، صارخةً بشتائم نابية كانت لتجتذب رجال الشرطة لو أطلقَتها في مكانٍ عام. وعلى متن الطائرة، حقنها والدها بمُهدِّئٍ جعلها ترقد طوال عشر ساعات، الوقت الكافي للهبوط في ميامي وإيداعها في عيادة.

سرعان ما اتّصل بي خوليان حتى يُخبرني بما جرى. ظننتُ ابنتي تتعاطى المخدّرات منذ عامَيْن، ولكنّي حسبتُها تكتفي بالماريجوانا أو الكوكايين، اللذين قال والدها إنّهما كالسجائر، لا يضرّان ولا يخلّان مطلقًا بقدرة نيبيس على العمل بصورةٍ طبيعيّة في هذا العالَم. لقد تدبّرتُ أمري حتى أتجاهل ما يحدث لنيبيس بوضوح، مثلما عزفتُ عن الإقرار بأنّ خوليان مدمن الكحول. كنتُ أكرّر مزاعمه القائلة بأنّ له رأسًا صلبًا وقدرةً على شرب ضعفَي الكمّيّة التي يمكن لأيٍّ من الفانين شربها دون أن يبدو عليهم ذلك، وبأنّه في حاجةٍ إلى الاحتفاظ بالويسكي في متناول يده للسيطرة على آلام الظهر، وغير ذلك من الحجج.

تعافَت نيبيس لتوِّها من نوبةٍ قاتلة تحت تأثير الهيروين، وخضعَت لبرنامجٍ صارم يهدف إلى التخلُّص من السموم وإعادة التأهيل. وعلى الرَّغم من ذلك، لم أحسبها مدمنة، إذ صدَّقتُ مزاعم خوليان بأنَّها: قد تعرَّضَت لحادثٍ مؤسف، لن يتكرَّر، لأنَّ الصبيَّة تعلَّمَت الدرس.

بعد أسبوع، سُمِح لنا بزيارة نيبيس في العيادة. تجاوزَتْ أسوأ أيّام الإقلاع عن المخدّرات، فوجدناها نظيفةً، نديَّة الشعر، خافضة البصر إلى الأرض، مُنفصلِةً عمَّا يحيط بها، صامتة، ترتدي الجينز والقميص. عانقتُها باكيةً، مناديةً، فلم أجد منها أدنى ردّ فعل، وإن تمكَّنَت من تركيز نظراتها حين سألها خوليان عن حالها.

ـ لقد اختارَتني «الكائنات» يا بابا، يجبِ عليَّ تسليم رسالة إلى البشريَّة. ـ قالت.

أوضح لنا الاستشاريّ الحاضر أنَّ حالة الارتباك شيءٌ طبيعيّ بسبب الصدمة التي تعرَّضَت لها وآثار المُهدِّئات.

مكثتُ في ميامي طوال الأشهر الثلاثة التي أمضَتها نيبيس نزيلةً في تلك العيادة، والأشهر التي أعقبَت اختفاءها. كنتُ أزورها كلَّما سُمِح لي بذلك. في البدء مرَّتَيْن أسبوعيًّا، ثم كلّ يوم تقريبًا. كانت اللقاءات في غاية القِصْر، خاضعةً للمراقبة طوال الوقت. اكتشفتُ أهوال الإقلاع عن المخدّرات، والمعاناة الرهيبة، والأرق، والتشنُّجات، والمغص، والعرق المُثلِّج، والقيْء، والحمَّى. في الأيَّام الأولى، ساعدوها بالمُهدِّئات

والمُسكِّنات، ثم اضطُرَّت إلى التصدِّي لعذاب الإدمان غير مُهيَّأة.

في بعض الزيارات، كنَّا نجد نيبيس وقد خرجَت من المسبح أو انتهَت من لعب الكرة الطائرة لتوِّها، فاحمرَّت وجنتاها، والتمعَت عيناها، ووشى مظهرها بأنَّها قد استردَّت العافية. وفي مرَّاتٍ أخرى، كانت ترجو منَّا أن نُخرجها من هناك لأنَّهم يعذِّبونها، ويحرمونها من الطعام، ويشدُّون وثاقها، ويضربونها. لم تأتِ على ذكر «الكائنات» مرَّةً أخرى. حضرتُ ووالدها عدَّة جلسات مع الطبيب النفسيّ والاستشاريِّين الذين صدَّعوا رأسَيْنا بالحاجة إلى الحبِّ القويّ وفرض القيود والانضباط على ابنتنا، ولكنَّ نيبيس على وشك أن تبلغ الحادية والعشرين، وعند ذاك لن نملك سلطةً لحمايتها من نفسها.

يوم عيد ميلادها، اختفَت من عيادة إعادة التأهيل. رحلَت بالثياب التي ترتديها والخمسمئة دولار التي تلقَّتها من والدها على سبيل الهديَّة بمناسبة عيد ميلادها، برغم تحذير الطبيب النفسيّ. حسبناها قد عادَت إلى لاس ڤيغاس، حيث كوَّنَت لنفسها شبكةً من العلاقات، ولكنَّ روي لم يتمكَّن من العثور عليها. فلم نعرف عنها شيئًا لبعض الوقت.

أراد خوليان منّي البقاء في ڤيلَّته البشعة طوال فترة إقامتي في ميامي، غير أنَّني قد اتَّخذتُ قراري بألَّا أعود للعيش معه تحت سقفٍ واحدٍ، علمًا منّي أنَّني، لو سنحَت الفرصة، لانتهَت بي الحال في فراشه مرَّةً أخرى، الأمر الذي سأندم عليه لاحقًا. استأجرتُ ستوديو صغيرًا مُرفقًا بمطبخ، حيث وجدتُ العزلة والصمت، اللذين كنتُ في أمسِّ الحاجة إليهما خلال تلك الفترة

الأليمة، إذ رحتُ أتوغّل في واقع ابنتي المُعذَّب.

حتى سورايدا أبريو لم تسكن مع خوليان، ذلك أنّه قد أنزلها في شقّةٍ فاخرة تقع بكوكونت غروف، حيث يُبقيها على مقربة، من دون أن يفقد حرّيّته. لا حدّثني عنها يومًا، ولا كان في وسعه أن يعرف بأمر اللقاءات الكثيرة التي جمعَتني بها في حانة فونتينبلو، والمودّة التي بدأتُ أشعر بها نحو تلك الشابّة التي امتلكَت من الشجاعة ما لم أمتلك.

شدّت سورايدا زمام خوليان، وإن لم يبدُ لها من الضروريّ أن تراقبه، وهي القادرة على قراءة نواياه وخياناته بنظرةٍ واحدة. أمامها، صار خوليان يفتقر إلى الغموض. سألتُها عمّا إذا كانت غيورة، فأجابتني بقهقهة:

ـ طبعًا! لا أشعر بالغيرة منكِ يا ڤيوليتا، لأنّكِ امرأة من الماضي. ولكنّي لو أوقعتُ به مع أخرى، لقتلتُه.

وثقَت تمام الثقة بمكانتها الأثيرة، لأنّها تعرف الأنشطة غير المشروعة التي يزاولها خوليان كما تعرف ظاهر يدها، ولأنّه لن يرتكب تلك الحماقة ويثير غضبها.

ـ إنّه في راحة يدي. ـ قالت لي.

وبصبرٍ جديرٍ بالثناء، راحت تنتظر اللحظة المواتية كي تطالبه بالزواج. فعلَت ما في وسعها لتحمل، من دون أن يرتاب في الأمر، لأنّ الإنجاب سيكون ورقتها الرابحة، غير أنّها لم تنجح في ذلك.

ـ لن تمانعي، أليس كذلك؟ فلو أنجبتُ لما شكّل ذلك

منافسةً لابنكِ وابنتكِ، اللذين كبرا بالفعل. ـ أردفَت.

في تلك الأشهر الثلاثة، كرَّستُ نفسي لنيبيبس، وإن أكثرتُ من الاتِّصال بخوسِّيه أنطونيو. وضع الرئيسُ الاشتراكيّ برنامج وحداتٍ سكنيَّة بسيطة لحلّ دراما الأحياء الشعبيَّة، حيث يسكن الناس في أكواخٍ بائسة من الورق المُقوَّى والألواح الخشبيَّة، لا ماء فيها ولا كهرباء ولا صرف صحِّيّ. تقدَّم خوسِّيه أنطونيو لمناقصةٍ عامَّة، مُزوَّدًا بخبرة الأعوام الطوال والوجاهة الخليقة بمَن صقل منظومة بناء المساكن الجاهزة. كانت البيوت الريفيَّة هي الشركة الأثيرة لدى شباب الطبقة المُتوسِّطة الذين يشترون بيوتهم الأولى بمشقَّةٍ بالغة، بَيْد أنَّها لن تعود هي الأثيرة لو صار الأشدّ فقرًا، ممَّن ينتمون إلى الفئات المُهمَّشة، يعيشون في بيوتٍ مماثلة.

ـ تذكَّر الطبقيَّة في هذا البلد يا أخي. سنُقيم كبائن الشاطئ البسيطة نفسها، ولكنْ بلونٍ مختلفٍ واسم مختلف، وسندعوها «بيتي»، أيبدو لك هذا مناسبًا؟ ـ اقترحتُ عليه.

فزنا بحصَّةٍ كبيرة من العقد، لأنَّ أحدًا لم يتمكَّن من منافسة أسعارنا. كان هامش الربح محدودًا للغاية، ولكنَّ أنطون كوزانوفيتش ـ ابن ماركو، الذي صار يشغل موقع أبيه منذ عامٍ مضى ـ أوضح لنا أنَّ الإنتاج الضخم يعوِّض هامش الربح المحدود. الحيلة تكمن في سرعة إنتاج المساكن وتنصيبها، ومن أجل هذا يجب علينا تقديم الحوافز للعمَّال. وهكذا، ضاعفنا منشآت المصانع، وبدأنا ندفع نسبةً للعمَّال، إلى جانب الراتب، ما سمح لنا بالحفاظ على هدوء النقابة التي تكوَّنَت في الشركة.

في مطلع الستِّينيَّات، أصبح الوضع السياسيّ كارثيًّا في البلد الذي تعرَّض لأزمةٍ اقتصاديَّةٍ واجتماعيَّةٍ عميقة. كما شُلَّت الحكومة، لأنَّ الفوضى قد عمَّت الأحزاب التي لم تتَّفق إلَّا في ما ندر، أضف إلى ذلك معارضة اليمين المُتعنِّتة، المُتأهِّبة للتضحية بأيِّ شيءٍ في سبيل تخريب التجربة الاشتراكيَّة. حظيَت المعارضةُ بدعم السي آي إيه، كما ذكَّرني خوان مارتين في كثيرٍ من الأحيان، الأمر الذي برَّره خوليان، إذ دعَت الضرورة إلى القضاء على عناصر حرب العصابات. «لا وجود لعناصر حرب العصابات هنا يا بابا، بل إنَّه ائتلافٌ مُكوَّنٌ من أحزاب الوسط واليسار، انتخبه الشعب. أمَّا الأميركان، فلا شأن لهم في هذا البلد»، هكذا فنَّد خوان مارتين كلامَ أبيه في المناسبات النادرة التي تحدَّثنا فيها.

لم يؤثِّر شيءٌ ممَّا جرى فينا، أنا وخوسِّيه أنطونيو، فلدينا من العمل ما يفيض عن حاجتنا، وعمَّالنا يشعرون بالرضا، الأمر الذي اعتُبِر معجزةً في تلك الأجواء المُشبَّعة بالصراع الدائم، والعنف المتزايد، والإضرابات والاعتصامات والمسيرات الحاشدة الداعمة للحكومة والمسيرات المعارضة. استُقطِب البلد، وانقسم إلى فريقَيْن لا يتصالحان. انعدم الحوار، ولم يتساهل أحد. على الرَّغم من العقد الذي قد فزنا به، اعتُبِر خوسِّيه أنطونيو وأنطون كوزانوفيتش من ضمن أعداء الحكومة، شأنهما شأن رجال الأعمال كافَّةً، بمن فيهم أصدقاؤنا ومعارفنا. كنتُ أصوِّتُ لليمين أسوةً بأخي، فلم يشعر بالتعاطف نحو اليسار غير ابني وميس تايلور، التي لم تنسَ الشغف السياسيّ الذي شاطرَت تيريسا

ريباس إيَّاه حتى بعد أن تجاوزَت السبعين بأعوام، إذ لم يُدجِّنها دورُ الزوجة الذي لعبَته منذ اقترنَت بأخي.

التحق خوان مارتين بجامعةٍ أخرى، إذ لم ينسجم في الجامعة الكاثوليكيَّة، حسبما أوضح لي، وشرع يدرس الصحافة في الجامعة الوطنيَّة، «عشّ الحُمْر»، على نحو ما نعَتها أبوه. أكبّ على السياسة إلى الحدِّ الذي جعله لا يحضر الدروس إلَّا قليلًا جدًّا. وجد موقفي المحايد صادمًا، ونعته باللامبالاة والجهل والرضاء عن الحال. «كيف يمكنكِ التصويت لليمين يا ماما! ألا ترين التفاوت والفقر في هذا البلد؟»، سألني. أدركتُ ما يقول، ولكنِّي لم أقدر على فعل شيءٍ بهذا الصدد، اعتقادًا بأنَّ المشكلة من اختصاص الحكومة أو الكنيسة، وبأنَّني أفعل ما يكفي بتقديم فرص عملٍ لأولئك العمَّال والموظَّفين. كان عليَّ الانتظار طويلًا حتى أهبط على أرض الواقع يا كاميلو. تدبَّرتُ أموري حتى لا أرى ولا أسمع ولا أتكلَّم طوال السنوات الحرجة، كما كنتُ سأفعل خلال الديكتاتوريَّة طويلة الأمد، ما لم تصبني قبضة القمع إصابةً مباشرة.



16

بينما كان البلد مُنطلِقًا بخطًى سريعة نحو المأساة التي لا مفرّ منها، أكثرتُ أنا من السفر بين ميامي ولاس ڤيغاس ولوس أنجلوس طوال ثلاثة أعوام، ولذا فاتني من التجربة الاشتراكيَّة في بلدي الكثير. أمَّا في الولايات المتَّحدة، فذاعَت المعلومات المغرضة، وتردَّدَت بروباغاندا اليمين التي أسهمَت في تصوير البلد وكأنَّه كوبا جديدة. كثيرًا ما كنتُ أعود إلى البيت بسبب عملي، فألاحظ كيف يتزايد العنف والفوضى، وكيف ينسلّ خوان مارتين من بين يدَيّ، مع كلّ رحلة. وهكذا، صار ابني مجهولًا، وبات يحدِّثني بنبرةٍ استعلائيَّة، وكأنَّني حيوانٌ أليف. لم يعُد مُتحمِّسًا لتلقيني مبادئه، وإنَّما صار يعدّني حالةً أخرى ميؤوسًا منها، فأنا أندرج تحت فئة «المومياوات الهرِمة». صار التعرُّف عليه مستحيلًا، بلحيته الشعثاء وشعره الطويل القذر وجسده النحيل وسخطه العارم. لم يبقَ من الفتى الهيَّاب الذي كانه إلَّا قليلًا.

اختفَت نيبيس بضعة أشهر، فأجرى خوليان اتِّصالاته في محاولةٍ لتحديد موقعها بميامي، حيث لم تترك خلفها أدنى أثر. تحقَّق من خطوط الطيران وخطوط الحافلات، بلا نتيجة. لم يظهر اسمها في قوائم المسافرين، ولكنَّ ذلك لا يعني شيئًا، نظرًا إلى وجود وسائل مواصلاتٍ أخرى. وفيما رحتُ أبحث عنها، أقحمتُ نفسي في ذلك العالَم السفليّ، عالَم الشحّاذين والمدمنين وحياة الشوارع المزرية. لم يكُن خوليان يعرف عنه شيئًا، لأنَّه يشارك في التهريب والإجرام على مستوى آخر، فهو لم يجد نفسه يومًا في زقاقٍ رثٍّ مع «زومبي» يرتدون الأسمال البالية. بينما وجدتُ أنا نفسي على تلك الحال. ماذا كان رأيهم فيّ؟ وأنا السيِّدة الوقور البورجوازيَّة، أنيقة الثياب، اليائسة، التي راحت تسأل باكيةً عن تلك المدعوَّة نيبيس. تعرَّفتُ بعددٍ من الشباب الذين انفطر لهم قلبي، ولكنِّي لم أحاول مساعدتهم، إذ لم تكُن لي غايةٌ سوى التوصُّل إلى معلوماتٍ بشأن ابنتي. بقيتُ على تلك الحال بضعة أسابيع، أقسى أسابيع يمكنك أن تتخيَّلها يا كاميلو، فتحقَّقتُ من شيءٍ واحد: لا أحد يعرف نيبيس.

وفيما نحن على تلك الحال، اتَّصل روي ليُخبرنا بأنَّه قد عثر عليها في لاس ڤيغاس، وفق ما يعتقد. بعد أن توقَّف عن البحث، رأى چو سانتورو مصادفةً، فمضى في أثره.. وهكذا، عثر على نيبيس، فذهبتُ مع خوليان من فوري.

لم تكُن الفتاة التي رآها روي ترافق المُتشرِّدين القلائل الباقين في أعقاب حركة الهيبي، بل إنَّها اشتركَت مع شبابٍ آخرين من الجنسَيْن في «العمل» بحيّ ستريپ الشهير. كان لها شعرٌ قصيرٌ

جدًّا، مصبوغٌ بلونٍ أشقر يكاد يبلغ حدّ البياض، وزينةٌ مسرحيَّة، وثيابٌ مثيرة كانت لتبدو كالثياب التنكُّريَّة في أيِّ مكانٍ آخر، ولكنَّها انسجمَت في تلك الأجواء. لم يُسمَح لها بالدخول إلى أيٍّ من الفنادق والحانات الفاخرة، حسبما قال روي. عاشت في الشارع، تتنقَّل من حُجرةٍ بالإيجار إلى أخرى، وتوزِّع المخدّرات، وتسرق، وتشتغل بالدعارة. لم تتأثَّر نيبيس بالأشهر التي أمضَتها في عيادة إعادة التأهيل بِميامي، إذ رجعَت إلى حالها السابقة، أشدّ وحدةً وأشدّ يأسًا.

ـ لن يبدو لي من الغريب أن يكون سانتورو هو قوَّادها. ـ قال لنا المخبر.

ـ أقسم أنَّه سوف يندم! ـ صاح خوليان، مُحتدًّا.

دعانا خوليان، أنا ونيبيس، إلى فندق سيزار پالاس، حيث شاركتُ ابنتي المُراوِغة في الحُجرة، لأنَّها أبَت النوم في جناح والدها ذي الحُجرتَيْن والصالون والمنظر البانوراميّ المُشرِف على تلك المدينة الصناعيَّة، والبيانو المطليّ بالأبيض الذي قيل لنا إنَّه كان للعازف المُبهرَج ليبريس. في حضورها، شعرتُ بالخجل، والذنب، والخزي. رأيتُ نفسي بعينَيْ نيبيس، فرأيتُ نفسي خاضعةً لحكمٍ قاسٍ، مُحتقَرة. تحمَّلَتنا نيبيس،أنا وأباها، لسببٍ واحد، لأنَّها قادرةٌ على انتزاع النقود منَّا. لم يسعني لومها على ذلك، فحسبي تلك الجولة السطحيَّة في عالمها حتى أشعر بشفقةٍ جارفةٍ نحوها. كنتُ لأعطيها جميع ما أملك، لو أنَّ هذا قد يساعدها في شيء.

في الفندق، أخذَت نيبيس حمَّامًا طويلًا بالرغوة قبل كلّ شيء. مضيتُ إليها بفنجانٍ من الشاي فوجدتُها نائمةً في الماء، الذي كاد يبرد. ساعدتُها على الخروج من المغطس، وهممتُ بلفِّها بالمنشفة، فرأيتُ على ظهرها نَدبةً واضحة.

ـ نيبيس، ماذا جرى لكِ؟ ـ صحتُ مفزوعة.

ـ لا شيء. إنَّه مُجرَّد خدش. ـ أجابَتني وهي تهزّ كتفَيْها.

لم ترِد أن تخبرني كيف أُصيبَت بذلك الجرح قطّ، كما أبَت الحديث عن الحياة التي عاشتها، وعن چو سانتورو.

ـ لا أعرف عنه شيئًا، ولم أرَه منذ عام. ـ قالت كاذبة.

جاءت نيبيس وليس معها إلَّا كيسٌ يحوي سروالَيْن وحذاءً رياضيًّا وأدوات زينة. لم تكُن لديها حتى فرشاة أسنان. وبينما سعيتُ إلى مرافقتها، أو بالأحرى مراقبتها، اشترى لها خوليان حقيبةً وملأها بثيابٍ لمُصمِّمين معروفين من متاجر حيّ ستريپ الفاخرة. أغدق عليها من ماله، وتلك هي الطريقة التي لجأ إليها ليتخفَّف من الغمِّ الشديد الذي أثقل صدره.

مكثَت نيبيس معنا في الفندق أسبوعًا على وجه التقريب، فوجدها خوليان مدَّةً كافية ليحسب نفسه قادرًا على إنقاذها، ولكنِّي لم أشاطره التفاؤل. بوضوح، لاحظتُ عليها تلك الأعراض التي سبق أن رأيتها في آخرين: حكَّة الجسد، والأرق، والقشعريرة، والتشنُّجات، وألم العظام، والغثيان، واتِّساع الحدقتَيْن، والارتباك، والضيق. في غفلةٍ منَّا، كانت تغادر الحُجرة، ثم تعود هادئة، لأنَّ المُورِّدين هناك طوال الوقت، ولقد عرفَت نيبيس كيف تعثر عليهم. بل أعتقد بأنَّهم كانوا يُحضِرون

المخدّرات إلى الحُجرة مُخبّأةً في صينيّة الطعام أو الغسيل. ما كادَت تحصل من أبيها على القدْر الكافي من النقود حتى انتهَت الهدنة القصيرة في سيزار پالاس فجأةً. سرقَت منّي الساعة والسلسلة الذهبيّة وجواز السفر، ثم اختفَت من جديد.

في تلك المرّة، عرف خوليان أين يعثر عليها، فاختطفها بمساعدة روي ورجلٍ آخر بوحشيّةٍ ـ لا يسعني قولها بطريقةٍ أخرى ـ كما سبق له أن فعل. لم ينبّهني إلى ذلك، علمًا منه أنّني كنتُ سأعترض. توقّفَت سيّارةٌ قرب نيبيس بينما هي تتجوّل في الشارع، والشمس غاربةٌ، فاقتربَت ظنًّا منها بأنّه زبونٌ مُحتمَل، وإذا بروي وتابعه يترجّلان عن السيّارة في آنٍ واحد، ويغطّيان رأسها بسترة، ويزجّان بها في السيّارة عنوةً. قاومَت كالوحش الأسير، ولكنّ السترة خنقَت صرخاتها، ولم يتدخّل أحد، على الرّغم من يقيني بأنّ عددًا من الأشخاص، بمَن فيهم حرّاس الأمن، قد شهدوا ذلك الاستعراض، إذ كانت ساعة الذروة في الكازينوهات والمطاعم.

أودعها والدها في عيادةٍ نفسيّة، على مشارف مدينة يوتا، هناك حيث ألبسوها السترة ذات القيود، وحبسوها في حُجرةٍ مُبطّنة. بلغَت نيبيس سنّ الرشد، ولم يعد أبوها يملك سلطةً لاتّخاذ إجراءٍ من هذا القبيل، ولكنّ خوليان لم يعرف المستحيل، فلطالما كانت هناك طريقةٌ لتحقيق أغراضه، بالمال حينًا، وبالصلات الغريبة حينًا، تلك الصلات التي شكّلَت منظومةً لتقديم الخدمات ودفع ثمنها.

في اليوم التالي، أخبرني خوليان بما فعل، وقال إنّنا عائدون

إلى ميامي، لأنَّ نيبيس لم تكُن في حاجةٍ إلينا، ولسوف تنبّهنا العيادة متى أُخلِي سبيلها وصار في وسعنا اصطحابها. عند ذاك، نكون قد وضعنا مُخطَّطًا لمساعدتها، ولكنْ يجب علاجها من الإدمان أوّلًا. ها هو ذا يقصيني من حياة ابنتي، مرّةً أخرى.

ـ كلّا يا خوليان. سأكون قريبةً منها. ـ قلتُ له.

دبّ جدالٌ بيننا كالمعتاد، ولكنَّه تراجع في النهاية.

ـ في هذه الحالة، سأطلب من روي أن يأخذكِ، لا أريد منكِ الذهاب بالحافلة.

قطعنا مسيرة ساعتَيْن وسط مشهدٍ صحراويٍّ حارّ، في صمت، بينما رحنا نتفصّد عرقًا، والنوافذ كلُّها مفتوحة، لأنَّ روي أخذ يدخّن سيجارةً تلو أخرى، ولو شغَّلنا مُكيِّف الهواء لاختنقنا. كانت العيادة تقع في بناءٍ إسمنتيٍّ من طابقَيْن، يُشبه الديْر قليلًا، وسط حديقةٍ من الصبَّار والصخور، ويطوّقه سياجٌ من الخشب والأيك. لم يكُن في تلك الأنحاء موضعٌ واحدٌ يصلح للسكنى، إنْ هي إلّا صحراء من الرمال والأحجار ورواسب الملح.

استقبلَتنا امرأةٌ قدَّمَت نفسها بصفتها المديرة، وأوضحَت لنا أنَّها لا تستطيع الحديث عن الحالة إلّا مع السيِّد برابو، الذي لم يترك تعليمات بشأني.

ـ أنا أمّ المريضة! ـ صرختُ فيها. وكدتُ أتعدَّى على تلك الشمطاء، كما كان سيفعل أيٌّ من المجانين في عيادتها.

ـ هيَّا بنا يا فيوليتا، تعالي معي. غدًا نعود. ـ توسَّل إليَّ روي، وهو يعانقني.

غصتُ بأنفي في قميصه المُبلَّل بالعرق، الذي فاحَت منه رائحة التبغ النفَّاذة، وأجهشتُ بالبكاء.

وجد روي حُجرتَيْن في نزْلٍ يقدِّم المبيت والفطور، فطلب منِّي الذهاب لأغتسل وأبدِّل ثيابي، ثم مضى بي إلى مطعمٍ لسائقي الشاحنات على الطريق السريعة.

لم يُسمَح لي برؤية نيبيبس ولا بالتحدُّث إلى الأطبَّاء. كنتُ أترقَّب في قاعة الانتظار المُلحقة بالعيادة منذ الصباح، حتى أُطرَد من المكان، على الرَّغم من اقتناعي بمعاناة ابنتي. ظننتُهم يتَّبعون معها منهج العقاب، بدلًا من مساعدتها. أمَّا تلك الشمطاء، فأخذَتها بي شفقة، إذ رأتني هناك يومًا بعد يوم، فصارت تقدِّم لي فناجين الشاي والكعك، وتُخبرني بأنَّ نيبيبس هادئة، تنعم بالراحة، وتستردّ عافيتها، ولكنَّها أبت الإفصاح عن حال ابنتي، سواء أكانت معزولة، أو مُقيَّدة اليدَيْن، أو مُغيَّبة بالمخدّرات.

ـ كيف يخطر لكِ أمرٌ كهذا يا سيِّدتي؟ إنَّها مُؤسَّسةٌ عصريَّة، ولسنا في العصور الوسطى.

وخلال ذلك الترقُّب المُطوَّل العصيب، حظيتُ برفقة الصديق الأبعد عن البال: فلقد ظلَّ روي معي طوال ذلك الوقت. دعني أحكِ لك عنه يا كاميلو، لأنَّه في غاية الأهمِّيَّة لك أنت وأمّك.

قال إنَّه يُدعَى روي كوپر، ولكنْ ربَّما كان اسمه الحقيقيّ مُختلِفًا، لأنَّه رجلٌ كتومٌ لا يُدلي بأيِّ معلوماتٍ عن نفسه. لا عرفتُ من أين هو، ولا عرفتُ شيئًا عن ماضيه أو حالته الاجتماعيَّة أو مهنته الحقيقيَّة، برغم الساعات التي كنَّا نمضيها

معًا. أخبرني خوليان بأنَّه مُتخصِّصٌ في الابتزاز، ولكنَّ أحدًا لا يعيش على هذا العمل. لا بدَّ من أنَّه كان في مثل عمري، أي في الخمسين على وجه التقريب، أضف إلى ذلك أنَّه حافظ على لياقته جيِّدًا. لعلَّه من أولئك المولعين بالرياضة الذين يرفعون الأثقال ويركضون كالهاربين فجرًا. كانت له قسماتٌ خشنة، وتعابيرُ عدوانيَّة، وبشرةٌ ترك عليها الجدريّ آثاره، ولكنِّي رأيتُه وسيمًا، ففي ذلك الوجه، وجه المحارب المُعذَّب، شيءٌ من الوسامة. كان يتركني في العيادة، ثم يذهب ليأخذني منها، ويمضي بي إلى المطعم، وأحيانًا إلى السينما، أو المسبح، أو صالة البولينغ.

ـ يجب عليكِ أن تصرفي ذهنكِ قليلًا يا ڤيوليتا، فبكاؤك لن يفيد ابنتكِ بأيِّ شيء. ـ قال.

كاميلو، أخبرك بما جرى، فيبدو وكأنَّني لم أكترث لمصير نييبيس إلَّا قليلًا، بَيْد أنَّ الأيَّام في ذلك المكان كانت شديدة الطول والقيظ، وكنتُ أجد الكثير من الوقت الفائض بعد الساعات الأبديَّة في العيادة. لم أجد سندًا إلَّا روي، فشعرتُ نحوه بالمودَّة والإعجاب، على قلَّة الأحاديث والاهتمامات المشتركة بيننا. ومن دون قصد، شرعتُ أحكي حياتي لذلك الرجل الغريب، الذي ربَّما كان قاتلًا مأجورًا يعمل لحساب مُهرِّبي المخدّرات أو المافيا!

ـ تعرف عنِّي كلّ شيءٍ يا روي، ولديك ما يكفي ويفيض عن الحاجة لابتزازي، ولكنِّي لا أعرف عنك أيّ شيء. ـ قلتُ له ذات مرَّة.

ـ ليس هناك ما يُحكَى عنِّي يا ڤيوليتا، فلستُ إلَّا رجلًا مغمورًا بلا روح.

ـ أيدفع لك خوليان كي تراقبني؟

ـ لم يستعِن بي خوليان برابو لغير مراقبة ابنته في لاس ڤيغاس. وأنا هنا لأنَّني أرغب في ذلك.

ـ أتروق لك رفقتي؟ ـ سألتُه، في نزوةٍ من الدلال.

ـ نعم. ـ أجابني في جدِّيَّة.

ليلتذاك، ذهبتُ إلى حُجرته. لا تفزع يا كاميلو، فأنا لم أكُن عجوزًا بائسة منذ الأزل. في الحادية والخمسين، كنتُ لا أزال امرأةً جذَّابة، نشطة الهرمونات. لماذا أذكر لك علاقاتٍ غراميَّةً أخرى، معظمها قصير الأمد، يسهل نسيانه، علاقاتٍ خضتُها في حياتي الطويلة؟ لم أندم على علاقةٍ واحدةٍ منها. بالعكس، فأنا نادمةٌ على الفرص التي ضيَّعتُها تزمُّتًا، أو استعجالًا، أو خوفًا من النمائم. أمضيتُ الجزء الأطول من حياتي عازبة، ولم أكُن مدينةً بالوفاء لأحد، ولكنَّ الحرِّيَّة الجنسيَّة قد حُظِرَت على نساء جيلي، تلك الحرِّيَّة التي اعتبرها الرجال حقًّا لهم. ويُعَدّ خوليان مثالًا جيِّدًا على ما أقول، إذ سمح لنفسه بترف الغيرة، وهو المصاب بداء الخيانة العضال. في تلك الحقبة، عندما تعرَّفتُ بروي كوپر، لم تعُد غيرة خوليان تؤثِّر فيّ، إذ انفصلنا قبل أمدٍ بعيد، وصارت مواجهته من نصيب سورايدا أبريو.

سأعفيك من التفاصيل، يكفي القول إنَّني أمضيتُ عامَيْن لم أجد خلالهما من أعانقه، وإنَّ روي هو الذي ردَّ لي بهجة

الجسد، تلك التي تغمر المرء حين يمارس الحبّ. وبدءًا من تلك اللحظة، أصبحنا نبقى معًا طوال الليل، وجزءًا طويلًا من النهار. ما كنتُ لأحتمل تلك الأسابيع من دونه، فهو رفيقٌ ودود، لا يطلب أيّ شيء، بل يعينني على احتمال الغمّ، ويجعلني أشعر بأنّني شابّةٌ مرغوبة، الأمر الذي كان هديّةً رائعة في ظلٍّ هذه الأوضاع.

لم يُخلِ سبيل نيبيس، فبعد أنْ مرَّ على نزولها في العيادة سبعة عشر يومًا، تلقَّينا اتِّصالًا أخبرونا فيه بأنَّها قد «انسحبَت»، عزوفًا منهم عن الإقرار بهروبها. أعتقد بأنَّها لو خرجَت من الباب الرئيسيّ بهدوءٍ لما أمكنهم اعتراض سبيلها، مع الأخذ في الاعتبار أنَّ خوليان برابو لا يملك السلطة القانونيَّة لاحتجازها في مستشفى أمراضٍ عقليَّة، ولكنَّها لم تكُن على درايةٍ بذلك. لا بدّ أنَّ خروجها في الليل كان سهلًا، بعد أن خُفِّضَت جرعة المهدِّئات، واستردَّت نيبيس إرادتها الحديديَّة. وعلى الرَّغم من ذلك، فمن غير المعقول أن يسهل عليها تحديد موقعها في تلك الأرض الصحراويّة، أو العثور على وسيلة نقل. تركَت في حُجرتها رسالةً لأبيها، تأمره فيها بألّا يبحث عنها لأنَّها لا تريد أن تعرف عنه أيّ شيء.

لم يكَد خوليان يتّصل بي من مطار ميامي حتى ذهبت إلى العيادة، التي لم أعرف منها إلَّا صالة الاستقبال وحدائق الصخور والصبَّار الغريبة. أمَّا البقيَّة، فلقد تخيَّلتُها مكانًا مشؤومًا، حيث يخدِّر الأطبَّاء الزائفون الساديُّون مرضاهم ويعذِّبونهم بدفقات الماء المُثلَّج وصعقات الكهرباء، ولكنَّ الطبيبة النفسيَّة التي استقبلَتني

كانت ودودًا، جاهزةً للإجابة عن أسئلتي. قالت إنَّنا سوف ننتظر خوليان للاجتماع بالطبيب النفسيّ الذي عالج نيبيس في اليوم التالي. وفي تلك الأثناء، أخذَتني في جولةٍ عَبْر منشآت العيادة، فلم أجد الزنازين الموصدة بالقضبان الحديديَّة التي رأيتُها في كوابيسي، بل وجدتُ حُجراتٍ خاصَّةً مطليَّةً بدرجاتٍ مبهجةٍ زاهية من الألوان، وصالات ألعابٍ، وصالةً رياضيَّة، ومنتجعًا صحِّيًا، ومسبحًا مُدفًأً، بل وقاعة عروضٍ تُقدَّم فيها أفلامٌ وثائقيَّة لا ضرر منها عن الدلافين وشيمبانزي البونوبو، لا شيء من شأنه أن يُزعج الضيوف، إذ لم يُطلَق على النُزلاء هناك «مرضى».

استقبلنا الطبيب النفسيّ مع مديرة العيادة، تلك المرأة الهنديَّة التي لم تسمح لتهديدات خوليان بترويعها حين توعَّدها بمقاضاة العيادة بتهمة الإهمال.

ـ ليس هذا سجنًا يا سيِّد برابو. فنحن لا نحتجز الضيوف رغمًا عنهم. ـ أخبرَته بجفاء، ثم شرعَت توضح لنا علاج نيبيس.

طوال مرحلة التخلُّص من السموم، الجزء الأصعب من العلاج، ظلَّت نيبيس تحت تأثير المُهدِّئات كي تحتمل بأقلِّ قدْرٍ من العناء. ثم قضَت بضعة أيَّامٍ من الراحة والاستجمام، تخلَّلَتها جلساتُ التدليك والاستحمام في المنتجع الصحِّيّ، حتى بدأت في تناول الطعام بصورةٍ طبيعيَّة، وأبدَت استعدادها للمشاركة في جلسات العلاج الفرديَّة والجماعيَّة. في البدء، وُصِف سلوكها بالعدوانيّ الساخر، ولكنَّها استرخَت رويدًا رويدًا، ولاذت بالصمت بدلًا من العدوانيَّة. وأخيرًا، قبل رحيلها بأيَّامٍ قليلة،

بدأت في الكلام عن حياتها التي سبقَت المخدّرات القويَّة. كانت نيبيس في حالةٍ من عدم النضج العاطفيّ، إذ بقيَت حبيسةً في عمر الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، وتراوحَت مشاعرها بين الحبّ والكراهية نحو أبيها، ذلك الكيان العليم بكلِّ شيءٍ في نفسيَّتها، كما تراوحَت بين الاستقلال والحاجة إلى الافتراق عنه. ولقد رحلَت عن العيادة حالما بدأت تستكشف صدمات الطفولة والمراهقة على وجه التحديد. لم تقوَ على مواجهتها، هكذا قيل لنا. وهنا نفد صبر خوليان.

ـ لا أرى ما نفع كلّ هذا! لم تقدروا على مساعدة ابنتي. إنَّها مضيعة وقتٍ ومال!

هبَّ واقفًا، ثم خرج وصفق الباب خلفه. عَبْر النافذة، رأيتُه يتجوَّل بخطًى واسعة في درب الحديقة المفروش بالحصى.

مكثتُ حتى أتلقَّى التقرير الصحّيّ لابنتي، التي لا بدَّ من أنَّ والدها قد سمعه من أفواه الأطبَّاء التخصُّصيّين، ولذا أسكتني حين أردتُ أن أكرِّره عليه.

ـ ليسوا أطبَّاء، بل إنَّهم محتالون! ـ صاح بي.

ـ كان يجب عليك التحقُّق من هذا قبل أن تُنزِل نيبيس هناك بالقوَّة. ـ قلتُ معترضة.

فضلًا عن الإعياء البدنيّ الذي أورثَتها إيَّاه المخدّرات، أُجهضَت ابنتي مرَّتَيْن، وعانت من سوء التغذية، وهشاشة العظام، وقرح المعدة، فاضطُرَّ الأطبَّاء إلى مناولتها المضادَّات الحيويَّة لعلاجها من التهاب المثانة والعدوى المنقولة جنسيًّا.

سعى خوليان إلى العثور عليها مُجدَّدًا، فأبى روي مساعدته في تلك المرَّة.

ـ برابو، تفهَّم أنَّك ما عدتَ تملك سلطةً عليها. اتركها في سلام. لو أرادت نيبيس مساعدتك، فهي تعلم أين تجدك.

رجع خوليان إلى ميامي، وقد استبدَّ به الإحباط والأسى.

في ليلتنا الأخيرة، ودَّعتُ روي من دون أن أمارس معه الحبّ، لأنَّ شبح نيبيس كان في الحُجرة، يراقبنا. سهرنا عدَّة ساعات، وكلانا يعانق الآخر، ثم خلدتُ إلى النوم مُتَّكئةً على الحوريَّة التي وشم بها كتفه الخليقةِ برافع أثقال. في اليوم التالي، أوصلني إلى المطار. وعند الوداع، قبَّل شفتَيّ قائلًا إنَّنا سنبقى على اتِّصال.

17

وصلتُ إلى ساكرامِنتو، فانهرتُ في حضور خوسّيه أنطونيو وميس تايلور، اللذين كانا في انتظاري. لم أقضِ في العاصمة أطول من ساعةٍ واحدة أمضيتُها في المطار، قبل السفر على متن الطائرة جنوبًا، إذ كان خوان مارتين في الشمال يصوِّر فيلمًا وثائقيًّا مع طلَّاب صحافةٍ آخرين. أخبرتُهما بشأن نيبيس، بينما رحتُ ألعن خوليان برابو على الأذى الذي أوقعه بابنتي، والقسوة التي مارسها مع ابني، والإساءة التي ذقتُها على يدَيْه. سمحا لي بالتنفيس عن الشعور بالاستياء، والبكاء كما يحلو لي. ثم أخبراني بآخر مُستجدَّات الوضع في البلد، الذي لم أعره من الانتباه إلَّا قليلًا جدًّا.

أمَّا قدرتي على التغافل عمَّا جرى آنذاك، فتبدو عصيَّةً على التصديق، لا أفسِّرها إلَّا باستغراقي في مأساتي الخاصَّة. لم تتأثَّر شركاتي بالسياسة، أضف إلى ذلك أنَّني امتلكتُ الموارد اللازمة

لدفع مقابل الخدمة المنزليَّة وشراء ما أرغب فيه من السوق السوداء. لم أُضطَرّ يومًا إلى الوقوف في طابورٍ للحصول على السكَّر أو الزيت، إذ تكفَّلَت الطاهية بذلك. عشتُ في منطقتي منعزلةً عن فوضى الشارع، في كلٍّ من العاصمة وساكرامِنتو، وقلَّما تعيَّن عليَّ الذهاب إلى وسط المدينة ومواجهة الزحام والمزاج العكر المُخيِّم على الناس. عرفتُ بشأن المظاهرات الحاشدة المنطلقة إلى الشوارع عن طريق التلفزيون، حيث تراءت مشاهد الحمِيَّة الجماعيَّة أقرب إلى الأجواء الاحتفاليَّة منها إلى العنف. لم أنظر مرَّتَيْن إلى الملصقات التي يعلِّقها اليمين، حيث يُرَى الجنود السوفييت وهم يجرجرون الأطفال إلى معتقلات الغولاغ في سيبيريا، أو الجداريَّات التي يرسمها اليسار، حيث يُرَى العمَّال والفلَّاحون وسط الرايات وحمام السلام.

كان أصدقائي ومعارفي وعملائي ينتمون إلى المعارضة، فصار موضوع الحديث الإجباريّ اتِّهام الحكومة بخرق الدستور وشحن البلد بالكوبيِّين، وتسليح الشعب تأهُّبًا لثورةٍ من شأنها القضاء على الممتلكات الخاصَّة. كنتُ أغيِّر القناة كلَّما ظهر الرئيس على الشاشة للدفاع عن برنامجه. لم يرُق لي ذلك الرجل ذو المظهر المكابر، خائن طبقته، السيِّد المرموق صاحب البدلات الإيطاليَّة، مُدَّعي الاشتراكيَّة. وما الفارق بين الاشتراكيَّة والشيوعيَّة؟ كلاهما سيَّان، حسبما أوضح لي خوسّيه أنطونيو، ولا أحد يرغب في رؤية البلد وقد تحوَّل إلى تابعٍ للاتِّحاد السوفييتي. شعر أخي بالقلق من الأزمة الاقتصاديَّة، الَّتي سوف نتأثَّر بها، طال الأمد أو قصر، والصورة السلبيَّة التي لصقَت بنا في محيطنا

الاجتماعيّ بسبب عقد شركة بيتي المُبرَم بيننا وبين الحكومة. رُفِع شعار «التخريب، لا التعاون»، غير أنَّنا لم نكُن المستفيدين الوحيدين بتلك الطريقة. فأغلب الأشغال العامَّة قد نُفِّذَت عن طريق عقودٍ خاصَّة.

التقيتُ بخوان مارتين في العاصمة لدى عودته من الشمال. كان فيلمه الوثائقيّ يتناول شركات الولايات المتَّحدة التي أمَّمَتها الحكومة ورفضَت صرف التعويضات، لأنَّ تلك الشركات حقَّقَت من الأرباح ما يكفي ويفيض على مدى نصف قرن، وباتت مدينةً للدولة بثروةٍ من الضرائب، حسبما أوضح لي خوان مارتين. لم يكُن ذلك ما تناهى إلى أسماعنا، ولكنِّي لم أعرف عن الأمر إلَّا قليلًا جدًّا، فلم يسعني الاعتراض.

ـ تعيشين في فقَّاعةٍ يا ماما. ـ اتَّهمني خوان مارتين. ومن دون أن يطلب رأيي، مضى بي إلى أحياءٍ لم يسبق لي أن وطأتُ أرضها بقدميَّ في أيِّ وقتٍ مضى.

هناك عاش المستفيدون المُحتمَلون من مشروع بيتي، أشخاصٌ متواضعون، قد يتسنَّى لهم تحقيق الحلم الذي يراودهم باقتناء بيتٍ بسيط. حتى ذلك الوقت، كانت تلك البيوت بالنسبة إليَّ مُجرَّد رسم تخطيطيّ، نقطة على الخارطة، أو نموذج بناءٍ صُنِع حتى يُصوَّر فوتوغرافيًّا. جبتُ بلداتٍ في غاية الفقر، وأزقَّةً من التراب والوحل، وسط الكلاب الشاردة والفئران، وسط أطفالٍ بلا مدرسة، وشبابٍ عاطلين، ونساءٍ هَرِمْنَ قبل الأوان تحت وطأة العمل. لم تعُد البيوت الجاهزة مُجرَّد فكرةٍ جيِّدة أو تجارةٍ رابحة، وأدركتُ ما تعنيه لتلك العائلات. رأيتُ الجداريَّات

المعهودة التي تصوِّر حمام السلام في كلِّ مكان، الجداريَّات المرسومة بتلك الطريقة الواقعيَّة السوفييتيَّة البشعة، كما رأيتُ في البيوت صور الرئيس مُرفقَةً برسوم الأب خوان كيروغا، على اعتبارهما القدِّيسَيْن الحارسَيْن. وإذا الرجل المكابر صاحب البدلات الإيطاليَّة يكتسب هيئةً جديدةً في نظري.

ثم ذهبنا لتناول الشاي في بيت مُعلِّم مدرسيٍّ، حكى لي عن أكواب الحليب ووجبات الغذاء التي تقدِّمها وزارة التعليم للتلاميذ، الوجبات التي لا يتناول بعض الطلَّاب سواها على مدار اليوم. وحكى لي عن زوجته، التي تعمل في مستشفى سان لوكاس، أقدم مستشفيات البلد، حيث أضرب الأطبَّاء احتجاجًا على الحكومة، فحلَّ طلَّاب الطبِّ محلَّهم؛ وعن ابنه، الذي كان يؤدِّي الخدمة العسكريَّة ويرغب في دراسة الطبوغرافيا؛ كما حكى لي عن أقربائه وجيرانه، عن الطبقة المُتوسِّطة الدنيا التي درسَت في مدارس عموميَّة جيِّدة وجامعاتٍ مجَّانيَّة، مُسيَّسة ويساريَّة.

ـ ويمكنني المضيّ بكِ إلى مناطق أخرى، حيث صوَّت بعض المنتمين إلى الطبقة المُتوسِّطة الميسورة لهذه الحكومة أيضًا يا ماما. طلَّاب، ومهنيُّون، وكهنة، وراهبات، وعددٌ من أولئك الذين تسمِّينهم بـ «العاديِّين». ـ قال لي خوان مارتين، وشرع يذكر عددًا من أبناء العمومة وأبناء الأشقَّاء والأصدقاء والمعارف من أصحاب الألقاب الأرستقراطيَّة.

ـ آه يا ماما! ليكُن في علمكِ أنَّ المُعلِّم المدرسيّ الذي تعرَّفتِ به لتوِّكِ ملحدٌ وشيوعيّ. ـ أردف ساخرًا.

بعد أشهر، تلقَّيتُ في مكتبي اتّصالًا هاتفيًا من روي كوپر، بعد أن انقطعَت أخباره عنّي، ولم أتوقَّع منه أن يذكرني، مع أنَّني فكَّرتُ به في كثيرٍ من الأوقات، بحنينٍ لم أملك منه فكاكًا. لم يكُن بالرجل الذي يهدر وقته في تفاهات. وبكلماتٍ قليلة، أخبرني بالغَرَض من المكالمة.

ـ لقد عثرتُ على نييبيس، وهي في حاجةٍ إلى مساعدتك. أيمكنكِ الحضور سريعًا إلى لوس أنجلوس؟ ـ سألني.

أجبتُه بأنَّني سأكون هناك في أسرع وقتٍ ممكن.

ـ لا تقولي شيئًا لخوليان برابو. ـ قال مُحذِّرًا.

كان روي في انتظاري بالمطار، ولكنّي كدتُ لا أتعرَّفه بالجينز الباهت والصندل وقبّعة البيسبول. في الطريق الطويل عَبْر الشوارع المختنقة بالزحام في تلك المدينة، سألتُه عن السبب الذي جعله يبحث عن ابنتي، وكيف حدَّد موقعها.

ـ لم أبحث عنها، هي التي اتَّصلَت بي يا ڤيوليتا. عندما ساعدتُ برابو على اختطافها في لاس ڤيغاس، دسستُ بطاقتي في حافظتها. شعرتُ نحوها بالأسى، تلك الفتاة المسكينة... يقتضي عملي الاحتكاك بشخصيّاتٍ هشّة. ولكنَّ ابنتك هي الاستثناء.

ـ فيمَ تعمل يا روي؟

ـ دعينا نقُل إنَّني أحلّ المآزق. يقع أحدهم في مشكلة، فأحلّها بطريقتي.

ـ أحدهم؟ مَن، على سبيل المثال؟

ـ أحد المشاهير أو الساسة، أو أيّ شخصٍ لا يريد التعرُّض

للاعتقال أو الابتزاز أو الظهور في الصحف. آخر حالةٍ تولَّيتُها كان صاحبها واعظٌ من تكساس، وجد نفسه أمام جثَّةٍ في حُجرة الفندق الذي نزل فيه.

ـ هل قتل أحدهم؟

ـ كلَّا، بل إنَّه اصطحب إلى حُجرة الفندق شابًّا، فمات في حادث. أُصيب بغيبوبة سكَّري، ولم يطلب الواعظ مساعدةً من أحد لتجنُّب الفضيحة، لأنَّ رعيَّته لا يغفرون المثليَّة. فكان من نصيبي نقل الجثَّة إلى حُجرةٍ أخرى، ودفع رشوةٍ للموظَّفين ورجال الشرطة، كما تعلمين، الأمور المعهودة.

ـ ولماذا اتَّصلَت بك نيبيس؟

ـ إنَّها لا تملك أدنى فكرةٍ عن عملي يا ڤوليتا. اتَّصلَت مدفوعةً باليأس. لا ترغب في اللجوء إلى أبيها. تعتقد بأنَّ برابو قد أمر بقتل چو سانتورو.

ـ ربَّاه! ذلك شيءٌ مستحيل.

لم يُجِر جوابًا. خطر لي أنَّه كان يستطيع الاتِّصال بخوليان لبيعه تلك المعلومات المُتعلِّقة بنيبيس مقابل سعرٍ باهظ، ولكنَّه آثر السفر إلى لوس أنجلوس حتى يساعدها. مضى بي إلى منطقةٍ في المدينة سمَّاها «الغيتو المكسيكيّ»، تضمّ بيوتًا خفيضة، ومتاجرَ بسيطة لافتاتها مكتوبة بالإسبانيَّة، وزوايا تُباع فيها الأطعمة الرخيصة. أوضح لي أنَّه قد أنزل نيبيس في بيت صديقةٍ قديمة.

وجدنا نيبيس في انتظارنا. رأتني فهرعَت تعانقني كما لم تفعل منذ دهرٍ مضى. «ماما، ماما...»، مضَت تكرِّر. وللحظة

عادت إلى طفولتها، عادت هي الطفلة المُدلَّلة التي تجلس على تنُّورتي حتى أمشِّط شعرها. بدَت بمظهر أفضل كثيرًا ممَّا رأيتُها عليه في المرَّة الأخيرة، لم تكُن ضامرةً ولا مهزولةً، بل إنَّ وزنها قد زاد قليلًا، وبدا وجهها الخالي من الزينة في غاية الشباب والهشاشة. كان شعرها قصيرًا، بلونه الطبيعيّ، ولم تزَل أطرافه مبيضَّةً بتأثير الصبغة السابقة.

ـ أنا حبلى يا ماما. ـ أعلنَت نيبيس بصوتٍ مرتجف.

عند ذاك وحسب، انتبهتُ إلى بطنها الذي لم ألحظه تحت ثوبها الفضفاض. لم يسعفني الردّ، فاستبقيتُها في حضني، ولم أحسّ بالدموع التي سالت على وجهي.

أمَّا السيِّدة المكسيكيَّة صاحبة البيت، فأمهلَتنا الوقت اللازم حتى نهدأ، ثم حيَّتني بقبلتَيْن على وجنتَيَّ. قدَّمَت نفسها قائلةً «ريتا ليناريس، خيَّاطة»، ثم أعقبَت ذلك بعبارة الترحاب المعهودة، «بيتي بيتك». كان منزلها يشبه غيره من المنازل الواقعة في الشارع نفسه، فهو إسمنتيّ، متواضع، وثير، له حديقةٌ صغيرة وسطحٌ من القرميد. أمَّا الأثاث، العاديّ المبهرج، فكان مُغطًّى بأكياسٍ من البلاستيك. استقرَّ في الصالة جهاز تلفزيونٍ هائلٍ وثلَّاجة، وكثيرٌ من الزينة، بدءًا بالأزهار الصناعيَّة وحتى جماجم عيد الموتى المُلوَّنة.

مضَت بي إلى حُجرةٍ تضمّ فراشًا فسيحًا، عُلِّق فوق رأسه تمثال المسيح المصلوب، كما استقرّ فوق الطاولة المجاورة للفراش عددٌ من الصور الفوتوغرافيَّة. أوضحَت لي نيبيس أنَّ ريتا

قد تنازلَت لنا عن فراشها، وأنَّها سوف تنام في الحُجرة الأخرى، التي تتَّخذها مشغل خياطة. دعَتنا إلى المائدة، ومن دون أن تقبل المساعدة، قدَّمَت لنا عشاءً شهيًا مُؤلَّفًا من تاكو السمك والأرزّ والفاصوليا والأفوكادو. قدَّمَت البيرة لي أنا وروي. بينما وضعَت كوبًا من الحليب أمام نييبيس. لاحظتُ ريتا وهي تربِّت على رأس نييبيس حين مرَّت بالقرب منها، بلفتةٍ حميمةٍ أموميَّة إلى الحدِّ الذي أشعرني بوخزةٍ من الغيرة.

حكَت لي نييبيس أنَّها قد خرجَت من عيادة يوتا ليلًا، بالتواطؤ وحارس البوَّابة الذي دلَّها على الطريق، وهناك استأذنَت سائق أوَّل شاحنةٍ مرَّت بها في الركوب، ثم تدبَّرَت أمرها، من مركبةٍ إلى أخرى، وصولًا إلى كاليفورنيا. تخيَّلتُ أنَّها، على مدى الأشهر التالية، كانت تجني قوتها كما سبق لها أن فعلَت.

ـ الخبر السارّ أنَّها لم تعُد تتعاطى المخدَّرات. ـ أوضح روي.

قالت لي نييبيس إنَّها اتَّخذَت قرارها بألَّا تُجهض في هذه المرَّة، حين تأكَّد لها الحَمْل، وتشبَّثَت بفكرة الصغير أو الصغيرة التي تتكوَّن في رحمها لمحاربة الإدمان. وهكذا، حقَّقَت الرغبة في إنجاب طفلٍ معافى ما لم يحقِّقه العلاج باهظ الثمن الذي خضعَت له نييبيس. أوضحَت لي أنَّها تدخِّن التبغ والماريجوانا وتشرب كمِّيَّاتٍ من القهوة، وتفرط في أكل الحلوى كي تخفِّف من القلق.

ـ سوف تنتهي بي الحال وقد صرتُ بدينة. ـ ضحكَتْ.

ـ يجب عليكِ أن تأكلي ضعفَيْ كمّيّة الطعام، من أجلكِ ومن أجل الصغير. ـ قالت ريتا معترضةً، وهي تقدِّم لها تاكو آخر.

رأت نيبيس نفسها لا تملك من المال شيئًا، وتعيش في تعاسة، لأنَّها لا وجدَت عملًا ولا عادت إلى الإتجار بالمخدِّرات أو البحث عن الزبائن. وعند ذاك، لاذت بمختلف البرامج التي تقدِّمها الكنائس، وملاجئ النساء اللاتي لا سقف لهنَّ، حيث يمكنها أن تبيت ليلتها، وإن كانت تخرج إلى الشارع مُجدَّدًا في السابعة صباحًا، الأمر الذي شقّ عليها أكثر فأكثر بتقدُّم حالتها. ذات يوم، ظهرَت في حافظتها بطاقة روي كوپر. وفي اندفاعة، اتَّصلَت به عَبْر التليفون في لاس ڤيغاس. سألَته عن چو سانتورو، لجسِّ نبضه، ولكنَّ روي لم يكُن على درايةٍ بشيء، الأمر الذي بثَّ في نفسها شعورًا بالطمأنينة.

ـ أطلقوا رصاصةً على مُؤخِّر عنقه. ـ قالت له نيبيس، التي اكتشفَت ما جرى عَبْر شبكة المعلومات الغامضة المُمتدَّة بين تجّار المخدّرات.

أكَّد لها روي أنَّ الأمر لا يمتّ إليه بصلة، فهو ليس قاتلًا مأجورًا، كما أنَّه فقد أثر القوَّاد، ولم يعُد على اتِّصالٍ بخوليان برابو. عرض روي أن يرسل إليها مبلغًا من النقود فورًا.

ـ لستُ في حاجةٍ إلى نقود، بل إلى صديق. ـ أجابت، ثم أردفَت قائلة: لا تخبر بابا بمكاني.

لم يسمح روي لنفسه بالانتظار، بل سافر إلى لوس أنجلوس وتولَّى زمام الوضع بنفسه، وهو الذي ألِف حلَّ المشكلات، على

حدِّ قوله. اتَّضح أنَّه وُلِد في تلك المدينة، ويعرفها جيِّدًا، ولديه فيها أصدقاء ومعارف وعدَّة عملاء من هوليوود، نجح في تخليصهم من المآزق. كان زوج أمّه مكسيكيًّا، مضى بالأسرة للعيش في حيِّ المهاجرين اللاتينيِّين، حيث نشأ روي على التحدُّث بالإسبانيَّة وخوْض الشجارات العنيفة. كانت لوس أنجلوس تحتلّ المرتبة الثانية في قائمة مدن العالم الأشدّ ازدحامًا بالمكسيكيِّين.

ـ لن يعثروا عليّ هنا أبدًا يا ماما. ـ قالت لي نيبيبس.

ـ ممَّن تهربين يا ابنتي؟ ربَّاه!

ـ من بابا. هو الذي قتل چو سانتورو.

ـ نيبيبس، لا يمكنكِ اتِّهام أبيك بجريمةٍ كهذه، إنَّه اتِّهامٌ وحشيّ.

ـ لم يكُن هو الذي ضغط الزناد، ولكنَّه مسؤولٌ عمَّا جرى. تعرفين أنَّه على استعدادٍ لأيِّ شيء. أشعر بالخوف منه.

ـ لن يؤذيكِ أبدًا يا نيبيبس، فهو يحبّك حبّ العبادة.

ـ ذاكرتكِ ضعيفةٌ يا ماما. لو وجدني، لحاول أن يفرض عليّ إرادته مُجدَّدًا. لن يتركني وشأني أبدًا.

خرج كلٌّ من ريتا وروي إلى الباحة للتدخين، فبقينا وحدنا.

ـ ألن تسأليني عمَّن يكون والد هذا الطفل يا ماما؟

ـ الطفل ابنكِ، وهذا هو الشيء الوحيد المهمّ. أعتقد بأنَّه لذلك الشابّ، ماذا كان يُدعَى؟ چو سانتورو...

ـ كلّا. مستحيل. لا أدري من هو الأب، قد يكون أيّ شخص. كما لا أدري متى يولَد بالتحديد، لأنَّ عادتي الشهريَّة لم تكُن منتظمة على الإطلاق.

ـ بسبب المخدّرات؟

ـ ذلك شيءٌ يحدث في بعض الأحيان. طبقًا لحسابات القابلة التي تتابع حالتي، سيولَد الطفل في أكتوبر. تدرين يا ماما؟ لا أريده أن يُولَد بهذه السرعة. أودُّ لو ظلَّ في رحمي طويلًا، أودُّ لو استرحتُ في هذا البيت مع ريتا، فأنام وأنام...

تولَّى خوسّيه أنطونيو عملي، فتهيَّأ لي البقاء في لوس أنجلوس. لم أُخبر بأمر نييبيس أحدًا سوى چوزِفين وخوان مارتين، اللذين تعهَّدا بألَّا يُذيعا من تلك المعلومات شيئًا. وحين سافر خوليان برابو لتأدية مهمَّاته المقترنة بالمستوطنة أمل، أخبروه بأنَّني أقضي الإجازة في رحلةٍ بحريَّةٍ عَبْر البحر المُتوسِّط. لعلَّه اندهش من استمرار الرحلة البحريَّة عدَّة أشهر، ولكنَّه لم يطرح أسئلةً، إذ لم يكُن في حاجةٍ إلى شيءٍ منِّي، وآثر ألَّا يراني. عَبْر بريد النمائم، عرفتُ أنَّه كان مع فتاةٍ تصغره بأكثر من عشرين عامًا، قدَّمها بوصفها حبيبته، فاستنتجتُ أنَّها ليست سورايدا أبريو، فهو ما كان ليسافر معها. في وقتٍ لاحق، عرفت أنَّها فتاة تُدعَى أنوشكا.

كانت إقامتي في بيت الحيّ المكسيكيّ الصغير من أفضل لحظات حياتي، إذ وجدتُها إجازةً للروح، أفضل من أيِّ رحلةٍ بحريَّةٍ فاخرة بألف مرَّة، وفيها تمكَّنتُ أخيرًا من استرداد الألفة

التي كانت بيني وبين ابنتي بعد أن فقدناها على الطريق. قاسمتُ ابنتي سريرًا واحدًا، فشعرتُ بالحَرَج في أوّل الأمر، إذ لم يكُن بيننا اتِّصالٌ جسديٌّ منذ أعوامٍ طوالٍ مضَت، ولكنْ سرعان ما ألفنا الحال. أذكر شعور النوم إلى جوارها، ثم الاستيقاظ وذراعها تستريح على صدري، تلك السعادة العذبة، الحزينة، لأنَّ دوامها غير ممكن.

أكثر روي كوپر من الحضور والذهاب، إلى لاس ڤيغاس وغيرها من الأمكنة التي كان يحمله إليها عمله الجديد بالفضول، واشتغاله بحلِّ العُقَد. كان ينزل في «موتيل» قريب لعدم وجود فراشٍ آخر في البيت، ولأنَّ البيت قد امتلأ بقَدْرٍ مفرطٍ من هرمونات الإستروجين الطافية في الهواء، على حدِّ قوله. بَيْد أنَّه كان يغتنم لحظات الفراغ حتى يمضي بنا، نحن النساء الثلاث، إلى مطعمٍ مكسيكيٍّ أو صينيٍّ، أو الشاطئ أو السينما. كان ينتقي أفلام حركة، بما تحوي من دماءٍ ولكمات، غير أنَّه تقبَّل الأفلام الرومانسيَّة التي فرضناها عليه أيضًا. كان يدعوني إلى «الموتيل» لقضاء الليل، فأذهب من دون أن نقدِّم لنيبيس وريتا أيَّ مُبرِّرات، اعتقادًا منَّا بأنَّ شيئًا ممَّا قد نفضي به لن يروقهما.

وصلَت ريتا ليناريس إلى الولايات المتَّحدة سيرًا على قدمَيْها، عَبْر صحراء سونورا، إذ جاءت تبحث عن أبيها وهي في الثانية عشرة من العمر، وعاشت في لوس أنجلوس ما يربو على الثلاثين عامًا بلا وثائق هويَّة. ولطالما جمعَتها الصداقة بروي.

ـ كان هو الفتى الأبيض الوحيد في المدرسة. لو رأيتِ كيف كان يتعرَّض للضرب على أيدي الآخرين يا ڤيوليتا... حتى تعلَّم

الركض بقوّة وردّ الضربات بمثلها. ـ حكَت لي ريتا.

كانت أرملةً، يعيش أبناؤها في ولاياتٍ أخرى، فلا تلقاهم إلّا بمناسبة عيد الميلاد والعام الجديد. شعرَت بالوحدة، ولذا تقبّلَت نيبيس عندما طلب منها روي أن تأوي فتاةً حبلى لا أسرة لها بصفةٍ مُوقّتة. وضمّتها إلى حضنها، بلا تردُّد. كانت في حاجةٍ إلى رفقة، وإلى من تعتني به.

أمضَت نيبيس الأسابيع الأخيرة مُمدَّدة في الحديقة، تتسمَّر تحت أشعَّة الشمس بانتظام، بينما هي تهوِّم، وقد انتفخ بطنها وأدركها الإعياء. كنتُ وريتا نخيط الثياب إلى جوارها، ونتكلَّم على حياتنا، وحياة الآخرين، والمسلسلات، وبلدي، وبلدها. سألتُها عمّا إذا وقعَت في غرام روي كوپر ذات مرَّة، فأجابتني مصدومةً، وقالت إنّها زوجة رجلٍ واحدٍ فقط، زوجها، «عسى أن يرقد في سلام». في المطبخ، حيث لا يمكن أن تسمعنا نيبيس، كنّا نتحدَّث عنها. تحمَّسَت ريتا بقدر ما تحمَّستُ بقرب مجيء الطفل، فأعدَّت له مهدًا، وراحت تصنع الثياب من أجله.

ـ أرجو من الربّ أن تبقى نيبيس للعيش معي. حفيدتي الوحيدة تعيش مع أبوَيْها في پورتلاند. وستكون سعادتي جارفة ببقاء الطفل في هذا البيت. ـ قالت. ولكنَّ فكرة بقاء نيبيس في لوس أنجلوس بدَت لي طائشة. يجب أن تعود إلى بلدها، حيث تساعدها العائلة.

لطالما عاشت ابنتي يومًا بيوم، ارتجالًا، وهي مُطمئنَّة إلى الحظِّ السعيد، بلا مُخطَّطاتٍ ولا أهدافٍ ولا مشروعات. في

ذلك أيضًا تشبَّهَت بخوليان. وددتُ الاستفسار عمَّا تنويه بعد الولادة في أكثر من مناسبة، ولكنَّها أدلَت بردودٍ مُراوِغة.

ـ ولِمَ نستبق الأمور؟ المستقبل يحمل لنا مفاجآت. ـ كانت تقول.

لم تستقرّ نيبيبس إلّا على الاسم: كاميلا للبنت، وكاميلو للولد.

في الجمعة الثالثة من أكتوبر، أفاقَت نيبيبس في الصباح الباكر وهي تئنّ من الصداع. وبعد ساعتَيْن، بينما هي تشرب الفنجان الثالث من القهوة السادة ـ والقهوة السادة دواءٌ كَوْنيٌّ من كلِّ داء، حسبما قالت ـ همَّت بالوقوف على قدمَيْها، وإذا بِبِركةٍ من السائل الأمنيوتيّ تتكوَّن عند قدمَيْها. اتَّصلَت ريتا بروي، الذي تصادف وجوده في لوس أنجلوس ذلك الأسبوع، وسارعنا بالذهاب إلى قاعة الانتظار المُلحَقة بقسم التوليد، نحن الأربعة. لم تحسّ نيبيبس بالانقباضات، ولم تشكُ إلَّا من صُداعٍ لا يُحتمَل.

وصلنا، ثم انتظرنا طويلًا قبل أن يفحصها الأطبَّاء، الذين اكتشفوا أنَّها تعاني من ارتفاعٍ شديدٍ في الضغط. جرى الأمر برمَّته في فوضى عارمة، إلى الحدِّ الذي جعل الساعات والأيَّام التالية تنصهر في ليلةٍ واحدةٍ طويلةٍ من الصور المُتشظِّية، مِشْكالٍ من الوجوه والأروقة والمصاعد والأرواب السماويَّة والبيضاء وروائح المُطهِّرات والأوامر والحقن، بينما ساندَتني يد روي كوبر الضخمة ممسكةً بذراعي. قالوا إنَّها إصابة بالإرجاج، المصطلح الذي لم يسبق لي أن سمعت به قطّ.

ـ أنا بخير يا ماما. ـ غمغمَت نيبيس، مغمضة العينَيْن، ويدها على جبينها، لتحجب ذلك البريق الذي يغشى الأبصار الآتي من كشَّافات السقف.

كان ذلك آخر ما رأيتُ منها. حملوها على محفَّة، وهرولوا بها إلى بابٍ ذي مصراعَيْن، ثم اختفوا وراءه، وبقينا وحدنا في رواقٍ مُثلَّج.

أخبرونا بأنَّهم فعلوا كلّ ما في أيديهم لإنقاذها، وإن لم يتمكَّنوا من التحكُّم في ضغط الدم. أُصيبَت بتشنُّجات، ثم فقدَت الوعي، وراحت في غيبوبة. وجدوا الوقت الكافي لإجراء عمليَّة ولادةٍ قيصريَّة وإخراج الجنين من رحمها، ولكنَّ قلبها توقَّف، وما هي إلَّا دقائق حتى ماتت نيبيس. أشعر بأسفٍ لا نهاية له يا كاميلو. وددتُ لو أسعفك الوقتُ لترتاح على صدر أمّك ولو لحظةً بعد ميلادك، وددتُ لو أنَّك تعرَّفتَ برائحتها، ودفئها، ولمسة يدَيْها، وصوتها إذ تنطق باسمك.

كم انتظرنا؟ دهرًا. في لحظةٍ بعيْنها، وضعَت المُمرِّضة بين ذراعَيَّ الوليدَ ملفوفًا بغطاءٍ أبيض، وعلى رأسه قبَّعة سماويَّة.

ـ كاميلو، كاميلو... ـ همستُ وسط دموعي.

كان ضئيلًا، مُجعَّدًا، خفيفًا كحفنةٍ من القطن، بالكاد يلتقط أنفاسه.

ـ أنتِ الجدَّة، أليس كذلك؟ حفيدكِ بخير، ولكنْ يجب أن يراه طبيب الأطفال ويجري له الفحوصات اللازمة. ـ قالت المرأة.

اضطررتَ إلى البقاء تحت الملاحظة في قسم الأطفال حديثي الولادة، حيث تسنَّت لنا زيارتك. لم يستغرق الأمر أطول من أيَّام. كنتَ خفيف الوزن للغاية، مُصابًا باليرقان، لا شيء خطير، لأنَّه يبرأ من تلقاء نفسه في غالب الحالات، حسبما قيل لنا، ولكن... سمحَت لي المُمرِّضة بحملك بضع دقائق، ثم فرَّقت بيننا.

جيء لنا بعصير تفَّاح، وناولني روي قرصًا، ابتلعتُه بلا أسئلة، أعتقد بأنَّه مُهدِّئ. لم أكُن قد استوعبتُ ما جرى بعد، لم أفهم التوضيحات، فرحتُ أسأل عن نيبيس وكأنَّني لم أسمع بموتها. وإذا بشخص آخر يقدِّم لنا نفسه على أنَّه كاهن المستشفى، ويمضي بنا إلى مصلَّى صغير، قاعةٍ من الخشب، خاليةٍ من الصور الدينيَّة، يُنيرها الضوء الذي انساب عَبْر نوافذ الزجاج المُعشَّق، حيث مُدِّد جثمان ابنتي على محفَّة، كي نودِّعها.

كانت نيبيس نائمة. بدَت هادئة، أجمل من أيِّ وقتٍ مضى، بوجهها المرهف ذي البشرة المُذهَّبة والأهداب الخليقة بالدمى، ذلك الوجه الذي أحاط به شعرٌ بلون العسل ينتهي بأطرافٍ بيضاء. أعلن روي أنَّه سوف يعبِّئ الاستمارات، ثم اصطحب ريتا والكاهن حتى يمكنني التحدُّث إلى ابنتي بلا شهود. وفي حُجرة المستشفى، وبقلبٍ يتمزَّق ألمًا، تعهَّدتُ إلى نيبيس بأن أكون للطفل أمًّا، وأبًا، وجدَّةً. تعهَّدتُ إليها بأن أكون أمًّا أفضل كثيرًا من تلك الأمّ التي كنتُها لنيبيس، وأغدو الأبَّ المتفاني المستقيم الذي لم تحظَ به، وأفضل جدَّةٍ في العالَم. تعهَّدتُ إليها بأن أعيش الأعوام التي لم يسعفها الوقت كي تعيشها، لئلَّا يتيتَّم

كاميلو أبدًا، وبأن أغمره بكثيرٍ وكثيرٍ من الحبّ، حتى يفيض عن حاجته، فيهدي فائض الحبّ إلى الآخرين. بين نشيج ونشيج، قلت لها ما ذكرتُ، وزدتُ عليه كثيرًا، بينما رحتُ أتعثَّر في الكلمات، وأقطع إليها وعدًا تلو آخر، كي ترحل في سلام.

أحكي لك ما جرى يا كاميلو، فأحسّ مرَّةً أخرى بطعنة الألم التي اخترقَت صدري يومذاك، وتعود إليّ في عناد، أحسّ بألم مُتكرّرٍ ينقضّ عليّ بضراوة. لا يُعقَل أن يكون هناك ألمٌ أسوأ من هذا، لأنَّه يبلغ من الشدَّة حدًّا يجعله ألمًا بلا اسم. أعرف، أعرف... ممَّ أشكو؟ لم يكُن موت ابنتي عقابًا، فأنا مُجرَّد رقم في إحصائيَّة، إنَّه عذاب البشريَّة الأشدّ إيغالًا في القدم، والأكثر شيوعًا. لم يكُن المرء يتوقَّع بقاء جميع الأبناء على قيد الحياة في الماضي، بل إنَّ عددًا منهم كان يقضي نحبه في طوْر الطفولة، الحال التي ما زالت قائمةً في كثيرٍ من أنحاء العالَم، ولكنَّ ذلك لا يخفِّف من هوْل فقدان الأبناء مطلقًا، لأنَّ الأمّ هي الأمّ. شعرتُ بخواءٍ في دخيلة نفسي، وإذا بي تجويفٌ دام، انقطع عنه الهواء، وإذا بعظامي من شمع، وروحي من نار. أمَّا العالَم، فما برح يدور وكأنَّ شيئًا لم يحدث. أقوم، أقطع خطوةً، ثم أخرى، أُصدِر صوتًا، أُجيب، لم أفقد عقلي، أشرب ماءً بفم يغصّ بالرمال، عيناي مُتوهِّجتان، وابنتي مُتخشِّبة، مُثلَّجة، منحوتةٌ من المرمر، ابنتي التي لن تناديني «ماما» مرَّةً أخرى، ابنتي التي تركَت أثرًا هائلًا إذ مرَّت بحياتي، ذكرى ضحكتها، وطرافتها، وتمرُّدها، وعذابها.

سُمِح لي بالبقاء مع نيبيس بضع ساعاتٍ في ذلك المصلّى

العاري. وانطفأ ضوء النهار على نوافذ الزجاج المُعشَّق، فأقبل أحدهم لإنارة بعض المصابيح التي تشبه الشموع. أراد أن يضع بين يديَّ فنجانًا من الشاي، ولكنِّي لم أقوَ على الإمساك به. كنتُ مع ابنتي، أنا وهي وحدنا، أجاذبها أطراف الحديث، وأخيرًا تمكَّنتُ من البوْح إليها بما لم أقُل في حياتها، قلتُ لها كم أحببتُها، وكم افتقدتُها طوال أعوام وأعوام. استطعتُ أن أودِّعها، وأقول لها اذهبي في سلام، وأقبِّلها، وأطلب منها الصفح عن خطايا التقصير والإهمال، وأشكرها على وجودها، وأتعهَّد إليها بأنَّها سوف تحيا في قلبي وقلب ابنها، وأطلب منها ألَّا تهجرني، أن تزورني في أحلامي، أن ترسل إليَّ علاماتٍ وإشارات، أن تعود مُجسَّدةً في كلِّ شابَّةٍ رائعة الجمال أراها على الطريق، وأن تظهر لي بروحها في أعمق ساعات الليل، وفي هزيز الضوء عند منتصف النهار. نيبيس. نيبيس.

وأخيرًا، جاء روي وريتا ليصطحباني. ساعداني على الوقوف وعانقاني، وطوَّقاني، وساندانى حتى هدأت، محاطةً بحرارة الصداقة التي جمعَتني بهما. ودَّعنا نيبيس بقبلةٍ على جبينها، ثم اقتادني كلاهما إلى باب الخروج، وقد خيَّم الليل في الخارج.

بعد يومَيْن، وبينما كنتَ أنتَ في المستشفى، تحت الملاحظة، أُحرِق جثمان أمِّك. تفهَّم يا كاميلو أنَّني ما كنتُ لأترك جثمانها مهجورًا في لوس أنجلوس، بعيدًا كلَّ البعد عن عائلتها وبلدها. احتفظتُ برمادها إلى أن تمكَّنت من دفن جرَّة الرماد في المكان المحجوز لعائلتنا بمقابر ناويل. هناك حيث أذهب للقائها.

ومرَّةً أخرى، جاء روي كوپر لإنقاذي في اللحظات الأشدّ حزنًا من حياتي. بطبيعة الحال، كان يُفترَض بي تولّي مسؤوليَّة الطفل، كما في أيّ عائلةٍ عاديَّة، ولكنَّ روي أوضح لي أنَّ الطفل يحمل الجنسيَّة الأميركيَّة بالميلاد، ولذا فالحصول على التصريح اللازم للخروج به من البلد شيءٌ مُضنٍ. في غياب الأمّ والأب، يبتّ قاضي الأحداث في مصير الطفل، الإجراء الذي قد يستغرق طويلًا. وفي تلك الأثناء، يبقى الطفل في البيت الذي ترصده محكمة الأحداث من أجله. فقدتُ رأسي قبل أن ينتهي حتى من إيضاح المشكلة. خطر على بالي أوَّل ما خطر أن أسرق حفيدي من المستشفى وأخفيه عن العيون. لا شكَّ أنَّ خوليان برابو قادرٌ على مساعدتي في تهريبه إلى جنوب العالَم، فموارده للتهرُّب من القانون كانت بلا نهاية.

ـ لا ضرورة لذلك. سوف نسجِّل كاميلو بصفته ابني أنا. ـ قاطعني روي.

ـ ماذا تقول؟

ـ دعينا نتخيَّل أنَّ علاقةً عابرة قد جمعَتني بنييبيس. سأعترف بأبوَّتي للطفل وأتحمَّل المسؤوليَّة المادِّيَّة. كما لن يحمل الطفل اسم عائلتي نزولًا عند رغبة أمّه المُعلَنة، إذ طلبَت منِّي تسجيله باسم كاميلو دِل بايّيه وحسب، لأنَّها لم ترغب في تسجيله باسم برابو أيضًا. أفهمتِ؟

ـ كلَّا.

ـ يحقّ لي البتّ في شأن الطفل، إذ يُفترَض بي أن أكون

والده. وفي مقدوري تسليمه للجدَّة والتصريح لها بأن تسافر معه إلى بلدها. انسي أمر خوليان برابو.

ـ قُل لي الحقيقة، هل أنت والد كاميلو؟

ـ كلَّا يا امرأة! ربَّاه! كيف يخطر لكِ أنَّني شاركتُ نيبيس الفراش؟

ـ ولكنْ، روي، لماذا إذن. . .

ـ ألم أقُل لكِ إنَّني أكسب قوتي بحلِّ مشكلات الآخرين؟ هذه مشكلةٌ كغيرها.

وقد كان يا كاميلو. يظهر اسم روي كوپر بصفته والدك في شهادة الميلاد تحقيقًا للمصلحة، ولكنَّه ليس والدك، طبعًا. لقد شمل أمّك بالحماية في الأشهر الأخيرة من حياتها، وعرض عليَّ تلك الحيلة مدفوعًا بالألفة التي شعر بها نحونا، أنا وهي. إنَّها أكذوبةٌ رحيمة. وبفضل تلك الاستراتيجيَّة، أمكنني الخروج بك من الولايات المتَّحدة من دون مشكلات. وبعد ذلك، سجَّلتُك هنا في السجلِّ المدنيّ. ولذا، أصبحتَ مُزدوَج الجنسيَّة.

بعد ميلادك بسبعة أيَّام، أُخلِي سبيلك من المستشفى أخيرًا، واستطعتُ الخروج من هناك وأنت بين ذراعَيَّ. تعافيتَ من اليرقان الذي جعل بشرتك بلون صفار البيض، واستقرَّ وزنك. قيل لي إنَّك لم تُولَد قبل أوانك، على الرَّغم من مظهرك الذي وشى بذلك. كنتَ في غاية الضآلة، قبيحًا، أقرع، شاحبًا، ضخم الأذنيْن، أخرس، تكاد لا تتحرَّك أو حتى تبكي.

ـ لا بدَّ من وضع هذا الفأر الصغير تحت أشعَّة الشمس،

على وقع الموسيقى اللاتينيَّة، لعلَّه يشعر برغبةٍ في العيش. ـ أوصاني روي مازحًا، ولكنْ ثبت أنَّها توصيةٌ نافعة.

نزلتُ معك في بيت ريتا، لأنَّك لم تكُن في حالٍ تسمح بالسفر، وبدأت مهمَّة المضيّ بك إلى الأمام. في البدء، امتنعتَ عن مصِّ الرضَّاعة، فاستحوذَت عليَّ الهستيريا وأنا أحاول فرضها عليك. ثم خطر على بال ريتا أن تناولك الحليب بالقطَّارة، إنَّها امرأةٌ قدِّيسة، كانت تستغرق ساعاتٍ في تلك المهمَّة.

ماذا عن جدّك خوليان؟ أيُّ دورٍ لعب؟ نبَّهتُه إلى ما جرى، نظرًا إلى استحالة إخفاء الأمر عنه. ولأوَّل مرَّةٍ على مدى الأعوام الطوال التي عرفتُه خلالها، سمعتُه يغصّ بالبكاء. راح يبكي ابنته المعبودة طويلًا، عاجزًا عن الكلام، وحين تكلَّم، لم يسأل عن التفاصيل، بل عرض مساعدته، مُتعهِّدًا بأنَّ ذلك الحفيد لن يعوزه شيءٌ ما بقي هو على قيد الحياة. لم أرِد إخباره بأنَّني سوف أتكفَّل بالطفل، وبأنَّني لستُ في حاجةٍ إليه، وإلَّا كان إقصاؤه قاسيًا. كان عليَّ أن أوضح له كيف عاشت نييبيس منذ هربَت من يوتا، والدور الذي لعبه روي كوپر.

ـ كوپر؟ ما صلة كوپر بابنتي؟

ـ لقد لجأت نييبيس إليه. ولكنَّه تصرَّف كما لو كان والدها.

ـ أنا والد نييبيس!

ـ لا أدري ما الذي وقع بينك وبين نييبيس، ولكنَّها لم ترِد أن تعرف شيئًا عنها أو عن حملها.

ـ كنتُ سأمدّ لها يد المساعدة.

ـ كلّ ما يسعني قوله إنّها أمضَت الأشهر الأخيرة من حياتها في هدوء، بلا مخدّرات، في عهدة صديقةٍ مكسيكيَّة، وإنَّ الطفل بصحَّةٍ جيِّدة. لو شئتَ رؤيته الآن، فاحضر إلى لوس أنجلوس. سأمضي به إلى البيت حالما أستطيع. وهناك نربِّيه وسطنا.

لم يتمكَّن جدّك من السفر إلى لوس أنجلوس، وإنَّما تعرَّف بك في ساكرامِنتو بعد شهرَيْن؛ ولكنَّه أرسل إلى روي كوپر شيكًا ورسالة شكر. فما كان من روي إلّا أن مزَّق الشيك، ممتعًا.

بين القطَّارة والشمس وموسيقى الرانتشيرا والخورويو والرومبا اللاتينيَّة التي كان يبثُّها الراديو، نجا الفأر الصغير بحياته. وبعد ستَّة أسابيع، ودَّعْنا روي كوپر وريتا ليناريس، اللذين صنعا الكثير من أجلنا، وتهيَّأ لنا السفر عائدَيْن إلى البيت. إنَّ طفلًا حديث الولادة يستلزم العمل بدوامٍ كامل، لأنَّه يستنزف الطاقة، ويسلب النوم والصحَّة العقليَّة، ويشكِّل عائقًا خطيرًا أمام امرأةٍ في الثانية والخمسين من عمرها، كما كنتُ آنذاك، غير أنَّه ردَّ لي الشباب. لقد وقعتُ في غرامك يا كاميلو، الأمر الذي ساعدني على مواجهة التحدِّي المُتمثِّل في تنشئتك، والاحتفاء بحياة حفيدي بدلًا من الحِداد على موت ابنتي.

18

حكَت لي فاكوندا أنَّ الإصلاح الزراعيّ قد نزع ملكيَّة عددٍ من المزارع في محيط سانتا كلارا، كما فعل بمزرعة آل موريباو، وإن لم يتأثَّر به آل شميدت ـ إنغلر. قرَّر حماي السابق ألَّا يبيع منتجاته بالسعر الذي فرضَته الحكومة، فأقفل مصنع الألبان ومعمل الأجبان، في حين اختفَت الأبقار، التي أعتقد بأنَّهم قد حملوها إلى الجانب الآخر من الحدود، حيث تنتظر الأبقار ريثما يعود الوضع الطبيعيّ إلى هذا البلد.

سرَت شائعاتٌ باعثةٌ على القلق بشأن المستوطنة أمل. فبدأ صحافيٌّ يُباشر التحقيق في الأمر، واصفًا إيَّاها بأنَّها «مستوطنة من الأجانب الذين يعيشون على هامش القانون»، كما قال إنَّها «تُمثِّل خطورةً على الأمن القوميّ»، ولكنَّ أحدًا لم يلقِ إليه بالًا. لم يرتكب المستوطنون جرمًا مُثبَتًا، بل إنَّهم فازوا باحترام الجيران، إذ افتتحوا مستوصفًا صحِّيًا صغيرًا لاستقبال سكَّان تلك الأنحاء

بالمجّان. كما أرسلوا صناديق الخضروات إلى الكنيسة على فتراتٍ منتظمة بغرض توزيعها على الأُسر الأشدّ فقرًا.

ـ لن تُمَسّ، لأنّها في حماية العسكر. وهناك تُدرَّب القوّات الخاصّة. ـ أخبرني خوليان في واحدةٍ من رحلاته.

عرفتُ أنّه يسافر في رحلاتٍ خاصّةٍ إلى المستوطنة، رحلاتٍ لا يرد لها ذكرٌ في أيٍّ من السجلّات. كما أخذ الجيش بعيْن الاعتبار إقامة مهبطٍ للطائرات في المستوطنة، مع أنَّ طائرة خوليان الجومائيَّة قادرةٌ على الوصول إلى البحيرة. سألتُه ما الذي ينقله من أجل أولئك الناس الذين يلفّهم الغموض، فلم يحِر جوابًا.

أوشك خوان مارتين على التخرُّج في الجامعة، واختير رئيس اتّحاد الطلّاب. ارتدى عباءة اليونتشو الخاصَّة بالسكّان الأصليّين، وأطلق شعره ولحيته كأهل الجبال، مسايرًا بذلك الموضة الرائجة بين شباب اليسار. كثيرًا ما ظهر على شاشة التلفزيون نائبًا عن الطلّاب. وعلى الرَّغم من أفكاره الثوريَّة، كانت لهجته داعيةً إلى المصالحة. حذَّر من المناورات الفاشيَّة التي خاضتها المعارضة، كما ندَّد بتكتيكات جماعات اليسار المُتطرّف، التي أحدثَت من الضرر بقدر ما أحدثَت جماعات اليمين، الأمر الذي ألَّب عليه الأعداء وسط الصفوف التي ينتمي إليها. عاش الناس من أقصى نقيض الشغف السياسيّ إلى أقصاه، ولم ينصت أحدٌ إلى الأصوات العقلانيَّة التي نادت بالحوار أو المفاوضة.

بعد ميلادك بأحد عشر شهرًا، أطاح انقلابٌ عسكريٌّ بالحكومة، في حمَّامٍ من الدماء، كما تنبَّأ خوليان برابو منذ

انتُخِب الرئيس الاشتراكيّ. أصبحَت رحلات خوليان متقاربةً حتى بدا وكأنَّه قد انتقل وأصبح يعيش هنا. كان في غاية الانشغال بشؤونٍ مُتعلِّقةٍ بالدولة، حسبما أخبرني، من دون أن يوضح ما تلك الشؤون! قلَّما التقينا، إذ استقرَّ بي المقام في ساكرامِنتو، وقد صرتُ جدَّة، بينما أمضى هو معظم وقته في العاصمة. ولم يخبرني بحضوره إلى الجنوب إلَّا في ما ندر.

نُظِّم الانقلاب وكأنّه استراتيجيَّة حرب، إذ تمرَّدَت القوَّات المُسلَّحة والشرطة فجر ثلاثاءٍ من فصل الربيع. وبحلول منتصف النهار، كان القصر الرئاسيّ قد تعرَّض للقصف، وقُتِل الرئيس، وبات البلد خاضعًا للحكم العسكريّ. وبدأ القمع في الحال. خلَت ساكرامِنتو من المقاومة، بل إنَّ بعض معارفي راحوا يصفِّقون في الشرفات، وهم الذين أمضوا ثلاثة أعوام ينتظرون الجنود الأبطال حتى ينقذوا الوطن من الدكتاتوريَّة الاشتراكيَّة المزعومة. وعلى الرَّغم من ذلك، فلقد أُعلِنَت حالة الطوارئ هناك أيضًا. سيطر على المدينة جنودٌ بثياب الحرب المُموَّهة، ووجوهٍ مطليَّةٍ كوجوه الأپاتشي الذين رأيتُهم في الفيلم لئلَّا يتعرَّف الناظر إليهم، فضلًا عن قوَّات الأمن بسيَّاراتها السوداء. أخذَت المروحيَّات تطنّ كالدبابير، بينما اصطفَّت الدبَّابات والشاحنات الثقيلة، فجرَّحَت الأرض وأفزعَت الكلاب الضالَّة التي درجَت على فرض سيادتها في الشوارع. سُمِعَت صافرات إنذار الشرطة، والصرخات، والأعيرة الناريَّة، والانفجارات. مُنِعَت حركة السير، وعُلِّقَت الرحلات بالطائرة والقطار والحافلة، كما نُصِّبَت نقاط التفتيش على الطرقات لتصيُّد المُخرِّبين والإرهابيِّين وعناصر حرب

العصابات. لم تكُن أوَّل مرَّةٍ نسمع فيها ذكر أولئك الأعداء، أعداء الوطن، فلقد حذَّرَتنا صحافة اليمين من أنَّهم عملاء تابعون للاتِّحاد السوفيتيّ، يدبِّرون ثورةً مُسلَّحة، ويعدُّون قوائم الإعدام.

أصبحَت الاتِّصالات في غاية الصعوبة، فلم يمكنني التحدُّث إلى خوان مارتين، الذي كان في العاصمة، ولا إلى خوسِّيه أنطونيو، الذي سكن على بعد مربَّعاتٍ سكنيَّة قليلة من بيتي. أمَّا خوليان، فحضر فجأةً، على الرَّغم من ظنِّي بأنَّه في ميامي، وأخبرني بأنَّه لا يواجه مشكلاتٍ في التنقُّل، فهو يحمل إذنًا بالمرور لأنَّه يقدِّم خدماتٍ أساسيَّة لمجلس الحكومة.

ـ ڤيوليتا، أطيعي التعليمات المُذاعَة عَبْر التلفزيون، الزمي البيت، ولا تذهبي إلى المكتب حتى يهدأ الوضع. لو شئتِ الوصول إليَّ، فاتركي رسالةً في الفندق.

خلال الأيَّام الثلاثة الأولى، فُرِض حظر تجوُّل تامّ في جميع أنحاء البلد، ولم يُسمَح بالخروج إلى الشارع إلَّا بإذن خاصّ، أو برفع منديلٍ أبيض في حالات الطوارئ الحرجة. في حدَّة، مضى الجنود يسوقون الناس إلى شاحنات الجيش دفعًا وضربًا بأخامص البنادق، ثم يحملونهم إلى وجهةٍ مجهولةٍ، ويضرمون المحارق في الميدان، حيث يحرقون الكتب والمستندات والسجلَّات الانتخابيَّة، لأنَّ الديموقراطيَّة قد عُلِّقَت إلى حين إصدارِ أوامرَ جديدة، ولاحقًا نرى إذا كنَّا سنعاود التصويت، متى حانت اللحظة المواتية. كما أُعلِن تعليق الأحزاب والمجلس إلى أجلٍ غير مُسمَّى، وخضعَت الصحافة للرقابة، وحُظِر اجتماع ما يزيد على ستَّة أشخاص، وإن اجتمع الناس في عددٍ من النوادي

والفنادق، بما فيها فندق باڤاريا، لشرب الشامبانيا والتغنّي بالنشيد الوطنيّ. وبذلك أقصد الموسرين الذين ترقّبوا الانقلاب العسكريّ في لهف، ولا سيّما أصحاب المزارع في المنطقة، أولئك الطامحين إلى استرجاع أراضيهم التي انتُزِعَت ملكيَّتها بمقتضى قانون الإصلاح الزراعيّ. أمّا المدافعون عن الحكومة الاشتراكيَّة، أي العمَّال والفلّاحون والطلّاب والفقراء بوجه العموم، فلقد خرسوا ولزموا جحورهم، حسبما أوضح لي خوليان برابو. على شاشات التلفزيون، لم نرَ إلّا بضعة جنرالاتٍ يُطلِقون الأوامر على المواطنين، بين العَلَم وشعار الوطن، فضلًا عن رسوم ديزني المُتحرِّكة. بينما الشائعات رائحة غادية بقوَّة الأعاصير، غير أنَّها جاءت مُتضارِبة، واستحال التأكُّد منها. أوصدتُ باب البيت على نفسي، كما أمرني خوليان. كنتُ في غاية الانشغال بحفيدي، الذي بدأ يزحف على أربعٍ في الأركان، ويدسّ أصابعه في المقابس، ويسفّ التراب المخلوط بالديدان. ظننتُ أنَّ الوضع الطبيعيّ سرعان ما يعود.

بعد ثلاثة أيّام، حين رُفِع حظر التجوُّل لبضع ساعات، جاءت ميس تايلور لرؤيتي مُتعلِّلةً بإحضار الحليب المُجفَّف من أجل الطفل، بعد أن عجزنا عن الحصول عليه طوال عدَّة أشهر، لأنَّ رفوف المتاجر زخرَت بالبضائع فجأةً بعد شحٍّ. جلسنا في الصالة نحتسي شاي دارجيلينغ المعروف، الشاي الأثير لدى مُربّيتي الإنجليزيَّة. وعند ذاك، أفضَت إليَّ بالسبب الحقيقيّ في زيارتها.

ـ لقد اقتحموا جامعة العاصمة يا ڤيوليتا. واعتقلوا عددًا من

الأساتذة والطلّاب، ولا سيّما في قسمَي الصحافة وعلم الاجتماع. يُقال إنَّ جدران الكلّيّة مُلطَّخةٌ بالدماء.

ـ خوان مارتين! ـ صحتُ، وإذا بفنجاني يرتطم بالأرض.

ـ ابنكِ في القائمة السوداء. يجب عليه الحضور إلى قسم الشرطة، فهم يبحثون عنه. وبصفته رئيس اتّحاد الطلّاب، يتصدَّر ابنكِ القائمة.

ـ ماذا جرى له؟

ـ حضر إلى بيتنا ليلةَ أمس، وحظرُ التجوُّل في أوجّه. لا أدري كيف تمكَّن من عبور عدَّة أقاليم. لم يأتِ إلى بيتك لأنَّه أوَّل مكانٍ يبحثون عنه فيه. لقد أخفيناه، ولكنْ يجب إخراجه من البلد.

ـ وحده خوليان قادر على المساعدة في هذا الأمر.

ـ كلَّا يا فيوليتا. يقول ابنكِ إنَّ خوليان والعسكر متواطئون، كما أنَّه يعمل لصالح السي آي إيه، التي تقف خلف ما يجري.

ـ لن يبلِّغ عن ابنه أبدًا!

ـ لسنا على يقينٍ من هذا. في رأي خوسّيه أنطونيو، يمكننا إخفاء خوان مارتين في سانتا كلارا، لبعض الوقت على الأقلّ. لن يفتِّش عنه أحدٌ في المزرعة. ولكنْ كيف نستطيع إرساله إلى هناك؟ القطار لا يعمل، ونقاط التفتيش منتشرةٌ في كلِّ مكان.

ـ سأتكفَّل بذلك يا چوزِفين.

لم أملك وسيلةً لإنقاذ خوان مارتين سوى الاستعانة بوالده، الذي كان في البلد منذ أسبوعَيْن. نجحتُ في حمله على الحضور

إلى ساكرامِنتو كي أتحدَّث إليه، برغم مشاغله الكثيرة في تلك الأيَّام المضطربة، على حدِّ قوله.

ـ كم مرَّةَ نبَّهتُ ذلك الفتى وقلتُ له أن يتوخَّى الحذر؟ والآن تأتين لطلبِ المساعدة! ألم يتأخَّر الوقت قليلًا؟

ـ ذلك الفتى هو ابنك يا خوليان.

ـ اسمعي يا ڤيوليتا، لا أملك عمل أيّ شيء. أتريدين منِّي المخاطرة بمسيرتي؟ إنَّهم يراقبونني. ما دام خوان مارتين قادرًا على الوصول إلى ساكرامِنتو وحظر التجوُّل في أوجّه، فهو قادر على تدبُّر أموره حتى يعثر على مكانٍ آمن.

ـ فكَّرتُ أنَّه قد يذهب....

ـ لا تخبريني بشيء! لا أريد أن أعرف أين هو ولا إلى أين هو ذاهب. كلَّما قلَّت معلوماتي، فذلك أفضل. لا أستطيع التواطؤ على ما يجري.

ـ لستَ أنت موضع الاهتمام يا خوليان، لأوَّل مرَّة. وحده خوان مارتين يهمّ الآن. ألا ترى أنَّهم يقتلون الناس؟

ـ إنَّها الحرب على الشيوعيَّة. والغاية تبرِّر الوسيلة.

كان خوليان برابو خسيسًا، صلته بابنه رديئة، ولكنَّه ساعدني على مضضٍ في تهريب خوان مارتين إلى خارج ساكرامِنتو، كما توقَّعت. استغرق أقلّ من ساعتَيْن في الحصول على تصريحٍ يسمح لي بالسفر من قائد المنطقة. كان زمنًا غير الزمن يا كاميلو. الآن يمكن التحقُّق من هويَّة الشخص، وحتى المعلومات الأشدّ حميميَّة عن حياته، في أقلّ من دقيقةٍ واحدة. أمَّا في الستِّينيَّات، فكان

ذلك يستغرق طويلًا، ولا يمكن تحقيقه في كلِّ مرَّة. جاء إذن المرور الثاني باسم لورينا بينيتيس، العاملة المنزليَّة.

بعد ستّ وثلاثين ساعة، ما كاد يُرفَع حظر التجوُّل في السادسة صباحًا حتى وضعتُ في السيَّارة حفيدي، وما لا غنى عنه من الثياب، وشيئًا من الطعام، ثم ذهبتُ لأقلّ خوان مارتين الذي كان في أحد مخازن شركة البيوت الريفيَّة، حيث أخفاه شقيقي. حين رأيتُه في المرَّة الأخيرة، كان يبدو بمظهر نبيٍّ أشعث الشعر، ولكنِّي وجدتُ في انتظاري امرأةً فارعة القوام، نحيلةً، تضمّ شعرها على هيئة كعكةٍ فوق مُؤخِّر العنق، وترتدي مئزرًا سماويّ اللون: إنَّها لورينا بينيتيس. وعلى الرَّغم من الثوب التنكُّريّ، تعرَّفتَ أنت بخالك من دون تردُّد، وطوَّقتَ عنقه بذراعَيْك. من حسن الحظّ أنَّك لم تكُن قد بدأت في الكلام بعد.

لم نتبادل كلمةً واحدة حتى خرجنا من ساكرامِنتو وتجاوزنا نقطة التفتيش الأولى، واتَّخذنا الطريق المُمتدَّة جنوبًا. كان جنود الحراسة فتيةً منفعلين، عدائيِّين، مُدجَّجين بالسلاح، طالعوا إذنَي المرور ببطء خليقٍ بأشباه الأميِّين، ثم تحقَّقوا من بطاقة هويَّتي. طلبوا منَّا الترجُّل عن السيَّارة وفتَّشوها بالكامل، حتى إنَّهم أزاحوا المقاعد من مكانها، ولكنَّهم لم يلقوا إلَّا نظرةً سطحيَّةً على العاملة المزعومة. وهكذا، ساعدَتنا المنظومة الطبقيَّة والازدراء الذكوريّ نحو النساء في تلك النقطة وغيرها من نقاط التفتيش التي واجهَتنا طوال الطريق.

سألتُ خوان مارتين عن السبب الذي منعه من تسليم نفسه، فمن ذهب طوعًا ليس لديه ما يخشاه، هكذا قيل عَبْر التلفزيون.

ـ في أيِّ عالَمٍ تعيشين يا ماما؟ لو سلَّمتُ نفسي، فلربَّما اختفيتُ إلى الأبد؟

ـ كيف تختفي؟ لا أفهم.

ـ يمكنهم إلقاء القبض على أيِّ شخص، فهم ليسوا في حاجةٍ إلى ذريعة. بعد ذلك ينكرون اعتقالك، ولا يعلم أحدٌ عنكِ شيئًا، فتصبحين شبحًا. لقد قتلوا عدَّة طلَّابٍ من كلِّيَّتي، وأخذوا ما يزيد على عشرين أستاذًا.

ـ لعلَّهم ارتكبوا فعلةً خبيثةً يا خوان مارتين. ـ همهمتُ، وأنا أردِّد ما سمعتُ كثيرًا في محيط أصدقائي.

ـ الفعلة التي ارتكبتُها أنا أيضًا يا ماما: الدفاع عن الحكومة المُنتَخبة ديموقراطيًّا.

كانت الرحلة من ساكرامِنتو إلى المزرعة تستغرق ما يزيد قليلًا على الساعتَيْن بالقطار، بينما تستغرق ثلاث ساعاتٍ أو أربعًا بالسيَّارة. غير أنَّهم استوقفونا مرَّاتٍ كثيرةً جدًّا على الطريق، حتى استغرقنا ما يقرب من سبع ساعاتٍ في الوصول إلى ناوِيل. وصلنا وقد احترقَت أعصابنا وخارت قوانا. من حسن الحظِّ أنَّك غفوتَ طوال الطريق تقريبًا بين ذراعَي لورينا بينيتيس، جليسة الأطفال التي لم تُثِر الشكوك في لحظةٍ واحدة.

وصلنا قبل موعد حظر التجوُّل بساعتَيْن، وإن لم يكُن أحدٌ يلتزم به في تلك الأنحاء البعيدة. استقبلنا توريتو وفاكوندا بلا تعليقٍ واحد، برغم المفاجأة التي لا بدَّ من أنَّها قد استحوذَت عليهما لدى رؤية خوان مارتين بثياب امرأة. في اعتقادي، أدرك

كلاهما أنَّها مسألة حياةٍ أو موت، في غير حاجةٍ إلى تفسير. بكلماتٍ قليلة، حكى لهما ابني ما يجري في العاصمة وسائر أنحاء البلد. بينما كانت سانتا كلارا واحة سلام.

ـ يجب عليَّ أن أعبر الحدود. ـ قال لهما.

أمَّا أنت يا كاميلو، فلقد وصلتَ جائعًا، بحفَّاضةٍ مُلوَّثة، تكاد تموت من شدَّة العطش. وصلتَ مباشرةً إلى ذراعَي إتيلبينا مونيوس، حفيدة فاكوندا الكبرى، التي ولدَتها أمّها، نارسيسا، وهي في الخامسة عشرة من العمر. ساعدَت الشابَّة جدَّتها في تنشئة إخوتها وزراعة الأرض. كانت عريضة الظهر، رشيقة اليدَيْن، مستديرة الوجه، لها ذكاءٌ خارقٌ في شؤون الوجود الأساسيَّة. لم تلتحق بالمدرسة، بل كانت تقرأ وتكتب بمشقَّة، بفضل لوسيندا ريباس التي علَّمَتها ما استطاعَت قبل أن تهزمها الشيخوخة، ثم يهزمها الموت أخيرًا.

في تلك الليلة، نمتَ أنت مُستكِنًّا على الفراش بين فاكوندا وإتيلبينا. أمَّا أنا، فنمتُ بجوار ابني على سريرٍ من الحديد، كان لأمِّي في الماضي. قضيتُ ساعاتٍ في العتمة، مُنتبهةً إلى الأصوات الآتية من الخارج، أترقَّب أن تصل السيَّارة الجيب العسكريَّة أو سيَّارة الشرطة في أيِّ لحظةٍ لإلقاء القبض على خوان مارتين، وأفكِّر في دوري أمًّا، وكيف خذلتُ ابني مرَّاتٍ كثيرة لانشغالي بالعمل، وكيف استحوذَت أخته على انتباهنا كاملًا طوال الوقت، وأفكِّر في روحه المثاليَّة التي جعلَته يصطدم بأبيه منذ كان خوان مارتين طفلًا. نمتُ ساعتَيْن عند مطلع الفجر. وحين أفقتُ، كانت فاكوندا قد أعدَّت الفطور، بينما حملَتك

إتيلبينا على خصرها، ومضَت بك لحلب البقرة. أمَّا خوان مارتين، فراح يساعد توريتو في العناية بالحيوانات. كان الطقس لا يزال باردًا في الليل، والندى يتلألأ على أوراق الأشجار، والبخار الضارب إلى الزرقة يتصاعد من الأرض الساخنة تحت أشعَّة الشمس. وكالعادة، ردَّ لي أريج الغار النفَّاذ المنعش ذكريات الطفولة الأغنى بالحياة في سانتا كلارا، تلك الذكريات التي ستظلّ عندي مُقدَّسةً إلى الأبد. لم نطلّ خارج البيت طوال اليوم، لئلَّا نلفت الأنظار، مع أنَّ المزرعة منعزلةٌ إلى حدٍّ كبير. منذ أعوامٍ مضَت، ترك خوسِّيه أنطونيو شيئًا من الثياب في أحد الصناديق، فوجدنا فيه سروالًا وبوطًا وسترات أكلَتها العثَّة، ولكنْ ما زال يمكن للهارب أن ينتفع بها.

اجتمعنا حول المائدة بما استقرّ عليها من فناجين شاي وخبزٍ دافئ صنعَته فاكوندا، فحدَّثنا خوان مارتين عن محاكماتٍ عاجلة وحالات إعدامٍ عشوائيَّة، عن معتقلين يلقون حتفهم تحت وطأة التعذيب، عن آلافٍ وآلافٍ من الأشخاص الذين يُلقَى القبض عليهم ضربًا في وضح النهار، تحت بصر كلّ من يجرؤ على النظر. حدَّثنا عن نقاط الشرطة، والثكنات العسكريَّة، والملاعب الرياضيَّة، بل وحتى المدارس، الحافلة بالسجناء. حدَّثنا عن معسكرات الاعتقال التي يقيمونها ارتجالًا لحبس المعتقلين، وغير ذلك من الفظائع التي اعتبرتُها بعيدة الاحتمال، إذ كنَّا نموذجًا للتعايش الديموقراطيّ في هذه القارَّة التي خرَّبها القادة العسكريُّون، والأنظمة الديكتاتوريَّة، والانقلابات العسكريَّة. لا يمكن أن يقع شيءٌ ممَّا يحكيه خوان مارتين في بلدنا، إنَّها

بروباغاندا شيوعيَّة. ومع أنَّني، في تلك اللحظة، كدتُ لا أصدِّق شيئًا ممَّا زعم ابني، أدركتُ أنَّه لا بدَّ من أن تكون لديه أسبابٌ وجيهةٌ جدًّا للهرب مُتنكِّرًا في ثياب امرأة، وأحجمتُ عن معارضته.

عند المغيب، بدأ توريتو يحزم الضروريّ من الأشياء في صرَّة الرحلات.

ـ ستأتي معي يا خوانيتو. ـ قال لابني.

ـ توريتو، أتحمل سلاحًا؟

ـ هذا! ـ أجابه العملاق وهو يُظهِر له سكِّين الجزَّار الذي يستخدمه لألف غرض، ويحمله دائمًا، كلَّما هرب في رحلةٍ من رحلاته.

ـ أعني سلاحًا ناريًّا. ـ أصرَّ خوان مارتين.

ـ هذا ليس الغرب الأميركيّ البعيد، لا أحد يحمل السلاح هنا. لا أظنّك تفكِّر في إطلاق الرصاص هنا. ـ قاطعتُه.

ـ توريتو، لا يمكنك السماح لهم باعتقالي حيًّا. أتعدني بذلك؟

ـ أعدك.

ـ ربَّاه! يا بنيّ، إلامَ تلمِّح؟ ـ صحتُ.

ـ أعدك. ـ كرَّر توريتو.

ما كاد الظلام يخيِّم حتى ذهبا. كانت ليلةً دافئةً من ليالي الربيع، اكتمل فيها البدر، فألقى نورًا كافيًا سمح لنا برؤيتهما

وهما يبتعدان عكس اتِّجاه الطريق. أمَّا أنا، فحدَّثني هاجسٌ مُروِّعٌ بأنَّه وداعٌ أخير، ولكنِّي سرعان ما أخرستُ ذلك الهاجس، فلا يجدر بالمرء استحضار المصائب، على حدِّ قول الخالتَيْن. طبقًا لحساباتنا، كان توريتو على وشك أن يبلغ السبعين بعد عامَيْن. ومع ذلك، فلم أشكّ بقدرته على صعود سلسلةٍ من الجبال حتى يعبر تخومًا خفيَّةً سيرًا على قدمَيْه، وهو لا يحمل من المتاع أكثر من ثيابه التي يرتديها، والغطاءيْن، والأدوات البدائيَّة التي يستخدمها في صيد السمك والحيوانات. كان مُلِمًّا بالدروب والمسارات العتيقة في سلسلة الجبال التي لا يسلكها سوى الأدلَّاء القدامى وبعض السكَّان الأصليِّين. أمَّا خوان مارتين، الذي يصغره بما لا يقلّ عن خمسةٍ وأربعين عامًا، فلم يكُن مُتأهِّبًا لتلك المغامرة، بل إنَّه كان عرضةً للسقوط تحت وطأة الإرهاق أو الهلع أو البرد، أو ربَّما زلَّت قدماه في إحدى الوهدات، وهو المُثقَّف الذي لم يبرز في الرياضة قطّ، أضف إلى ذلك طباعه المُتروِّية الحذرة، المختلفة كثيرًا عن طباع شقيقته نييبس، التي لو اضطُرَّت إلى الهرب من العدوِّ يومًا، لوجدَت نفسها كالسمكة في الماء.

19

بقيتُ في سانتا كلارا ثلاثة عشر يومًا، رحت أترقَّب خلالها أخبارًا من ابني وتوريتو، وأنا برفقة فاكوندا وإتيلبينا وأشقّائها. ذهبَت نارسيسا في أثر حبيبها الأخير، تاركةً خلفها سربًا من الصغار الذين تكفَّلَت بهم ابنتها الكبرى وأمّها، ولم تتمكَّن من العودة. من يدري أين تصادف وجودها حين أُعلِنَت حالة الطوارئ؟ كانت كلّ ساعةٍ تمرّ عذابًا، رحتُ أعدّ الدقائق، وأضع علاماتٍ في التقويم، وأنا لا أفهم السبب الذي جعل توريتو يستغرق كلّ هذا الوقت في العودة، إذ كان لديه من الوقت ما يكفي ويفيض عن حاجته لعبور الحدود ثم العودة، ما لم تقع مصيبة. كنتُ أمضي معظم النهار في مراقبة الأنحاء المحيطة، وقد بلغ منّي اللهف مبلغًا جعلني لا أتحمَّس للعناية بحفيدي، الذي مضى يزحف على أربع وسط الدجاجات، شبهَ عارٍ، ويسفّ التراب كالهمجيّ. أمّا باقي الأطفال، فكانوا يكبرونه بأعوامٍ

كثيرة، ويضيقون بذهاب الصغير في أثرهم إلى كلِّ مكان. وبينما أنت تحاول اللحاق بهم، قطعتَ خطواتك الأولى يا كاميلو. لا علمتُ بذلك، ولا بأوّل كلمةٍ تمكَّنتَ من نطقها: تينا، لأنّك لم تستطِع نطق إتيلبينا. وهكذا صرتَ تناديها من ذلك الحين.

حافظَتْ فاكوندا على الروتين المعهود: الاعتناء بالمزرعة، وأداء الأشغال المنزليَّة، وصنع الكعك والفطائر لبيعها، والذهاب إلى السوق، ومجاذبة صديقاتها في ناويل أطراف الحديث، ثم العودة مُحمَّلةً بآخر الأخبار. قالت لي إنَّ فرقةً من الجنود قد اتَّخذوا ثكنةً على بعد كيلومترَيْن من سانتا كلارا، ثم حملوا عددًا من الفلّاحين على متن شاحنات الجيش، فانقطعَت أخبارهم تمامًا. في حين استردَّ أصحاب الأراضي مزارعهم المُنتزَعة ملكيَّتها، وشرعوا يُصفُّون حساباتهم مع المستأجرين الذين طُرِدوا جميعًا، وتعرَّض كثيرون منهم للضرب، بينما اعتُقِل بعضهم.

لم يكُن في المنطقة مُصطافٌ أو سائحٌ واحد، مع أنَّ حرَّ الصيف قد بدأ. خلَت الساحات والشطآن، والفنادق أيضًا، إلّا فندق باڤاريا، الذي عادةً ما ينزل فيه العسكريُّون ومسؤولو الحكومة. وفي ناويل، جمع الجنود نفرًا من الشبّان ضربًا بأخامص البنادق، وأرغموهم على تكليس الجدران التي رُسِمَت عليها بروباغاندا سياسيَّة. كما هشَّم الجنود فكَّ رجلٍ في السوق لأنَّه قد تفوَّه بكلمة «رفيق»، التي حُظِرَت، مثلما حُظِرَت كلمة «الشعب» و«الديموقراطيَّة» و«الانقلاب العسكريّ»، لأنَّ «الثورة العسكريَّة» هي المُصطلَح الصحيح.

ـ إنَّهم يُلقون القبض على الرجال الملتحين وأصحاب الشعر

الطويل، فيضربونهم ويعرُّونهم من الثياب. بينما لا يُسمَح لنا، نحن النساء، بارتداء السراويل، لأنَّها لا تروق للعسكر. ولكنْ كيف لنا أن نحرث الأرض وننظِّف الحظائر بالتنانير؟ ـ هكذا عقَّبَت فاكوندا.

خيَّم الذعر على الناس، ولم يرغب أحدٌ في خوض المشكلات، فكان الحلّ الأسلم أن يلزم المرء بيته. وإذا بنا نُفاجأ ذات يوم بدخول رجلٍ أجنبيٍّ إلى المزرعة، رجلٍ فارع القوام وكأنَّه لاعب سلَّة، ضخم القدمَيْن، اسمرَّت بشرته بتأثيرٍ من الشمس، له عيْنان سماويَّتان، وشعرٌ يكاد يطغى عليه الشيب، ولغته الإسبانيَّة تليق بالقواميس. قدَّم نفسه باسم هارالد فيسك، وسأل عمَّا إذا كان لدينا تليفون، لأنَّ مركز اتِّصالات ناويل مُوصَدٌ في تلك الساعة. كان واحدًا من مراقبي الطيور الذين يأتون كلّ عام، في زياراتٍ ليس لها ما يفسِّرها، لأنَّ صنوف الطيور لدينا جديرةٌ بالشفقة إذا ما قُورِنَت بمهرجان الطيور مُتعدِّدة الألوان في حوض الأمازون أو أدغال أميركا الوسطى.

كان هارالد فيسك يبلغ من العمر أربعين عامًا على وجه التقريب، بجسده غير المُتَّسق، الذي جعله يبدو كفتى كبُر دفعةً واحدة، وبشرته التي تخلَّلَتها تجاعيدُ سابقة على الأوان بسبب أشعَّة الشمس المفرطة. كان يحمل حقيبة ظهرٍ هائلة، وثلاثة مناظير، وعدَّة كاميراتٍ فوتوغرافيَّة، ودفترًا ضخمًا يحوي ملاحظاتٍ مُشفَّرة، وكأنَّه جاسوس. بلغ الرجل من الغفلة حدًّا جعله يفكِّر بمراقبة الطيور في ظلّ تلك الأجواء المُنذِرة، في أوَّل عهد الديكتاتوريَّة، حين أُعلِنَت حالة الحرب في البلد، عندما كان

حتى الهواء الذي نتنشَّقه خاضعًا لحكم السلاح. بل وخطر له أن يخيِّم على الشاطئ أيضًا.

ـ اسمع، لا تكُن أبله. أتريدهم أن يقتلوك؟ ـ سألتُه.

ـ سيِّدتي، أحضرُ إلى هذا البلد كلّ صيفٍ منذ عدَّة أعوام. ولم يحدث أن اعتدى أحدهم عليَّ قطّ. ـ أصرَّ الرجل.

ـ في غياب المعتدين، صار لدينا الآن جنودٌ.

ـ أنا دبلوماسيّ. ـ قال.

ـ لو أطلقوا عليك النار قبل السؤال، فلن ينفعك جواز سفرك بشيء. خيرٌ لك أن تبقى لتبيت ليلتك هنا.

ـ سأعيرك فراش توريتو. ولكنَّك إنْ عدتَ الليلة، فعليك أن تنام على الأرض. ـ قدَّمَت له فاكوندا الفراش.

وهكذا، دخل ذلك الرجل إلى حياتنا يا كاميلو. كان موظَّفًا بالخارجيَّة النرويجيَّة، يشغل منصب القائم بالأعمال في هولندا، حيث تنتظره زوجته وأبناؤه. قال إنَّه مُتيَّمٌ بأميركا اللاتينيَّة، وإنَّه قد جابها شمالًا وجنوبًا في الإجازات، ولا سيَّما بلدنا. تبنَّته فاكوندا كالابن الأبله. وعلى مدى الأعوام التي ظلَّ يسافر خلالها جنوبًا، ماضيًا في أثر طيوره، كان ينزل في سانتا كلارا كلَّما حضر إلى هنا.

بعد ثلاثة عشر يومًا من الترقُّب سدًى، ظهرَت يايما على ظهر بغل. كانت المداوية التي تنتمي إلى السكَّان الأصليِّين، تلك التي قاومَت الزمن بكامل صحَّتها طوال عقود، قد رضخَت لمتاعب العمر أخيرًا. لم أكُن قد رأيتُها منذ جنازة الخالة پيلار،

بل وظننتُها قد فارقَت الحياة في حقيقة الأمر. وعلى الرَّغم من مظهرها الخليق بمشعوذةٍ تبلغ من العمر دهرًا، ظلَّت قويَّةً، صافية التفكير، كعهدها دائمًا. عرفَتني منذ كنتُ صغيرةً في طور الحُلُم، غير أنَّها لم تُبدِ نحوي أدنى اهتمامٍ قطّ، ولذا عجبتُ لحضورها كي تسلِّمني الرسالة التي ترجمَتها فاكوندا من أجلي، لأنَّ معرفة يايما بالإسبانيَّة كانت ضعيفةً بقدر معرفتي بلغتها.

ـ فوتشان، ذلك الصديق الضخم... لقد أخذه الجنود.

سقطَت فاكوندا على ركبتَيْها وهي تغصّ بالبكاء، بينما لم أفكِّر أنا في غير ابني.

ـ كان فوتشان برفقة رجلٍ آخر، شابّ. ماذا جرى له يا يايما؟ ـ رحتُ أهزّها.

ـ رأينا فوتشان. أمَّا الآخر، فلم نرَه. ستُقام الطقوس من أجل فوتشان. سنخبركم في حينه.

وبذلك، كانت تعني أن توريتو صار عند السكّان الأصليِّين في عداد الأموات.

ما دام توريتو قد شُوهِد بمفرده، فمن المُرجَّح أنَّه كان في طريق العودة، ما يعني أنَّ خوان مارتين ربَّما تمكَّن من الهرب. لم أرِد أن أتخيَّل، ولو للحظةٍ واحدة، أنَّ ذلك الرجل الصالح قد وفى بوعده ومنع سقوط ابني حيًّا بين أيدي العسكر، مهما كانت الوسيلة. دعَت الضرورة إلى إنقاذ توريتو، فلم يخطر على بالي سوى اللجوء إلى خوليان. من المُرجَّح أن يتمكَّن من الوقوف على مصير ابنه وتوريتو، عن طريق صلاته. شعرنا بالخوف من

خضوع التليفونات للمراقبة، ومن خضوع كلّ مواطنٍ للتجسُّس. كان ذلك شيئًا مستحيلًا، بطبيعة الحال، ولكنَّ أحدًا لم يجرؤ على التحقُّق ممَّا إذا كانت تلك الشائعة ضربًا من المبالغة. أمَّا أنا، فلم أجد بديلًا عن ذلك.

عاش خوليان في ميامي، ولذا لم يتَّخذ لنفسه سكنًا ثابتًا في هذا البلد. فهو كلَّما جاء، نزل في فندقٍ بالعاصمة أو فندقٍ آخر بساكرامِنتو، كعهده في كلِّ مرَّة. اتَّصلتُ به في كِلَا الفندقَيْن من هاتف ناويل العموميّ، إذ لم يكُن لدينا تليفونٌ في المزرعة حتى ذلك الوقت، بعد كلّ هذه الأعوام، وتركتُ له رسالةً قلتُ فيها إنَّني سوف أعاود محاولة الاتِّصال الليلة.

ـ أعتقد بأنَّكِ تتَّصلين بمناسبة معموديَّة كاميلو. سيكون خاله هو الأب الروحيّ، أليس كذلك؟ ـ سألني قبل أن يسعفني الوقت لأتفوَّه بكلمةٍ واحدة.

ـ بلى... ـ أجبتُه، في حيرة.

ـ ما أخبار الخال؟

ـ لا أدري. أيمكنك الحضور؟

ـ غدًا أكون في فندق بافاريا، عندي اجتماعٌ في تلك الأنحاء. سأمرّ بكِ لرؤيتك.

أكَّد لي ذلك الحوار المُشفَّر العبثيّ أبعادَ العنف الذي نعيشه، كما سبق وحذَّرني خوان مارتين. ما دام خوليان برابو لا يشعر بالأمان، فلا أحد في أمان. طوال ثلاثة أعوام، ظلَّت بروباغاندا المعارضة تتنبَّأ بأهوال الديكتاتوريَّة الشيوعيَّة، وها نحن الآن

نخوض أهوال ديكتاتوريَّةٍ يمينيَّة. أعلن مجلس الجنرالات أنَّها إجراءاتٌ مُوقَّتة، ولكنَّها قائمةٌ إلى أجلٍ غير مُسمّى، إلى حين صدور أوامرَ جديدة، ريثما تعود القيم المسيحيَّة الغربيَّة إلى الوطن. تشبَّثتُ بذلك الأمل الذي حدَّثني بأنَّ بلدنا هو صاحب التقاليد الديموقراطيَّة الأشدّ رسوخًا في القارَّة، وبأنَّنا نموذجٌ للتحضُّر في العالَم، وبأنَّ الانتخابات في سبيلها إلى الانعقاد، وبأنَّ الديموقراطيَّة عائدةٌ قريبًا. وعند ذاك يتمكَّن خوان مارتين من الرجوع.

أكَّد لي خوليان أنَّه لم يتمكَّن من اكتشاف أيّ شيءٍ يتعلَّق بمصير توريتو، غير أنَّني لم أصدِّقه، فلديه اتِّصالات في أوساط السلطة الأعلى شأنًا، والأرجح أنَّ مكالمةً واحدةً من خوليان تكفي ليعرف مكانه، ويعرف مَن ألقى القبض عليه، سواء أكانت الشرطة أم أجهزة الأمن أم العسكر. لا بدَّ من أنَّه حريصٌ على إنقاذه بقدر ما كنتُ حريصةً أنا أيضًا، وإن اكتفيتُ بسؤاله عمَّا جرى لابننا. تعذَّبتُ بتصوُّر الميتات المختلفة التي ربَّما يكون خوان مارتين قد لقيها.

ـ تفكِّرين في الأسوأ دائمًا يا فيوليتا. الأرجح أنَّه يرقص على أنغام التانغو في بوينوس آيرس. ـ قال لي.

ولكنَّ النبرة الساخرة التي تناول بها مصير ابنه أكَّدت لي الشكوك التي حدَّثتني بأنَّه يعرف شيئًا ويخفيه عنِّي. كرهتُه لهذا السبب.

أمَّا الاستمرار في ترقُّب وصول أخبارٍ إلى المزرعة، فكان

بلا طائلٍ يُرتجَى. ودَّعتُ فاكوندا، التي صارت هي مالكة سانتا كلارا الاسميَّة، المسؤولة عن القليل المُتبقِّي من المزرعة، وعدتُ إلى ساكرامِنتو. في اللحظة الأخيرة، طلبَت منِّي فاكوندا أن أصطحب إتيلبينا، وإلَّا عاشت حفيدتها حياة عملٍ وفقرٍ وشقاء ما بقيَت مدفونةً في الريف.

ـ يمكنها أن تساعدكِ على تربية كاميلو. لا يجب عليكِ أن تدفعي لها الكثير، ولكنْ علِّميها كلّ ما بإمكانك، فهي تريد أن تتعلَّم. ـ قالت.

مرَّت سبعة وأربعون عامًا على ذلك يا كاميلو، طبقًا لحساباتي، ولم يُخيَّل إليَّ قطّ أنَّ أهمِّيَّة إتيلبينا في حياتي ستفوق أهمِّيَّة زوجَيّ، وجميع الرجال الذين أحبُّوني.

كان شقيقي خوسِّيه أنطونيو يحتاج إليَّ في ساكرامِنتو، إذ بات أمامنا عملٌ كثيرٌ لإنقاذ ما تبقَّى لنا. أجرى المجلس العسكريّ تحقيقًا مُفصَّلًا في التعاون الذي جمعنا بالحكومة السابقة، وجمَّد عقد شركة بيتي في تلك الأثناء. استُدعينا غير مرَّةٍ إلى مكتب الكولونيل، الذي استجوبنا وكأنَّنا من المجرمين، ثم تركنا وشأننا في آخر المطاف. تكبَّدنا خسائر فادحة، لأنَّنا استثمرنا في المعدَّات والخامات اللازمة لإنتاج الوحدات السكنيَّة في زمنٍ قياسيّ. وإنْ كانت لنا أنشطةٌ تجاريَّة أخرى. لا أملك الشكوى، فأنا لم يعوزني المال يومًا. وبفضل عملي، تهيَّأت لي حياةٌ هانئة.

أمضيتُ أعوامًا شقيتُ خلالها بالظنون في مصير خوان مارتين. أصبحتُ في حِدادٍ على موت ابنتي، وموت ابني

المُحتمَل. فكنتَ عزائي يا كاميلو، وأنت الطفل الصغير، مفرط الشقاوة، الذي لم يسمح لي بهدنةٍ واحدة. كنتَ شديد القِصَر والهزال، ثم طالَت قامتك في المراهقة، عندما صرتُ مُضطَرَّةً إلى شراء زيٍّ مدرسيٍّ أكبر من قياسك بثلاث درجات حتى يستمرّ معك إلى نهاية العام، وحذاءٍ جديدٍ كلّ سبعة أسابيع. كنتَ في شجاعة أمّك ومثاليَّة خالك خوان مارتين. في السابعة من العمر، جئتَ مُصابًا بكدمةٍ في عيْنك، والدماء تسيل من أنفك، لأنَّك وقفتَ في وجه طفلٍ ضخمٍ تعرَّض لحيوانٍ بالأذى. كنتَ تهدي كلّ شيء، بدءًا بألعابك، وحتى ثيابي، التي تسرقها منِّي خلسةً. «يا لك من طفلٍ شيطان! سأزجّ بك في السجن، لعلَّك تتعلَّم»، قلتُ لك. ولكنِّي لم أتمكَّن من عقابك يومًا، بل إنَّني أُعجبتُ بسخائك في قرارة نفسي. كنتَ أنت ابني، وحفيدي، ورفيقي، وصديق روحي. وغنيٌّ عن القول إنَّك ما زلتَ كما كنت.

لماذا أُفرط في الاسترسال وأنا أحكي لك عن سنوات الديكتاتوريَّة الطوال يا كاميلو! إنَّه تاريخٌ قديم، معروفٌ جدًّا. صار لدينا نظامٌ ديموقراطيٌّ منذ ثلاثين عامًا، وانكشف أسوأ ما في الماضي: معسكرات الاعتقال، والتعذيب، والاغتيالات، والقمع الذي تجشَّمه كثيرون. لا سبيل إلى إنكار شيءٍ من هذا، وإن لم نعرف به آنذاك، لم تكُن هناك معلومات، بل مُجرَّد شائعات. بعض الناس يبرِّرون ما جرى، ظنًّا منهم بأنَّها إجراءات دعَت إليها الضرورة لفرض النظام وإنقاذ البلد من الشيوعيَّة. سادت الأنظمة الديكتاتوريَّة في كثيرٍ من بلدان أميركا اللاتينيَّة، ولم تقتصر على بلدنا دون سواه. كانت تلك حقبةَ الحرب الباردة

بين الولايات المتَّحدة والاتِّحاد السوفييتيّ، ولقد جاء موقعنا في منطقة نفوذ الأميركان، الذين ما كانوا ليسمحوا بوجود أفكار اليسار في القارَّة، كما حذَّرني خوليان برابو قبل عقدٍ من الزمان. حتى الروس فرضوا أيديولوجيَّتهم في ذلك الجزء من العالَم الواقع تحت سيطرتهم.

على السطح، صار البلد أفضل ممَّا كان في أيِّ وقتٍ مضى. وبات الزائرون يقفون مشدوهين أمام ناطحات السحاب والطرق السريعة والنظافة والأمان، ولم يعُد هناك وجودٌ للجدران المُخربَشة وأعمال الشغب الدائرة في الشوارع والطلَّاب المُتحصِّنين في خنادق المدارس والشحَّاذين الذين يطلبون الصدقة والكلاب الضالَّة، كلّ هذا اختفى. لم يعُد أحدٌ يتحدَّث عن السياسة، فالأمر محفوفٌ بالمخاطر. تعلَّم الناس الدقَّة في المواعيد، واحترام التدرُّج الهرميّ، والسلطة، والعمل، ورُفِع شعار: من لم يعمل لم يأكل. بيد النظام القويَّة، انتهى اللغو السياسيّ، ومضينا قُدُمًا صوب المستقبل، فلم نعُد بلدًا فقيرًا مُتخلِّفًا، بل أصبحنا بلدًا مزدهرًا منضبطًا، بالقوَّة. هكذا، كان الخطاب الرسميّ. أمَّا من الداخل، فكنَّا بلدًا مريضًا. حتى أنا يا كاميلو مرضتُ في قرارة نفسي حزنًا على ابني الهارب، وتوريتو المختفي، ولأنَّني ما كنتُ لأغفل عن الوضع المُتردِّي الذي تجشَّمه العاملون والمُوظَّفون لديَّ، أولئك المُفقَرون المُروَّعون، ما لم أكُن عمياء.

درجنا على توخِّي الحِرْص في استخدام اللغة، وعلى طاعة الأوامر، وتجنُّب مسائل بعيْنها، والامتناع عن لفت الانتباه. بل

وأَلِفْنا حظر التجوُّل الذي استمرّ خمسة عشر عامًا، فبات الأزواج اللاهثون وراء النساء والمراهقون المُتمرِّدون مُرغَمين على الرجوع إلى البيت مُبكِّرًا. انخفض مُعدَّل الجريمة كثيرًا. فانفردَت الدولة بارتكاب الجرائم، وإن صار المرء يجوب الشوارع وينام في الليل آمنًا على نفسه من اعتداءات المجرمين. كانت حقبةً في غاية القسوة على العمَّال، الذين حُرِموا من حقوقهم، وصار من الممكن فصلهم بين عشيَّةٍ وضحاها. زاد مُعدَّل البطالة كثيرًا، مع أنَّها اعتُبِرَت جنَّة رجال الأعمال. أمَّا ذلك الازدهار الذي شهده بعض الناس، فكان له ثمنٌ اجتماعيٌّ فادح. استمرَّ الازدهار الاقتصاديّ في ذروته عدَّة أعوام، حتى سقط على الأرض سقوطًا مدوِّيًا. أصبحنا مثار غيرة الجيران، والبلد الأثير لدى الولايات المتَّحدة، لبعض الوقت. دار الحديث عن الفساد، الذي صار الآن يُدعَى «الإثراء غير المشروع»، وإن كان مشروعًا في ظلِّ الديكتاتوريَّة. ربحتُ أنا وخوسّيه أنطونيو مالًا وفيرًا. ولا أشعر بالحرج من ذلك، لأنَّنا لم نرتكب جرمًا، وإنَّما اكتفينا باغتنام الفرص السانحة.

تدخَّل العسكر في كلِّ شيء، وتلقُّوا العمولات عن ذلك التدخُّل، ولذا بات من الضروريّ دفعها، هكذا اقتضَت القاعدة.

أُصيب خوسّيه أنطونيو بنوبةٍ قلبيَّة، واختلى في بيته، حيث شملَته ميس تايلور بالعناية، وإن ظلَّ هو رئيس شركاتنا. كانت له معارفُ كثيرة جدًّا في ساكرامِنتو، ومئات الصداقات، كما فاز بحبِّ الناس واحترامهم. كانت خبراته وصلاته ضروريَّةً من أجل الحصول على العقود والقروض. أمَّا العمل، فأنجزناه أنا وأنطون

كوزانوفيتش. قدَّمنا لموظَّفينا خير معاملةٍ ممكنة، وإن اضطُرِرنا إلى الحفاظ على التكاليف المنخفضة للمنافسة في سوقٍ شرسة.

ـ على الأقلّ، نوفِّر لهم العمل والمعاملة الكريمة يا فيوليتا.

ـ كان أنطون يذكِّرني.

ضقتُ بالموازنة بين العدل والرحمة والجشع كثيرًا، إلى الحدّ الذي جعلني في النهاية أُقنِع خوسِّيه أنطونيو ببيع حصَّتنا في شركة البيوت الجاهزة إلى أنطون، حتى يتهيَّأ لأخي قضاء سنوات عمره الأخيرة في سلام، وأستطيع أنا الانصراف إلى غير ذلك من الأمور. كانت تلك هي اللحظة المثاليَّة للمضاربة العقاريَّة وخوض أنشطةٍ تجاريَّةٍ أخرى. باع كثيرٌ من الناس عقاراتهم بأسعارٍ بخسة لدواعي السفر إلى الخارج، إذ سافر بعضهم إلى المنفى، بينما سافر بعضهم الآخر مدفوعًا بكراهية النظام، أو بحثًا عن الفرص الاقتصاديَّة في الخارج. وهكذا، أمكن الشراء بالبخس، والبيع بالغالي، عملًا بالشعار الذي اتَّخذه أبي في الماضي.

استقرّ بي المقام في العاصمة، حيث كانت سوق الوحدات السكنيَّة والتجاريَّة أكثر تنوُّعًا وأجدر بالاهتمام ممَّا هي عليه في الأقاليم. سارت أموري على ما يُرام، فالعروض كثيرة، وأنا صاحبةُ عيْنٍ ثاقبة صالحة للاختيار، وقدرةٍ على التفاوض في السعر. رحتُ أشتري عقاراتٍ في مواقع مُتميِّزة، وإن كانت في حالةٍ سيِّئة، ثم أُحدِّثها وأبيعها بأرباحٍ ضخمة. وبعد وقتٍ يسير، صرتُ خبيرةً في الإنشاء والتجديد المعماريّ والديكور الداخليّ والقروض البنكيَّة. وتلك هي القاعدة التي ترتكز عليها تلك التي سمَّيتَها «ثروتي» يا كاميلو، مع أنَّ استخدام هذا المصطلح أمرٌ

هزليٌّ في حالتي. فما كان من أمري لا شيء مقارنةً بالطريقة غير الأخلاقيَّة التي أثرى بها آخرون في تلك الحقبة. أولئك هم أصحاب المليارات في الوقت الراهن.

شملَتك إتيلبينا بالرعاية، إذ كنتَ لا تزال أصغر ممَّا يُسمح لك بالالتحاق بمدرسة سان إغناسيو، الأفضل في البلد، مع أنَّها مدرسةٌ للكهنة. ولقد أفرطنا في تدليلك، أنا وتلك المرأة الصالحة، حتى إنَّك لو كنتَ طفلًا آخر لأصبحتَ مسخًا من الأنانيَّة وسوء السلوك. أمَّا أنت، فكنتَ فاتنًا. شعرتُ بوخز الضمير اعتقادًا منِّي بأنِّي قد أهملتُ ابني وابنتي في الصغر، فعزمتُ على ألَّا يتكرَّر الأمر نفسه مع حفيدي. رتَّبتُ أموري حتى أبقى معك، وأساعدك في واجباتك المنزليَّة، كما حضرتُ أنا وإتيلبينا الفعاليَّات الرياضيَّة والعروض المسرحيَّة التي شاركتَ فيها، على الرَّغم من فظاعتها، وأمضينا الإجازات في سانتا كلارا، حيث استقبلَتنا فاكوندا بأفضل أطباقها. لم أتركك إلَّا لزيارة روي، ذلك الرجل المفعم بالأسرار، في الولايات المتَّحدة.

كانت الشقَّة التي عشنا فيها أعوامًا طوالًا من تلك الشقق العتيقة، التي أُنشِئَت قبل أن تهبّ ريح الحداثة، فتُقلِّص المساحات، وتفرض برودةَ الزجاج وصلابة الفولاذ.

جاء موقع الشقَّة أمام منتزه اليابان، واشتريتُها بسعرٍ بخس، لأنَّ الحيّ لم يعُد يساير الموضة، مع أنَّه ما زال يضمّ بعض الڤيلَّات وعددًا من السفارات، ثم بعتُه بسعرٍ فلكيّ، إذ اعتزم المُشترون إقامة برجٍ من ثلاثين طابقًا في الموقع نفسه. تعالَت

فيلّات الأثرياء الجدد كالحصون على المرتفعات، محاطةً بأسوارٍ شاهقة، في حراسة كلابٍ من سلالة الدرواس. أمّا المنطقة التي سكنّاها، فشغلَتها الطبقة المُتوسّطة والأنشطة التجاريّة. كان حارسا عقار ودودان يتناوبان على حراسة مدخل بنائنا ليل نهار، وهما التوأمان سيبولبيدا، اللذان يشبه كلٌّ منهما الآخر حتى يستحيل على الناظر أن يعرف أيُّهما المُناوِب. كانت شقّتنا تشغل الطابق الثالث كاملًا، حيث بلغَت الأروقة من الطول والعرض حدًّا سمح لك بتعلُّم قيادة الدرّاجة فيها. كان للشقّة مظهرٌ ينمّ عن نُبلٍ عفا عليه الزمن، بما حوَت من الأسقف العالية، والباركيه، والكريستال المشطوف، تلك الأشياء التي ذكّرَتني ببيت الكاميليا الكبير، حيث وُلِدت.

في البدء، تراءت لي الشقّة أكثر اتّساعًا ممّا يلائمنا أنا وإتيلبينا وطفلٌ صغير، ولكنْ ما هي إلّا أشهرٌ قليلة حتى جاء خوسّيه أنطونيو وميس تايلور للعيش معنا، لأنَّ قلبه ما زال ضعيفًا، ولأنَّه لم يلقَ في ساكرامِنتو العناية التي لقيها في العيادة الإنجليزيّة بالعاصمة، التي كنّا نُضطَرّ إلى المضيّ به إليها على وجه السرعة في كثيرٍ من الأحيان، حيث يصل وهو يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة، فتُرَدّ له الحياة في كلِّ مرّة، وكأنّما بمعجزة. كره خوسّيه أنطونيو وميس تايلور ضجيج المدينة، وضبابها السامّ، وزحامها، ولذا لم يخرجا إلّا قليلًا جدًّا، وأدمنا المسلسلات التي تابعاها في مواعيدها بانتظام، معك أنت وإتليبينا. في الرابعة من العمر، صرتَ مُلِمًّا بأعنف صور الشغف الإنسانيّ، وقادرًا على ترديد الحوارات الأشدّ غَلَظةً باللهجة المكسيكيّة. لم أطِق

الانتظار حتى يبلغ حفيدي عمر الالتحاق بالمدرسة، وتتّسع آفاقه قليلًا.

كانت تلك أعوام الديكتاتوريّة الأشدّ قسوةً، حين ترسَّخت السلطة عن طريق العنف. ولكنْ باستثناء الشكوك المُروِّعة التي أحاطَت بمصير خوان مارتين، كانت أعوامًا هانئة بالنسبة إلى عائلتنا الصغيرة، إلى حدٍّ ما. تمكَّنتُ من مساعدة شقيقي وهو في طور الشيخوخة، كما استأنفتُ الصداقةَ الوثيقة التي جمعَتني بميس تايلور في شبابي، واغتنمتُ طفولةَ حفيدي على أكمل وجه.

أدارت إتيلبينا البيت من دون أن أتدخَّل في شيء، إذ لم آبه للشؤون المنزليَّة قطّ. تولَّت النفقات اليوميَّة، وأشرفَت على عاملتَيْن منزليَّتَيْن، طالبَتهما بارتداء زيّ العمل. كانت تحفظ وصفات الطعام المُقدَّمة في برامج الطعام التلفزيونيَّة، حتى بلغَت من الإتقان حدَّ التفوُّق على جميع الطهاة. علَّمَتها ميس تايلور آداب السلوك العتيقة، التي ما عاد يراعيها أحد، كما تلقَّتها في السابعة عشرة على يدَي ربَّة عملها الثانية، أرملة لندن. ونظرًا إلى غياب الخادم ذي البدلة المُميَّزة، الذي يليق بالمسلسلات، فرضَت علينا إتيلبينا طقوس القصور. «إن لم تكُن الغاية استخدامها، فلماذا نمتلك الآنية الفاخرة؟»، كانت تسأل، وتعدّ المائدة بالشمعدانات، واضعةً ثلاث كؤوسٍ أمام كلّ مقعد، فأتقنتَ أنت استخدام سكّين الزبد وكلَّابة سرطان البحر قبل أن تتعلَّم عقد أربطة الحذاء.

لم يثقل عليَّ العمر مطلقًا. مضيتُ أقترب من الستِّين. ومع ذلك، شعرتُ بأنَّني قويَّةٌ مثمرة كما كنتُ في الثلاثين. ربحتُ أكثر

ممَّا يكفي لإعالة الأسرة والادِّخار، ولم أُضطَرّ إلى إزهاق روحي من فرط العمل. لعبتُ التنس حفاظًا على لياقتي، ولكنْ في غير حماس، لأنَّ الولع بضرب الكرة بالمضرب تراءى لي عبثيًّا. كما عشتُ حياةً اجتماعيَّةً نشطة، تخلَّلَتها لقاءاتٌ غراميَّةٌ كنتُ أتحمَّس لها بضعة أيَّام، فلا ألبث أن أنساها من دون أن تترك في نفسي أثرًا. كان روي كوپر هو حبيبي آنذاك، ولكنْ آلاف الكيلومترات باعدَت بيننا.

أحبَّك خوليان كثيرًا يا كاميلو، ولكنْ بطريقته. ضجِر بك، ولا ألومه على ذلك، لأنَّ الأطفال مصدرٌ للضجر، غير أنَّه استعاض عن الصبر بالحماسة الجارفة. قدَّم إليك الهدايا الباذخة التي أورثَتك حيْرةً، وأشاعت في البيت فوضى. كما علَّمك جميع ما رفض خوان مارتين أن يتعلَّمه: استخدام السلاح، والرماية بالقوس، والملاكمة، وركوب الخيل، وإن كان يشعر بالضيق لأنَّك لم تتميَّز في أيٍّ من تلك الأنشطة. اشترى من أجلك حصانًا، فانتهَت به الحال في عهدة فاكوندا بالمزرعة، حيث مضى يرعى في الحقل بدلًا من قفز الحواجز والمنافسة في مضمار الفروسيَّة.

ذات مرَّة، ذكرتَ أنَّك تريد كلبًا، فأحضر إليك جدّك جروًا صغيرًا، سرعان ما صار وحشًا ضخمًا أسود اللون، يبثّ الرعب في نفوس باقي سكَّان البناء، مع أنَّه عذب الطباع. وبذلك أقصد كريسپين، الدوبرمان پينشر الذي كان حيوانك الأليف، ونام بجوارك حتى ألحقتُك بمدرسة سان إغناسيو الداخليَّة.

20

أمضيتُ أربعة أعوام وأنا لا أعرف عن خوان مارتين شيئًا. رحتُ أستفسر هنا وهناك، بحرص، لئلّا ألفت الانتباه. بينما ظلّ اسمه في القائمة السوداء، واستمرَّ البحث عنه، الأمر الذي أعطاني أملًا في بقائه على قيد الحياة. كما ألمح أبوه ساخرًا، مكث خوان مارتين في الأرجنتين حينًا، غير أنَّه لم يرقص على أنغام التانغو، وإنَّما اشتغل بالصحافة التي لم يكسب منها إلَّا ما يكفي لسدّ الرمق بمشقَّة. حصل على جواز سفرٍ زائف، وصار يكتب المقالات المُتنوِّعة في الصحف مُوقِّعًا باسم مستعار، ويُرسِل أخبارًا عن الديكتاتوريَّة والمقاومة في بلدنا إلى أوروبا، ولا سيَّما ألمانيا، حيث لقيت أميركا اللاتينيَّة اهتمامًا، زِدْ على ذلك الشعور بالعطف نحو آلاف المنفيِّين الألمان الذين ذهبوا إلى هناك.

كان في يده أن يبعث إليَّ برسالة، ولو ليُخبرني بأنَّه على قيد

الحياة، بَيْد أنَّه لم يفعل. لم يكُن لديه إلَّا مُبرِّرٌ وحيدٌ لصمته المُروِّع الذي جعلني أودِّعه ألف مرَّة، خشية أن يكون قد لقي حتفه وهو يعبر الجبال، أو في وقتٍ لاحق: إذ برَّر ذلك الصمت بأنَّه لم يرِد لوالده أن يعرف مكانه.

كان أصدقاؤه من الصحافيِّين والفنَّانين والمُثقَّفين الذين شاطروه الهموم. ومن بينهم، برزَت بانيا آلپيرين، ابنة اليهود الناجين من الهولوكوست، تلك الفتاة الهشَّة، الشاحبة، سوداء الشعر والعينَيْن، بوجهها الذي يشبه وجه السيِّدة العذراء في لوحات عصر النهضة. كان المرء يرى تلك الشابَّة المرهفة، عازفة الكمان في الأوركسترا السيمفونيَّة، فلا يحدس بشغفها الثوريّ، وهي التي انضمَّ شقيقها إلى مونتونيروس، تنظيم حرب العصابات الذي عزم العسكر على استئصاله من الجذور. وجدها خوان مارتين فتاةً لا تُنسَى، فمضى يلاحقها بذلك العناد المهيب، عناد الحبّ الأوَّل، ولكنَّها تدبَّرَت أمرها كي تصدّ اهتمامه وتحافظ على حبّه نحوها في آنٍ واحد.

أمَّا بوينوس آيرس، الراقية المذهلة، فكانت باريس أميركا اللاتينيَّة آنذاك. زخرَت المدينة بحياةٍ ثقافيَّةٍ حافلة، بما في ذلك أفضل المسارح وأفضل الموسيقى، فصارت مهدًا لكتَّابٍ ذاع صيتهم في العالَم بأسره. درج خوان مارتين على تمضية الليل في إحدى العلِّيَّات برفقة جماعةٍ من الشباب مثله، حيث يخوضون المناقشات في الفلسفة والسياسة مُتحلِّقين حول قوارير النبيذ الرخيص، وقد أخذهم دُوارٌ بفعل دخَان السجائر والشغف الثوريّ. لم يعاود إطلاق لحيته، كرفاقه البوهيميِّين، فمن

الضروريّ أن يُشبه صورته في جواز السفر الزائف. عاد إلى زمن السعادة الجارفة التي عاشها وهو في الجامعة، واستطاع أن يُخبر الآخرين عن تجربة الحكومة اليساريَّة، وصحوة المجتمع، ووهم السلطة في يد الشعب. أقول الوهم يا كاميلو، لأنَّ السلطة لم تكُن في يد الشعب قطّ في واقع الأمر، لا الآن ولا من قبل، بل إنَّ السلطة الاقتصاديَّة والعسكريَّة، أيْ السلطة التي لا يُحسَب لغيرها حساب، لطالما كانت في الأيدي نفسها، فنحن لم نحظَ هنا بالثورة الروسيَّة ولا الثورة الكوبيَّة، لم نحظَ إلَّا بحكومةٍ تقدُّميَّة، كعددٍ من الحكومات القائمة في أوروبا. كنَّا في نصف الكرة الأرضيَّة الخاطئ، وتخلَّفنا عن مواكبة الزمن، فكلَّفنا ذلك ثمنًا فادحًا.

كان خوان مارتين قد بدأ يمدّ جذورًا في تلك المدينة الرائعة حين اندلعَت أهوال الانقلاب العسكريّ هناك أيضًا. وأعلن رئيس الأركان العامَّة للجيش ما يلي: سيموت من الناس ما اقتضى الأمر لاستعادة الأمن في البلد، ما يعني اكتساب فرق الموت حصانةً مُطلَقة من العقاب. على نحو ما جرى في بلدنا وغيره من البلدان، تعرَّض آلافٌ للاختطاف والاختفاء والتعذيب والاغتيال، ثم لم يُعثَر على جثامينهم قطّ. كاميلو، الآن عرفنا بأمر العمليَّة كوندور المشؤومة، تلك التي وضعَتها الولايات المتَّحدة لإقامة أنظمةٍ يمينيَّةٍ ديكتاتوريَّةٍ في قارَّتنا، وتنسيق الاستراتيجيَّات الأشدّ قسوةً للقضاء على المنشقِّين.

في الأرجنتين، لم يحدث القمع في يوم واحد، ولم تنشب حربٌ مُعلَنة، كما في بلدنا، وإنَّما كانت حربًا قذرة توغَّلت في

جميع أوساط المجتمع خلسةً: فهذه قنبلة تنفجر في مسرح طليعيّ، وذلك رشّاش يُشهَر في وجه نائبٍ في الشارع، وتلك جثّة مسؤولٍ نقابيّ تظهر مُمزَّقة.

عُرِفَت المواقع التي تشغلها مراكز التعذيب، وبدأت اختفاءات الصحافيّين والفنّانين والأساتذة والقادة السياسيّين وغيرهم من أولئك الذين اعتُبِروا محلّ اشتباه. عبثًا راحت النساء يبحثن عن رجالهنّ. وفي وقتٍ لاحق، تجرّأت الأمّهات على الخروج في مسيراتٍ وقد علّقن صور بناتهنّ وأبنائهنّ الغائبين على الصدور. وسرعان ما خرجَت الجدّات، لأنَّ الأطفال حديثي الولادة، أبناء الشابّات اللاتي تعرّضن للاغتيال في السجون بعد الولادة، قد تاهوا في غياهب التبنّي غير المشروع.

كم عرف خوليان برابو عمّا جرى؟ وإلى أيّ حدّ شارك فيه؟ أعرف أنَّه تلقّى تدريبًا بمدرسة الأميركتَيْن في بنما، شأنه شأن الضبّاط المُكلَّفين بالقمع في بلدنا. نال ثقة الجنرالات لأنّه طيّارٌ استثنائيّ. وأعتقد بأنَّ الشجاعة والخبرة وانعدام الضمير أشياء فتحَت أبواب السلطة أمامه. ذات مرّةٍ، وبينما هو ممسكٌ بقارورة الويسكي، أفرط في الثرثرة، وأقرّ لي بأنَّه، بين الحين والآخر، يحمل على متن الطائرة سجناء سياسيّين، مُكبَّلي الأيدي، مُكمَّمي الأفواه، مُخدَّرين. ومع ذلك، أقسم لي بأنَّه لم يُضطَرّ يومًا إلى التخلُّص من أحد أولئك التعساء في عُرض البحر، إذ كان ينفِّذ تلك المهمّة طيّارون عسكريُّون بالطائرات المروحيّة.

ـ يسمُّونها «رحلات الموت». ـ أردف خوليان.

في البدء، ألقوا القبض على بانيا آلپيرين، التي انتظروها حتى انتهى حفل الموسيقار ڤيڤالدي في مسرح كولون، ثم ألقوا القبض عليها في الحُجرات الخلفيَّة، على مرأى من سائر أفراد الأوركسترا.

ـ تعالي برفقتنا يا آنسة. لا تقلقي، إنَّه مُجرَّد إجراءٍ روتينيّ. لستِ في حاجةٍ إلى آلة الكمان، سنعود بكِ إلى هنا. ـ هكذا طلبوا منها، حسبما قيل.

بدأ التعدّي عليها بالضرب في السيَّارة. من المُرجَّح أنَّهم اعتقلوها للتحقُّق من مكان شقيقها، العضو في تنظيم مونتونيروس، ولكنَّ الأسرة لم تعرف عنه شيئًا منذ أشهر. نبَّه والدَيْ بانيا موسيقيُّون آخرون، من أفراد الأوركسترا الذين شهدوا الواقعة، فأذاع والداها الخبر وسط الأصدقاء، وبدأ عذابٌ أليم في محاولةٍ منهم لإنقاذها. عُرِف عنها آخر ما عُرِف أنَّها قد شوهِدَت في مدرسة ميكانيكا البحريَّة، التي اتُّخِذَت مركزًا للتعذيب.

وبعد ذلك، اختُطِف اثنان من أعضاء الجماعة البوهيميَّة، فما لبث أن تفرَّق الباقون. تلقَّى خوان مارتين دعوةً سرِّيَّة من مُحرِّرٍ لدى إحدى الجرائد التي يعمل بالتعاون وإيَّاها، إذ طلب لقاءه في مقهى صغيرٍ ليحذِّره بقوله إنَّ عملاء الأمن قد حضروا إلى مكتبه سائلين عن خوان مارتين.

ـ اذهب فورًا إلى أبعد مكانٍ تستطيع الذهاب إليه. ـ نصحه، وإن لم يكُن خوان مارتين قادرًا على الذهاب من دون أن يعرف

عن بانيا شيئًا، فلا بدَّ من أن يكتشف مكانها، ثم يفعل المستحيل لإطلاق سراحها.

وعلى الرَّغم من ذلك، فبينما هو يقترب من العلِّيَّة يومذاك، لمح ذلك الخيال الذي لا تخطئه عيْن، خيال إحدى السيَّارات السوداء المهيبة. وإذا هو يدور على عقبَيْه ويمضي سائرًا، في غير استعجال، حتى لا يلفت إليه الأنظار. لم يجرؤ على طلب المساعدة من أصدقائه، وإلَّا فربَّما ورَّطهم.

ليلتذاك، نام راقدًا وسط القبور في مدافن ريكوليتا. وفي اليوم التالي، ذهب إلى مقرِّ المُبشِّرين البلجيكيِّين، لأنَّه لم يجد فكرةً أفضل منها. ساندَت الكنيسة الكاثوليكيَّة النظامَ في ذلك القمع الوحشيّ، بل وفي «رحلات الموت» المشؤومة أيضًا، على الرَّغم من وجود راهباتٍ وكهنةٍ مُنشقِّين جازفوا بكلِّ ما لهم من أجل الضحايا، بل إنَّ كثيرين منهم قد دفعوا حياتهم ثمنًا. استضافه المُبشِّرون البلجيكيُّون ليلتَيْن. وأكَّدوا له أنَّهم سوف يحاولون تحديد موقع بانيا آلپيرين، فلديهم قوائم بأسماء مُختَطفين، مُرفقةٌ بصُوَرهم وبياناتهم. ولكنْ لا طائل يُرتجى من كشف نفسه في تلك اللحظة. فلسوف تنكشف الصلة التي جمعَته ببانيا، والأمر برمَّته مسألة وقت. كان أمله الوحيد يكمن في التقدُّم باللجوء لدى إحدى السفارات، حسبما قيل له. نُسِّق إرهابُ الدولة على مستوى عالميّ، وما دام اسمه ظاهرًا على القائمة السوداء في بلده، فهو ظاهرٌ في قائمة الأرجنتين أيضًا.

كان خوان مارتين على اتِّصال بشخصٍ لعب دورًا جوهريًّا: المُلحَقة الثقافيَّة لدى سفارة ألمانيا، إذ درج على مشاركتها

المقالات التي يرسلها إلى بلده. ومع أنَّ الشعب الألمانيّ قد رحَّب بآلاف اللاجئين من قارَّتنا وشملهم بالحماية، فلقد دعمَت حكومة ألمانيا الأنظمة الديكتاتوريَّة في المخروط الجنوبيّ من أميركا اللاتينيَّة سرًّا، مدفوعةً إلى ذلك بدواعٍ تجاريَّة، وربَّما أيديولوجيَّة أيضًا، في سعيها إلى مكافحة الشيوعيَّة. كان السفير صديقًا شخصيًّا لأحد جنرالات المجلس. وإن شعرَت الملحقة الثقافيَّة بالعطف نحو خوان مارتين، لم تستطِع أن تقدِّم له ملاذًا في مقرِّها الدبلوماسيّ، ولذا مضَت به في سيَّارتها إلى سفارة النرويج.

لجأ ابني إلى سفارة النرويج طوال خمسة أسابيع، نام خلالها على فراش مخيَّماتٍ في أحد المكاتب، وراح يترقَّب أخبارًا عن بانيا آلپيرين. عاش كلّ دقيقةٍ وهو يتخيَّل العذاب الأليم الذي تتكبَّده الفتاة، والتحقيقات، والعقاب، والاغتصاب، والكلاب المُدرَّبة، والصعقات الكهربائيَّة، والجرذان، وجميع الأمور التي عُرِفَت بالفعل. كانوا على استعداد لاعتقال الأبوَيْن وتعذيبهما أمام عينَيْها، ما لم يعثروا على شقيقها الهارب.

بعد مضيّ ثلاثة وثلاثين يومًا، جاء إلى السفارة أحد المُبشِّرين البلجيكيِّين وهو يحمل خبر العثور على جثمان الشابَّة في إحدى المشارح. كانت هي، بما لا يدع مجالًا للشكّ، إذ تعرَّف أبواها الجثمان. سافر خوان مارتين إلى أوروبا بوثائق الهويَّة الزائفة التي زوَّدَته بها السفارة، ومشاعر الذنب والألم تمزِّقه لأنَّه عاش من دونها.

وعند ذاك، حين صار آمنًا على حاله في النرويج، تلقَّيتُ

الزيارة الأبعد عن التوقُّع: إذ جاء هارالد فيسك، مُراقِب الطيور الذي تعرَّفتُ به في مزرعة سانتا كلارا، مُحمَّلًا بأخبارٍ ورسالةٍ مقتضبةٍ كتبها ابني قُبَيْل لحظاتٍ من التوجُّه إلى المطار برفقة أحد مسؤولي السفارة. كانت رسالةً جافَّة النبرة، خاليةً من كلِّ ما هو شخصيّ، أخطرني فيها بأنَّه قريبًا يمكنه موافاتي بمعلوماتٍ مُتعلِّقةٍ بالمُنتَج. إذن، فهي رسالة مُشفَّرة.

ـ في الوقت الراهن، لا يريد أن يعرف أبوه مكانه. ـ قال هارالد.

بهدوءٍ نسبيّ، وصبرٍ لامتناهٍ، احتملتُ الشعور بالقلق على مصير الابن الذي لم يبقَ لي سواه، طوال ما يقرب من أربعة أعوام. وحين أدركتُ أنَّ ذلك النرويجيّ قد رآه منذ أيَّام قليلة، خارَت ركبتاي، فسقطتُ على المقعد وأنا أغصُّ بالبكاء. كان الشعور بالراحة يشبه شحنة الأدرينالين التي يُطلِقها الرعب، وإذا هو خواءٌ في مركز الجسد، متبوعٌ بدفقةٍ من النار التي سرَت في العروق. جاءت إتيلبينا على وقع نحيبي، وسرعان ما تحلَّق باقي أفراد العائلة حولي، وراحوا يبكون معي، بينما أخذ المرسال يراقب ذلك المشهد العاطفيّ وقد شلَّت الحيرة أطرافه.

مرَّ على هارالد عامٌ في منصبه الدبلوماسيّ بالأرجنتين، حيث كان وحيدًا، لأنَّه انفصل عن زوجته، بينما التحق أبناؤه بالجامعة في أوروبا. سافر بالطائرة من بوينوس آيرس ليُخبرني عن خوان مارتين، وعن الطريقة التي هرب بها في الوقت المناسب، وعن حياته في بوينوس آيرس حتى نشبَت الحرب القذرة، حين اضطُرّ إلى الاختباء، وعن اشتغاله بالصحافة، وحياته التي عاشها طيّ

الكتمان بهويَّةٍ زائفة، وعن أصدقائه، وعن الحبِّ الذي شعر به نحو بانيا آلپيرين.

ـ أبى الرحيل من دونها. ـ قال لنا.

لم نكُن على درايةٍ بالأمر آنذاك، ولكنَّ الأعوام السبعة التي استغرقَتها تلك الإبادة الجماعيَّة في الأرجنتين قد تركَت ما يربو على ثلاثين ألفًا من القتلى والمختفين.

مرَّ عامٌ آخر قبل أن يتسنَّى لي اللقاء بخوان مارتين أخيرًا. وصل إلى النرويج مُنفطِر القلب، مذعورًا، مكتئبًا، ولكنَّ مجلس اللاجئين النرويجيّ، الذي وُجِد منذ أواخر الحرب العالميَّة الثانية، كان هناك لتقديم المساعدة. انتظره أحد مُمثِّلي المجلس على باب الطائرة، ومضى به إلى الإستوديو الصغير الذي رُصِد له في وسط أوسلو، كما زُوِّد خوان مارتين بلوازم الإقامة المريحة، بما في ذلك الثياب الدافئة التي تلائم قياسه، إذ غادر ونصف الكرة الجنوبيّ في موسم الصيف، بينما كان الشتاء في النرويج قارسًا. كان المجلس، وذلك الرجل الصالح على وجه التحديد، طوقَ النجاة الذي تعلَّق به خوان مارتين في الأشهر الأولى، إذ صُرِف له مبلغٌ ماليّ لتغطية النفقات اليوميَّة، كما تلقَّى الإرشاد اللازم حتى يهتدي عَبْر طرق البيروقراطيَّة التي خاضها للحصول على إقامةٍ وهويَّةٍ باسمه الحقيقيّ، كما تعلَّم كيفيَّة التحرُّك في المدينة، وقواعد التعايش، وأُتيح له التواصل بغيره من اللاجئين القادمين من أميركا اللاتينيَّة، وأُلحِق بدروس تعلُّم اللغة. بل وعُرِض عليه تلقِّي العلاج النفسيّ أيضًا، كذلك الذي يتلقَّاه لاجئون آخرون بهدف التأقلم على الوضع الجديد وتجاوز

الماضي، ولكنَّ خوان مارتين أوضح لهم أنَّه قد ولَّى هاربًا في الوقت المناسب، ولم يشعر بتعرُّضه لصدمة. كانت حاجته إلى العمل تفوق حاجته إلى العلاج، فهو لا يقدر على البقاء عاطلًا، والعيش على الإحسان.

ذهبتُ إلى النرويج لزيارته مع إتيلبينا، ومعك أيضًا يا كاميلو. كنتَ في السادسة من العمر آنذاك، ولا أظنُّك تذكر. تغيَّر ابني بشدَّة خلال الزمن الطويل الذي لم أرَه خلاله، حتى إنَّنا كنَّا سنتجاوزه عاجزين عن التعرُّف عليه ما لم يقترب منَّا في المطار. كنتُ أذكره نحيفًا، غير مُهندَم، مُرسَل الشعر، وإذا بي أجد أمامي رجلًا قويّ البنيان، يضع على عينَيْه نظَّارة، وقد زحف الصلع إلى رأسه قبل الأوان. كان في الثامنة والعشرين، ولكنَّه بدا في الأربعين من العمر. شعرتُ بالتيه أمام ذلك الغريب. وطوال دقيقة، بدَت لي قرنًا من الزمان، عجزتُ عن الحركة، ولكنَّه جذبني إليه في عناقٍ هائل القوَّة، وغاص بي في صوف معطفه الخشن. عند ذاك رجعنا كعهدنا دائمًا، رجعنا أمًّا وابنًا، وصديقَيْن.

لم يعُد خوان مارتين يسكن الإستوديو الصغير حيث نزل في البدء، بل إنَّه انتقل إلى شقَّةٍ بسيطة على مشارف المدينة، كما عُيِّن مترجمًا ومضيفًا لدى مجلس اللاجئين النرويجيّ. والآن، بات عليه مساعدة غيره من اللاجئين، كما تلقَّى المساعدة هو أيضًا، ولا سيَّما أولئك القادمين من أميركا اللاتينيَّة، إذ تميَّز بأنَّه يشاطرهم اللغة والتاريخ.

حصل ابني على إجازةٍ لمدَّة أسبوع حتى يرافقنا للسياحة

ويُطلِعنا على البلد الذي عدتُ إليه مرَّاتٍ كثيرةً في الأعوام التالية. ومع كلِّ رحلة، كنتُ أتأكَّد من التغيُّرات التي طرأت على حياة ابني: كيف تعلَّم النرويجيَّة التي تحدَّثها بلكنةٍ فظيعة، وكيف تأقلم وتعرَّف على أصدقاء جدد، وكيف قدَّم لي أويًا ذات يوم، تلك الشابَّة التي صارت زوجة ابني وأمَّ اثنيْن من أحفادي. بالنظر إلى وصف بانيا آلبيرين الذي بلغني، أعتقد بأنَّ حبَّ خوان مارتين الأوَّل وحبَّه الثاني طرفا نقيض. آنذاك، كانت أويًا فتاةً ذات بشرةٍ سمَّرَتها شمسُ الصيف وثلوج الشتاء، فتاةً رياضيَّة، قويَّةً، مبتهجةً، معفاةً من كلِّ التعقيدات الحياتيَّة والسياسيَّة التي عاشَتها بانيا.

البُعْدُ يبدِّد لون الذكريات ومحيطها. لديَّ رسائلُ وصورٌ فوتوغرافيَّة من الأسرة التي كوَّنها خوان مارتين في النرويج، كما أنَّه يتَّصل بي عَبْر التليفون، وحضر لزيارتي في الأعوام الأخيرة، حين لم أعُد أقوى على السفر في رحلةٍ طويلة كهذه. وعلى الرَّغم من ذلك، فأنا متى فكَّرتُ في ابني عجزتُ عن تحديد قسمات وجهه أو صوته. أبعدَته السنوات التي أمضاها في شمال العالَم عن هذه الأرض، وأصبح يبدو لي غريبًا بقدْر أويًا وابنَيْها. في سلام بلده بالتبنِّي، صار خوان مارتين أفضل حالًا بكثير منه في فوضى هذا البلد. يعيش الناس في النرويج أسعد ممَّا يعيشون في أيِّ مكانٍ سواه، حسبما يُقال. دَرَجتُ على حبِّ خوان مارتين وأسرته عن بعد، من دون أن أتوقَّع شيئًا. من الناحية النظريَّة، أحنّ إلى العائلات الكبيرة كعائلة أبي وأمِّي وأجدادي، وإلى غداء الأحد الإجباريّ الذي كان يجتمع حوله جميع أفراد العائلة في

بيت الكاميليا الكبير، وإلى أمان العيش في مجتمع تربطه صلةٌ وثيقة. أمَّا من الناحية العمليَّة، فلستُ في حاجةٍ إلى ذلك، إذ لم يتهيَّأ لي منه شيء.

أخذ الخرف يستحوذ على خوسّيه أنطونيو شيئًا فشيئًا. كما أُصيب بسلسلةٍ من السكتات الدماغيَّة الطفيفة، وبوَهْنٍ في القلب، وبارتفاعٍ في الضغط، وبوادر صمم، وما أدراني بما أُصيب أيضًا! تراكمَتْ على كاهله ألفُ علَّةٍ حتى انتهَت به الحال وقد انفصل عن الواقع. بدأت الأعراض قبل التشخيص بوقتٍ طويل. في البدء، كان يضلّ طريقه في الشارع وينسى ماذا أكل، ثم بات يضلّ طريقه في الشقَّة وينسى مَن هو.

ـ أنت خوسّيه أنطونيو، زوجي. ـ كانت ميس تايلور تكرِّر عليه، وتُطلعه على ألبومات الصور الفوتوغرافيَّة وتحكي له حياته، مُطعَّمةً بالتفاصيل الغنيَّة كي تنعش ذكرياته، وإن راحَت جهودها سدًى، لأنَّه ما عاد يتذكَّر إلَّا قليلًا جدًّا.

صار يخشى كريسپين، ظنًّا بأنَّه قد يلتهمه، ذلك الكلب الوديع كالأرنب، برغم مظهره المُنذِر، الذي عاش معنا منذ سنوات. كان الخوف أشدّ ما يؤلم في حالته. لم يشعر بالخوف من كريسپين وحسب، بل صار يخاف البقاء وحده، ويخاف إيداعه في دار العجزة، ويخاف ألَّا تكفيه النقود، ويخاف اندلاع حريقٍ أو زلزالٍ آخر، ويخاف أن يُدَسّ له السمّ في الطعام، ويخاف الموت. كان يتعرَّف ميس تايلور، وإن سأل في بعض الأحيان مَن أكون أنا، أو لماذا أحضر كلّ يومٍ لتناول الغداء ما دمتُ لم أُدعَ إليه. ذات مرَّةٍ، خرج عاريًا، وقد اعتمر القبَّعة

وأمسك العصا، ثم نزل إلى الطابق الأرضيّ وخرج إلى الشارع بخطًى واسعة، فعادت به إلى البيت جارتان حسنتا النيَّة، قبل أن تعود به الشرطة.

ـ كنتُ ذاهبًا إلى البنك لسحب نقودي، حتى لا يسرقوها منّي. ـ هكذا فسَّر خروجه.

وفي حين تعذَّبتُ أنا وميس تايلور، إذ تأكَّد لنا أنَّ المرض يجعل خوسّيه أنطونيو شخصًا مجهولًا، عاملتَه أنت وإتيلبينا بعفويَّة، فكنتما تجيبان عن السؤال نفسه مئة مرَّة، وتعزِّيانه إذا بكى من دون سبب، وتصرفان ذهنه عن المخاوف. كان يتعرَّفك أنت أيضًا، فيحسبك حفيده، ويغضب متى حضر خوليان برابو وتصرَّف باعتباره جدّك الشرعيّ.

بعد سنوات، أُصيب كريسپين بالخرف أيضًا. لم ترغب في الاعتراف بالأمر قطّ يا كاميلو، ولكنَّ ذلك ما جرى. حتى الحيوانات تُصاب بالعَتَه. صار الكلب يضلّ طريقه في الشقَّة، مثله كمثل خوسّيه أنطونيو، وينسى أنَّه قد تناول الطعام، وينبح من دون سبب، مُوجِّهًا أنفه صوب الجدار، ويفزع متى استُخدِمَت المكنسة الكهربائيَّة ظنًّا بأنَّه زلزال، وما عاد يتعرَّفني. وهكذا، صار الكلب الودود يزمجر كلَّما دخلتُ إلى البيت، بعد أن كان يرحِّب بي راقصًا في ما مضى.

مات أخي عن عمر يناهز الثمانين، بعد أن عاش أكثر من أربعة أعوام في بُعْدٍ آخر. لم ينعم أخي بالسلام ولا البهجة في الطور الأخير من حياته، ولم نعُد لسماع ضحكته الرنَّانة إلَّا نادرًا

جدًّا. لم يحْنُ على الآخرين، لأنَّه عجز عن تلقِّي الحنان. كان يغضب من ميس تايلور، ويصدّ عطفها، ويسبّها في كثيرٍ من الأحيان بألفاظٍ لم ينعت بها أحدًا قطّ. في ما مضى، كان فارعَ الطول قويَّ البنيان، ولكنَّ المتاعب الصحِّيَّة جعلَته عجوزًا نحيلًا. ولذا، بات في مقدورنا السيطرة عليه كلّما تملَّكه العنف وطفق يضرب كلّ من وقف أمامه بالعصا. فقدَت نظرته البريق والضوء، وصار طفلًا سيِّئ السلوك. تحمَّلَته زوجته بما لها من جمودٍ بريطانيّ، وقالت إنَّه لم يعُد هو الرجل الذي طاردها عقودًا بمثابرة العاشق الذي لا يُقهَر، وعشقها بإخلاص خيرة الأزواج. هكذا كانت تودّ أن تذكره، لا بوصفه العجوز الساخط الذي صار عليه.

كان احتضار خوسِّيه أنطونيو أليمًا، إذ تملَّكه شعور بالرعب من الموت، فتصدَّى له على مدى أسابيع طوال. تجشَّمنا العناء جميعًا في تلك الأيَّام التي صار يجاهد خلالها حتى يلتقط أنفاسه، بحشرجةٍ خشنةٍ في صدره، وظلَّ يصارع ويتحسَّر ويستغيث ما بقِي له صوت. كانت راحةً لمَّا استسلم أخيرًا، وقد أدركه الإجهاد، غير أنَّني حين رأيتُه جامدًا باردًا، بلون الموتى الضارب إلى الصفرة، اجتاحَتني الذكرى كالطوفان، ذكرى المعنى الذي كان يمثّله أخي في حياتي، وكم كنتُ مدينةً له. لم تجمعني صلةٌ وثيقةٌ بأربعةٍ من أشقَّائي، رحلوا منذ عدَّة سنوات. أمَّا خوسِّيه أنطونيو، فهو الشجرة الكبرى التي شملَتني بالحماية وظلَّلَتني بظلّها منذ وُلِدت. وهو الذي تولَّى أمري منذ ذلك النهار البعيد، حين عثرتُ على أبي في المكتبة.

بعد عام، حان دور چوزِفين تايلور، التي رحلَت بكتمانها

وآدابها المعهودة. لم ترغب في إزعاج أحد. أمضَت زمنًا وهي تصارع ورمًا سرطانيًّا، قالت إنَّه من عواقب الورم الذي أُصيبَت به في ما مضى، ذلك الذي كان في حجم البرتقالة، مع أنَّه شيءٌ بعيد الاحتمال، لأنَّ البرتقالة قد استؤصِلَت في شبابها، ثم أصابها الورم السرطانيّ بعد نصف قرن. كان في يدها الخضوع لدورة علاجٍ كيميائيٍّ، ولكنَّها استقرَّت على أنَّ حياتها من دون خوسِّيه أنطونيو لا غاية منها. وفي السادسة والثمانين من العمر، أدركها التعب. يبدو لي وكأنِّي أراها كما كانت في تلك الأيَّام الأواخر، وقد صارت عجوزًا تليق بحكايات الجنِّيَّات، قديمة الطراز، في غاية العذوبة، جالسةً بالقرب من النافذة، وعلى تنُّورتها كتابٌ لم تعُد قادرةً على قراءته، وكريسپين مستلقٍ عند قدمَيْها.

لا شكَّ أنَّك تذكر ذلك اليوم بصفاءٍ يا كاميلو، لأنَّك عشتَه مُجدَّدًا في كوابيسك، إذ كنتَ تفيق باكيًا، مغمومًا، وأنت لا تملك النطق إلَّا باسم ميس تايلور، الاسم الذي ناديتَها به دائمًا. يومذاك، عدتَ من المدرسة رثَّ الثياب، متناثر الشعر، مُتعرِّقًا، كعادتك، فألقيتَ حقيبتك أرضًا وصفَّرتَ مناديًا كريسپين، مُتعجِّبًا لأنَّه لم يحضر لتحيَّتك. رحتَ تبحث عنه وتناديه. كنتُ وإتيليبينا في المطبخ، منصرفتَيْن إلى مشاهدة المسلسل، فقبَّلتَني وإيَّاها راكضًا وتجاوزتَنا إلى الصالة. كان الوقت شتاءً، والظلام في الخارج مُخيِّمًا، والموقد مُضرَمًا. وهناك، على ضوء ألسنة اللهب ومصباح الطاولة، رأيتَ ميس تايلور على أريكتها، وكريسپين إلى جوارها، مُتَّكئًا برأسه الضخم على تنُّورتها، جامدًا. عند ذاك، أدركتَ ما جرى.

الجزء الرابع

ميلاد جديد

(1983 ـ 2020)

21

أبلغَتني فاكوندا بالخبر عَبْر الهاتف قبل أن يظهر في الصحف تائهًا أسفل الصفحة، ثم يمرّ مرور الكرام. بلغها الخبر عن طريق أقربائها من السكّان الأصليّين، الذين اتَّبعوا الطريقة نفسها في تمرير الأخبار من فم إلى فم، وكأنَّه سباق تتابع، منذ عهد الاستعمار، أي قبل خمسمئة عام. أمَّا الرقابة، شديدة الفعاليَّة والمهابة، فلم تفلح في إسكات الهدير. كانت تلك أوَّل مرَّةٍ يُعثَر فيها على جثث مُختَفين، جثثٍ لم تُلقَ في عُرض البحر ولم تُنسَف بالديناميت في الصحراء، وإنَّما وُضِعت في كهفٍ بأحد التلال، سُدّ مدخله بإحكام.

خلال سرِّ الاعتراف الكَنَسيّ، عرف بوجود المقبرة الجماعيَّة مُبشِّرٌ وناشطٌ فرنسيّ يُدعَى ألبير بينوا، يعيش في قريةٍ مُهمَّشة تعرَّضَت لقمعٍ شديدٍ من الحكومة. كان واحدًا من أولئك الكهنة المُنشقّين الذين يتتبَّعون أمر ضحايا القمع، فاعتُقِل وتعرَّض

للتعذيب مرَّتَيْن، كما تلقَّى أمرًا من الكاردينال بعدم إثارة الجَلَبة، والابتعاد عن الأنظار، غير أنَّه لم يُذعن للأمر. بخلاف الكنيسة الكاثوليكيَّة الأرجنتينيَّة، فكنيستنا لم تعاون الديكتاتوريَّة، وإنَّما وازنَت أمورها بمشقَّةٍ بين التنديد بالإساءات وحماية أولئك الذين تحدُّوا النظام. أفضى أحدُ القتلةِ إلى الكاهن بينوا بما اقترف، وهو رجل شرطةٍ متقاعدٍ من منطقةٍ ريفيَّةٍ قريبةٍ من ناويل، ويسكن في تلك القرية. كما أشار إلى موقع الكهف عند منحدر التلّ، في منطقةٍ مشجَّرة، وأذن لبينوا بإحاطة رؤسائه علمًا.

أراد بينوا التأكُّد من صحَّة الاعتراف قبل التوجُّه إلى الكاردينال، فسافر جنوبًا. غامر بالذهاب في ذلك الاتِّجاه الذي أشار إليه الرجل، بحقيبةٍ على ظهره وبوصلةٍ في جيبه ومعولٍ مربوطٍ إلى درَّاجته، مُتجنِّبًا نقاط الشرطة. حالما ترك القرى خلفه، ما عاد يشغله حظر التجوُّل، إذ خلا المكان من الرقابة. اتَّخذ دربًا تكاد تتعذَّر رؤيته، بدا مهجورًا منذ سنوات. غاب الكاهن عن الأنظار، وابتلعَته المساحات الخضراء، فمضى يهتدي إلى الاتِّجاه بالبوصلة، مستعينًا بالصلاة.

سرعان ما أرغمَته الأرض على التخلِّي عن درَّاجته، فتقدَّم سيرًا، شاعرًا بالامتنان للصيف، فلو لم يكُن الوقتُ صيفًا لشقَّ عليه المضيّ قُدُمًا تحت الأمطار. نام ليلته الأولى في العراء، وأمضى جزءًا طويلًا من نهار اليوم التالي في السيْر، قبل أن يجد مدخل الكهف أخيرًا، وقد سُدّ بالألواح والصخور، كما أخبره المُعترِف.

بدأ الظلام يُخيِّم، فآثر الانتظار حتى اليوم التالي. أخطأ في

حساب الوقت الذي قد يستغرقه في تلك المسيرة، وانتهَت المؤن القليلة التي كان يحملها، وتضوَّر جوعًا طوال ساعات، فخطر على باله أنَّ قليلًا من الصيام نافع. كانت منطقةً غير مستوية، تنتشر فيها الخضرة، فالمزيد من الخضرة، والنباتات الكثيفة، والمياه. مياهٌ من كلِّ صوب، بِرَك، وبحيرات، وغدران، ومساقط مياهٍ تنهمر من الجبال، وأمطار، وثلوجٌ ذائبة. بخلاف الأدغال الاستوائيَّة التي عرفها في شبابه، حين أُرسِل إلى حدود فنزويلا والبرازيل، كانت تلك الأدغال باردةً حتى في الصيف. أمَّا في الشتاء، فوحدهم الأدلَّاء من أصحاب الخبرة يجيدون التنقُّل فيها.

كانت للهواء رائحة الدبال وأوراق الأشجار الأصليَّة العطِرة، ورائحة الفطريَّات التي تنمو مُلتصِقةً بالجذوع. بين الحين والآخر، كان يرى في الأعالي أزهار النباتات المُتسلِّقة تتدلَّى من الأغصان، بلونَيْها الأحمر والأبيض. أمضى يومه كاملًا وهو ينصت إلى ضوضاء الطيور الهائلة، وصفير النسر، وأصوات الحياة الحيوانيَّة في المساحات الخضراء. ولكنْ حين أقبل الليل، سكت العالَم.

شعر بهاوية العزلة في ذلك المكان غير المأهول، ومضى يبتهل بصوتٍ عالٍ: «هأنذا يا يسوع، أزجّ بنفسي في المشكلات من جديد، لأنَّني لو عثرتُ على ما أفتِّش عنه اضطُرِرتُ إلى عصيان الأمر الصادر إليَّ بالابتعاد عن الأنظار. أنت تفهمني، أليس كذلك؟ لا تهجرني في مسعاي، أنا الذي أحتاج إليك أكثر من أيِّ وقتٍ مضى». وأخيرًا نام في معطفه، مُرتعِدًا، جائعًا، مُتألِّمًا. لم يألف الإجهاد البدنيّ، بل إنَّه لم يمارس من الرياضة

سوى كرة القدم التي كان يلعبها مع أطفال القرية. ولذا، أصبحَت كلّ عضلةٍ من عضلات جسده تستغيث وتطلب الراحة.

مع أوَّل خيوط الفجر، شرب ماءً، ومضى يلوك آخر ما تبقَّى له من حبَّات اللوز ببطء. وفي وقتٍ لاحق، شرع في مهمَّة تحريك الأحجار ونزع الشجيرات وإزالة الألواح التي سُدَّت به فوَّهة الكهف، باستخدام المعول كما تُستخدَم العتلة. أزال آخر عقبةٍ في سبيله، فانبعثَت هبَّةٌ من الهواء النتن آتيةً من جوف المكان، وأرغمَته على التراجع. خلع قميصه، وأحاط به نصف وجهه. ومرَّةً أخرى، ابتهل إلى يسوع، صديقه، ثم دخل إلى الكهف. وجد نفسه في نفقٍ ضيّق، مع أنَّ سقفه مرتفعٌ بالقدر الذي يسمح له بالتقدُّم حانيًا ظهره. مضى وفي يده مصباح، وعلى صدره كاميرا مُعلَّقة بشريط. شقَّ عليه التقاط أنفاسه، بينما كان الهواء يزداد كثافةً والعفن يزداد شدَّةً مع كلِّ خطوة. تراءى له أنَّه يتوغَّل في سرداب، ولكنَّه مضى قُدُمًا، إذ بدا المكان مطابقًا للأوصاف التي بلغَته. سرعان ما انشقَّ النفق عن قبَّةٍ فسيحة، وهناك تمكَّن من الوقوف على قدمَيْه. عند ذاك، انطلقَت حزمةٌ من ضوء المصباح لتضيء العظام الأولى.

لم تُنشَر التفاصيل التي حكيتُها لك يا كاميلو حتى مرَّت عدَّة أعوام، عندما كُشِفَت قصَّة بينوا. لم يكُن أحدٌ على درايةٍ باسم ذلك الرجل، ولا الدور الذي اضطلع به، وإلَّا دفع ثمن جرأته باهظًا لو عُرِفَت هويَّته. في أقواله أمام القضاء، أبى الكاردينال أن يُجيب عن الأسئلة التي قد تُدينه، في ظلِّ الحماية التي وفَّرها له سرُّ الاعتراف الكَنَسيّ. ثم عُرِفَت الحقيقة كاملةً بعد أن استعدنا

الديموقراطيَّة. عند ذاك، دوَّن بينوا ما جرى، وأُقيم معرضٌ للصور التي التقطها يومذاك، وغيرها كثيرٌ من الصور، يُظهِر بعضها العظامَ في مقرِّ النيابة، ويُظهِر بعضها الرفات في المخفر. كما صُنِع فيلمٌ أيضًا.

أمَّا وقد اجتمعَت الأدلَّة بين يدَيْه، تحرَّك الكاردينال في براعةٍ بالغة، حتى عجزَت الحكومة عن الوقوف في سبيله. كان على وعيٍ بأنَّه، فضلًا عمَّا له من سلطةٍ أخلاقيَّة، يستند إلى ألفَي عام من السلطان الأرضيّ، ذلك أنَّ اعتقال الراهبات والكهنة أوَ اغتيالهم في بعض الأحيان شيءٌ، أمَّا معاداة قيادات الكنيسة الكاثوليكيَّة ومُمثِّل البابا، فكان ليصبح شيئًا آخر، أشدّ خطورةً بكثير، لو وقعَت فيه الحكومة. على مدى أعوام القمع، تعلَّم الكاردينال أن يناور بدهاء لتنفيذ المهمَّة التي تحمَّلها على عاتقه ومساعدة الضحايا الذين قُدِّرَت أعدادهم بالآلاف. ومن أجل هذا خصِّيصًا، أقام لجنة تحقيقٍ في الكاتدرائيَّة. وفي السرّ، جمع وفدًا يضمّ دبلوماسيًّا من سفارة الفاتيكان ومديرة الصليب الأحمر ومراقبًا من لجنة حقوق الإنسان وصحافيَّيْن، وذلك بغرض التحقيق في أمر الكهف.

لم يعُد الكاردينال في عمرٍ يُسمح له بالذهاب في رحلةٍ إلى أعلى الجبل، غير أنَّه سافر برفقة سكرتيره إلى ناويل، حيث مكث في انتظار الآخرين، أولئك الذين انطلقوا من العاصمة، كلٌّ على حِدَة، كيلا يلفتوا الانتباه. وعلى الرَّغم من الاحتياطات، أدرك أهل البلدة أنَّ خطبًا جَلَلًا قد وقع، من دون شكّ، فجعل الكاردينال يظهر في تلك الأنحاء. جاء بثيابٍ رياضيَّة، وإن تعرَّفه

الناظرون، لأنَّ وجه الثعلب العجوز معروفٌ جدًّا.

أدلى الكاردينال بأوَّل تصريح صحافيٍّ من ناويل، حين رجع مبعوثوه من الكهف. آنذاك، بدأ خبر العثور على رفاتٍ بشريَّةٍ ينتشر همسًا بين أهالي تلك الأنحاء، فاتَّصلَت بي فاكوندا وأنا في ساكرامِنتو.

ـ يُقال إنَّهم الفلَّاحون المختفون، الذين أخذوهم بعد الانقلاب بأيَّام، أتذكرين؟

أمَّا النسخة الرسميَّة، فزعمَت بأنَّه حادث، وباحتمال أن يكون الضحايا الذين أودى بهم الحادث من السائحين الذين لقوا حتفهم اختناقًا بالغازات السامَّة في داخل الكهف. ثم نُسِبَت الجثامين إلى عمليَّات ثأرٍ دارت بين عناصر حرب العصابات، أو المجرمين المتناحرين. وأخيرًا، بضغطٍ من الرأي العامّ والكنيسة الكاثوليكيَّة، وبالنظر إلى الآثار التي تركها الرصاص في كلّ الجماجم، نُسِبَت الجثامين إلى ضحايا عمليَّات إعدام ارتكبها أفرادُ أمنٍ بمبادرةٍ شخصيَّةٍ منهم في وطيس المعركة، مُتلهِّفين إلى تخليص الوطن من الشيوعيَّة، من دون علم رؤسائهم. أكَّدوا على تعنيف مُرتكِبي عمليَّات الإعدام كما ينبغي، معتمدين على ضعف ذاكرة الناس، وضرورة إمهال المسألة بعض الوقت لتخريب الأدلَّة.

أُقيمَت الأسوجة وطُوِّقَت المنطقة الواقعة حول الكهف بالأسلاك الشائكة لاعتراض سبيل القادمين: الصحافيِّين والمحامين والوفود الدوليَّة والفضوليِّين الذين لا يخلو منهم الأمر أبدًا، ثم تبعهم حجيجٌ صامتون من أقرباء المختفين، الذين جاء

بعضهم من بعيد، مُحمَّلين بصور الضحايا. لم يمكن تفريقهم بالطرق المعهودة. إذ استقرُّوا على منحدر الجبل أيَّامًا بلياليها، حتى نُقِلَت الرفات. دخل عناصر السلطة إلى الكهف مستترين من الرؤوس حتى الأقدام، بالأقنعة على وجوههم، والقفَّازات المطَّاطيَّة على أيديهم، ثم خرجوا من الكهف بـ اثنيْن وثلاثين كيسًا أسود، بينما الحجيج في الخارج يتغنُّون بالأناشيد الثوريَّة التي لم تُسمَع منذ سنوات، بَيْد أنَّها لم تُنسَ. كانوا في حاجةٍ إلى وضع حدٍّ للرَّيْب، بعد أن قضوا أعوامًا وهم يبحثون عن ذويهم المختفين، آملين أن يكونوا على قيد الحياة، آملين أن يعودوا إلى بيوتهم ذات يوم. كانت فاكوندا وسطهم، فخيَّمَت فيمن خيَّم، وقد لوى التهاب المفاصل عظامها، غير أنَّها ظلَّت قويَّةً كعهدها.

لم يسكت الصخب في أيَّامٍ قليلة، على عكس المُتوقَّع، فأمرَت الحكومة بإجراء تحقيق. وأخيرًا، بعد أسابيع، سُمِح للأقرباء بالمشاركة في عمليَّة التعرُّف على الضحايا. كانت تلك وسيلةً تسمح لهم بوضع حدٍّ للأمر، على نحو ما طلبوا، إذ حُجِب تقرير الطبيب الشرعيّ إلى حين صدور أمرٍ جديد، مع أنَّه حدَّد هويَّات أصحاب الرفات التي عُثِر عليها في الكهف بدقَّة.

نبَّهَتني فاكوندا، فركبتُ القطار إلى ناويل حتى أرافقها إلى المخفر. تجلَّى فصل الخريف في لون الطبيعة والهواء البارد الرطب، وبات سقوط الأمطار وشيكًا. استُدعِيَت عائلات فلَّاحي المنطقة، الذين اعتُقِلوا واختفوا في الأيَّام الأولى من الانقلاب العسكريّ، وكان بينهم أربعة أشقَّاء، أصغرهم في الخامسة عشرة من العمر، هم مستأجرو مزرعة آل مورياو. في تلك الأنحاء، عرف

الجميع بعضهم بعضًا يا كاميلو، ولم يكُن الأمر كما صار عليه الآن، إذ اصطبغَت الزراعة بالصبغة الصناعيَّة، وصارت الأرض تنتمي للشركات، واستُبدِل بالفلّاحين عمّالٌ موسميُّون، هائمون، لا جذور لهم. آنذاك، ارتبط أهالي تلك الأنحاء بصلات القرابة، فهناك وُلِدوا وكبروا، ومعًا ذهبوا إلى المدرسة الابتدائيَّة ولعبوا كرة القدم صغارًا، ثم وقعوا في الغرام وتزوَّجوا في ما بينهم. انخفض تعداد السكّان، لأنَّ كثيرًا من الشبّان قد ذهبوا إلى المدن بحثًا عن الفرص، ما جعل أيّ غيابٍ يظهر بوضوح. كان أولئك الرجال المختفون يشكّلون جزءًا في شبكةٍ من الصلات، بما لهم من وجوهٍ، وأسماء، وعائلات، وأصدقاء يفتقدونهم.

انتظرنا قرابة ساعتَيْن في الطابور الذي اصطفّ في الشارع. كنّا أكثر من عشرين امرأة، فضلًا عن بعض الأطفال الذين تعلّقوا بتنانير أمّهاتهم. جمعَت أغلبهنَّ صلاتُ القرابة والصداقة والمعرفة الشخصيَّة، وكانت لهنَّ قسمات السكّان الأصليّين الهجينة، كثيرة الشيوع في تلك المنطقة. وسَمهنَّ العملُ الشاقّ والفقر بطابعهما، كما أسبغَت عليهنَّ الهموم التي استمرَّت أعوامًا طوالًا مسحةً مأساويَّة. باحتشام، ارتدين الثياب الباهتة المستعملة واردة الولايات المتَّحدة، التي تُباع في سوق السلع القديمة. جلس بعضهنَّ على الأرض، الأكبر عمرًا، فضلًا عن امرأةٍ حبلى. غير أنَّ فاكوندا ظلَّت واقفةً على قدمَيْها، وقد انتصبَت بأقصى ما يسمح به التهاب المفاصل، واتَّشحَت بالسواد تمامًا، في حِدادٍ مُستبَق، بينما ارتسم على وجهها تعبيرٌ صخريّ لا يشي بالألم، وإنَّما بالغضب. رافقنا محاميان مدافعان عن حقوق الإنسان

أوفدهما الكاردينال، ومعهما صحافيَّةٌ ومُصوِّرٌ تلفزيونيّ.

شعرتُ بالخزي من سروالي الجينز الأميركيّ وحذائي المصنوع من الشامواه، وحقيبتي الغوتشي، وأنا الأطول قامةً والأكثر بياضًا من الأخريات، وإن لم يبدُ على أيٍّ من أولئك النساء أنَّها قد انتبهَت إلى مظهري الذي ينمّ عن البرجوازيَّة والثراء. قبلن بي واحدةً منهنَّ، وقد وحَّدنا الهمّ نفسه. سألنني عمَّن أبحث، وقبل أن يسعفني الوقت للردِّ، تدخَّلَت فاكوندا:

ـ عن أخيها، تبحث عن أخيها. ـ قالت.

عند ذاك، أدركتُ أنَّ أپولونيو تورو عندي في منزلة الأخ. كان في عمر خوسِّيه أنطونيو على وجه التقريب، وظلَّ في حياتي منذ وعيت على الدنيا. في صمت، ابتهلتُ إلى السماء حتى لا يكون هناك دليلٌ على مقتله، لأنَّ الرَّيْب خيرٌ من اليقين في تلك الحالة. حلمتُ بأنَّ توريتو يعيش حياة النُسَّاك في كهوف الجبال، تلك الحياة التي تلائم طباعه ومعرفته بالطبيعة. لم أرغب في التأكُّد من موته.

خرجَ ضابطٌ ينبح في وجوهنا بالتعليمات: أمامنا نصف ساعة، الصور ممنوعة، واللمس محظور، ولا بدَّ من توخِّي الانتباه لأنَّهم لن يسمحوا لنا بفرصةٍ أخرى، كما يجب علينا تسليم بطاقات الهويَّة التي سوف تُرَدُّ إلينا في طريق الخروج. أمَّا المحامون والصحافيُّون، فينبغي لهم البقاء في الخارج. دخلنا.

تحت سقف خيمةٍ نُصِبَت في وسط باحة المخفر، استقرَّت طاولتان مُمتدَّتان ضيِّقتان، تحت رقابة الحرَّاس. لم نرَ عظامًا، على عكس ما توقَّعنا، بل رأينا مِزَقًا من ثياب اهترأت وتآكلَت

بفعل الزمن، وأحذيةً، وأخفافًا، ومُفكّرةً، وحافظات، كُلّها مُرقَّم. اصطففنا أمام تلك البقايا الحزينة ببطء. كانت المرأة منّا تقف باكيةً أمام سترةٍ من الصوف، أو حزامٍ، أو قبّعة، وتقول «هذا لأخي»، أو «هذا لزوجي»، أو «هذا لابنيّ».

وفي نهاية الطاولة الثانية، بعد أن كدنا نفقد الأمل، عثرتُ وفاكوندا على الدليل الذي لم نرغب في العثور عليه.

ـ هذا لتوريتو. ـ غمغمَت فاكوندا، ثم تهدَّج صوتها وهي تغصّ بالبكاء.

فتَّشتُ عنه وترقَّبتُه أعوامًا طوالًا، وإذا هو هناك: الصليب الخشب الذي نحتُّه بمناسبة أوَّل احتفال بعيد ميلاد أپولونيو تورو، في حياة أمّي والخالتَيْن وآل ريباس، في شباب فاكوندا، وطفولتي. تدلّى الصليب من شريطٍ جلديٍّ، بينما تراءى الخشب وقد صقلَته السنوات والاستخدام. وعلى الرَّغم من ذلك، كان للناظر أن يقرأ اسمي واضحًا، ڤيوليتا. أمّا اسم توريتو، فلا بدَّ من أنَّه على الجانب الآخر. رحتُ أتلوّى على وقع النحيب الممزوج بالاختلاجات التي أصابَتني وكأنَّها ركلةٌ في المعدة، وأحسستُ بذراعَي فاكوندا تساندَاني. وفيما نحن على تلك الحال سُمِع صوت صفير، وأُمِرنا بالخروج من الخيمة. ومن دون تردُّد، التقطتُ الصليب مندفعةً، وقد أعمَتني الدموع، ثم أخفيتُه في صدري.

إنَّ ذلك الصليب سحريٌّ يا كاميلو. لستَ مُهتمًّا بشيءٍ ممَّا أملك، أعرف. ولكنّي، متى فارقتُ الحياة، أريد منك أن تحتفظ بالصليب، أن تعلِّقه من عنقك بدلًا من هذا الذي تحمله، وأن تستخدمه دائمًا، حتى يحميك مثلما شملني بالحماية أنا أيضًا.

ولذا أحمله دائمًا. إنَّ هذا الصليب مُحمَّلٌ بوفاء أپولونيو تورو وبراءته وقوَّته، وهو الذي وضعه على صدره أعوامًا طوالًا، ومات لينقذ الخال خوان مارتين. كان توريتو ملاكي، ولسوف يكون ملاكك أنت أيضًا. عدني يا كاميلو.

في القَدَر مفترقاتٌ لا نملك التعرُّف بها لحظة ظهورها. ولكنْ، إن عاش المرء طويلًا، بقدر ما عشتُ أنا، تمكَّن من رؤيتها بوضوح. هناك حيث تتقاطع الطرقات، أو تتشعَّب، يجب علينا أن نقرِّر في أيِّ اتِّجاهٍ نسير. وربَّما حدَّد ذلك الاتِّجاه مسار البقيَّة الباقية من حياتنا. مثلما كان يومذاك، يومَ استرجعتُ صليبَ توريتو، الآن صرتُ أعرف. حتى ذلك الوقت، عشتُ حياةً مريحةً لا تساؤل فيها عن العالَم الذي كان من نصيبي أن أُولَد فيه، حيث لم تكُن لي إلَّا غايةٌ وحيدة لا يرقى إليها جدال، وهي تنشئة الطفل الذي تركَته نيبيس يتيمًا.

ليلتذاك، وفيما رحتُ أخلع ثيابي، رأيتُ الأثر الذي تركه الصليب الخشن على جسدي، الصليب الذي ضمَّته الحمَّالة إلى صدري، فعاودتُ البكاء طويلًا على توريتو، وعلى فاكوندا، التي أحبَّته كثيرًا، وعلى سائر النساء اللاتي عثرن على موتاهم، وعلى نفسي. فكَّرتُ في بيتي، في حسابات البنوك، في الاستثمارات العقاريَّة، في كومة التحف والتوافه التي اقتنيتُها في المزادات، في صداقات الطبقة الاجتماعيَّة التي أنتمي إليها، في المزايا اللامتناهية التي حظيتُ بها، فشعرتُ بكاهلي مُثقَلًا، وكأنَّني أجرُّ عربةً مُحمَّلةً بكلِّ هذا، وشعرتُ بثقل الزمن المُهدَر. ولم يُخيَّل إليَّ أنَّ حياتي الثانية تبدأ في تلك الليلة.

22

طوال عدَّة أشهر، لم تُنشَر أسماء ضحايا الكهف بصفةٍ رسميَّة، ولم تجرؤ الصحافة على تحدِّي الحظر بنشرها، مع أنَّها صارت معروفة، لأنَّنا، نحن النساء، قد تعرَّفنا الضحايا في ذلك المخفر. كانت استراتيجيَّة الحكومة ترمي إلى التحكُّم في المعلومات لأطول وقتٍ ممكن، بذريعة الدواعي الأمنيَّة، وبذلك تتجنَّب السلطات صخب الأقرباء المطالبين بالرفات لدفنها دفنًا كريمًا. عندما انتُشِلَت البقايا من الكهف، وُضِعَت مُختلِطةً في الأكياس، فصار جمْعُ كلّ هيكلٍ مرَّةً أخرى على حِدَة مهمَّةً في غاية الصعوبة. كان الأنسب لهم أن يلقوا بها في مقبرةٍ جماعيَّة ثم ينسوا أمرها إلى الأبد، ولكنْ فات الأوان.

أعتقد بأنَّ فاكوندا قد أخبرَت عائلتها وبعض أصدقائها بشأن توريتو. أمَّا أنا، فلم أتمكَّن من الإفضاء بما جرى إلى أحدٍ سوى إتيلبينا وميس تايلور، التي لم تزَل على قيد الحياة، إذ لم يكُن

أحدٌ يذكر ذلك العملاق المحبوب سواهما. كما أخبرتُ خوان مارتين في رسالة، وهو الذي أمضى سنواتٍ يتساءل عمّا جرى للرجل الذي ساعده في عبور الحدود، ثم انقطعَت أخباره. ولذا، دقَّ في أذنيَّ ناقوس الخطر حين ذكره خوليان برابو.

عرَّج خوليان على العاصمة في واحدةٍ من الرحلات العاجلة التي كان يجريها لدوافع تجاريَّة، على نحو ما وصف نشاطه، بما في ذلك غسيل الأموال وتهريب البضائع غير المشروعة. حضر لرؤيانا بحكم العادة، ومكث معنا لتناول العشاء، لأنَّ إتيلبينا أعدَّت البطّ بالكرز، طبقه الأثير. ما زال هو الرجل الوسيم الرياضيّ الذي كان في سابق عهده، الفاتن المرح الواثق بنفسه.

ـ هل افتقدتِني؟ ـ سأل ضاحكًا.

ـ مطلقًا. كيف حال أنوشكا؟

كانت أنوشكا عارضة أزياءٍ نحيفةً دائمًا، لأنَّها لا تأكل، بل تعيش حياتها جائعةً، المرأة المسكينة. حتى هي وعدها بالزواج، كما وعد سورايدا، وظلَّ يخدعها طوال أعوام.

ـ مضجرة. وماذا عنكِ يا ڤيوليتا؟ ماذا فعلتِ في الآونة الأخيرة؟

ـ كنتُ في ناويل...

ـ آه! أعتقد بأنَّكِ ذهبتِ بسبب موتى الكهف.

ـ كيف عرفتَ وأنت لا تعيش حتى في هذا البلد؟ لقد عُثِر على رفات خمسة عشر رجلًا مختفيًا. اعتقلهم رجال الشرطة في أيَّام الانقلاب العسكريّ، فأردوهم قتلى، ثم أخفوا الجثامين.

ـ لم تكُن المرَّة الأولى ولن تكون الأخيرة. ـ قال مُعقِّبًا، وهو يتفحَّص مُلصَق قارورة النبيذ.

ـ في المخفر، عُرِضَت مِزَق الثياب وغيرها من الأغراض التي عُثِر عليها في الكهف. ذهبتُ مع فاكوندا...

ـ هل عثروا على شيء من مُتعلِّقات توريتو؟ ـ سألني شاردًا، وهو يملأ كأسه.

في تلك اللحظة على وجه التحديد، وأنا جالسة إلى الطاولة أمام صينيَّة البطّ المطهو بصلصة الكرز وقنِّينة الكابيرنيه سوڤينيون، تراصَّت القطع المتناثرة جنبًا إلى جنب، قطع أحجية خوليان برابو. على مدى أعوامٍ وأعوام، رأيتُ إشاراتٍ وبوادرَ ودلائل، غير أنَّني لم أرغب في رؤية ذلك الأمر الجليّ، لأنَّه يعني الاعتراف بالتواطؤ من جانبي. تذكَّرتُ ابنتي المسكينة، وحياتها المأساويَّة، والمخدِّرات، والبؤس، والبغاء، وجو سانتورو الذي قُتِل برصاصةٍ في مُؤخَّر العنق، وشعور ابنتي بالخوف من أبيها، كما خاف منه خوان مارتين أيضًا. تذكَّرتُ مخاوفي أنا الأخرى، والضرب والإهانة التي ذقتُها في الماضي، ورجال المافيا المُروِّعين، وعملاء السي آي إيه، ورزم النقود والأسلحة، والصلات التي جمعَت خوليان بالديكتاتوريَّة. كيف سمحتُ بوقوع كلّ هذا؟

كان خوليان على درايةٍ بالمصير الذي لقيه توريتو، ولطالما عرف بذلك، كما عرف أنَّ خوان مارتين قد وجد ملاذًا في الأرجنتين، وأخفى الأمر عنِّي طوال ما يربو على أربعة أعوام. لا أملك إثبات إدانته بمقتل توريتو، ولكنْ يُحتمَل أن يكون خوليان

برابو قد أبلغ عنه حتى يتخلَّص منه حالما أوصل خوان مارتين إلى برِّ الأمان. فالأفضل ألَّا يبقى شهودٌ. على كلِّ حال، عرف خوليان أنَّ رفاة توريتو كانت في الكهف، كما عرف بوجود جثامينَ أخرى هناك.

في تلك الأيَّام، أرسل إليَّ خوان مارتين تحقيقًا مسهبًا مُترجَمًا إلى الإنجليزيَّة، يتناول المستوطنة أمل، نُشِر في ألمانيا ثم أُعيد نشره في أوروبا.

ـ بابا يسافر بطائرته في رحلاتٍ خاصَّة من أجل هؤلاء، أليس كذلك؟ ـ سألني.

طبقًا لما ورد في التقرير، لم تكُن المستوطنة بالمجتمع الزراعيّ الفردوسيّ الذي حسبناه، بل إنَّها مساحة مُحكَمة الإغلاق، تضمّ عددًا من المهاجرين الذي جاؤوا سعيًا وراء اليوتوبيا، وانتهَت بهم الحال تحت سيطرة رجلٍ سيكوباتيّ فرض انضباطًا وحشيًّا على أولئك الخاضعين لهيمنته، الذين يربو عددهم على المئتيْن، كثيرٌ منهم أطفالٌ ومراهقون. لم يدخل أحدٌ إلى المكان أو يخرج منه إلَّا بتصريح، كما تلقَّى المستوطنون تدريبًا شبه عسكريّ، وتعرَّضوا للعقوبات البدنيَّة والاستغلال الجنسيّ. ولكنَّ أحدهم ولَّى هاربًا، بطريقةٍ ما، وتمكَّن من مغادرة البلد والإبلاغ عمَّا يجري في ألمانيا. حكى أنَّ تلك المستوطنة، منذ الانقلاب العسكريّ، اتُّخِذَت مركزًا لتعذيب المُنشقِّين عن الحكومة وإبادتهم. لم يُعرف من ذلك شيءٌ في البلد، إذ تكفَّلَت الرقابة بالحيلولة دون ذيوع الخبر.

زُوِّدَت المستوطنة بمهبطٍ للطائرات الخاصَّة الخفيفة والمروحيَّات العسكريَّة لنقل سجناء الديكتاتوريَّة. وبيقينٍ لا يرقى إليه جدال، تكشَّفَت لي علاقةُ خوليان بالمستوطنة أمل، وأدركتُ السبب في علاقاته الجيِّدة ومعرفته بما يجري: إنَّها العمليَّة كوندور، والمساعدة التي قدَّمها للسي آي إيه والديكتاتوريَّة.

ـ بابا على استعدادٍ لعمل أيِّ شيء. ـ هكذا قال ابني وابنتي.

اتَّخذ خوليان برابو لنفسه شعار الغاية تُبرِّر الوسيلة. ولقد اتَّبع الوسائل الأشدّ ريبًا لتحقيق غاياته، بحصانةٍ تامَّة. هو نفسه صرَّح بأنَّه منيعٌ، لا يُقهَر، مُنزَّهٌ عن مواطن القصور التي لا يخلو منها سائر الفانين. لم يذعِن لغير القواعد التي تلائمه، لأنَّ القوانين يصنعها أصحاب السطوة بغرض السيطرة على الباقين. ولقد حانت اللحظة التي أطبِّق فيها شعاره، لأنَّ غايته قد برَّرَت وسائلي.

في اليوم التالي، بعد ذلك العشاء الكاشف، سافرتُ إلى ميامي بالطائرة للتحدُّث إلى سورايدا أبريو قبل أن يرجع خوليان. لطالما اتَّصلَت إحدانا بالأخرى في أوقاتٍ مُتفرِّقة، كما عرفتُ أنَّ الحبّ الذي شعرَت به سورايدا نحو خوليان آخذٌ في الذبول شيئًا فشيئًا. كما فعلتُ في مناسباتٍ سابقة، انتظرتُها في حانة فندق فونتينبلو، التي دبَّت فيها حياةٌ جديدة بعد أعمال التطوير. كانت سورايدا قد تجاوزَت الأربعين بقليل، ولكنَّها ما زالت ملكة جمال رَمّ بوريكوا الذهبيَّة، وهي صاحبة الخصر الجامح والساقَيْن الخليقتَيْن براقصة والصدر شهيّ الثمار. جاءت بثوبٍ صيفيٍّ أصفر اللون، أكثر ملاءمةً للشاطئ. تعانقنا بتلك المودَّة التي تُولَد من

رحم الخذلان المُشترَك. حتى هي أفاقَت من الوهم الذي أوعز به إليها خوليان ذات مرَّة. خلعَت النظّارة المُغبَّشة، فلاحظتُ آثار العمر على وجهها. لأنَّ عمليَّة التجميل قد فردَت بشرتها، ولكنَّها لم تنزع عنها ذلك التعبير الذي يشي بالإعياء.

أخبرنا بعضنا بعضًا بآخر مُستجدَّات حياتنا. ظلَّت حياتها كما كانت، على وجه التقريب، فهي ما زالت تلعب دور سكرتيرة خوليان برابو، ومحاسبته، وربَّة منزله، وعشيقته، وكاتمة أسراره. ولقد رضخَت للضغط الذي مارسه عليها، فخضعَت لعمليَّة ربط قناة فالوب، كما فعلتُ أنا الأخرى، رغبةً منه في التأكُّد أنَّها لن تأتي منه بأبناءٍ إلى العالَم. لطالما شعرت سورايدا بالندم لأنَّها تخلَّت عن الأمومة مدفوعةً بحبِّها نحو ذلك الرجل. أخبرَتني بذلك، فتساءلتُ كمْ امرأةً طالبها خوليان بالشيء ذاته حتى لا يُزعج نفسه باستخدام الواقي.

ـ أنا موظّفته التي تصلح لجميع أنواع الخدمات. ـ قالت لي سورايدا بنبرةٍ مريرة.

ـ يدفع لك أجرًا سخيًّا...

ـ النقود لا تعوِّض عن الاستغلال. لا أملك من الحياة سواه. خوليان رجلٌ غيور، لم يسمح لي بالإنجاب، والآن ما عاد يحبّني، ولا حتى يشاركني الفراش.

ـ لكِ أن تتركيه.

ـ لن يسمح بذلك أبدًا، فحاجته إليَّ أشدّ ممَّا ينبغي.

ـ ولماذا أنتِ باقيةٌ معه؟ ـ ألححتُ في السؤال.

ـ سوف يتزوَّجني ذات يوم، وإن تزوَّجني حتى أعتني به في الشيخوخة.

ـ أتخافين منه؟

ـ كنتُ أخاف منه في الماضي، ولكنِّي ما عدتُ أشعر بذلك. الآن أريد عقابه، لقد فاض بي الكيل. ـ قالت لي.

ـ ولهذا جئتُ يا سورايدا. ـ أخبرتُها بأمر أنوشكا، أغلى امرأةٍ في حياة خوليان، على حدِّ قوله.

ثبت أنَّ أنوشكا أدهى منَّا أنا وسورايدا، إذ أقنعَته بأنَّها عاقر. وفي الوقت الملائم، فاجأته بالحَمْل. أخبرَته بعد أن فات أوان الإجهاض. كانت تلك نهاية مسيرتها في مجال عرض الأزياء، حسبما قالت، مع أنَّها بلغَت الخامسة والثلاثين، ولم يعُد حصولها على العمل أمرًا يسيرًا. أبى خوليان أن يتزوَّج، ولم يعِش معها قطّ، ولكنَّه أنفق عليها هي والطفلة التي أنجبَتها بسخاء. تحمَّلَت سورايدا الخيانات العديدة التي ارتكبها خوليان، وغراميَّاته التي لا نجحَت ولا دامت. ومع ذلك، فهي لم تتخيَّل أنَّ له عشيقةً وابنةً منذ أعوام. خلصَت سورايدا من فورها إلى النتيجة التالية: ما دام خوليان لم يتزوَّج من أمّ تلك الصغيرة، فهو لن يتزوَّجها هي الأخرى. لم تفهم كيف تمكَّن من إخفاء الأمر عنها طوال كلّ هذا الوقت، ولا كيف يُنفق على تلك المرأة من دون أن يظهر ذلك في حساباته، حيث لم يكُن لتلك النفقات أدنى أثر! كانت تُدير الحسابات الرسميَّة وغير الرسميَّة، أي الحسابات السرِّيَّة التي لا يراها أحدٌ سواها، بما حوَت من معاملاتٍ غير

مشروعة، وتتبجّح بأنَّ دولارًا واحدًا لا يصل إلى يدَي خوليان من دون علمها. وعلى الرَّغم من ذلك، فلقد عرفَت لتوِّها بوجود حساباتٍ ثالثةٍ تُدار من خلف ظهرها. وقد لا تكون الأخيرة، بل يُحتمَل وجود المزيد. آلمها خداع المال أشدّ ممَّا آلمها خذلان الخيانة. سألَتني عمَّا إذا كانت لديَّ صورة لأنوشكا، فأطلعتُها على عددٍ من الصور التي اقتطعتُها من مجلَّة أزياء صدرَت منذ خمسة أعوام. تفحَّصتها سورايدا بانتباهٍ يليق بعالِم حشرات.

ـ إنَّ تلك الفتاة مُصابةٌ بداء فقدان الشهيَّة. ـ كان ذلك هو التعقيب الذي أدلَت به.

وعند الوداع، أكَّدَت لي أنَّ خوليان سوف يلعن اليوم الذي تعرَّف بها فيه.

جاء انتقام سورايدا أبريو سريعًا حاسمًا. لقد خدمَت خوليان بوفاءٍ وصبرٍ طوال ستَّة عشر عامًا، وأحبَّته بحماسة قلبها الشغوف، على الرَّغم من كلِّ شيء. وبالشغف نفسه، أغرقَته سورايدا، كما خُيِّل إليَّ أنَّها سوف تُغرقه حين ذهبتُ إلى ميامي لتجنيدها. كانت ملكة الجمال أذكى من أن تستسلم لنزوة الاستعانة بقاتلٍ مأجور لافتعال حادثٍ أو تسميم خوليان، كما يحدث في الروايات، وكما تخيَّلتُ في بعض الأحيان. بل إنَّ المُخطَّط الذي وضعَته في ما يقلّ عن ساعتَيْن، وقد سرَت كؤوس المارتيني الثلاث في جسدها، كان أكثر براعةً بكثير.

بينما كنتُ أنا على متن الطائرة، في طريق العودة إلى بيتي، أتأرجح بين الشعور بالذنب حيال ما فعلتُ والرضا عن النفس

لأنَّني قد حقَّقتُ العدل، اتَّصلَت سورايدا أبريو بحبيبها الأوَّل، المحامي الذي تخلَّت عنه وتركَت له خاتم الزواج حين التقَت بخوليان. تزوَّج الرجل وأنجب ثلاثة أبناء، غير أنَّه ما كاد يتلقَّى اتِّصال سورايدا حتى وضع نفسه رهن أوامرها من دون تردُّد. فلا أحدٌ يقدر على نسيان امرأةٍ كهذه. ومعًا، وضعا الاستراتيجيَّة التي ناقشَتها معي.

احتمَت سورايدا بحقِّها في إخفاء الهويَّة، وناب عنها المحامي أمام العميل الخاصّ المُكلَّف بإجراء التحقيق الجنائيّ لدى مكتب الضرائب على الإيرادات الداخليَّة، إذ اتَّهم خوليان بالتآمر بهدف الاحتيال والتهرُّب من الضرائب. وللتأكيد على مصداقيَّة وكيلته ومنحها الحصانة القضائيَّة، قدَّم المحامي دليلًا كان الحصول عليه بطريقةٍ أخرى قد يستغرق أعوامًا: دفاتر الحسابات السرِّيَّة، وأسماء الشركات الوهميَّة في بنما وبرمودا، وأرقام الحسابات البنكيَّة في سويسرا وغيرها من البلدان، وأرقام الخزائن السرِّيَّة بما حوَت من نقودٍ سائلة ومخدّراتٍ ومستنداتٍ وأدلَّة تثبت صلته بالجريمة المُنظَّمة. وحدها الضرائب المُتأخِّرة عن الأعوام الخمسة الأخيرة كانت تُقدَّر بعدَّة ملايين، كما أوضح العميل الخاصّ للنائب الفدراليّ المُختَصّ.

فضلًا عن ذلك، قدَّمَت سورايدا معلوماتٍ عن تهريب المخدِّرات على متن طائرة خوليان برابو، الأمر الذي سمح بإلقاء القبض عليه، والإبقاء عليه في الحبس، ومنعه من الهرب من الولايات المتَّحدة. كان ذلك التحقيق سيستغرق عامَيْن أو ثلاثًا في الظروف العاديَّة، غير أنَّه لم يستغرق أطول من أحد عشر

شهرًا بفضل الأدلَّة التي قدَّمها محامي سورايدا.

أجهل التفاصيل القانونيَّة، التي لا تهمّ كثيرًا. لقد مرَّت خمسةٌ وثلاثون عامًا منذ ذلك الحين، وأعتقد بأنَّ الوحيدة التي ما زالت تشعر بلذَّة ذلك الانتقام شهيّ المذاق هي سورايدا أبريو. يبدو لي وكأنَّني أراها امرأةً ناضجة، راضيةً عن نفسها، جميلة، تستحضر الذكريات في حانة أحد الفنادق الفاخرة، بينما تضع بين أسنانها حبَّة الزيتون المغموسة في كأس المارتيني. آمل أن تكون قد عاشت حياةً هانئة.

دفع خوليان الغرامة والضرائب التي كان يدين بها، مضافةً إليها الفوائد، واستعان بشركة محامين اشتهرَت بالدفاع عن المجرمين، أفلحَت في خفض العقوبة إلى الحبس أربعة أعوام في سجنٍ فدراليٍّ مُخفَّف الحراسة، مُخصَّصٍ للمُجرِمين من ذوي الياقات البيضاء. كان يستحقّ عقوبةً أشدّ قسوةً بكثير، غير أنَّه لم يخضع للمحاكمة عن آثامه الكبرى، وإنَّما عن بعض آثامه العارضة.

في تلك الأعوام، فقد ثقة زبائنه القدامى، فآخر ما يرغبون فيه خوض المشكلات القانونيَّة. وأعتقد بأنَّ حتى العملاء الأميركان تخلَّوا عنه، ولكنَّه قد جمع ثروةً طائلة، ما زال جزءٌ ضخمٌ منها في أمان. خرج من السجن نحيفًا، قويًّا، موفور الصحَّة، لأنَّه كان ينفِّس عن ضجره في صالة الألعاب الرياضيَّة. خرج ثريًّا كما في سابق عهده تقريبًا. ذات يوم، حضر لرؤيتي وكأنَّنا قد التقينا في الأسبوع السابق. انتقلتُ إلى حيٍّ آخر، ولكنَّه حدَّد موقعي بسهولة. جاء يُخبرني بأنَّه قد اعتزل الأنشطة التجاريَّة، واشترى أرضًا في باتاغونيا الأرجنتينيَّة لقضاء طور

الشيخوخة في تربية النعاج والخيول الأصيلة، الشيء الأثير لديه، مع رفقةٍ طيِّبة.

ـ كلانا عازب، مُتقدِّمٌ في السنِّ إلى حدٍّ كبير، ويجدر بنا الزواج يا ڤيوليتا. ـ قال مُقترِحًا.

أدركتُ أنَّه لا يشتبه في ضلوعي في تلك الكارثة التي أصابته بمِيامي.

ـ هيَّا نتزوَّج. سوف تروق پاتاغونيا لكاميلو. ـ أصرّ.

غير أنِّني رفضتُ عرضه، كما كان يرفض هو عرضي في كلِّ مرَّةٍ، وسألتُه عن أنوشكا مُجدَّدًا، فأخبرني بأنَّها قد تزوَّجَت رجلَ صناعةٍ من البرازيل، بعد أن اعترفَت لخوليان بأنَّه ليس هو والد الطفلة التي أنفق عليها طوال أعوام.

23

اسمح لي بأن أحكي لك قليلًا عن روي كوپر، حلَّال المشكلات الذي يبدو بمظهر ملاكم الأحياء الفقيرة، ذلك الذي أحببتُه كثيرًا، الرجل الذي يظهر اسمه بصفته والدك في شهادة ميلادك. لقد التقيتَ به. ولكنْ لعلَّك لا تذكره، لأنَّك كنتَ صغيرًا جدًّا حين ذهب ثلاثتنا إلى عالَم ديزني، وأنت في السابعة أو الثامنة من العمر، على ما أعتقد. وتلك هي المرَّة الوحيدة التي رأيتَه فيها، مع أنَّني بقيتُ على اتِّصال دائم به. كنَّا نذهب في إجازةٍ مرَّةً أو مرَّتَيْن كلّ عام، كلَّما استطعتُ أن أتركك مع إتيلبينا وفاكوندا في المزرعة.

انتقل روي إلى لوس أنجلوس، حيث استمرّ في مزاولة مهنته. كان لديه من القضايا ما يكفي ويفيض عن الحاجة، فتلك هي المدينة المثاليَّة لرجلٍ مثله، يتحرَّك بسلاسة النسر وسط الآثمين من شتَّى الفئات، مُرتكِبي الجرائم والجِنح، ورجال

الشرطة الفاسدين، والصحافيِّين الفضوليِّين. اندهشتُ من قدرته على العيش في ذلك الوسط، والاحتفاظ بما يكفي من اللطف والسخاء كي يحبّني دون أن يطلب شيئًا لنفسه، دون أن يطلب منّي حتى أن أحبّه بقدر ما أحبّني، وكي يفعل ما فعل من أجل نيبيس ومن أجلك.

من عدم اللياقة أن آتي على ذكر عشّاقي أمامك، علمًا أنَّك حفيدي، وأنَّك رجل دين، ولكنَّ روي هو الاستثناء. لا أدرج خوليان تحت فئة العاشق، لأنَّه والد ابني وابنتي، مع أنَّنا لم نتزوَّج قط.

اتَّسم روي بقلَّة الكلام، وحسّ الدعابة السوقيّ، وثقافة الشارع، فهو لم يقرأ غير صفحات الجرائد الرياضيَّة، وروايات الجيْب البوليسيَّة. كانت تنبعث منه رائحة السجائر والعطور اللاذعة. أمَّا يداه فكانتا خشنتَيْن، تليقان بعامل بناء. صُدِمتُ بسلوكه على المائدة، كما بدَت لي ثيابه مُستعمَلة، فهي ضيِّقة، عفا عليها الزمن تمامًا. خلاصة القول إنَّ مظهره يليق بالحارس الشخصيّ لأحد المجرمين.

ما كان أحدٌ يتخيَّل أنَّ ذلك الرجل مرهفُ المشاعر، في غاية الشهامة، ولكنْ على طريقته. عاملني بمزيج من الاحترام والحنان والرغبة. أجل يا كاميلو، ظلَّ يرغب فيَّ إلى الحدِّ الذي كان يردّني فتاةً شهوانيَّة وأنا بجواره، ويزيل عنِّي الأعوام والذكريات السيِّئة. لم يُشعِرني أحدٌ بأنَّني جميلة، أو يحتفِ بي، مثلما فعل هو. أحبَّ كلٌّ منَّا الآخر بخفَّة، وضحك، ومن دون خيال، على عكس الشغف الجسديّ الذي عرفتُه مع خوليان برابو، في سباق

الألعاب الأكروباتيَّة الذي كنتُ أخرج منه مُصابةً بالرضوض في كثيرٍ من الأحيان. كنتُ وروي نكرِّر الروتين نفسه، هادئَيْن في الطمأنينة التي تلذَّذ بها كلانا بالقدر نفسه، ثم نرتاح متعانقَيْن، في راحةٍ ورضا. قلَّما تحدَّثنا، فلا الماضي يهمّ ولا المستقبل موجود. عرف بشأن خوليان برابو، وارتاب في الأسباب التي جعلَتني أكفّ عن حبّه، ولكنَّه تجنَّب طرح الأسئلة. لم يحسب حسابًا لغير الوقت الذي نستطيع قضاءه معًا. حتى أنا لم أستفسر عن شيء. فلم أدرِ يومًا إذا كانت له أسرة، أو إذا سبق له الزواج ذات مرَّة، أو بِما اشتغل قبل أن يحترف مهنته الغريبة.

كان يمتلك بيتًا مُتجوِّلًا بسيطًا. وعلى متن تلك المركبة، كنَّا نجوب شتَّى أنحاء البلد، ولا سيَّما المنتزهات الوطنيَّة، على مدى أسبوعَيْن أو ثلاثة أسابيع. لم تكُن المركبة هي الأحدث طرازًا ولا الأوفر حظًّا من الفخامة، غير أنَّها أدَّت الغرض، ولم تخذلنا قطّ. اشتملَت على صالةٍ صغيرة، وطاولةٍ مُتعدِّدة الاستخدامات، ومطبخٍ بدائيٍّ، وحمَّام بلغ من الضيق حدًّا لم يكُن يسمح لي بالانحناء كي ألتقط الصابونة كلَّما سقطَت من يدي، ومرحاضًا كيميائيًّا، وخزَّان ماءٍ فوق السقف، فضلًا عن إمكانيَّة مدِّ المركبة بالكهرباء عن طريق توصيلها بالقابس في أحد المُخيَّمات. بينما استقرَّ في القسم الخلفيّ فراشٌ يفصله عن باقي المركبة بابٌ جرَّار. بدَت لنا المساحة كافية، ما لم يتساقط المطر طوال أيَّام حتى نُضطَرّ إلى البقاء محبوسَيْن في الداخل، الأمر الذي لم يحدث إلَّا في ما ندر.

إنَّ الولايات المتَّحدة كَوْنٌ كامل، إذ تضمّ على أرضها أممًا

شتّى، ومناظر الطبيعة كلّها. كنتُ وروي نسافر بهدوء، بلا مسارٍ مُحدَّد، فنذهب حيثما سار بنا إلهامُ اللحظة. وهكذا سافرنا من وادي الموت في كاليفورنيا، الذي تجوبه أشباح الموتى ممَّن قضوا نحبهم في الصحراء حيث تبلغ الحرارة 52 درجة مئويَّة، وصولًا إلى أحد أنهار ألاسكا المُثلَّجة حيث ركبنا زلَّاقةً يجرّها اثنا عشر كلبًا. كنَّا نتوقَّف على الطريق، في أيِّ مكان، فنتمشَّى طويلًا ونتحمَّم في الأنهار والبحيرات، ونصطاد الأسماك، ونطهو الطعام في الهواء الطلق.

أذكر آخر ليلةٍ خلدنا فيها إلى النوم معًا في البيت المُتجوِّل وكأنَّها البارحة. كنتُ في الرابعة والستِّين، على الرَّغم من شعوري بأنَّني في الثلاثين. بعد أن قضيْنا أسبوعًا رائعًا في منتزه يوسمايت، في مطلع الخريف، خلال تلك الفترة التي تقلّ فيها أعداد السائحين ويتبدَّل المشهد بطريقةٍ سحريَّة، وتكتسب الأشجار ألوانًا نابضة، حمراء، وبرتقاليَّة، وصفراء. كعهدنا في كلّ مساء، طهوْنا العشاء على المشواة: سمكةً طازجة وخضروات. وإذا بدبٍّ يظهر فجأةً على مسافةٍ قصيرة، حيوانٌ هائل الحجم، داكن اللون، مضى يتمايل صوبنا، واقترب حتى بات في مقدورنا سماع لهاثه، بل ويمكنني القسم إنَّنا تشمَّمنا رائحة أنفاسه. تلقَّينا تعليمات بشأن تلك الحالة الطارئة، ولكنْ في تلك اللحظة من الهلع، تبخَّرت التعليمات من ذهني. قيل لنا أن نبقى جامديْن، ألَّا نصرخ أو ننظر إلى عينَيْه. أمَّا أنا، فانطلقتُ صياحًا وقفزًا من فرط الرعب.

انتصب الدبّ على قدمَيْه، رافعًا ذراعَيْه إلى السماء، وأجابني بزمجرةٍ هائلةٍ من الحلق، ظلَّت تتردَّد كرجع الصدى الطويل. أمَّا

روي، فلم ينتظر، بل أمسك بسترتي، ثم جذبني إلى المقطورة وهو يكاد يرفعني في الهواء رفعًا. أسعفنا الوقت للدخول وإقفال الباب في وجه الدبّ، الذي انقضّ على المركبة وهزَّها عدَّة مرَّات، ساخطًا، قبل أن يوجِّه انتباهه إلى الطعام الذي كنَّا نطهوه. وما كاد يُشبع جوعه بعشائنا وكيس المُخلَّفات حتى جلس يراقبَ الليلَ مُقبِلًا بسلام راهبٍ بوذيٍّ.

ليلتذاك، لم نطلّ خارج المركبة، وتعشَّينا فاصوليا مُعلَّبة. في ساعةٍ بعيْنها، ذهب الدبّ، فلملمنا حوائجنا في الصباح وعجَّلنا بالرحيل. أعتقد بأنَّني لم أشعر بهذا القدر من الخوف إلَّا مرَّاتٍ قليلة جدًّا. منذ ذلك الحين، ذهبتُ إلى حديقة الحيوانات أكثر من مرَّة حتى أراقب الدببة، التي تبدو جميلةً عن بُعْد.

في تلك الإجازة، لفت انتباهي أنَّ ثياب روي أصبحَت فضفاضة. نقص وزنه، وإن ظلَّ محتفظًا بالطاقة والحماسة المعهودتَيْن، فلم ألقِ إلى الأمر بالًا. في اليوم التالي، ودَّعنا بعضنا بعضًا في مطار لوس أنجلوس. عانقتُه، فلاحظتُه مُتأثِّرًا، دامع العينَيْن، وذلك شيءٌ غير مسبوق، لا يليق بصورة الفحل القويّ التي كان يُبديها.

ـ أبلغي كاميلو ابني تحيَّاتي. ـ قال، وهو يجفِّف دمعةً بيده الضخمة.

لطالما سأل عنك، وذكَّرني بمزحة تسجيلك بصفتك ابنه.

يومذاك، لم أظنّ بأنَّنا لن نتشارك الفراش مرَّةً أخرى أبدًا. مات روي مريضًا بالسرطان بعد عامٍ واحد. أخفى عنِّي مرضه

رغبةً منه أن أذكره موفور الصحَّة، عاشقًا، مفعمًا بالحيويَّة، ولكنَّ ريتا ليناريس نبَّهَتني.

ـ روي وحيد يا ڤيوليتا، لم يحضر لرؤيته أحد، يبدو أنَّه بلا أسرة. كما أنَّه لم يسمح لي بالاتِّصال بأيٍّ من أصدقائه. حين لم يعُد يقوى على احتمال الألم، وافق على المجيء معي. نحن صديقان منذ عهد المدرسة، وهو حاضرٌ في حياتي منذ وصلتُ إلى هذا البلد، عندما كنتُ طفلةً مهاجرة تتكلَّم الإنجليزيَّة بمشقَّة. لطالما ساعدني كلَّما احتجتُ إلى ذلك، وهو عندي كالأخ. ـ قالت، باكيةً.

سافرتُ بالطائرة إلى لوس أنجلوس من فوري، على أمل أن أجده باقيًا في بيت ريتا، غير أنَّه قد نُقِل إلى المستشفى حيث وُلِدتَ أنت، وحيث رأيتُ نييبيس للمرَّة الأخيرة، في ذلك المستشفى ذي الأروقة الواسعة، والأضواء الفوسفوريَّة، والأرضيَّة المشمَّعة، بما حوى من روائح مُطهِّرات، والمصلَّى الذي صُنِعَت نوافذه من الزجاج المعشَّق. وجدتُ روي موصولًا بجهاز تنفُّس، محتفظًا بوعيه. عجز عن الكلام، ولكنِّي رأيتُ في عينَيْه أنَّه قد تعرَّفني، كما أودّ التفكير بأنَّه قد وجد في حضوري عزاء.

ـ أحبّك يا روي، أحبّك جدًّا، جدًّا... ـ كرَّرتُ عليه ألف مرَّة.

في اليوم التالي قضى نحبه، مُتشبِّثًا بيدي ويد ريتا.

كاميلو، لقد كبرتَ بسرعةٍ بالغة، حتى إنَّني فزعتُ من حضور

ذلك الشابّ الغريب في حُجرتي عندما جئتَ أنتَ ذات ليلة، مُتمنّيًا لي نومًا هانئًا. جئتَ بالزيِّ المدرسيّ يومَ الجمعة، أي بما علق به من عرقٍ ووسخٍ طوال الأسبوع، وشعرك يُشبه المكنسة على رأسك، وأمارات السخط مرتسمةً على وجهك، بعد أن فقدتَ الدرَّاجة وركضتَ أكثر من عشرين مربَّعًا سكنيًّا لتصل إلى البيت قبل حظر التجوُّل.

ـ أين كنت؟ الساعة قاربت العاشرة ليلًا يا كاميلو.

ـ كنت أحتجّ.

ـ ضدَّ مَنْ؟ هل لي أن أعرف؟

ـ العسكر، وإلَّا فضدّ مَن أحتجّ؟

ـ أجُنِنت! أمنعك من ذلك!

ـ يبدو لي أنَّك لا تملكين السلطة المعنويَّة التي تسمح لكِ بمنعي من ذلك. ـ قلتَ. وغمزتَ لي بعيْنك، بتلك الشقاوة الساخرة التي كانت تجرِّدني من سلاحي في كلِّ مرَّة.

صحيح أنَّني خضعتُ لعمليَّة تركيب مسمار طبِّي في عظم الترقوة لأنَّني أقحمتُ نفسي في واحدٍ من تلك الاحتجاجات، ولكنَّه سوء الحظّ. آنذاك، ما كنتُ أجازف بنفسي، كلّ ما حدث أنَّ ذلك الحشد قد جرفني وأنا في سبيلي إلى عبور الشارع، فلم أقوَ على الفرار. انقضَّ رجال الشرطة على المتظاهرين بالعصيِّ والغاز المسيِّل للدموع، وأطلقوا عليهم دفقات المياه القذرة باستخدام خراطيم الضغط العالي. أصابتني دفقةٌ من المياه، فدفعَتني إلى جدار أحد الأبنية. خلال الأيَّام الثلاثة الأولى بعد

الجراحة، صارعتُ الألم بالمُسكِّنات القويَّة والماريجوانا، ولكنِّي أمضيتُ شهرًا وذراعي في الجبيرة، فنفد صبري. ليلتذاك، رأيتُ لمحةً أولى من الشقاء الذي امتدَّ طوال الأربعة أعوام التالية، الأعوامِ المتبقِّية من عمر الديكتاتوريَّة. ما دمتَ تُثير الشغب وأنت في الرابعة عشرة، فلن تصل إلى سنِّ الرشد، لأنَّ العسكر سوف يعترضون سبيلك. شقيتُ بسببك حتى امتلأ رأسي بالشعر الأشيب، أيُّها الصغير اللعين!

انتقلنا من الشقَّة العتيقة القائمة أمام المنتزه اليابانيّ، الذي بات الآن يُدعَى منتزه الوطن. فبعد وفاة خوسِّيه أنطونيو وميس تايلور، صارت الشقَّة أكبر ممَّا يلائمنا، ولم تعُد مناسبة لحالتي المعنويَّة. ذهبنا نحن الأربعة، إتيلبينا وكريسبين وأنت وأنا، إلى ذلك البيت الصغير الذي تهدَّم في الزلزال، أتذكر؟ كان موقعه بعيدًا عن وسط المدينة والمدرسة العسكريَّة، حيث كان يندلع الشغب في معظم الأحوال. أمَّا الانتقال من بيتٍ إلى آخر، فيُعَدّ خطوةً أخرى قطعتُها في طريق التجرُّد من التوافه التي بدَت لي ضروريَّة في الماضي، ثم ضقتُ بها ذرعًا. تخلَّصتُ من قطع الأثاث الثقيلة، والأبسطة الفارسيَّة، والزينة الكثيرة، فلم أحتفظ إلَّا بلوازم البيت الأساسيَّة. ما إن اختارت إتيلبينا الأغراض التي ترغب في الاحتفاظ بها ـ تحسُّبًا للوقت الذي تقرِّر فيه الانتقال إلى شقَّتها الخاصَّة، التي كانت تُستأجَر وتدرّ عليها ريعًا ـ حتى اتَّصلْتُ بسرب أبناء الأشقَّاء وبناتهم، الذين كانت صلتي بهم ضعيفةً في واقع الأمر، كي يأخذوا ما يحلو لهم من الأغراض، فاختفى كلّ شيءٍ في أقلِّ من يومَيْن على وجه التقريب. انتقلنا

بالحدِّ الأدنى من الأغراض، إزاء حيرة إتيلبينا، التي لم تفهم نزوة العيش كالمعوزين ما دام في وسعنا العيش كالأثرياء.

من الصعب أن يصنع المرء ثروةً بالعمل، كما عملتُ في شبابي. فكلّما زاد العملُ مشقّةً تدنّت الأجور. أمّا الإثراء من دون إنتاج أيّ شيء، عن طريق نقل النقود من موضعٍ إلى آخر، والمضاربة، واستغلال الفرص في البورصة، والاستثمار في جهود الآخرين، فأيسر كثيرًا. وما دام المرء يعيش على العمل اليوميّ، فمن السهل أن يخسر كلّ شيء ويجد نفسه على قارعة الطريق. ولكنْ حتى تبديد الثروة أمرٌ عسير، لأنَّ المال يجتذب المزيد من المال، الذي يتضاعف في ذلك البُعْد الغامض، بُعْد الحسابات البنكيّة والاستثمارات. ولقد أسعفني الوقت لتكديس الكثير من المال قبل التفكير في كيفيّة إنفاقه.

في البدء، كانت النساء اللاتي التقيتُ يومَ ذهبنا للتعرُّف على رفات الكهف. ديغنا، وروساريو، وغلاديس، وماريّا، ومالبا، وديونيسيا. وأخريات، وخاصّة سونيا، أمّ الأشقّاء نابارّو الأربعة، تلك المرأة القصيرة، القويّة، الراسخة كشجرة البلُّوط، التي وجدَت دليلًا يثبت مقتل أبنائها يومذاك، كما حدَّثَتْها الظنون أعوامًا طوالًا، ولكنّها بدلًا من الاستغراق في الحِداد، تصدَّرَت صفوف الأخريات للمطالبة بتسلُّم العظام، وعقاب المذنبين. جميعهنَّ فلّاحات من منطقة تقع قربَ ناويل، وأكثرهنَّ من معارف فاكوندا. كانت كلّ امرأةٍ من أولئك النساء عماد أسرتها، لأنَّ الرجال الباقين إمّا تغيّبوا وإمّا استسلموا لليأس. عملنَ من مشرق الشمس إلى مغربها، وظللنَ على تلك الحال حتى النهاية. حلمنَ

بأن ينتهي أبناؤهنَّ أو أحفادهنَّ من الدراسة، ثم يتأهَّلوا لإحدى المهن، ويعيشوا حياةً أوفر حظًّا من الراحة بالقياس إلى تلك الحياة التي عشنها.

بدأتُ أزورهنَّ واحدةً تلو أخرى، فصحبَتني فاكوندا في أغلب المرَّات. حكينَ لي عن ذويهنَّ المختفين، وكيف كانوا في حياتهم، وكيف أُلقِي القبض عليهم، وعن البيروقراطيَّة الأبديَّة التي واجهنَ في رحلة البحث، وعن قرع الأبواب وإرسال الرسائل والجلوس أمام المخافر وعرض المطالب، عن الطرد والتكميم والتهديد الذي عانينَ منه، عن المثابرة والاستمرار في السؤال. بَكَيْنَ في غير صخب، وضحكنَ أيضًا في بعض الأحيان، وقدَّمنَ لي الشاي، والأعشاب المغليَّة، والمتَّة، نظرًا إلى نقص القهوة. ولقد حذَّرَتني فاكوندا من تقديم الهدايا، وإلَّا فربَّما انطوَت على إهانة، نظرًا إلى عجزهنَّ عن ردِّ الهدايا بمثلها. كنتُ أحمل إليهنَّ الأدوية متى احتجنَ إليها، والأحذية الرياضيَّة من أجل الأطفال، فيقبلنها ويهدينني بيضًا أو دجاجة.

رحتُ أندمج في المجموعة رويدًا رويدًا، بحذر، لئلَّا يشعر أحدٌ بالإهانة. سلَّمتُ باختلافي عنهنَّ في غير مداراة، وإلَّا كان التظاهر بغير ذلك عديم الجدوى. تعلَّمتُ الإنصات إليهنَّ من دون أن أحاول حلّ المشكلات أو تقديم النصائح. خطرَت على بال فاكوندا فكرة اللقاء أيَّام الجمعة في المزرعة. كانت تعيش مع ابنتها نارسيسا، التي صارت أمًّا بدينةً مُستبِدّة، فضلًا عن حفيدةٍ لها تُدعَى سوسانا، أخبرك عنها لاحقًا. توقَّفَتْ عن الخبيز منذ أكثر من عام، لأنَّ جسدها ما عاد يقوى على كلِّ هذا العمل،

حسبما قالت، وإن تفانت في إعداد كعكاتها الشهيرة من أجل نساء الجمعة، بمساعدة نارسيسا. كنتُ أحضر مرَّةً واحدة في الشهر على وجه التقريب، لأنَّ الرحلة من العاصمة طويلة جدًّا.

في تلك الحقبة، عاودتُ الاتِّصال بأنطون كوزانوفيتش وتعرَّفتُ بابنته مايلين، ذات الاثني عشر عامًا، النحيفة، التي لا يبرز من جسدها إلَّا مرفقاها وركبتاها وأنفها، على الرَّغم من جدِّيَّتها الخليقة بكاتب عدل، قدَّمَت الفتاة نفسها على أنَّها نسويَّة، فتذكَّرتُ تيريسا ريباس، النسويَّة التي لم يسبق لي التعرُّف بغيرها. سألتُها عمَّا يعنيه ذلك بالنسبة إليها، فأخبرَتني بأنَّها تكافح ضدَّ النظام الأبويّ، أي ضدَّ الرجال بوجه العموم.

ـ ڤيوليتا، لا تلقي إليها بالًا، فهي الآن مندمجة في هذا الشيء، وغدًا تتجاوزه. في العام الماضي، كانت نباتيَّة. ـ أوضح لي والدها.

تأثَّرتُ بعزيمة الطفلة القويَّة في تلك اللحظة، ولكنِّي سرعان ما نسيتُها. لم يسعني التخمين بأنَّها ستصبح في غاية الأهمِّيَّة بالنسبة إليَّ وإليك يا كاميلو.

علَّمَتني أولئك النساء الريفيَّات أنَّ الشجاعة تنتقل بالعدوى، وأنَّ القوَّة في العدد. فما لا تنجح فيه امرأةٌ وحيدة، تنجح فيه النساء مجتمعات، وكلَّما زدن عددًا، فذلك أفضل. كنَّ ينتمين إلى جمعيَّة وطنيَّة تضمّ مئاتٍ من أمَّهات المختفين وزوجاتهم، ولقد بلغ عزمهنَّ من القوَّة حدًّا جعل الحكومة لا تقوى على تفريقهنَّ. أنكرَت النسخةُ الرسميَّة وجودَ مختفين، واعتبرَتها بروباغاندا

شيوعيَّة، كما وصفَت أولئك النساء بالمجنونات الهدَّامات عدوّات الوطن. بينما أذعنَت الصحافة للرقابة، فلم تأتِ على ذكرهنَّ، وإن اشتهرن كثيرًا في الخارج بفضل الناشطات المدافعات عن حقوق الإنسان والمنفيِّين الذين استمرُّوا في حملة التنديد بالديكتاتوريَّة طوال أعوام.

في لقاءات الجمعة، التي كانت تُقدَّم خلالها كعكات فاكوندا، عرفتُ بوجود جمعيَّاتٍ نسويَّةٍ كثيرةٍ منذ عقود، جمعيَّاتٍ مختلفة الأهداف، لم يتمكَّن من سحقها شيء، حتى الذكوريَّة العسكريَّة. صار الحراك أشدّ صعوبةً في ظلِّ الديكتاتوريَّة، وإن لم يكُنْ ضربًا من المحال. اتَّصلتُ بمجموعاتٍ تكافح في سبيل تمرير قانون الطلاق ورفع التجريم عن الإجهاض: عاملات، نساء من الطبقة المُتوسِّطة، محترفات، فنَّانات، مُثقَّفات. بِتُّ أحضر تلك اللقاءات كي أتعلَّم، وأنا لا أجد ما أسهم به، حتى عثرت على الطريقة التي أقدِّم بها المساعدة.

24

لقد حانت اللحظة التي أُذكِّرك فيها بأنَّ هارالد فيسك، النرويجيّ الذي يهوى مراقبة الطيور، قد عاود الظهور في حياتي عام 1986. رأيتُه قبل أعوام، عندما جاء على متن الطائرة من بوينوس آيرس حتى يُخبرني بأنَّ خوان مارتين قد ولَّى هاربًا من الحرب القذرة وتقدَّم باللجوء في النرويج. ومع أنَّني ذهبتُ لرؤية خوان مارتين عدَّة مرَّات، لم أصادف هارالد، لأنَّ عمله في السلك الدبلوماسيّ كان يحمله من بلدٍ إلى آخر. في أواخر كلّ عام، كان من عادته أن يُرسل إليَّ تهنئة أعياد الميلاد عَبْر البريد، ذلك التقرير الذي يُرسله بعض الأجانب إلى أصدقائهم مُرفقًا بالأخبار المنزليَّة وصور العائلة الناجحة. في تلك الرسائل الجماعيَّة، لا يرد ذكرٌ لغير النجاحات، والأسفار، والمواليد، وحفلات الزفاف، فلا أحد يتعرَّض للإفلاس، أو يذهب إلى السجن، أو يُصاب بالسرطان، لا أحد ينتحر، أو يُطلَّق. من

حسن الحظّ أنَّ ذلك التقليد الغبيّ غير موجودٍ هنا. كان تقرير هارالد فيسك أسوأ حتى من الخيالات العائليَّة، ذلك أنَّه يشتمل على: الطيور،فالمزيد من الطيور. طيور من بورنيو، طيور من غواتيمالا، طيور من القطب الشماليّ. شيء لا يُصدَّق، حتى القطب الشماليّ تعيش فيه الطيور!

على ما أعتقد، أخبرتُك بأنَّ هذا الرجل قد عشق بلدنا، وقال عنه إنَّه أجمل بلدان العالَم، وإنَّ لدينا المناظر الطبيعيَّة كافَّةً: الصحراء القمريَّة، أشدّ الجبال ارتفاعًا، البحيرات البكر، وديان المزارع والكروم، المضائق والأنهار المُثلَّجة. لمس فينا الودّ وحسن الضيافة، لأنَّه حكم علينا بقلبٍ رومانسيّ، وقليلٍ من المعرفة. خلاصة القول إنَّه قد استقرّ على تمضية أيَّامه الأواخر هنا، أيًّا تكُن الأسباب. وذلك شيءٌ لم أفهمه قطّ يا كاميلو، فلا بدَّ من أن يكون في المرء مسٌّ من الجنون حتى يعيش في بلد الكوارث هذا، ما دام قادرًا على العيش في النرويج بطريقةٍ مشروعة. ما زالت أمامه بضعة أعوامٍ قبل التقاعد من مهنته، ولقد نجح في الحصول على منصب السفير لدى بلدنا، حيث ينوي التقاعد في المستقبل القريب، وتمضية أعوام الشيخوخة هنا، ليحقِّق الرغبة التي طالما صبَت إليها نفسه. اشترى عدساتٍ جديدةً قادرة على التقاط صور طائر الكندور فوق قمم الجبال، واستقرَّ به المقام في شقَّةٍ تتميَّز بالبساطة، كما هو دأب الإسكندينافيِّين اللوثريِّين ـ تلك البساطة التي كثيرًا ما سخرَت منها إتيلبينا ـ ثم توصَّل إليَّ في وقتٍ لاحق.

كان حبِّي الأخير، روي كوپر، قد فارق الحياة منذ عام.

وبرحيله ودَّعتُ كلّ وهم رومانسيّ، إذ لم أحسبني قادرةً على الوقوع في الحبّ مرّةً أخرى. كنتُ موفورة الصحّة، مفعمةً بالطاقة، ولقد منحتني المُنظّمات النسويّة غايةً، فرحتُ أتعلّم وأشارك، وسعدتُ بحياتي سعادةً غامرة، وشعرتُ بأنّني شابّةٌ في كلّ شيء، إلّا في أوجال الحميميّة برفقة رجل، فالهرمونات يُحسَب لها حسابٌ يا كاميلو، وفي هذا العمر تدنّت هرموناتي إلى حدٍّ كبير. في حقبةٍ غير الحقبة، وثقافةٍ غير الثقافة ـ خُذْ إحدى قرى كالابريا على سبيل المثال ـ لا تعدو المرأة التي تجاوزَت الستّين أن تكون عجوزًا مُتّشحةً بالسواد. هكذا شعرتُ في الجنس، جهودٌ طائلة من أجل لذّةٍ عمرها في غاية القصر! ولكنّ خُيلائي لم تزَل بلا مساس، إذ كنتُ أصبغ شعري وأضع العدسات برغم فقداني الاهتمام بالثياب، وأشعر بالإطراء متى حسبني أحدهم أمّك بدلًا من جدّتك بين الحين والآخر.

ألِف هارالد روتيني رويدًا رويدًا. في البدء، دبّر أمره للذهاب معي إلى مزرعة سانتا كلارا في كثيرٍ من الأحيان. ولأنّ السفر بالسيّارة على تلك الطريق ملائمٌ بقدر السفر بالقطار، كان يقلّني بسيّارته الڤولڤو، فنُعرّج على مطاعمَ صغيرةٍ في القرى الساحليّة، حيث يقدّمون أفضل الأسماك وثمار البحر في العالَم بأسره. «الطعام في بلدي لا مذاق له، حتى وإن صُنِع بالمُكوّنات نفسها»، عقّب هارالد، الذي احتفى بنبيذنا بالقدر نفسه من الإعجاب. كنتُ أذهب لرؤية فاكوندا ونساء الجمعيّة، بينما يذهب هو مُفتّشًا عن الطيور التي سبق ورآها نحو مئة مرّة، وهناك ننزل في فندق ناويل، إذ لم تعُد قرية زمن المنفى الصغيرة التي كانت

تخلو إلَّا من شارعٍ واحدٍ وبيوتٍ من الألواح الخشبيَّة، وإنَّما ازدهر المكان وأصبح يضمّ بنكًا ومتاجر وحاناتٍ وصالونات تصفيف شعر، فضلًا عن صالون تدليك تحوم حوله الشبهات بمن عملن فيه من الحوريَّات الآسيويَّات. سرعان ما أصبح هارالد أعزَّ أصدقائي ورفاقي، فشرعنا نتردَّد إلى الحفلات السيمفونيَّة معًا، ونتنزَّه على التلال، كما دعاني بضع مرَّاتٍ إلى عشاءٍ مضجر في السفارة، حيث أراد منِّي أن ألعب دور ربَّة البيت، علمًا أنَّه بلا زوجة، الدعوة التي كنتُ أردّها باصطحابه إلى المظاهرات الآخذة في الزيادة عددًا وجرأةً.

لم نعلم آنذاك، ولكن أيَّام الديكتاتوريَّة كانت معدودة، وسلطة العسكر الأحاديَّة صارت مُفتَّتة من الداخل. كما بدأ الناس يفقدون الشعور بالخوف. وعلى الرَّغم من الحظر، قامَت الأحزاب السياسيَّة من الأموات سرًّا، واحتشدَت للمطالبة بعودة الديموقراطيَّة. كان هارالد يذهب إلى مظاهرات الشوارع بثياب المستكشفين، بالسروال القصير، والصديريِّ ذي الجيوب التي لا يُحصَى لها عدد، والبوط، والكاميرا المُتدلِّية من العنق. كان فُرجةً للناظرين، وهو الرجل ذو القامة الفارعة، الأشقر، المنفصل عن الواقع، المفعم بالحماسة، وكأنَّه طفلٌ في الكرنڤال. «لا شيء أكثر تسلية من هذا!»، كان يصيح وهو يلتقط صور العسكر عن كثب. ومن المعجزات أنَّه لم يُصَب بضربةٍ من العصا في رأسه قطّ، ولم يتلقَّ دفقةً من مياه الخراطيم. أمَّا الغاز المسيِّل للدموع، فقد احتمى منه بنظَّارات سباحة ومنديلٍ مُبلَّلٍ بالخلّ. وفي وقتٍ لاحق، كان يرسل الصور التي التقطها إلى الصحافة الأوروبيَّة.

في تلك الآونة، كنتَ تهرب من المدرسة قاصدًا قرية العمَّال حيث يسكن الكاهن ألبير بينوا، الرجل الذي فتح كهف الموتى. اتَّخذتَ ذلك الفرنسيّ بطلًا لك، وهو الذي بشَّر بإنجيل المسيح العمَّالي، وكنيسة التحرير، وأُدين بتهمة العصيان. كان يقف ثابتًا مكانه، فاتحًا ذراعَيْه في وجه المركبات المُدرَّعة ورشَّاشات الجنود لئلَّا يكتسحوا القرويِّين. أضف إلى ذلك أنَّه كان يعترض سبيل أفراد الحشود الغاضبين الذين يحاولون خوض المعركة بالأحجار، وينجح في التهدئة قبل أن يذبحهم الجنود. ذات مرَّة، ألقى بنفسه على الأرض أمام عجلات شاحنةٍ عسكريَّة حتى يمنعها من المضيّ قُدُمًا، وكان يفتح صدره أمام الرصاص، فتمضي أنت في أثره يا كاميلو، مُختلِطًا بالكثيرين من أهل القرية، وكأنَّك مُجرَّد فقيرٍ بين الفقراء، وتواجه العنف المُؤسَّسيّ فاتحًا ذراعَيْك، كما يفعل بينوا. أهناك وُلِدَت بذرةُ رسالتك الدينيَّة، وسط الأحجار والرصاص والغاز المسيِّل للدموع؟

اعتُقِل واغتيل رجال دينٍ آخرون. أمَّا بينوا، الذي كان في حماية السماء، فاقتصر الأمر على طرده من البلد وحسب. تعالَت الأصوات المُعارِضة للنظام العسكريّ كهديرٍ يصمّ الآذان، حتى نفدَت وسائل النظام الوحشيَّة لإسكاتها.

ذات جمعة، في المزرعة، قدَّمتُ هارالد لنساء المجموعة، فما لبثن أن تعرَّفن ذلك الأجنبيّ المجنون الذي يرينه أحيانًا وهو يراقب السماء بالمنظار، مُتلصِّصًا على الملائكة. كان عددٌ من أولئك النساء يُطرِّزن منسوجاتٍ عفويَّة، بقطعٍ من مختلف صنوف القماش، على خلفيَّةٍ من قماش القنَّب، يصوِّرن فيها قسوة الحياة والسجون

والطوابير المُصطفَّة أمام المخافر وقدور الطعام المشتركة. بدَت المنسوجات لهارالد استثنائيَّة، فأخذ يُرسلها إلى أوروبا، حيث لاقت رواجًا كبيرًا، بل وعُرِضَت في المعارض والمتاحف بوصفها قطعًا فنِّيَّة تجسِّد المقاومة. تسلَّمَت المبدعات العائد الماديّ كاملًا، ولذا فسرعان ما ذاع الخبر، وإذا بمئات النساء يشرعن في التطريز بطول البلد وعرضه. ومهما صادرَت السلطة من تلك المنسوجات، كان يظهر المزيد في كلِّ مرَّة. عند ذاك، أنشأت الحكومة برنامجًا لترويج المنسوجات المتفائلة، تلك التي يظهر فيها الأطفال وهم يلعبون لعبة الحلقة، كما تظهر الفلّاحات وهنَّ يحملن طاقات الأزهار بين أذرعهنَّ، فلم يرغب فيها أحد.

ليلتذاك، وفي حديثي إلى هارالد عن تلك المجموعة وغيرها من المجموعات، حكيتُ له أنَّها قد وهبَتني حياةً جديدة، على الرَّغم من شعوري بأنَّ مساهمتي قطرةٌ من الماء في صحراءَ من العوز.

ـ ما أكثر العمل اللازم يا هارالد!

ـ تعملين ما يكفي يا ڤيوليتا. لا يمكنكِ إسعاف جميع الحالات التي تعرض لكِ.

ـ كيف يمكن توفير الحماية للنساء؟ ذات مرَّة، قالت لي صبيَّةٌ في الثانية عشرة إنَّ الهدف الأخير هو الإطاحة بالنظام الأبويّ.

ـ أتَّفق، ولكنَّه مشروعٌ طموحٌ بعض الشيء في الوقت الحالي، لا بدَّ من الإطاحة بالديكتاتوريَّة هنا أوَّلًا.

ـ يجب عليَّ إنشاء مُؤسَّسةٍ لتمويل البرامج، بدلًا من

الحالات الفرديَّة. لا بدَّ من تغيير القوانين...

تأكَّدتُ من امتلاكي ما يكفي لعيش حياةٍ لائقة، وحماية حفيدي، ثم أودعتُ البقيَّة في مُؤسَّسة نيبيس. متى رحلتُ عن هذا العالَم، سيكون ذلك هو الشيء الوحيد المُتبقِّي منِّي، لأنَّ الوديعة سوف تدرّ الفوائد وتستمرّ لوقتٍ طويلٍ ما استُثمِرَت جيِّدًا. مايلين كوزانوفيتش هي المُكلَّفة بذلك، مع أنَّك أنت الذي كان يجب عليك تحمُّل هذه المسؤوليَّة يا كاميلو. بنقودي، يمكنك أن تصنع خيرًا كثيرًا، غير أنَّك تفتقر إلى موهبة المضيّ قُدُمًا بالمُؤسَّسة، لأنَّك في غاية الشرود. تؤمن بنظريَّة «الربّ يعطي»، ولكنَّ الربّ لا يُعطي شيئًا على شكل نقود. إنَّ اختيار الفقر طوعًا، كما فعلتَ أنت، شيءٌ جديرٌ بالإطراء، ولكنَّك إن شئتَ مساعدة الآخرين، فخيرٌ لك أن تستفيق. لا ينبغي لي استباق الأحداث، وإلَّا اختلط عليَّ الأمر. في هذا الجزء من السرد، ما زالت مايلين في طور الحُلُم، ولن تدخل حياتنا قبل سنوات، فهي ما زالت طفلةً تصغرك بثلاثة أعوام، مع أنَّها أذكى وأنضج منك كثيرًا.

كنتَ طالبًا بمدرسة سان إغناسيو الداخليَّة، حيث يُفترَض بالكهنة أن يحافظوا عليك من نفسك، فكيف لك بالنجاح في الهرب طوال الوقت من دون أن يوقعوا بك؟ بشقاوتك، اختبرتَ صبري منذ الصغر، على الرَّغم من حماية إتيلبينا التي كانت تغطِّي ظهرك. ألحقتُك بمدرسةٍ داخليَّة لعجزي عن السيطرة عليك، لا رغبةً في التخلُّص منك، حسبما قلتَ أنت لائمًا. يبدو أنَّك نسيت الأفعال الخبيثة التي كنتَ ترتكب. أمَّا القطرة التي أفاضَت الكأس، فكانت حين تسلَّلتَ مع صديقٍ لك إلى أحد البيوت

بدافع السرقة. حسبتما البيت خاليًا، فاستقبلَتكما سيِّدةٌ بالبندقيَّة، وكادت تنسف رأسَيْكما رميًا بالرصاص. ماذا تريد منِّي أن أفعل؟ ألحقتُك بمدرسةٍ داخليَّةٍ للكهنة، طبعًا. لم يعُد العقاب الجسديّ معمولًا به. يا للخسارة! فلو تلقَّيتَ بضع صفعاتٍ على مُؤخِّرتك لاستفدتَ فائدةً كبيرة.

لنعُد إلى هارالد فيسك. مَن كان يتخيَّل أنَّ ذلك الإسكندينافيّ سوف يغدو زوجي! أنسى أنَّني قد تزوَّجتُ فابيان شميدت ـ إنغلر في شبابي، ولذا درجتُ على القول إنَّ هارالد فيسك هو الرجل الذي لم أتزوَّج سواه. لم يترك ذلك البيطريّ في نفسي أثرًا، فأنا لا أذكر حتى إنَّني قد شاركتُه الفراش ذات مرَّة. الذاكرة في غاية الانتقائيَّة، كما ترى. في الماضي، كنتُ أسجِّل الغراميَّات القصيرة المُختلَسة، فأدوِّن الأسماء والتواريخ والملابسات، وأُقيِّم الأداء بدرجةٍ من واحدٍ إلى عشرة، ثم أمسكتُ عن ذلك، لأنَّها قائمةٌ جديرةٌ بالشفقة، لم تشغل إلَّا صفحتَيْن من الدفتر.

كنتُ ألتقي بهارالد عدَّة مرَّاتٍ كلّ أسبوع، لفترةٍ طويلة، باعتبارنا صديقَيْن مُقرَّبَيْن، فأسافر معه جنوبًا، وأتسلَّى معه في مظاهرات الشارع. عند ذاك، زجَّت إتيلبينا في رأسي بتلك الفكرة، وقالت إنَّه واقعٌ في حبِّي.

ـ كيف يخطر لكِ أمرٌ كهذا يا امرأة، فهو يصغرني كثيرًا! كما أنَّه لم يلمح إلى شيءٍ من هذا القبيل قطّ.

ـ إذن، فلعلَّه خجول. ـ ألحَّت هي.

ـ ليس خجولًا يا إتيلبينا، بل إنَّه نرويجيّ. في بلده، لا أحد

يعاني نزوات الشغف التي ترينها في مسلسلاتك.

ـ لماذا لا تسألينه يا سيّدتي؟ وهكذا تنجلي الشكوك ويتَّضح لنا الأمر.

ـ وما شأنك بهذا يا إتيلبينا؟

ـ أنا أيضًا أعيش في هذا البيت، أليس كذلك؟ ويحقّ لي أن أعرف مشروعاتك.

ـ لا مشروعات لديَّ.

ـ ولكنْ ربَّما كانت لدى السيِّد هارالد مشروعات...

لم أستطِع نزع الشكوك من رأسي، وبدأتُ أراقب هارالد بانتباهٍ بحثًا عن إشاراتٍ كاشفة. ومن بَحَث وَجَد. تراءى لي أنَّه يغتنم أيَّ ذريعةٍ حتى يلامسني، ناظرًا إليَّ وقد ارتسمَت على وجهه تعابير جروٍ صغير. خلاصة القول إنَّ هدوئي قد نفد. بعد وقتٍ يسير، كنَّا في واحدٍ من مطاعم السمك المُطِلّة على الشاطئ التي ذكرتُها لك، نتقاسم سمكة قاروسٍ مُحمَّرة في الفرن وقارورةً من النبيذ الأبيض، عندئذٍ لم أقوَ على احتمال الشكّ أكثر ممَّا فعلت.

ـ قُلْ يا هارالد، ماذا تنوي بشأني؟

ـ لماذا؟ ـ سألني، في حيرةٍ من أمره.

ـ لأنَّني في السادسة والستِّين من العمر، وأفكِّر في شيخوختي. أضف إلى ذلك أنَّ إتيلبينا تريد أن تعرف.

ـ قولي لها إنَّني أنتظر منكِ أن تطلبي يدي حتى أتزوَّجك. ـ أجابني وهو يغمز بعيْنه.

ـ هارالد فيسك، أتقبل ڤيوليتا دِل بايّيه زوجةً لك؟ ـ طلبتُ يده.

ـ ذلك رهنٌ بما يلي: أتتعهَّد تلك المرأة باحترامي وطاعتي ورعايتي حتى آخر أيّامي؟

ـ حسنًا، أتعهَّد برعايتك على الأقلّ.

شربنا نخبنا ونخب إتيلبينا، سعيدَيْن، لأنَّ المستقبل يتفتَّح واضعًا أمامنا طيفًا من الاحتمالات. وبينما نحن عائدان بالسيَّارة، أخذ بيدي، ومضى يدندن طوال الطريق. أمَّا أنا، فرحتُ أتصوَّر خائفةً، وأتخيَّل تلك اللحظة التي أُضطَرّ فيها إلى خلع ثيابي أمامه. لم يسبق لي الذهاب إلى صالة الألعاب الرياضيَّة قطّ، فتراخى لحم ذراعَيّ، وبرز بطني، وتهدَّل نهداي في اتّجاه ركبتَيّ. غير أنَّ تلك اللحظة لم تحِن بالسرعة التي ظننتُها، لأنَّ خبرًا مُروِّعًا كان ينتظرني في البيت.

وجدنا ناظر مدرسة سان إغناسيو يواسي إتيلبينا، التي استغرقَت في نحيبٍ مُتهدِّج، لأنَّ نور عينَيْها قد أُلقِي القبض عليه. لم تكُن المرَّة الأولى التي يتَّهمك فيها الناظر بارتكاب فعلةٍ شيطانيَّة، إذ سبق وهدَّدني بطردك عندما قضيتَ حاجتك فوق السلحفاة التي اتَّخذَتها المدرسة تميمةً لها، وعندما تسلَّقتَ واجهة البنك المركزيّ كالعنكبوت، وتعلَّقتَ بصاري العَلَم، حتى اضطُرّ إلى إنقاذك رجال الإطفاء. ولكنَّ الأمر أشدُّ خطورةً بكثير هذه المرَّة.

ـ لقد هرب كاميلو من المدرسة مرَّةً أخرى، فضبطَته دوريَّة وهو يرسم شعارات معارضة للديكتاتوريَّة. كان معه فَتَيان آخران، ولكنَّهما ليسا من تلاميذنا. هرب الآخران، بينما أُلقِي القبض على حفيدكِ ممسكًا ببخَّاخ الطلاء. سيِّدتي، لقد تحرَّكنا للتحقُّق

من الموقع الذي اقتيد إليه، وقريبًا نتوصَّل إلى معلوماتٍ بهذا الشأن. ـ قال لي الناظر.

يجب عليّ الاعتراف بأنّي فقدتُ رشدي، لأنَّ الوسائل التي اتَّبعَتها الشرطة كانت معروفةً بالقدر الذي يكفي ويفيض. أمَّا كون حفيدي قاصرًا، فلن يهوِّن من الأمر. وفي لحظةٍ واحدة، تراصَّت أمامي القصص الفظيعة التي سمعتُها عن طريق مُؤسَّستي، وذكرى ضحايا الكهف بناويل. كان في يدهم أن يفتكوا بك خلال الساعات القليلة التي مرَّت بعد إلقاء القبض عليك.

لن أغفر لك أبدًا تلك الحماقة التي ارتكبتَها يا كاميلو. كنتَ صغيرًا أحمق، وكدتَ تقتلني بنوبة إغماءٍ مفاجئة. ما زلتُ أشعر بالغضب كلَّما تذكَّرت. كنتَ عديم المسؤوليَّة تمامًا، تعرف كيف يُمارَس القمع، وعلى الرَّغم من ذلك، ظننتَ نفسك قادرًا على السماح لنفسك بترف الشقاوة مرَّةً أخرى، والإفلات بفعلتك. اخترتَ القاعدة الرخاميَّة التي يقوم عليها ذلك النصب التذكاريّ الوحشيّ المنحوت على طراز الرايخ الثالث، تمثال مُخلِّصي الوطن المُتوَّج بشعلةٍ دائمة تتصاعد منها الأبخرة في سماء العاصمة، وانقضضتَ عليه بالطلاء الأسود. أودُّ التفكير بأنَّها لم تكُن فكرتك، وإنَّما فكرة شريكَيْك، اللذين لم تبُح باسمَيْهما قطّ، لا أمام الناظر، ولا أمامي، ولا أمام أحد، كائنًا من كان. واكتفيتَ بأن قلتَ لي في السرِّ إنَّهما من قرية ألبير بينوا. هشَّم رجال الشرطة وجهك ضربًا. «من هما الآخران؟»، «أين تعرَّفتَ بهما؟»، «انطق باسمَيْهما! تكلَّم أيُّها الطفل الحقير!».

في ذلك الموقف، كنتُ لأضحّي بحياتي كي أجد خوليان

برابو إلى جواري، فجدّك رجلٌ يملك من الوسائل والصلات ما لا يُحصَى له عدد. في زمنٍ غير الزمن، كان سيعرف ما العمل، وإلى مَن يلجأ، ومَن يرشو. ولكنْ بسببي فقد خوليان قدراته، وانعزل عن العالَم في مزرعة پاتاغونيا. حتى وإن لبَّى ندائي، حتى وإن كان لا يزال محتفظًا ببعض صلاته في أوساط الحكومة، فهو لن يصل في الوقت المناسب. ذهبتُ مع الناظر إلى الكاتدرائيَّة، لعلَّنا نحصل على مساعدة أحد محامي لجنة التحقيق. بلغ منِّي التوتُّر مبلغًا جعله يُضطَرّ إلى تعبئة الاستمارة بنفسه، بينما كدتُ أموت من نفاد الصبر، ورحتُ أعدّ الدقائق التي أهدرناها في تلك الإجراءات.

ـ تحلِّي بالشجاعة يا سيِّدتي، فقد يستغرق الأمر حينًا... ـ حاول أن يوضح، ولكنِّي عجزتُ عن سماعه، وتملَّكني اليأس.

وفي تلك الأثناء، تحرَّك هارالد فيك. كانت سفارة النرويج، كغيرها العديد من المقرّات الدبلوماسيَّة، خاضعةً لمراقبة الحكومة، لأنَّها تمنح الحقّ في اللجوء للهاربين من النظام منذ أعوام. لم يحظَ هارالد بالنفوذ، بصفته مُمثِّل ذلك البلد، وإن جمعَته الصداقة بسفير الولايات المتَّحدة، الذي كان يتسلَّق معه الجبال بالدرَّاجة. لم تعُد الحكومة تحظى بدعم الأميركان غير المشروط آنذاك، لأنَّ الديكتاتوريَّة تتهاوى، ووضع العالَم يتبدَّل. لم يكُن من اللائق دعمُ نظامٍ موسومٍ بالعار. وهكذا، عُهِد إلى سفير الولايات المتَّحدة بتلك المهمَّة السرِّيَّة، مهمَّة تمهيد الطريق لعودة الديموقراطيَّة إلى بلدنا. الديموقراطيَّة المشروطة، بالطبع.

ـ إنَّ ذلك الفتى ابن خطيبتي. لقد ارتكب حماقةً، ولكنَّه ليس إرهابيًّا. ـ قال له هارالد.

كان الفتى المذكور حفيدي، ولم أكُن خطيبة هارالد الرسميَّة بعد، في حقيقة الأمر، ومع أنَّك إرهابيٌّ منذ الثانية من العمر، فلا أهمِّيَّة للتفاصيل. وهكذا، وَعَدنا الأميركيّ بالتدخُّل.

أعتقد بأنَّك تذكر اليومَيْن اللذين أمضيتَهما في قبضة الشرطة جيِّدًا جدًّا. حتى أنا لم أنسَ دقيقةً واحدة هذا الوقت الرهيب الذي كان من الوارد أن يستمرّ دهرًا لو أحالتك الشرطة إلى إدارة الأمن، هناك حيث لا يقدر على إنقاذك أحد، حتى السفير الأميركيّ المُبارَك. ضربوك حتى غبتَ عن الوعي، وكانوا على استعدادٍ لتكرار الضرب المبرِّح لولا أنَّك طالبٌ في مدرسة سان إغناسيو، ولقب عائلتك دِل بايِّيه. حتى هناك، في زنزانة مخفر الشرطة، يجري العمل وفقًا لتدرُّج الطبقات الاجتماعيَّة يا كاميلو! كُن مُمتنًّا لأنَّك لستَ واحدًا من الفتيَيْن الآخرَيْن اللذين اشتركا معك في الرسم على النصب التذكاريّ، وإلَّا نكَّلوا بك أشدّ وأشدّ ممَّا فعلوا.

أُطلِق سراحك وأنت في حالةٍ يُرثَى لها، بوجهٍ منتفخٍ كثمرة القرع، وكدماتٍ في العينَيْن، وقميصٍ مُخضَّبٍ بالدماء، ورضوضٍ في كلِّ موضعٍ في جسدك. راحت إتيلبينا تضع الثلج على جسدك وتقبِّلك مدفوعةً بحبّها إليك، بينما هي تلطمك في الوقت نفسه، لأنَّك أحمق. أوضح لي الناظر أنَّ حفيدي يتسبَّب في مشكلاتٍ أكثر ممَّا ينبغي، ويحصل على درجاتٍ منخفضة لأنَّه لا يرغب في تأدية الواجبات، فضلًا عن سلوكه بالغ السوء.

ـ لقد دسَّ كاميلو فأرًا في حقيبة مُعلِّمة الموسيقى، وأفرغ محتويات عبوة مُليِّنٍ في طعام المُعلِّمين. كما ضُبِط وهو يُدخِّن الماريجوانا في الحمَّام، ويُجرِي قرعةً على الصور الإباحيَّة بين

طلّاب المرحلة الابتدائيّة. خلاصة القول إنَّ حفيدك سيكون أفضل حالًا في مدرسةٍ عسكريَّة...

ـ أنتم المذنبون! ـ قاطعتُه صارخةً ـ كيف حصل على الماريجوانا والمُليِّن وصور النساء العاريات؟ من يراقب الصغار في تلك المدرسة الداخليَّة؟

ـ سيِّدتي، إنَّها مدرسة، وليست سجنًا. ننطلق من قاعدةٍ مُؤدَّاها أنَّ الطلّاب ليسوا مجرمين.

ـ لا يمكن أن تطرد كاميلو، يا أبتِ. ـ توسَّلتُ إليه، ثم اتَّبعتُ أسلوبًا آخر.

ـ سيِّدتي، أخشى أن...

ـ حفيدي على وشك أن يصبح ماركسيًّا ملحدًا...

ـ ماذا تقولين؟

ـ كما سمعتَ يا أبتِ. ماركسيّ ملحد. إنَّه في ذلك الطور الصعب من العمر، وهو في حاجةٍ إلى الإرشاد الروحيّ. لا يمكن لرقيبٍ في المدرسة العسكريَّة أن يُرشده روحيًّا، أليس كذلك؟

رشقني الناظر بواحدة من تلك النظرات القاتلة. وبعد صمتٍ طويل، انطلق ضاحكًا عن طيب خاطر. لم يطردك من المدرسة. كثيرًا ما تساءلتُ عمَّا إذا كان ذلك واحدًا من المفترقات التي تقرِّر مصائرنا، تلك التي سبق وحدَّثتُك عنها. لو طُرِدتَ من سان إغناسيو، لبات من الوارد أن تغدو ماركسيًّا ملحدًا بدلًا من كاهن، وتصبح رجلًا عاديًّا، وتتزوَّج بفتاةٍ تلائم ذائقتي، وتهديني عددًا من أبناء الأحفاد. الحلم لا يكلِّف المرء شيئًا، على كلِّ حال.

25

لقد شهد العالَم وبلدنا وحياتنا تغيّرًا كبيرًا في مطلع التسعينيَّات. في عام 1989، سقط جدار برلين، واستطعنا أن نرى على شاشة التلفزيون سعادة أهل برلين الغامرة وهم يهدمون الجدار بالمطارق في ليلةٍ واحدة، الجدار الذي قَسَم ألمانيا طوال ثمانية وعشرين عامًا. وبعد وقتٍ قصير، انتهَت الحرب الباردة الدائرة بين الولايات المتَّحدة والاتِّحاد السوفييتيّ بصفةٍ رسميَّة. ولوقتٍ في غاية القصر، تنفَّس بعضنا الصعداء على أمل أن يتحقَّق السلام، وبرغمِ ذلك، فلطالما كانت الحرب دائرةً في مكانٍ ما. أمَّا قارَّتنا المُعذَّبة، فبرغم الاستثناءات التعيسة، بدأت تتعافى من وباء القادة العسكريِّين والثورات وحروب العصابات والانقلابات العسكريَّة والاستبداد والاغتيالات والتعذيب والإبادة الجماعيَّة، ذلك الوباء الذي أصابها في الماضي القريب.

هنا سقطَت الديكتاتوريَّة مُثقَلةً بحملها، مدفوعةً من الأسفل

بالجهود الجماعيَّة، في غير عنفٍ ولا دويّ. أفقنا ذات صباح على خبر إقامة الديموقراطيَّة، التي لم يعرفها الشباب، ونسيها الآخرون. في سعادةٍ غامرة، خرجنا للاحتفال في الشوارع، بينما اختفيتَ أنت يومَيْن في تلك القرية التي كان لك فيها كثيرٌ من الأصدقاء. راحوا يعدُّون حفلًا لاستقبال ألبير بينوا، الذي لم يفضّ حقيبته في فرنسا قطّ، ترقُّبًا للحظة العودة إلى أرضه بالتبنِّي. أمَّا أولئك الذين دافع عنهم فاتحًا ذراعَيْه أمام الدبَّابات والرصاص، فاستقبلوه كما يُستقبَل الأبطال. عندما انضمُّوا إليه في المسيرات مُسلَّحين بالأحجار، مثلما فعلتَ أنت أيضًا، كان بعضهم صغارًا، لم تنمُ لحاهم بعد، والآن صاروا رجالًا ونساء. ومع ذلك، تذكَّر ألبير بينوا كلّ واحدٍ باسمه.

في البدء، تولَّت السلطةَ حكومةٌ انتقاليَّة، في ديموقراطيَّةٍ مشروطةٍ حذرة استمرَّت عدَّة أعوام. لم تُسفر الديموقراطيَّة عن الفوضى التي تنبَّأت بها بروباغاندا الديكتاتوريَّة. بينما احتفظ بالسلطة أولئك الذين استفادوا من المنظومة الاقتصاديَّة على نحوٍ فاضح. لم يدفع أحدٌ ثمن الجرائم المُرتكَبة. ظهرَت الأحزاب السياسيَّة التي نجت بحياتها في الخفاء، وغيرها من الأحزاب الجديدة. ودبَّت الحياة في المُؤسَّسات التي حسبناها قد ماتت، وقبلنا ذلك الاتِّفاق الصامت الذي يقضي بألَّا نُثير سوى الحدّ الأدنى من الصخب حتى لا نستفزّ العسكر. بينما ذهب الديكتاتور إلى بيته في هدوء، وسط هتافات أنصاره، وفي حماية اليمين. أمَّا الصحافة، فنفضَت عن عاتقها حِمل الرقابة. وشيئًا فشيئًا، رحنا نتعرَّف بجوانب الأعوام الماضية الأكثر شؤمًا، وانقضى شعارُ المرحلة بإسدال حجاب

النسيان على الماضي من أجل بناء المستقبل.

كانت المستوطنة أمل من بين الأسرار التي انكشفَت بعد أن تحقَّقَت الحرِّيَّة للصحافة، تلك المستوطنة التي ظلَّت تحت حماية العسكر طوال أعوام، وأخيرًا تمكَّنَت الحكومة من فتحها، وإذا هي قد تحوَّلَت إلى سجنٍ سرِّيٍّ تُجرَى فيه التجارب الطبِّيَّة على السجناء السياسيِّين، كما أُعدِم فيه كثيرون. هربَ زعيم المستوطنة من دون أن يُمسّ بسوء، وأعتقد بأنَّه عاش حياةً هادئة في سويسرا حتى فارق الحياة. أترى ما قلتُ لك يا كاميلو؟ الأشرار سعداء الحظ. كانت فضيحةً مُدوِّية، لأنَّها أكَّدَت ما نُشِر في ألمانيا قبل أعوام، وجاء فيه أنَّ المستوطنين أيضًا، بمن منهم الأطفال، قد سقطوا ضحايا ذلك النظام المرعب.

ظهر في التلفزيون أشخاصٌ على صلةٍ بالمستوطنة المشؤومة، من بينهم فابيان شميدت ـ إنغلر، الذي بدا مختلفًا للغاية عن الرجل الذي تزوَّجتُه في شبابي. كان في السادسة والسبعين على وجه التقريب، ولقد زاد وزنه، ولم يبقَ له من الشَّعر إلَّا قليلًا. لعلَّني ما كنتُ أتعرَّفه لولا ذُكِر اسمه. ورد ذكر عائلة شميدت ـ إنغلر المُوقَّرة الكريمة، تلك التي أسَّسَت سلالةً مزدهرةً من أصحاب المزارع والفنادق في الجنوب. قيل إنَّ فابيان كان همزة الوصل بين المستوطنة وأجهزة الأمن العسكريَّة، على الرَّغم من جهله بالفظائع المُرتَكبة في تلك المساحة، ولذا لم يُتَّهم بارتكاب جريمةٍ بعينها. بحثتُ في كلِّ مكانٍ عن معلوماتٍ مُتعلِّقة بخوليان برابو ورحلاته الغامضة بالطائرة، فلم أجد شيئًا. لم تُذكَر إلَّا مروحيَّات الجيش التي كانت تنقل السجناء. أمَّا الطائرات الخاصَّة

الخفيفة التي كان يقودها، فلم يرد لها أدنى ذكر.

كانت تلك آخر مرَّةٍ تصلني فيها أخبار فابيان حتى فارق الحياة عام 2000، حين قرأتُ نعيه في الصحيفة. رحل تاركًا زوجةً وابنتَيْن وعددًا من الأحفاد. بلغنا أنَّهما ابنتاه بالتبنِّي، فهو لم ينجب من زوجته الثانية أيضًا. سعدتُ لأنَّه استطاع تكوين الأسرة التي عجز عن تكوينها معي.

جاء خوان مارتين برفقة زوجته وحفيدَيّ للاحتفال بالتغيير السياسيّ، إذ لم تعُد القائمة السوداء المشؤومة على قيد الوجود. وطَّن النيَّة على البقاء شهرًا، والسفر شمالًا وجنوبًا، واغتنام خير ما في السياحة. وعلى الرَّغم من ذلك، فقبل مرور أسبوعَيْن على زيارته إلى البلد، أدرك أنَّه ما عاد ينتمي إلى هنا، وعثر على حجَّةٍ للعودة إلى النرويج، حيث شعر بالغربة أعوامًا طوالًا، ولكنَّه اكتفى بأسبوعَيْن حتى يبرأ من الحنين، داء المنفيِّين. خذله الوطن، فمدَّ جذورًا وثيقةً في ذلك المكان الذي استقبله مُرحِّبًا. ومنذ ذلك الوقت، لم يأتِ لزيارتنا إلَّا في مناسباتٍ معدودة، وحده في كلِّ مرَّة. أعتقد بأنَّ هذا البلد لم يترك في زوجته وابنَيْه انطباعًا إيجابيًّا بقدر ما ترك في هارالد فيسك!

حياتي أيضًا تغيَّرت في تلك الأعوام، فوصلتُ إلى فصلٍ آخر من فصول الطريق. تقول قصيدة أنطونيو ماتشادو: «أيُّها السائر، ما مِن طَريق، فالطريقُ يعبِّدها المَسير». أمَّا في حالتي، فأنا لم أُعبِّد الطريق، بل عبرتُ قفزًا من خلال دروبٍ ضيِّقة مُتعرِّجة، تنمحي وتتلاشى وسط الآجام الكثيفة في كثيرٍ من الأحيان. أمَّا الطريق، فلا طريق. بلغتُ العقد الثامن من العمر بروحٍ خفيفة،

وحبٍّ جديد، وقد تحرَّرتُ من القيود المادِّيَّة.

كان هارالد فيسك هو الرفيق المثاليّ لهذه المرحلة. يسعني القول بإمكانيَّة الوقوع في الحبِّ في طور الشيخوخة، بالقوَّة والشغف اللذين يتَّسم بهما حبُّ الشباب، وأنا على درايةٍ تامَّةٍ بما أقول. الفارق الوحيد هو الشعور بالاستعجال: فلا يمكن إهدار الوقت في توافه الأمور. أحببتُ هارالد حبًّا خاليًا من الغيرة والشجار ونفاد الصبر والتعصُّب، وغير ذلك من العقبات التي تثقل العلاقة. بينما أحبَّني هو حبًّا هادئًا، في غاية الاختلاف عن الدراما المستمرَّة التي شاطرني خوليان برابو إيَّاها.

عندما تقاعد من الخدمة الدبلوماسيَّة، استقررنا على السكنى في ساكرامِنتو، حيث يمكننا العيش بهدوء والإكثار من زيارة المزرعة لتنسّم هواء الريف. بعد أن فارقَت فاكوندا الحياة، أصبحَت ابنتها نارسيسا هي التي تعتني بالمزرعة. عرضتُ بيت العاصمة للإيجار، ولم أعُد للعيش فيه مرَّةً أخرى، ولذا لم يؤلمني انهياره في الزلزال إلَّا قليلًا جدًّا. من حسن الحظّ أنَّ المُستأجرين كانوا في إجازة، فلم ينسحق أحدٌ تحت الأنقاض.

اشتريتُ بيتًا عتيقًا في ساكرامِنتو حتى يتسلَّى هارالد بإصلاح أعطاله العديدة، وهو الذي تربَّى على مساعدة أبيه وجدّه في مشغل النجارة الخاصّ بالعائلة. في طور المراهقة، اشتغل هارالد أوَّل ما اشتغل باللِّحام في ترسانة سفن. وكانت هوايته السباكة، فضلًا عن مراقبة الطيور. كان في وسعه قضاء ساعاتٍ من السعادة تحت مجلى الصحون. أمَّا الكهرباء، فكان يعرف عنها القليل، غير أنَّه مضى يرتجل، وكاد يلقى حتفه صعقًا بالكهرباء ذات مرَّة. كان يزهو

بيدَيْه الصلبتَيْن وأظفاره المُتشقِّقة وبشرته الجافَّة المحمرَّة، ويقول عنهما: «إنَّهما يدان تليقان بعامل، يدان شريفتان».

بعودة الديموقراطيَّة، نجحَت عدَّة جمعيَّاتٍ نسويَّة مدعومةٍ من مُؤسَّسَتي في التخلُّص من الحِمْل الذكوريّ المُقترِن بالعقليَّة العسكريَّة، فشهدَت ازدهارًا، وما زالت باقيةً حتى يومنا هذا. ويرجع الفضل إليها في تشريع الطلاق، وإصدار قانونٍ بشأن الإجهاض. صحيحٌ أنَّنا ماضون قُدُمًا، ولكنْ بخطى سرطانٍ بحريّ: إذ نقطع خطوتَيْن إلى الأمام ثم نعود خطوةً إلى الوراء.

أخيرًا، عثرَت المُؤسَّسة على مهمَّتها. في ما سبق، كانت توزِّع المال من دون استراتيجيَّة، حتى تمكَّنْتُ من نقل تركيز المُؤسَّسة إلى العمل من أجل مكافحة العنف المنزليّ، المسألة التي صارت محلّ التركيز منذ ذلك الحين، وآمل أن تظلَّ كما هي بعد مماتي. كانت مُلهِمتنا شابَّةً تُدعَى سوسانا، شقيقة إتيليبينا الصغرى. وأنت تعرف عمَّن أحدِّثك يا كاميلو.

في شبابها، أنجبَت نارسيسا، ابنة فاكوندا، عدَّة أبناءٍ من رجالٍ مختلفين، فكانت كلَّما أنجبَت تترك الصغير لأمِّها كي تربِّيه، بينما تنطلق هي في مغامرةٍ برفقة عشَّاقٍ جُدُد. كانت مع واحدٍ منهم حين باغتها الانقلاب العسكريّ، فغابَت عن الأنظار شهرَيْن أو ثلاثة أشهر. ثم ظهرَت مرَّةً أخرى وحيدة، حبلى، كما جرى في مرَّاتٍ سابقة، وعندما حان أوانها، أنجبَت سوسانا. كثيرًا ما رأيتُ الطفلة بالمزرعة وهي تكبر في عهدة جدَّتها، محاطةً بأشقَّائها الأكبر عمرًا. كانت قد أتمَّت السادسة عشرة لتوِّها حين ذهبَت مع رجل شرطة إلى قريةٍ تبعد عن ناويل قرابة ثلاثين

كيلومترًا. لم تبلغني أخبارها إلَّا عن طريق فاكوندا، التي أخبرَتني أنَّ حفيدتها تعيش حياةً بائسة، لأنَّ عشيقها يفرط في معاقرة الشراب ويتعدَّى عليها بالضرب. وهكذا، فقدَت عددًا من أسنانها لطمًا، مع أنَّها في الثامنة عشرة على وجه التقريب.

ذات يوم، حضرَت امرأةٌ إلى سانتا كلارا ومعها طفلٌ وليد وبنتٌ صغيرة تمشي بالكاد، ما زالت تستخدم الحفَّاضة، وتركَتهما في عناية فاكوندا ونارسيسا. كانا هما ابنَي سوسانا، التي احتُجِزَت في المستشفى مصابةً بكسورٍ في ذراعها وعددٍ من أضلاعها. في إحدى نوبات الغضب، انقضَّ عليها الرجل ضربًا بالحزام وركلًا بالقدم. لم تكُن تلك هي المرَّة الأولى التي تنتهي فيها الحال بسوسانا نزيلةً في المستشفى. كنتُ بالمزرعة في ذلك الأسبوع، عندما حضرَت المرأة وأخبرَتنا بما جرى. قالت إنَّها سمعَت الصراخ، فنادَت غيرها من الجارات، وذهبن لإنقاذها في حشدٍ كبير، مُسلَّحات بالمقالي وعصيِّ المكانس.

ـ يجب علينا الدفاع عن أنفسنا بالتعاون في ما بيننا، نحن على استعدادٍ طوال الوقت، ولكنَّ الصوت لا يبلغنا في بعض الأحيان، فنصل مُتأخِّرًا. ـ أردفَت.

رافقتُ فاكوندا لزيارة سوسانا، فوجدناها في قاعةٍ مشتركة، وذراعها في الجبس. كانت مُمدَّدةً على فراش بلا وسادة، بسبب الضربات التي تلقَّتها على رأسها. عقَّبَت طبيبةٌ بقولها إنَّ أسوأ ما في عملها علاج ضحايا العنف المنزليّ اللاتي يصلن إلى الطوارئ مرَّةً تلو أخرى.

ـ ذات يوم، لا يعدن إلى المستشفى، لأنَّ كثيرًا من النساء يُقتَلن

على أيدي أزواجهنَّ أو عشّاقهنَّ، أو آبائهنَّ في بعض الأحيان.

ـ وماذا عن الشرطة؟

ـ تنفض يدَيْها ممَّا يجري.

ـ بل إنَّ المُعتَدي من رجال الشرطة في حالة سوسانا.

ـ لن يقع لهذا الرجل شيء، حتى وإن قتلها. سيقول إنَّه قد فعلها دفاعًا عن النفس. ـ تنهَّدَت الطبيبة.

أمضيتُ سنواتٍ في العمل مع جمعيَّات النساء، وصرتُ أتحلَّى بشيءٍ من التواضع الذي يسمح لي بالبحث عن سبل المساعدة، بدلًا من مهاجمة الواقع كما سبق وفعلتُ في بادئ الأمر، فأولئك النسوة يملكن الخبرة، ويقدرن على تقديم الحلول، أمَّا دوري فيكمن في الإسهام بما يطلبن منِّي، ولكنَّ حالة سوسانا جعلَت الدم يغلي في عروقي، لأنَّها حفيدة فاكوندا وشقيقة إتيلبينا. ذهبتُ إلى ساكرامِنتو للتحدُّث إلى قاضٍ من زملاء شقيقي خوسِّيه أنطونيو، مع أنَّه يصغره بعدَّة سنوات.

ـ فيوليتا، لا تقدر الشرطة على الدخول إلى محلِّ سكنٍ ما لم يكُن لديها أمرٌ يسمح باقتحام المكان. ـ هكذا أجابني حين عرضتُ عليه ما جرى.

ـ حتى وإن تعرَّض شخصٌ لضربٍ وحشيٍّ؟

ـ لا تبالغي يا صديقتي.

ـ إنَّ هذا البلد يشهد أعلى مُعدَّلات العنف الأسريّ في العالَم، هل أنت على درايةٍ بذلك؟

ـ غالبًا ما تكون شؤونًا خاصَّة، تجري في قلب الأسرة، ولا تختصّ بها قوى الأمن العامّ.

ـ ما بدأ بالضرب المبرِّح ينتهي بالقتل!

ـ في هذه الحالة يتدخَّل القانون.

ـ فهمتُ قصدك. لا بدَّ من الانتظار حتى يقتل ذلك المُنحَطّ سوسانا كي تصدر حضرتك أمرًا بالتقييد. أهذا ما تقول؟

ـ اهدئي. سأتأكَّد بنفسي من تلقِّي المُعتدي تأديبًا صارمًا، ما قد يترتَّب عليه فصله من جهاز الشرطة.

ـ لو أنَّها ابنتك أو حفيدتك، أكنتَ تشعر بالهدوء علمًا أنَّه طليق السراح، قادرٌ على مهاجمتها من جديد؟

كانت سوسانا لا تزال في المستشفى عندما حضر الرجل إلى المزرعة مُتذرِّعًا برغبته في رؤية ابنَيْه، لأنَّه يفتقدهما، حسبما زعم. أقبل يرتدي الزيّ الرسميّ، ويحمل في حزامه سلاحًا. أوضح لنا أنَّ سوسانا شديدة الخَرَق، ولذا سقطَت عن الدرج. لم تسمح له فاكوندا ونارسيسا برؤية الصغيرَيْن، وطردتاه بصرخاتٍ محمومة، فذهب الرجل وهو يقسم إنَّه سوف يعود، وبأنَّهما سوف تعرفان من هو حين يعود. أدركتُ أنَّ القاضي لم يقطع ذلك الوعد إلَّا بغرض إخراجي من مكتبه.

ـ يجب أن تترك سوسانا ذلك الرجل فورًا، لأنَّ العنف يتزايد دومًا. ـ قلتُ لفاكوندا.

ـ لا تجرؤ على تركه يا ڤيوليتا. لقد هدَّدها الرجل بقتلها، هي والصغيرَيْن أيضًا.

ـ عليها أن تختبئ.

ـ أين؟

ـ في بيتي يا فاكوندا. سأذهب لأصحبها متى أُخلِي سبيلها

من المستشفى. جهّزي الصغيرَيْن.

مضيتُ بسوسانا والصغيرَيْن إلى بيتي، حيث انتظرَتهم إتيليبنا. كانت سوسانا لا تزال في الجبس، نحيلةً، مذعورة. وفي الطريق، وجدتُ الوقت الكافي للتأمُّل في قصَّتي أنا. لقد تحمَّلتُ إساءة خوليان برابو على مدى أعوام، فلم أسمِّها «عنفًا منزليًّا»، بل إنَّني التمستُ له العذر، ورحت أقول إنَّ ما وقع مُجرَّد حادث، أو إنَّ يده أفلتَت لأنَّه أفرط في الشرب، أو إنَّني استفززتُه، أو إنَّه ينفِّس عن المشكلات التي يواجهها، ولكنَّ الأمر لن يتكرَّر، لأنَّه أكَّد ذلك، وطلب الصفح منِّي. لم يربطني به شيء، ولم أحتَج إليه، بل إنَّني كنتُ حرَّةً، أُنفق على نفسي. وعلى الرَّغم من ذلك، استغرقتُ أعوامًا في وضع حدٍّ لتلك الإساءة. أهو الخوف؟ أجل، كان الخوف قائمًا، أضف إليه عدم الأمان، والتعلُّق العاطفيّ، والقصور الذاتيّ، وقاعدة الصمت التي منعَتني من التحدُّث عمَّا يجري لي. وهكذا اعتزلتُ بنفسي.

أوضحَت لي إتيليبنا أنَّ سوسانا سعيدة الحظّ لأنَّها آمنة في بيتنا، ولكنَّ الملايين من النساء عاجزاتٌ عن الهرب. موَّلَت مُؤسَّسةُ نيبيبس ملاجئ مُتفرِّقة هنا وهناك، مُخصَّصةً للنساء من ضحايا الإساءة، وإن دعَت الحاجة إلى المزيد والمزيد من العمل. في حديثي إلى امرأةٍ تُدير واحدًا من تلك الملاجئ، وتعرف وضع الضحايا اللائي تولَّت أمرهنَّ جيِّدًا، لأنَّها قد عانَت من الوضع نفسه، خلصنا إلى النتيجة الآتية: حتى لو ضاعفنا عدد الملاجئ، فهي لن تكفي أبدًا. قالت لي إنَّ العنف ضدَّ المرأة سرٌّ ذائع، لا بدَّ من كشفه حتى يعرفه الجميع.

ـ التنديد، وتوفير البيانات، والتعليم، والحماية، وعقاب المذنبين، وسنّ القوانين، ذلك ما يجب علينا فعله يا ڤيوليتا. ـ قالت.

وهكذا يا كاميلو، عهدتُ إلى المُؤسَّسة بمهمَّةٍ مُحدَّدة. الأمر الذي أبقاني مُتحمّسةً ونشطة في هذا الذي يُطلِقون عليه «الطور الثالث من العمر»، مع أنَّه الطور الرابع أو الخامس في حالتي. والآن، تكفَّلَتْ بتلك المهمَّة مايلين كوزانوڤيتش، التي كانت مراهقةً تتحرَّق عطشًا إلى العدالة آنذاك. وبينما كرَّسَت تلك الفتاة وقت فراغها للأنشطة النسويَّة، رحتَ أنت تلهث خلف موظَّفةٍ في السوبرماركت. أيّ صداعٍ أورثتَني يا كاميلو!

حضرَت سوسانا وطفلاها إلى بيتي بنيَّة الاختفاء عن ذلك الشرطيّ الملعون بضعة أيَّام، فمكثوا معنا أعوامًا، لأنَّ عودتهم إلى ناويل كانت محفوفةً بالخطر. ولو رجعوا إلى هناك تمكَّن الرجل من العثور عليهم. تكفَّل هارالد بنفقة تركيب أسنانٍ جديدةٍ للفتاة، وما إنْ توقَّفَت عن حجب وجهها بيدها وتهيَّأ لها الابتسام بأسنانها الكاملة حتى اكتشفنا وجه الشبه الكبير بينها وبين جدَّتها فاكوندا في الشباب، جدَّتها التي ورثَت عنها سوسانا الجدِّيَّة والقوَّة أيضًا. تعافَت من الصدمة، وما كاد يتسنَّى لها إرسال الصغيرة إلى روضة الأطفال حتى شرعَت في العمل بإحدى دور الرعاية التابعة للمُؤسَّسة. أمَّا الطفل الصغير فقد شملَته إتيلبينا بالعناية التي أولَتك إيَّاها صغيرًا يا كاميلو. اليوم، يبلغ ذلك الطفل ثلاثين عامًا، ويعمل مُدرِّس أحياء. لا أملك أدنى فكرة عمَّا جرى لرجل الشرطة، الذي ذهب أدراج النسيان، ببساطة.

26

تخرَّجتَ من مدرسة سان إغناسيو بأسوأ درجاتٍ في صفِّك، وإن حصلتَ على جائزة أفضل زميل، وصرتَ أنت الطالب الأثير لدى الناظر، الطالب الذي يجادله في شؤون الربّ والحياة وجهًا لوجه.

ـ أحيانًا، يُخرِجني حفيدكِ عن شعوري يا ڤيوليتا، ولكنّي أشعر نحوه بتقديرٍ كبير، لأنَّه يتحدّاني ويُضحِكني. أتدرين أيّ فكرةٍ خطرَت على باله في الآونة الأخيرة؟ «لو كان الربّ موجودًا ـ الشيء الذي يزعم بأنَّه مُجرَّد رأي، وليس أمرًا واقعًا ـ لكان ماركسيًّا». يؤسفني أنّه لن يكون بالمدرسة في العام المقبِل.

لم تدرِ شيئًا لا عن الربّ ولا عن الحياة في ذلك العمر، وإن عرفتَ قدرًا كافيًا عن النساء، على ما يبدو لي. لطالما كنتَ واقعًا في حبِّ إحداهنَّ بقوَّةٍ ميلودراميَّة، منذ صباك. في التاسعة من العمر، هدَّدتَ بالانتحار من أجل جارةٍ شابَّةٍ تبلغ من العمر

سبعة عشر عامًا. لم تكُن الجارة تعرف حتى بوجودك، فسرقتَ أنت خاتمي المُرصَّع بالماس كي تهديها إيَّاه. أعتقد بأنَّك تذكرها. جاءت الفتاة المسكينة تردّ إليَّ الخاتم وقد احمرّ وجهها خجلًا.

ـ لقد طلب منّي كاميلو أن أنتظره حتى يتزوَّجني متى تخرَّج من المدرسة. ـ اعترفَت لي.

بعد خيبة الأمل الغراميَّة الشديدة التي مُنيتَ بها، أصبحتَ تبدِّل عشيقةً بأخرى كلّ أسبوعَيْن، فتصرفهنَّ إتيلبينا جميعًا قائلةً «لا تأتِ بفتياتٍ من الشارع إلى هذا البيت يا كاميليتو!»، وبذلك تقصد البنات ذوات الجوارب والأزياء المدرسيَّة.

بعد التخرُّج من المدرسة بوقتٍ قصير، عندما التحقتَ بالجامعة لدراسة الهندسة الميكانيكيَّة، وقعتَ في حبّ سيّدةٍ تبلغ من العمر ضعفَيْ عمرك. استهوَتك النساء الأكبر منك عمرًا. من حسن الحظّ أنَّني لا أذكر اسمها، وآمل ألّا تذكره أنتَ أيضًا. فكَّرتَ في الزواج منها وأنت ما زلتَ عاجزًا عن مسح أنفك بمفردك، كما قالت إتيلبينا، التي أصابت في ما ذهبَت إليه. كانت امرأةً منفصلةً عن زوجها، لها أبناء مُراهقون، وتعمل مديرة سوبرماركت. بصراحة، لا أدري ما الذي رأت فيك. لا بدَّ من أنَّها كانت تعاني احتياجًا شديدًا كي تضع عيْنها على شابٍّ غزير الشعر، رثّ الثياب، كما كنتَ آنذاك... أعني، وما زلت.

اضطُرِرتُ إلى التدخُّل في تلك المسألة، فلطالما اقتضى واجبي حمايتك، كما وعدتُ نيبيس. ذهبتُ إلى السوبرماركت في

جولةٍ أوَّلًا، وقد وطَّنتُ النيَّة على إقناع السيِّدة المعنيَّة بالعودة إلى رشدها. استقبلَتني في مكتبها، في ذلك الجُحر الذي يقع خلف قسم اللحوم والدواجن. بدَت لي عاديَّةً إلى حدٍّ كبير، ولكنَّها عاملَتني باحترام عندما أنذرتُها بأن تكفّ عن لقاء حفيدي لمصلحتها، لأنَّه طائشٌ ومُتهتِّكٌ وزير نساءٍ ومُدمِن خمر ولصٌّ وعنيف الطباع.

ـ أنا مُمتنَّةٌ لأنَّكِ أخبرتِني يا سيِّدة دِل بايّيه، سآخذ كلامكِ بعيْن الاعتبار. ـ أجابَتني، وهي ترشدني بأدبٍ نحو الباب.

لم تلقِ سيِّدة السوبرماركت إليَّ بالًا، ولذا اتَّفقتُ مع خوان مارتين حتى يستضيفك في إجازةٍ بالنرويج، لعلَّ ذهنك ينصرف إلى بعض الفتيات الإسكندينافيَّات. لم يسقط عليك العرض بالعمل في صناعة السلمون صيفًا من السماء لمُجرَّد أنَّك جديرٌ به، كما أقنعناك، وإنَّما حصل عليه هارالد من أجلك بشيءٍ من الصعوبة، إذ لم يكُن لك نفعٌ يُذكَر آنذاك، بل كانت نظرةٌ واحدة إليك تكفي حتى يحدس المرء بأنَّك مثيرٌ للشغب. خطَّطنا إلى استبقائك هناك لأطول وقتٍ ممكن، فنجح المُخطَّط، وإن لم أعتقد بأنَّه سوف يُبعدك عن الهندسة الميكانيكيَّة أيضًا. ورثتَ تلك النزعة عن طريق أمّك، إذ أخذتَها عن الخالة پيلار، التي نبغَت في الميكانيكا، مثلما أخبرتُك. تمكَّنتْ من إصلاح الأعطال وابتكار الآلات، من قبيل آلة تجفيف القوارير، ذلك التمثال الهوائيّ الضخم الذي يبدو وكأنَّه بندقيَّةٌ من عصور ما قبل التاريخ. لقد مرَّرَت إليك مَلَكَتها عَبْر تلك الدروب الوعرة المُعقَّدة، دروب دماء الأسلاف. وبفضل تلك المَلَكة، استطعتَ

أن تصنع من الخير أكثر ممَّا صنعتَ بالصلاة. إذ استفدتَ منها كثيرًا في مكبِّ النفايات الذي ذهبتَ إليه، أعني في مجتمعك.

لسببٍ لم أعُد أذكره، خرجَتْ آلافٌ من النساء في مسيرةٍ عَبْر شوارع أكثر من مدينة. ربَّما خرجنا بسبب البنت ذات الأحد عشر عامًا التي حبلَت من زوج أمّها، ثم لم يُسمَح لها بالإجهاض العلاجيّ، فقضَت نحبها في أثناء الولادة. آنذاك، لم يعُد الخروج في مسيرةٍ شيئًا خطيرًا. التقيتُ بمايلين كوزانوڤيتش وسط الجموع، فلم أتعرَّفها، لأنَّ الطفلة النحيلة الدميمة صارت امرأة أمازونيَّة تتقدَّم حشدًا من المتظاهرات وهي تحمل لافتة.

ـ ڤيوليتا! أنا ابنة أنطون! ـ حيَّتني صائحة.

من جهة، عاملَتني بألفة، وكأنَّنا في عمرٍ واحد. ومن جهةٍ أخرى، هنَّأتني لأنَّني شاركتُ في المظاهرة، كما لو كنتُ عجوزًا طاعنةً في السنّ.

ومنذ ذلك اليوم، لم تغِب مايلين عن عينَيّ يا كاميلو. كانت فكرتي الأصليَّة، قبل أن يخطر لك التوجُّه إلى الكهنوت، أن تتزوَّج منها، والآن يجب عليَّ الاكتفاء بكونها أعزّ صديقاتك، ما لم تتخلَّ أنتَ عن تونيَّة الكهنة مستقبلًا وتضرب بالعفاف عرض الحائط. بالمناسبة، لقد صار العفاف حجر عثرة، فربَّما كان يلقى الاحترام في ما مضى، ولكنَّ الشبهات صارت تحوم حوله الآن، وما عاد أحدٌ يترك طفلًا وحده مع كاهن. لدينا في هذا البلد ثلاثمئة مُتحرِّشٍ بالأطفال، تمّ التعرُّف عليهم بالفعل. دعوتُ مايلين إلى تناول الشاي، كما شاع آنذاك، حتى ألقي عليها نظرةً

فاحصة قبل أن أعرِّفك بها. حظينا بالخصوصيَّة، لأنَّ هارالد قد ذهب للصيد برفقة صديقَيْن له. لا أقبل بتلك الرياضة القاسية، رياضة الإمساك بسمكةٍ بائسة، ثم نزع الخطّاف وترك فمها جريحًا، ثم ردّها إلى الماء، حيث تَلقى ميتةً بطيئةً أو يلتهمها القرش الذي يأتي مُنجذِبًا إلى الدماء. على كلِّ حال، يبدو لي أنَّني قد حدتُ عن القصد. فلنعُد إلى مايلين.

كنتُ أنتظر الشابَّة صاحبة الصراخ العالي والعرق الغزير التي رأيتُها في مسيرة الشارع، غير أنَّها اجتهدَت لتترك في نفسي انطباعًا جيِّدًا، فجاءت وقد زيَّنَت وجهها وغسلَت شعرها، وارتدَت سروال بحَّارٍ أعلاه ضيِّقٌ وأسفله فضفاض، بما يساير الموضة، وانتعلَت بوطًا أبيض ذا كعبٍ عالٍ. أعدَّت إتيلبينا من أجلنا كعكةً بالمارينغ، أكلَتْ منها المدعوَّةُ مرَّةً تلو أخرى من دون أن تلقي إلى السعرات الحراريَّة بالًا، التفصيلة التي أقنعَتني تمام الاقتناع بأنَّها الفتاة المثاليَّة من أجل حفيدي، إذ يروق لي أولئك الذين يسمنون بسرور. عرفتُ أنَّها تدرس علم النفس، وأمامها ثلاثة أعوامٍ على التخرُّج. سألَتني عمَّا إذا كنتُ قد خضعتُ لتحليلٍ نفسي، فلم أُعزِ السؤال إلى وقاحةٍ من جانبها، بل إلى فضولٍ مهنيّ. اتَّضح أنَّها تعرف بشأن الدكتور ليڤي لأنَّ كتبه تُدرَّس في كلِّيَّتها، وتأثَّرَت حين أخبرتُها بالمعرفة الشخصيَّة التي جمعَتني به. فارق الدكتور ليڤي الحياة قبل مولدها. وأعتقد بأنَّها في تلك اللحظة راحت تحسب كم أبلغ من العمر، فاستنتجَت أنَّني قديمةٌ قدم الأهرامات، ولكنَّ نبرتها المفعمة بالزمالة لم تتبدَّل.

اغتنمتُ الفرصة حتى أُخبرها عن حفيدي، ذلك الشابّ الرائع، طيِّب المشاعر، صاحب المبادئ الراسخة، الوسيم، المجتهد، ثاقب الذكاء. وإذا بإتيليبينا تجمِّد السكِّين في الهواء سائلةً عمَّن أتكلَّم، بينما هي تقدِّم لها قطعةً أخرى من الكعك. قلتُ لمايلين إنَّ لديك عقد عملٍ ممتازًا في النرويج، ولكنِّي لم أوضح لها أنَّك تعمل في نزع أحشاء السلمون على وجه التحديد، كما أخبرتُها بأنَّك بدأتَ في دراسة الهندسة قبل الذهاب، وتفكِّر في إنهاء الدراسة لدى عودتك، وبأنَّك سوف تحضر لرؤيتي في ساكرامِنتو قريبًا.

ـ أودّ لو تعرَّفتِ به. ـ أردفتُ بنبرةٍ عارضة، فزفرَت إتيليبينا بسخرية وذهبَت إلى المطبخ.

كانت أمّ أنطون كوزانوڤيتش من السكَّان الأصليِّين ذوي العِرق النقيّ، وإن ورث هو قسمات الوجه عن أبيه الكرواتيّ. تزوَّج أنطون بامرأةٍ كنديَّة، سافرَت إلى أميركا الجنوبيَّة في رحلةٍ سياحيَّة، فوقعَت في الحبِّ هنا، ولم ترجع إلى بلدها قطّ. حكَت لي مايلين أنَّه حبٌّ من النظرة الأولى، وأنَّ أبوَيْها ما زالا واقعَيْن في الحبِّ كما كانا في اليوم الأوَّل، بعد أن جاءا إلى العالَم بسبعة أبناء. وحدها مايلين ورثَت شيئًا عن جدَّتها التي تنتمي إلى السكَّان الأصليِّين: الشعر الناعم بلون الكهرمان الأسود، والعينَيْن السوداوَيْن، والوجنتَيْن البارزتَيْن. في حين ورث باقي أفراد الأسرة الملامح الأوروبيَّة، فجعلها ذلك المزيج بين العِرقَيْن في غاية الجاذبيَّة.

وبينما رحتُ أبحث لك عن عروس، لم أتخيَّل في تلك

اللحظة أنَّك تخطِّط للالتحاق بالمعهد اللاهوتيّ.

في تلك الحقبة، عشتُ أنا وهارالد مستغرقَيْن في الحبِّ، وهو الذي أبقاني شابَّةً بحماسته. كان الذهاب إلى أنتاركتيكا من المغامرات التي أرغمني على خوْضها، فسافرنا على متن سفينةٍ تابعةٍ لسلاح البحريَّة بإذنٍ خاصّ، حصل عليه هارالد لأنَّه دبلوماسيّ، ولأنَّه تظاهر بكونه عالِمًا.

إنَّ ذلك العالَم الأبيض، الصامت، المنعزل، قادرٌ على تحويل المرء، بل وربَّما غيَّره إلى الأبد. هكذا أتخيَّل أرض الموت، الأرض التي أجوبها قريبًا باحثةً عن الأحبَّاء الراحلين. هناك أعثر على نييبيس، وعلى كثيرين ممَّن رحلوا. الآن وقد صارت الرحلات السياحيَّة إلى أنتاركتيكا مُتاحَة، يجب عليك الذهاب يا كاميلو، قبل أن تذوب تلك القارَّة، وتنقرض حتى الفقمات. رأى زوجي طيورًا مجهولة، وتمكَّن من المرور بالكاميرا وسط سربٍ هائل الضخامة من البطاريق، التي انبعثَت منها رائحة الأسماك. كان القفز في البحر وسط كِسَر الجليد الأزرق وسيلةً من وسائل التسلية، ولكنَّك ما إن تقفز حتى يسارعوا بإنقاذك قبل أن تفارق الحياة مُتأثِّرًا بانخفاض درجة الحرارة. اضطُرِرتُ أنا وهارالد إلى تقليد البحَّارة الشباب والغطس في أبرد مياهٍ على وجه الكوكب، حفظًا لكرامتنا. ومنذ ذلك الحين، صرتُ أحسّ بقدمَيّ مُثلَّجتَيْن. كانت تلك الأمور المُتهوِّرة تخطر على بال هارالد، فأمضي في إثره من دون شكوى، وقد أدركتُ أنَّ حبَّ الهواء الطلق يجري في دمائه. والحقّ أنَّني كثيرًا ما أُصِبتُ بالذعر وأحسستُ بآلام العظام برفقته.

فضلًا عن ولعه بمراقبة الطيور، تلك الهواية التي يبدو أنَّها تحظى بشعبيَّةٍ كبيرةٍ في بلده، كان هارالد يحبّ العمل باستخدام الأدوات، الأمرالذي شاطرك إيَّاه منذ البدء. أتذكُر أنَّه قد علَّمك مبادئ النجارة الأساسيَّة؟ قال إنَّ الأشغال اليدويَّة والأدوات هي اللغة المشتركة التي يتقاسمها البشر، فتزول عوائق التواصل. كان أسلافه جميعًا من النجّارين وصانعي الأثاث في مدينة أوليفوس الصغيرة، حيث وُلِد وكبر في البيت الذي شيَّده جدّه بيدَيْه عام 1880. لا بدَّ من أنَّ تعداد السكَّان في أوليفوس، عندما ذهبتُ إليها للمرَّة الأخيرة، كان دون الثلاثة آلاف نسمة. أمَّا الحِرَف الأساسيَّة هناك، فكانت هي الحدادة والنجارة والتجارة، كما في القرون الماضية. في الصغر، كان هارالد يذهب مع أصدقائه للقفز على جذوع الأشجار الطافية على صفحة النهر العريض الذي يقسم المدينة، الشيء الذي يُعَدّ وسيلة تسليةٍ انتحاريَّة، فزلَّة قدمٍ واحدة كفيلةٌ بقتل المرء سحقًا أو غرقًا.

خلال الصيف النرويجيّ، الذي لا يكتمل الليل فيه أبدًا، كنَّا نذهب كلّ عامٍ إلى كابينةٍ متواريةٍ عن الأنظار في الغابة، على بعد ثلاث ساعاتٍ من أوليفوس، ابتناها هارالد بنفسه، الأمر الذي بدا جليًّا في التفاصيل. دعونا نقُل إنَّ مساحتها تُقدَّر بستِّين مترًا مُربَّعًا، فضلًا عن الكوخ الخارجيّ الذي يضمّ حفرةً تقوم مقام المرحاض، ويلفّها بردٌ قطبيٌّ في الليل. لا أودّ التفكير في حالها شتاءً. خلَت الكابينة من الكهرباء والمياه الجارية، وإن نصَّب هارالد مُولِّد كهرباءٍ وخزَّانات مياه. كان يتحمَّم بالماء البارد، بينما أنظِّف أنا جسدي بالإسفنجة بين الحين والآخر. تقاسم كلانا

الساونا، تلك الحُجرة الخشبيّة الصغيرة التي تبعد عن البيت أمتارًا قليلة، هناك حيث كان يُطهَى جسدانا على الأبخرة المتصاعدة من الأحجار الساخنة، ثم نغطس في مياه النهر المُثلَّجة لدقيقةٍ أو اثنتَيْن. كنَّا نستدفئ بموقدٍ من الحديد يعمل بالحطب. ولقد برع هارالد في قطع جذوع الأشجار بالفأس وإضرام النار بعود ثقابٍ واحد. ويُعَدّ حطب أشجار القَضْبان، التي تكثُر أعدادها في تلك الغابة، هو الأفضل. كان يصطاد الأسماك والحيوانات، بينما أغزل وأخطِّط لأنشطةٍ تجاريَّةٍ جديدة. كنَّا نتناول معكرونة التايَّاريني، والبطاطس، وسمك السلمون المُرقَّط، وأيًّا من الثديِّيات التي يتمكَّن من الإيقاع بها في شراكه، أو اصطيادها ببندقيَّته، ونحتسي أكوافيت لتمضية الساعات، حتى يدور برأسَيْنا ذلك الشراب الوطنيّ الذي تبلغ نسبة الكحول الخالص فيه أربعين بالمئة. ومع أنَّ مركبة روي كوپر تُعتبَر قصرًا إذا ما قُورِنَت بكابينة هارالد، أعترف بأنَّني أحنّ إلى أشهر العسل الطوال التي أمضيتُها مع زوجي في تلك الغابات المذهلة.

في أوَّل الخريف، كانت أسراب الإوزّ البرّي تحلِّق مهاجرةً، ويكتسي الهواء في مطلع الفجر بغلالةٍ من الضباب، وتكتسي الأرض بمرآةٍ من الصقيع، وتطول الليالي، وتقصر الأيَّام التي يُخيِّم عليها اللون الرماديّ، عندئذٍ نودِّع الكابينة التي لا يوصد هارالد بابها بالمفتاح، فربَّما ضلَّ أحدُهم سبيله واحتاج إلى مأوى يلوذ به ليلةً أو ليلتَيْن. كان يترك أكوامًا من الحطب والشموع والكيروسين والأطعمة والثياب الثقيلة من أجل ذلك الضيف المُحتمَل، بحكم العادة التي فرضها والده، والتي نشأت في

الأصل بغرض حماية الهاربين إبّان الحرب، عندما خضَعَت النرويج لاحتلال الألمان.

ذات مرَّة، سألتُ هارالد عن أطول رغباته عمرًا، فأجابني بأنَّه طالما أراد أن يقضي طور الشيخوخة في صمتٍ وعزلة، على ظهر جزيرةٍ صغيرةٍ من بين الخمسين ألف جزيرةٍ المنتشرة في جغرافيا النرويج المُتفتِّتة كالشظايا، ولكنَّه منذ وقع في حبِّي ما عاد يريد شيئًا سوى الموت بجواري، في جنوب بلدي. في مرَّاتٍ بالغة الندرة، كان هارالد يتكلَّم كالتروبادور[1] أنا على يقينٍ من الحبّ الكبير الذي شعر به نحوي، وإن شقَّ عليه التعبير عنه. كان قليل الكلام، شرسًا في استقلاله بنفسه ـ الأمر الذي توقَّع منّي مثله ـ عمليًّا أكثر ممَّا يروقني، فهو لا يهدي الأزهار ولا العطور أبدًا، بل إنَّ كلّ هداياه عبارةٌ عن مدياتٍ ومقصّاتٍ لتشذيب الأشجار ومبيدات الحشريَّة وبوصلات، إلى آخره. تجنَّب المظاهر الرومانسيَّة والشاعريَّة، واعتبرها محلّ ارتياب. ما دام الحبّ حقيقيًا، فما الحاجة إلى الجهر به؟ أحبّ الموسيقى كثيرًا، وإن كان يتلوَّى خزيًا من فرط الابتذال الذي تنطوي عليه أغنيات بعيْنها، فضلًا عن أغراض الأوبرا الميلودراميَّة. وهكذا، فضَّل الأوبرا باللغة الإيطاليَّة، حتى يمكنه الاستماع إلى باڤاروتّي وهو لا يدري بأيِّ ترَّهاتٍ يتغنَّى.

تجنَّب هارالد الحديث عن نفسه، ولقد ذهب إلى أقصى

---

(1) تروبادور: مُسمّى أُطلِق على شعراء وموسيقيِّين كانوا يُؤلِّفون أعمالهم ويؤدُّونها في العصور الوسطى. (المترجم)

غايات ذلك المفهوم النورديّ، مفهوم الچانتِلوفِن (janteloven)، الذي يُقصَد به: «لا تظنّ نفسك شخصًا مُمَيَّزًا أو أفضل من الآخرين، وتذكَّر أنَّ المطرقة تهوي على المسمار الأكثر بروزًا». حتى الطيور التي اكتشفها، لم يفتخر بها.

في كلِّ رحلة، كنَّا نذهب لزيارة ابني خوان مارتين وأسرته في أوسلو، حيث لا نبقى سوى أيَّامٍ قليلة. أعتقد بأنَّه وجد قدْرًا أكبر من الراحة في مشاعر الحبِّ التي أضمرها لي عن بُعْد، وهو الذي عاش في النرويج أعوامًا طوالًا، أمضاها في التأقلم على ثقافةٍ شديدة الاختلاف عن ثقافتنا. لم يبقَ شيءٌ من ذلك الشابّ الثوريّ الذي ولّى هاربًا من الحرب القذرة. إذ بات سيِّدًا وقورًا، بارز البطن، يصوِّت لصالح المحافظين. ولكنَّ المحافظين هناك أشدّ يساريَّة من الاشتراكيِّين هنا، بطبيعة الحال.



27

في ذلك العام، عندما أرسلتُك إلى النرويج حتى أنتشلك من براثن مديرة السوبرماركت، ذهبتُ وهارالد لرؤيتك قبل التوجُّه إلى كابينة الغابة. كانت صناعة السلمون تشهد ازدهارًا منذ ما يربو على عشرين عامًا، حتى تصدَّر البلد قائمة أكبر مُصدِّري السلمون في العالَم بأسره. إنَّ أولئك النرويجيِّين جديرون بالإعجاب يا كاميلو. كانوا من الفقراء حتى عثروا على البترول في الشمال، فسقطَت بين أيديهم ثروةٌ ضخمة. ولكنَّهم استخدموها من أجل ازدهار الشعب كاملًا، بدلًا من تبديدها كما جرى في أمكنةٍ أخرى كثيرة. وهكذا، أُنشِئَت مصائد السلمون بتلك الموهبة العمليَّة، والحبّ، والصبر، وحسن التدبير الذي يُعمَل به في حقول البترول.

ولأنَّ الصيف يتأخَّر طويلًا في تلك المضائق حيث أمضيتَ فصل الصيف، كنتَ ترتدي سترةً برتقاليَّة اللون لا ينفذ منها الماء، وسترة إنقاذٍ خضراء بلون الببغاوات، وتعتمر قبَّعة، وتتلفَّع

بوشاح، وتنتعل البوط، وتضع في يدَيْك قفَّازًا من المطّاط. رأيناك عن بعد وأنت تعمل فوق ذلك المعبر الدائريّ الصغير حيث تطفو أقفاص السلمون. بدوتَ كروّاد الفضاء تحت تلك السماوات ذات السحب المُتورِّدة، وقد أحاطت بك الجبال التي تكسوها الثلوج، المُنعكِسة صورتها على صفحة البحر الهادئ ذي المياه البلّوريَّة المُثلَّجة. بلغ الهواء من النقاء حدًّا جعل التنفُّس مُؤلِمًا. كانت الحياة في مصائد السلمون شديدة البدائيَّة، ولقد راقني وجود نساءٍ كثيراتٍ يؤدِّين العمل نفسه كالرجال. لو كان لديك شيءٌ من الذكوريَّة ـ أخذتَه عن إتيلبينا، لا عنّي أنا ـ فلقد زال عنك هناك.

نظريًّا، كان في يدك ادّخار الراتب كاملًا، غير أنَّك لم تُحسن إدارة المال قطّ، المال الذي ينسلّ من بين أصابعك كما تنسلّ الرمال، مثلك مثل أمّك. وهكذا، أنفقتَ نقودك على كؤوس البيرة والأكوافيت التي كنت تدعو إليها جميع رفاقك، فصارت لك شعبيَّةٌ كبيرةٌ هناك. شعرتُ بالقلق لأنَّك لم ترتبط بعشيقةٍ أو أكثر، إذ كانت الغاية من تلك الرحلة صرف انتباهك لتنسى تلك السيِّدة على وجه التحديد. ولقد سبقني هارالد إلى الحدس بأنَّك منصرفٌ إلى أمورٍ أخرى.

خلال معالجة الأسماك، بدَت النساء جميعًا بالمظهر نفسه، بالمآزر السماويَّة التي تغطِّي الجسد كاملًا، والقلانس البلاستيكيَّة التي تضمّ شعر الرأس. ولكنْ متى حانت ساعة الأكوافيت، رأى الناظر فتياتٍ جميلاتٍ في مثل عمرك، يؤدِّين عملًا صيفيًّا أو تدريبًا في الجامعة.

ـ هل لاحظتِ أنَّ كاميلو لا ينظر حتى إليهنَّ؟ ـ سألني هارالد مُعقِّبًا.

ـ أنت مُحِقّ، فيمَ عساه يفكِّر؟

ـ كاميلو يُلقي علينا المواعظ في الظلم واحتياجات البشر التي لا تنتهي، والهمّ الذي يسيطر عليه لعجزه عن سدِّ هذه الاحتياجات. يشعر بالكآبة، ولا يهدأ له بال، وإن كان يجب عليه أن يشعر بالسعادة الغامرة أمام هذا المنظر. ـ قال لي هارالد.

ـ ولا يذكر الفتيات أبدًا. أتعتقد بأنَّ هذا الفتى مثليٌّ؟ ـ سألتُه.

ـ كلَّا، ولكنْ ربَّما كان شيوعيًّا، أو لعلَّه يفكِّر في التوجُّه إلى الكهنوت. ـ أجابني، ثم انطلقنا في الضحك معًا.

في اليوم التالي، سألتَنا أنت عما إذا كنَّا نؤمن بالرَّب، عندئذٍ لم تبدُ لي مزحة الأمس بالطرافة نفسها. شغل الدين حيِّزًا في غاية الصغر من حياة هارالد. في طفولته، كان يحضر الشعائر اللوثريَّة برفقة أبوَيْه، غير أنَّه ابتعد عن الدين منذ أعوامٍ طوال. أمَّا أنا، فنشأتُ في ما يشبه الوثنيَّة الكاثوليكيَّة، في مساومةٍ دائمة مع السماء، بين النذور وصلوات المسبحة والشموع والصلبان والتماثيل التي كنَّا نُزيِّنها. إنَّه التفكير السحريّ. ارتبطتُ بخوليان، ثم أبطلتُ زواجي من فابيان شميدت ـ إنغلر مدنيًّا، فحُرِمتُ من الكنيسة بتهمة الزنا. شعرتُ بذلك الحرمان كالعقاب، إذ وصمني بوصمة النبذ في عائلتي ومجتمعي، وإن لم يترك في نفسي أثرًا روحيًّا. لم أكُن في حاجةٍ إلى الكنيسة.

في عام 1993، وقبل الذهاب لرؤيتك في النرويج، وفَيتُ بالنذر الذي نذرتُه للأب خوان كيروغا حين أُلقِي القبض عليك بتهمة تخريب نُصب مُخلِّصي الوطن، الذي بات الآن يُدعَى نصب الحرّيَّة، بعد تأجيل الوفاء بالنذر عامًا بعد عام. آنذاك، تعهّدتُ للقدّيس، وأنا جاثيةٌ على ركبتَيَّ، بأنّني سوف أحجّ إلى سانتياغو دي كومپوستيلا، وأقطع جزءًا طويلًا من الطريق سيرًا، لو رجع إليَّ حفيدي على قيد الحياة. كان عليَّ السفر وحدي، وهكذا اغتنم هارالد الفرصة حتى يذهب إلى الأمازون، بينما سافرتُ أنا إلى إسبانيا. في الثالثة والسبعين، كنتُ واحدةً من الأشخاص الأكبر عمرًا وسط الحجيج المسافرين من أوبييدو إلى سانتياغو، ولكنّي مضيتُ بقدمَيْن راسختَيْن طوال ستّة عشر يومًا، بالعكّاز في يدي، والحقيبة على ظهري. كانت أيّامًا من الإجهاد، والبهجة الغامرة، والمناظر التي لا تُنسَى، والتأمُّل الروحيّ، واللقاءات الشيِّقة التي جمعَتني بغيري من السائرين. استرجعتُ حياتي كاملةً، وحين بلغتُ كاتدرائيَّة سانتياغو دي كومپوستيلا أخيرًا، بتُّ على يقين بأنَّ الموت عتبةٌ تفضي إلى شكلٍ آخر من أشكال الوجود، لأنَّ الروح تتسامى.

كان ذلك أوّل تأمُّلاتي الكثيرة في الإيمان يا كاميلو.

عدتَ من النرويج قبل الوقت المُتوقَّع، وأنت لا تضمر أدنى نيَّةٍ للعودة إلى الجامعة، بل إنَّك عزمتَ على البدء في فترة التدريب قبل رسامتك كاهنًا، ضدَّ رغبتي، إذ لم يَرْتَب أحدُنا في اختيارك تلك الطريق الوعرة، لا أنا ولا أيٌّ من معارفك.

ـ ليست هذه رسالة دينيَّة، بل إنَّها نزوة! ـ صحتُ فيك.

ولقد ذكَّرتَني بقولي نحو مئة مرَّةٍ منذ ذلك الحين. كدتُ أذهب إلى أسقف الأبرشيَّة، أو أيًا كان الشخص المسؤول عن اليسوعيِّين، حتى أُخبره برأيي في الأمر، فمنعني هارالد وإتيلبينا. كنتَ على مشارف الثانية والعشرين، فلم يبدُ لهما من اللائق أن تتدخَّل جدّتك.

ـ لا تقلقي بشأن كاميليتو يا سيِّدتي، فهو لن يستمرّ مع الكهنة مطلقًا، ومن المُؤكَّد أنَّهم سوف يطردونه لأنَّه عديم التهذيب. ـ قالت إتيلبينا مواسيةً.

ولكنَّها أخطأت، كما نعرف. كانت أمامك أربعة عشر عامًا من الدراسة والاستعداد، وحياة الكهنوت.

كاميلو، لا أملك تفسير التحوُّل الروحانيّ الذي مررتَ به إلَّا بالرجوع إلى رسالةٍ كتبْتَها إليَّ من الكونغو بعد سنوات، بعد رسامتك كاهنًا. لعلَّك لا تذكر تلك الرسالة! تعرَّض مقرّ الإرساليَّة لهجوم الرجال الذين سبق أن عملتَ معهم، وخدمتَهم، فأضرموا النيران في مقرّ الإرساليَّة، وبالسواطير مزَّقوا جسدَي الراهبتَيْن الرائعتَيْن اللتين عاشتا هناك برفقتك. أمَّا أنتَ، فنجوْتَ بمعجزة. أعتقد بأنَّك ذهبتَ لإحضار المؤن من أجل أطفال المدرسة حينذاك. نُشِر الخبر في صحف العالَم بأسره، فكدتُ أُجَنّ من فرط الجزع لأنَّني لم أتلقَّ أخبارًا عنك.

استغرقَت رسالتك أطول من شهرٍ في الوصول. كتبتَ إليَّ قائلًا: «إنَّ الإيمان عندي التزامٌ تامّ. وأنا مُلتَزِمٌ بكلِّ ما قال يسوع. إنَّ ما ورد في الإنجيل حقٌّ يا جدَّتي. فأنا لم أرَ قوَّة الجاذبيَّة قطّ. وعلى الرَّغم من ذلك، فلديَّ ما يدلّ على وجودها

في كلِّ حين. هكذا أشعر بحقيقة المسيح، وكأنَّها قوَّةٌ إعجازيَّة تتجلَّى في كلِّ ما يضفي على حياتي معنى. يسعني القول إنَّني، على الرَّغم من الشكوك التي تراودني في ما يتعلَّق بالكنيسة، وعلى الرَّغم من جميع نقائصي ومواطن قصوري، أشعر بسعادةٍ عميقة. لا تخافي عليَّ يا جدَّتي، لأنَّني لا أخاف عليكِ».

ذهبتَ إلى المعهد اللاهوتيّ، وتركتَ خواءً هائلًا. بكينا عليك، أنا وإتيليبينا، كما لو كنتَ ذاهبًا إلى الحرب. وفي غيابك، صعب علينا المضيّ قُدُمًا بحياتنا.

في عام 1997، فارقَت فاكوندا الحياة عن عمرٍ يناهز السابعة والثمانين. كانت قويَّة، موفورةَ الصحَّة، كعهدها دائمًا. سقطَت عن صهوة الحصان الذي أهداك إيَّاه جدّك خوليان، ذلك الحيوان البديع الذي عاش حياةً سعيدة في مزرعة سانتا كلارا، فاتَّخذَته فاكوندا وسيلة نقل. قيل إنَّها لم تمُت مُتأثِّرةً بالصدمة، بل توقَّف قلبها وهي على صهوة الحصان. على كلِّ حال، لقيَت صديقتي العزيزة نهايةً مفاجئة، بلا ألمٍ يُذكَر. شيَّعنا جثمانها في المزرعة حيث أمضَت معظم حياتها. وعلى مدى يومَيْن، توافد الأصدقاء والجيران من ناويل وغيرها من القرى القريبة، فضلًا عن سكَّان المنطقة الأصليِّين، الذين كان لها بينهم أقرباء كثيرون. توافدَت أعدادٌ كبيرة إلى الحدِّ الذي اضطرّنا إلى وضع النعش في الباحة، تحت مظلَّةٍ عطِرة من الأزهار وأكاليل الغار. أشعر بالأسف لأنَّك عجزتَ عن الحضور يا كاميلو، إذ كنتَ في فترة التدريب التي سبقَت رسامتك كاهنًا. التقط هارالد مئات الصور ومقاطع الفيديو. اطلبْها من إتيليبينا.

في وداع فاكوندا، رفع كاهنُ أبرشيَّة ناويل قدَّاسًا إلٰهيًا، ثم أُقيمَت طقوس السكَّان الأصليِّين. أقبل المُشيِّعون بالبدلات الاحتفاليَّة والآلات الموسيقيَّة، لأنَّ تحيَّة الوداع تُلقَى ترتيلًا. ما كانت تلك المناسبة لتخلو من الطعام، ولذا شوينا عددًا من الخراف على السيخ، وقدَّمنا الذرة اللدنة، وسلاطة البصل والطماطم، والخبز الطازج، والحلوى، والكثير من شراب العَرَق والنبيذ، فبالكحول يغدو الألم أيسر على الاحتمال. كانت قواعد تشييع الراحلين تقضي بأن يأتي المُشيِّعون على الذبائح تمامًا، فلا يمكن إهدار الطعام. حلَّ شيخٌ من مجتمع السكَّان الأصليِّين محلَّ يايما، فأقام الطقوس بلغته، التي عجزتُ عن فهمها، ولكنَّ أحدهم أوضح لي أنَّه يخبر فاكوندا بأنَّها لم تعُد على قيد الوجود، ولا ينبغي لها العودة بحثًا عن أبنائها أو أحفادها، بل يجب عليها أن تسلِّم نفسها لسبات الأرض الأمّ، حيث كان أولئك الذين سبقوها إلى الرحيل.

أرسل الشيخ آخر إرشاداته لروح فاكوندا، حتى يساعدها في عبورها إلى بُعْد الأسلاف، مستعينًا بدجاجةٍ نفخ فيها دخان السيجار، وبلَّلها بقطراتٍ من الشراب الروحيّ قبل أن يلوي عنقها ويلقي بها إلى النار، حيث لم يبقَ منها إلَّا رماد. رفع النعشَ عددٌ من الرجال الذين لم تذُر الخمر برؤوسهم بعد، ومضوا به محمولًا على الأكتاف إلى مقابر ناويل، فكثيرًا ما قالت فاكوندا إنَّها تودُّ أن تُدفَن بجوار آل ريباس، لا في مقابر السكَّان الأصليِّين. شيَّع القادرون الموكب سيرًا على الأقدام. أمَّا الباقون، فاستقلُّوا حافلتَيْن استأجرتُهما لتلك المناسبة. كانت المسافة قصيرة جدًّا،

غير أنَّنا أفرطنا في الشرب. اختُتِمَت الطقوس حول الحفرة التي أُعِدَّت من أجل النعش، هناك حيث ألقينا الوداع الأخير على جثمان فاكوندا، وتمنَّينا لروحها رحلةً هانئة.

فضلًا عن فاكوندا، التي جمعَتني بها صلاتٌ وثيقة، فقدنا كريسپين في العام نفسه. كان الكلب في الثالثة عشرة من العمر، ولقد أُصيب بالصمم، وكاد يفقد بصره، ويُجَنّ، كما هي عادة الكلاب في طوْر الشيخوخة. شكَّك الطبيب البيطريّ في احتمال إصابة الحيوانات بالخرف، ولكنِّي رأيتُ شقيقي خوسِّيه أنطونيو يتوغَّل أكثر فأكثر في متاهة النسيان، وأجزم لك يا كاميلو أنَّ الأعراض التي عانى منها كريسپين مطابقة. مات بين ذراعَي إتيلبينا ـ بعد أن التهم شريحةً من اللحم المفروم، إذ لم تبقَ في فمه إلَّا أسنانٌ قليلة جدًّا ـ بفضل حقنةٍ رحيمة، حقنه بها الطبيب البيطريّ الذي أنكر حالة الكلب. اختبأتُ في أقصى أرجاء البيت، إذ لم أقوَ على حضور نهاية ذلك الصديق الوفيّ. لم نُخطرك بذلك، وإلَّا شعرتَ بأسًى شديد لعجزك عن البقاء معه في تلك اللحظة. قلنا لك إنَّه قد انطفأ بعذوبة، مستلقيًا على فراشي، حيث كان يخلد إلى النوم منذ التحقتَ أنتَ بالمدرسة الداخليَّة.

حين ذهبتَ إلى المعهد اللاهوتيّ، صار لزامًا عليَّ أن أتعلَّم كيف أحبّك عن بعد، وذلك شيءٌ أعجز عن وصف الصعوبة التي ينطوي عليها يا كاميلو، حتى كان أن أَلِفْت رسائلك. ذات يوم، يمكنك أن تقرأ رسائلك التي أرسلتَها إليَّ آنذاك، فتسترجع فورة شبابك الذي رافقتَ فيه يسوع المسيح، وتستحضر الأعوام التي أجريتَ فيها دراساتٍ مُكثَّفة في الفلسفة والتاريخ واللاهوت،

وأطللتَ على المعارف البشريَّة من نوافذَ مفتوحة عن آخرها. كنتَ سعيد الحظّ بأساتذتك، الذين علَّموك كيف تتعلَّم، وكيف تعرف ما لا تعرف، وكيف تسأل. كان بعضهم من العلماء الجهابذة بحقّ. أتذكُر العجوز الذي درستَ على يدَيْه القانون الكَنَسيّ؟ في الصفّ الأوَّل، قال لك إنَّك سوف تتعلَّم المسألة عن ظهر قلب... حتى يصبح في مقدورك العثور على ثُغرةٍ يمكن تحرير البشر من خلالها. يبدو لي أنَّ ذلك هو الشيء الذي فعلتَه دائمًا، إذ تعلَّمتَ الدرس وعرفتَه كظاهر يدك.

كما عثرتَ على ثُغرةٍ لنفسك أنتَ أيضًا. منذ قليل، عرفتُ أنَّ الأسقف قد استدعاك حتى يعنِّفك لأنَّك عقدتَ قران امرأتَيْن مثليَّتَيْن، حضرَت كلتاهما الزفاف بالثوب الأبيض، في سعادة. لوَّح الأسقف في وجهك بصورة الزفاف التي نُشِرَت عَبْر فيسبوك.

ـ تبدو وكأنَّها مناولةٌ أولى. ـ قلتَ هازئًا.

ـ يجب عليك التراجع والاعتذار عمَّا فعلتَ! ـ هدَّدك الأسقف.

فلجأتَ أنت إلى ثُغرة نذر الطاعة.

ـ أحتفظ بحقِّي في التصريح للصحافة بما أمرتَني يا نيافة الأسقف. لا أملك التراجع، وإلَّا ما ارتاح ضميري، لأنَّني أعتقد بأنَّ الحبّ من حقِّ البشر جميعًا. وأتحمَّل العواقب.

أخبرتَني عَبْر التليفون، فكتبتُ ما قلتَ كيلا أنساه، لأنَّ ذلك تحديدًا هو الردّ الذي كنتَ تُدلي به في الصغر كلَّما ضبطتُكَ مُتلبِّسًا بفعلةٍ شقيَّة: «لا أملك الاعتذار، وإلَّا ما ارتاح ضميري يا

جدَّتي. فمن حقّ البشر جميعًا أن يقذفوا البيض بالمقلاع. ولكنْ، عاقبيني ما دام يلذّ لكِ عقابي». حتى آنذاك، وأنت في العاشرة من العمر، كنتَ تجادل كاليسوعيِّين.

لم ترغب يومًا في البوْح إليَّ بالسبب الذي جعلهم يرسلونك إلى إفريقيا، ولكنِّي أعتقد بأنَّهم قد أرسلوك عقابًا لك، رغبةً منهم في إخراسك عندما حاولتَ التنديد بتحرُّش بعض زملائك بالأطفال، أو لعلَّك طلبتَ السفر مُبشِّرًا، مدفوعًا بحبِّ المخاطرة، السبب الذي جعلك تُقنع جدَّك خوليان بأن يصحبك للغوْص وسط القروش وأنتَ لم تتجاوز الحادية عشرة من العمر بعد. كدتُ أموت حين علمتُ أنَّهم قد أنزلوك في قفصٍ، مُزوَّدًا بكاميرا فوتوغرافيَّة، في بحرٍ موبوءٍ بتلك الوحوش آكلة اللحوم، بينما راح جدّك يحتسي البيرة برفقة قبطان المركب.

في البدء، تراءت لي الإرساليَّة المسيحيَّة إلى الكونغو مشروعًا شاعريًّا، يصلح لروايةٍ مُستلهَمة من القرن التاسع عشر: أبطالها شباب مثاليُّون يذهبون لنشر عقيدتهم، وتحسين الأوضاع التي يعيش فيها الهمج. شعرتُ بالتأثُّر حين علمتُ أنَّك تدرس اللغة السواحيليَّة، مع أنَّك لم تتعلَّم إلَّا قليلًا من الإنجليزيَّة، التي تتحدَّثها بلهجة قطّاع الطرق. كان حماسك لتأدية الأشغال اليدويَّة يفوق حماسك لرفع القدَّاس الإلهيّ، ولكنَّ نبرة رسائلك المفرطة في التفاؤل جعلَتني أتوجَّس خيفةً. لقد أخفيتَ عنِّي شيئًا.

كنتَ ترسل إليَّ صور المركبة عديمة الجدوى التي أصلحتَها بقطع غيارٍ صنعتَها بنفسك في مشغل حدادة، وصور الأطفال في قاعة الطعام المدرسيَّة التي شيَّدتَها بيدَيْك، والبئر التي عملتَ على

حفرها في الضيعة، والراهبة الباسكيَّة ذات الشجاعة التي لا تنثني، والراهبة الإفريقيَّة التي كانت تُضحِكك، والكلب الصغير الذي اتَّضح أنَّه كلبة، ولكنَّك تجنَّبتَ ذكر البيئة المحيطة. لم أعرف شيئًا عن إفريقيا، لا عن تنوُّعها، ولا عن تاريخها، ولا عن المصائب التي حلَّت بها. كما لم أقدر على تمييز بلدٍ عن الآخر، وظننتُ بوجود الأفيال والأسود في جميع أنحاء القارَّة. عزمتُ على البحث، فاكتشفتُ أنَّ الكونغو بلدٌ مترامي الأطراف، في غاية الثراء بالموارد، مع أنَّه المكان الأشدّ عنفًا في العالَم، بل إنَّه يفوق أيًّا من مناطق الحرب عنفًا.

رحتُ أتقصَّى منك الحقيقة، رسالةً تلو أخرى، وأدركتُ أنَّك تحذو حذو المُبشِّر ألبير بينوا في سياقٍ مختلف، ذلك المُبشِّر الذي فارق الحياة منذ أعوامٍ في القرية التي كرَّس لها حياته. حضرتُ جنازته نيابةً عنك. حينذاك، شُلَّت الحركة في العاصمة من كثرة الحشود التي شيَّعَته إلى المقابر. أردتَ أن تقاسم أولئك الأكثر ضعفًا مصيرَهم، أسوةً بذلك الكاهن الفرنسيّ، مُتحمِّلًا العواقب حتى النهاية. عرفتُ بأمر الصراعات القبليَّة، والحرب، والفقر، والجماعات المُسلَّحة، ومُخيَّمات اللاجئين، والإساءة الوحشيَّة التي تُعاني منها النساء، اللاتي تقلّ قيمتهنَّ عن قيمة الأغنام، كما عرفتُ أنَّ المرء قد يفقد حياته في أيِّ لحظةٍ لمُجرَّد سوء الحظّ. حكيتَ لي عن صبيَّيْن من الأطفال الجنود، أولئك الذين يُجنَّدون في الثامنة من العمر قسرًا، ويُرغَمون على ارتكاب فظائع من قبيل اغتيال الأمّ أو الأب أو الشقيق. وبالدماء المُراقَة على أيديهم، يتَّحدون بالميليشا، ويفترقون عن العائلة والقبيلة.

أخبرتَني عن النساء اللاتي اغتُصِبن وهنَّ في سبيلهنَّ لإحضار الماء من البئر، وأخبرتَني كيف لا يذهب الرجال إلى البئر وإلَّا قُتِلوا. وحكيتَ لي عن الفساد والجشع وإساءة استغلال السلطة وميراث الاستعمار البشع.

لطالما شعرتَ بالاستياء هنا، وسخطتَ على الظلم والمنظومة الطبقيَّة والفقر. تمرَّدتَ على التسلسل الهيكليّ في الكنيسة، وعلى الدين الخرافيّ، وعلى الغباء وضيق الأفق الذي اتَّسم به الساسة ورجال الأعمال وكثيرٌ من الكهنة. أمَّا في الكونغو، حيث المشكلات أشدّ خطورةً بكثير، فشعرتَ بالسعادة. أصبحتَ نجّارًا، وميكانيكيًا، ورحتَ تُلقي الدروس على الأطفال، وتزرع الخضروات، وتربِّي الخنازير. لا كان البلد بلدك، ولا سعيتَ إلى تغييره، بل إنَّك لم تسعَ إلى غير المساعدة ما استطعتَ تقديمها. «أنا يا جدَّتي أصلُح للعمل بيدَيَّ والسعي إلى حلِّ المسائل العمليَّة. أمَّا الوعظ، فلا أصلح له. أنا خائبٌ في التبشير»، هكذا كتبتَ إليّ. لقد تواضعتَ يا كاميلو، وذلك هو الدرس العظيم الذي لقَّنَتك الكونغو إيَّاه.

الآن، تعيش في ذلك المجتمع الذي كان مكبًّا للنفايات قبل وصولك إليه. لقد تأثَّرتُ كثيرًا عندما صحبْتَني كي أتعرَّف به، فوجدتُه نظيفًا مُرتَّبًا، بما حوى من مساكن لائقة، على الرَّغم من تواضعها الشديد، فضلًا عن المدرسة والمشاغل المختلفة والمكتبة. تأثَّرتُ أكثر ما تأثَّرتُ بذلك الكوخ المفروشة أرضه بالتراب المُملَّس، حيث تعيش برفقة الكلبة والقطَّة اللتين اتَّخذَتاك ابنًا بالتبنِّي. أتدري يا كاميلو؟ لقد شعرتُ بوخزة حسد، ورغبةٍ في

الرجوع إلى الشباب والعود على بدء، رغبةٍ في التخلّي عن كلّ ما هو سطحيّ والاحتفاظ بالأساسيّات فحسب، رغبة في الخدمة والمشاركة. أعرف أنَّ سعادتك مُكتمِلة وسط أولئك الناس. لقد قبلتَ بعجزك عن تغيير البلد، دع عنك تغيير العالم. ومع ذلك، فأنت قادرٌ على مساعدة بعض الناس. وروح الأب ألبير بينوا ترافقك. لا تدري كم مرّةٍ حمدتُ السماء لأنَّك كنتَ صغيرًا إبَّان الديكتاتوريَّة، ولأنَّك هربتَ من براثن القمع، برغم الأفعال الطائشة التي ارتكبتَها في كثيرٍ من المرَّات! الآن، يشدّ الأسقفُ أذنك، وهناك مَن يتَّهمك بالشيوعيَّة لأنَّك تعمل مع الفقراء. بينما لو كنَّا في سنوات الديكتاتوريَّة، لأبادوك مثلما يُباد الصرصور.

أقسم لك إنَّني قد هجرتُ مخطَّط التوفيق بينك وبين مايلين كوزانوڤيتش منذ أمدٍ بعيد. بل إنَّني، إذا طلبتُ منك الزواج بها متى تخلَّيتَ عن تونيَّة الكهنة، أقولها مازحةً، بطبيعة الحال. لم يبقَ لي إلَّا رمقٌ من الحياة، ولن أهدره في أحلام بلا أساس. أعرف أنَّك سوف تظلّ كاهنًا حتى الموت. موتك أنت، لا موتي أنا.

عاودَت مايلين الظهور في الأفق مصادفةً، وأنت في إفريقيا، فلم أذهب للبحث عنها بنفسي. سمعَتْ مايلين عن مُؤسَّسة نيبيس، القائمة منذ أعوام، تلك التي اكتسبَت سمعةً حسنة، فجاءت تُقدِّم طلبًا. لم تعُد صبيَّةً، لا بدَّ من أنَّها قد تجاوزت الثلاثين بأعوام. ومع ذلك، فسرعان ما تحقَّقتُ من أنَّها عازبة. كانت كلّ شؤون المُؤسَّسة تمرّ من بين يديَّ آنذاك، واتَّخذتُ لنفسي سكرتيرةً واحدة، في محاولةٍ لترشيد النفقات الإداريَّة إلى

أقصى حدٍّ ممكن. فُوجِئَت مايلين عندما رأتني خلف مكتبي، لأنَّها لم تربط بيني وبين العمل الخيريّ، في حين فُوجئتُ بأنَّها لم تحِد عن المشروع النسويّ الذي تبنَّته منذ الثانية عشرة. كانت في حاجةٍ إلى دعم مُؤسَّستي من أجل برنامجٍ يُعنَى بوسائل منع الحمل والتربية الجنسيَّة.

انتخبنا أوَّل امرأة تتولَّى رئاسة الجمهوريَّة، المرأة التي أعطَت أولويَّة لشؤون المرأة، ولا سيَّما لمكافحة ذلك الداء المستوطن، داء العنف الأسريّ الذي وصفَته بأنَّه «وصمة العار القوميَّة». حين تولَّت المنصب، اجتمعتُ بها في أكثر من مناسبة، لأنَّ خبرتي قد تكون نافعة. اتَّفقَتْ مهمَّةُ مُؤسَّستي وأهداف رئيسة الجمهوريَّة على وجه التحديد: أي التنديد بالعنف، وتوفير البيانات، والتعليم، وحماية الضحايا، وتغيير القوانين. وبناءً على ذلك، بدأت مُؤسَّسة نيبيس في الحصول على دعم الحكومة، وأصبحَتْ أكثر ظهورًا، كما اجتذبَت المانحين الذين ما زالوا يُسهِمون في تمويلها حتى يومنا هذا، بعد كلّ هذه الأعوام.

ـ ظننتُ أنَّ وزارة المرأة التي أُنشِئَت حديثًا لديها برنامج يُعنَى بالمدارس، قلتُ لمايلين. فأوضحَت لي أنَّ الموارد لا تكفي المناطق الريفيَّة النائية ومجتمعات السكَّان الأصليِّين، كما يحدث دائمًا، بل إنَّ تلك البرامج تعتمد على المُتطوّعين، والموادّ التي وفَّرَتها الحكومة، ولكنْ ما زالت تنقصها شاحنات النقل، وميزانيَّة البنزين، فضلًا عن نفقات المُتطوّعين على الطريق. كانت طلباتها معقولة، فأجرَيْنا حساباتنا، وتوصَّلنا إلى اتِّفاقٍ في أقلّ من خمسة عشر دقيقة.

خرجنا من المكتب، وذهبنا لتناول العشاء في أحد المطاعم، حيث الطعام يشبه الرصاصة المُصوَّبة إلى المرارة، على الرَّغم من مذاقه الشهيّ. وقبل الحلوى، عرضتُ عليها أن تعمل معي في المُؤسَّسة.

ـ بعد عامَيْن أتمّ التسعين. لا أفكِّر في التقاعد، ولكنِّي في حاجةٍ إلى المساعدة، قلتُ لها.

وهكذا، دخلَت مايلين حياتي مرَّةً أخرى، ولكنَّها جاءت لتبقى في تلك المرَّة.

منذ ذلك الحين، صارت مايلين ابنتي، كما انضمَّت إلى أسرتي الصغيرة. وخلال أقلّ من ستَّةَ أشهر، أصبحَت تُدير مُؤسَّسة نيبيس، بطبيعة الحال. لم يكُن انضمامها إليَّ حيلةً من حِيَل الخاطِبات يا كاميلو. بل يكفيني أنَّها أعزّ صديقاتك، وأنَّها تعاملك مثل أخيها. ولسوف تشملك بالرعاية متى رحلتُ أنا، فهي أكثر منك فطنةً بكثير، ودورها يكمن في منعك من الإفراط في الحماقات.

دخلتُ العقد الأخير من حياتي، غير أنَّني لم أشعر بالاقتراب من منطقة الموت، إذ كنتُ أنعم بالصحَّة، وبرفقة هارالد.

نمضي حياتنا في إنكار الحقيقة الدامغة القائلة بأنَّنا ماضون في سبيلنا إلى الموت، الأمر الذي لا يتبدَّل إذا بلغ المرء من العمر تسعين عامًا. ظننتُ أمامي وقتًا طويلًا، حتى فارقَ هارالد الحياة. كُنَّا جدَّيْن رومانسيَّيْن، نخلد إلى النوم ليلًا ويد كلٍّ منَّا في يد الآخر، ثم نصحو وقد تعانق جسدانا. ولأنَّني أستيقظ مُبكِّرًا،

كنتُ أسبقه إلى القيام، فأتمكّن من قضاء نصف ساعةٍ مُبارَكةٍ بين النوم واليقظة، والصمت والظلام يخيّمان على حُجرتنا، شاعرةً بالامتنان لكلٍّ هذه السعادة المُشترَكة. هكذا كانت طريقتي في الابتهال.

لازمَتني الخُيلاء ما بقي هو معي، لأنّني وجدتُ نفسي جميلة. أتذكرُ كيف كنتُ في الماضي يا كاميلو؟ وصلتَ إلى حياتي وأنا في مثل عمرك الآن على وجه التقريب، وإن كان مظهري أفضل ممّا تبدو عليه كثيرًا. الخير يستنفد المرء بشدّة، كما حذّرتُك. فالأشرار يحصلون على قدْرٍ أكبر من التسلية، ويعيشون عمرًا أطول وحياةً أفضل من القدّيسين أمثالك. لو أنَّ الجحيم لم يعُد على قيد الوجود، ولو أنَّ الملكوت بات موضع شكّ، فمن غير المعقول أن يتفانى المرء في الخير، على ما يبدو لي.

أفتقد هارالد. الطبيعيّ أن يكون هنا، أن يأخذ بيدي في أواخر أيّامي. لو كان هنا، لصار الآن في السابعة والثمانين. ولكنَّ ذلك لا شيء بالقياس إلى القرن الذي أتممتُ. في السابعة والثمانين، كنتُ لا أزال شابّة، أتعلّم رقصة الرومبا باعتبارها شكلًا من أشكال التمارين الرياضيّة، مع أنَّ الرياضة تُصيبني بضجرٍ شديد، كما رافقتُه للإبحار على متن القارب في تلك المياه الفيروزيّة، مياه نهر فوتاليوفو الواقع في باتاغونيا، الذي يُعَدّ واحدًا من أشدّ الأنهار هياجًا في العالَم، حسبما عرفتُ لاحقًا. تخيَّل يا كاميلو، ثمانية مجانين على متن قاربٍ أصفر من المطّاط، كلٌّ منهم يرتدي سترة إنقاذ حتى يطفو جثمانه على

صفحة الماء لو غرق، ويعتمر خوذةً لئلّا يتناثر الدماغ لو شُجَّ رأسه على صخرة.

كم أحببتُ ذلك الزوج! لن أغفر له أنَّه قد هجرني. كان موفور الصحَّة إلى الحدِّ الذي جعلني لا أستعدّ لتلك السكتة القلبيَّة التي أصابته على حين غرَّة. لم يكُن من الكياسة أن يسبقني إلى الموت، مع أنَّه يصغرني بثلاثة عشر عامًا. مات هارالد حين أتممتُ الخامسة والتسعين، ممسكًا بكأس الشامبانيا، وحفل عيد ميلادي في أوجّه. عاش حياةً جميلة، ولقي ميتةً جميلة، لأنَّه رحل وهو يغنِّي ويشرب ويحبّ. وإن أصابني موته كضربةٍ تحت الحزام، حطَّمَت قلبي.

28

أذكر أنَّني، وأنا في الرابعة والستِّين من العمر، كدتُ أهجر نفسي لفكرة التقدُّم في السنّ، ولكنَّ صليب توريتو أرغمني على العدول عن تلك الطريق، والبدء في حياةٍ جديدة، منحني صليب توريتو غايةً، وفرصةً لأكون ذات فائدة، وأسبَغ على روحي حرِّيَّةً رائعة. تخفَّفتُ من جزءٍ كبيرٍ من الأعباء المادِّيَّة، والمخاوف، إلَّا الخوف من إصابتك بمكروهٍ يا كاميلو. عشتُ الأعوام الخمسة والثلاثين التالية بانطلاقة الشباب نفسها. كانت المرآة تكشف لي تغيّرات العمر التي لا مفرّ منها. غير أنّني لم أشعر بها مطلقًا، في قرارة نفسي. ولأنَّ عمليَّة الشيخوخة سارت ببطء، فلقد أخذني الطعون في السنِّ على حين غرَّة. شتَّان بين التقدُّم في السنِّ والطعون في السنِّ!

تُبقيني غريزةُ البقاء على قيد الحياة إلى ما وراء حدود الكرامة. في الأعوام الثلاثة الأخيرة، جرَّدَتني الطبيعة التي لا

ترحم من الطاقة والصحَّة الجيِّدة والاستقلال بالذات، حتى أصبحت أنا العجوز الطاعنة التي صرتُ إليها. أتممتُ السابعة والتسعين وأنا لا أشعر بالشيخوخة، إذ كنتُ منتبهةً إلى مشروعاتي. شعرتُ بفضولٍ نحو العالَم، واحتفظتُ بقدرتي على السخط أمام مشهد امرأةٍ مُعرَّضةٍ للضرب. لم أفكِّر في الموت لأنَّني تحمَّستُ للحياة. أمضيتُ عامَيْن من دون هارالد، أكثر مَن أسعدني مِن الرجال طوال حياتي المديدة، ولكنِّي لم أكُن وحدي، فأنتَ عندي، وإتيلبينا، ومايلين، والكثيرات والكثيرات من النساء اللاتي نعمل معهنَّ في مُؤسَّسة نييبيس.

عند ذاك، سقطتُ على الدَّرَج، كما تعرف. لم يكُن شيئًا ذا بال. مُجرَّد جراحةٍ روتينيَّةٍ لاستبدال عظم الورك، وعدَّة أشهرٍ من التمارين حتى أتمكَّن من السير مرَّةً أخرى، ولكنِّي لم أعُد قادرةً على السير وحدي، وإنَّما صرت في حاجةٍ إلى عكَّاز، وذراع إتيلبينا القويَّة، ومشَّاية، وأخيرًا، صرتُ في حاجةٍ إلى كرسيٍّ مُتحرِّك. هبط أنفي إلى مستوى بطون الآخرين، وصار شعر أنوفهم أوَّل ما أراه منهم، وذلك أسوأ ما في الكرسيّ المُتحرِّك. وداعًا للسيَّارة، ولمكتبي في الطابق الثاني، وللمسرح، وللمُؤسَّسة التي أصبحَت برمَّتها بين يدَيْ مايلين، التي تمَّ لها ذلك منذ أعوام، في واقع الأمر. بات لزامًا عليَّ تقبُّل حاجتي إلى المساعدة. بالتواضع، تغدو المهانة اليوميَّة المُتمثِّلة في الاعتماد على الآخرين أخفّ ألمًا. وعلى الرَّغم من ذلك، فلقد أهداني عجزُ الجسد هديَّةً غير مُتوقَّعة: إذ أعطاني قدْرًا هائلًا من حرِّيَّة الذهن. لم تعُد لديَّ واجبات، وصار في وسعي أن أكتب إليك

هذه القصّة رويدًا رويدًا، وأعدّ روحي من أجل الرحيل.

بعد أن خضعت للجراحة، قرّرتُ المجيء إلى مزرعة سانتا كلارا، إذ حدستُ بأنّها سوف تكون أيّامي الأواخر، ومن المؤسف أن أقضيها في المدينة. في هذا المكان وُلِدَت إتيلبينا، وهنا تنعم كلتانا بقَدْرٍ أوفر من السعادة. تصوَّر أنّنا حين وصلنا إلى هذا المكان الفردوسيّ مع أمّي والخالتَيْن أطلقنا عليه «المنفى»، هكذا، بألف ولام التعريف. لم يكُن منفى، بل ملاذًا.

هذا هو البيت الجاهز الذي أقمتُه مع أخي محلّ بيت آل ريباس الذي انهار واحترق في زلزال 1960. ما زال قائمًا منذ ذلك الحين، إذ اكتفيت باستبدال قشّ الكويرون الذي يغطّي السقف كلّ أربعة أعوام، وأدخلتُ إليه التدفئة، وإلّا تسلّلَت إليه البرودة والرطوبة في الشتاء. المكان مُطوَّقٌ بأزهار الياسمين والأرطاسيا، فضلًا عن الجهنّميّة الأرجوانيّة التي تُحيط بمدخل البيت. أحضرتُ السرير وبعض قطع الأثاث إلى هذا البيت الوثير. أشعر بين جدران البيت بحضور أولئك الذين سكنوا هنا من قبل: أمّي والخالتَيْن وآل ريباس وفاكوندا وتوريتو.

هأنذا على مقربةٍ من مقابر ناويل، حيث دُفِن أحبّائي، ومنهم هارالد، إذ وافق أبناؤه على بقاء رفاته هنا، بحسب مشيئته. حضروا الجنازة مع أسرتهم، بقاماتهم الفارعة وبشرتهم الشقراء، مثلهم كمثل هارالد، فما إن وصلوا حتى أُصيبوا بمتاعبَ في المعدة، كما يحدث للمُتحضّرين دومًا. هناك يرقد رماد أمّك في جرَّةٍ من الخزف، وهناك أُقيم قبرٌ من أجل توريتو، مع أنّنا لن نعرف أبدًا إذا كانت العظام التي سلّمونا إيّاها له أم أنّها لرجلٍ

سواه. وهناك، سوف تدفنني في نعشٍ قابلٍ للتحلُّل البيولوجيّ، ينتظرني في بيت الطيور، حيث نحتفظ به.

أعرف أنَّك تنقِّب في أدراجي بحثًا عن المُدَّخرات التي أخفيتُها أنا وإتيلبينا على سبيل الاحتياط. من الحكمة أن نحتفظ بمبلغٍ من المال في متناول اليد، في حال تعرّضنا للسطو، وإلَّا ذبحنا اللصوص ما لم يجدوا في حوزتنا شيئًا. تذكَّر أنَّنا تعرَّضنا للسطو ذات مرَّة، فأُصِبنا بذعرٍ شديد، إذ تسلَّل أولئك الأوغاد عَبْر النافذة، ثم انطلقوا مهرولين إلى الخارج عندما شرعتُ أصرخ ملء رئتيَّ. أمَّا في المرَّة القادمة، فربَّما خذلنا الحظّ السعيد، أو خذلَتنا رئتاي. تعرَّضنا للسطو في ساكرامِنتو، طبعًا، وإلَّا كان ذلك شيئًا في غاية الغرابة لو وقع هنا.

إنَّ تلك الأوراق الماليَّة المشدودة بأشرطة أعياد الميلاد لا تفيد أحدًا في مخابئها. قريبًا، بعد فترةٍ لن تتجاوز الأيَّام، تسلِّمك إتيلبينا النقود من أجل دفاترك السحريَّة. ومع أنَّك لم تُخبرني بشأنها، فلقد أُذيع الخبر في الصحف وعلى شاشة التلفزيون. يُقال إنَّ حتى أصحاب المليارات يُسهمون في دفاترك، وهم الذين عادةً ما لا يتبرَّعون للفقراء بشيء، لأنَّ التبرُّع للأوركسترا السيمفونيَّة أكثر إثارةً. تقول إتيلبينا إنَّهم يتبرَّعون بدافع الخزي، لا الرحمة. ولقد أوضحَتْ لي أنَّك تسلِّم كلّ أسرةٍ تمرّ بمحنةٍ شديدةٍ دفترًا، كي تقضي مشترياتها من متجر الحيّ على الحساب، وتدوّن قائمة المشتريات في الدفتر، ثم تدفع أنتَ الحساب في نهاية الشهر. ما يضمن وجود الطعام على المائدة، ويُعفي الناس من مهانة تلقِّي الإحسان، ويحافظ على نشاط المتجر، وإلَّا اضطُرَّ إلى إقفال

أبوابه. إنَّها فكرةٌ حسنة، شأن غيرها من الأفكار التي تخطر لك بين الحين والآخر.

تذكَّر أنَّ كلّ شيءٍ في مخزن ساكرامِنتو سيكون ملكًا لإتيلبينا، من أجل شقَّتها، حيث يستقرّ بها المقام حالما تتحرَّر منِّي. وأخيرًا، يصبح في وسعها الاستيقاظ مُتأخِّرًا، وتناول الفطور في الفراش، والاصطياف بهذه المزرعة، التي صارت لها. ستعيش حياةً هادئة كما تستحقّ. أعتقد بأنَّ ميراثك بالكامل سوف يذهب للفقراء، ولذا لن أترك لك سوى النقود، باستثناء المبلغ الذي أتركه لإتيلبينا، ونصيب خوان مارتين والمُؤسَّسة، كما ورد في وصيَّتي. في انتظارك مفاجأةٌ يا كاميلو، سيكون لديك ما يكفي المئات من الدفاتر السحريَّة.

لو طلبتُ منك أن تنفق على نفسك شيئًا، لضاع طلبي سدًى، حتى إن احتجتَ إلى الثياب، واضطررتَ إلى استبدال بيادة الجنديّ ذات النعل المثقوب التي تنتعل. أعتقد بأنَّ تونيَّة الكهنة لم تعُد تساير الموضة، شأنها شأن رداء الراهبات. فها أنت ترتدي الجينز الكالح والصديريّ الذي طرَّزَته إتيلبينا من أجلك منذ ألف عام، طوال الوقت. لعلَّ مايلين تصنع شيئًا بهذا الصدد! أنت مسكينٌ بحقّ. من بين نذور الكهنوت الثلاثة، لا يشقّ عليك الوفاء بنذر الفقر مطلقًا.

ربَّما خذلتُ خوان مارتين ونييبيس بأمومتي، بسبب تورُّطي في الشغف والتجارة. ومع ذلك، فلقد كنتُ لك أمًّا رؤومًا يا كاميلو، وأنتَ الحبّ الأقوى في حياتي، الحبّ الذي بدأ منذ كنتَ تسبح في السائل الأمنيوتي داخل رحم نييبيس. لقد أحبَّتكَ

نيبيس منذ أوَّل شرارةٍ في حياتك، وأقلعَت عن المخدّرات التي أبقَتها حبيسةً في إعصارٍ من الشقاء، أقلعَت عنها لتحميك، كي تُولَد أنتَ موفور الصحَّة. لم تهجرك قطّ، فلطالما كانت معك. أعتقد بأنَّك تشعر برفقتها، كما أشعر بها أنا أيضًا. لقد ترسَّخت المحبَّة التي أشعر بها نحوك عندما حملتُك بين ذراعَيّ لأوَّل مرَّة. ومن تلك اللحظة فصاعدًا، ظلَّت تكبر وتكبر. لك أن تتأكَّد من هذا، ولا شيء سواه. أنت رجلٌ استثنائيٌّ يا كاميلو. لا أقولها مجاملةً، فنصف أهل هذا البلد يوافقني على ما أقول. أمَّا النصف الآخر، فلا يُحسَب له أدنى حساب.

بك تنتهي ذرِّيَّتي العاطفيَّة، على الرَّغم من وجود آخرين ممَّن تجري دمائي في عروقهم. في الصور التي يرسلها خوان مارتين، يظهر أفراد أسرته في مشاهدَ نقيَّة وسط الثلوج والجليد، وقد رسموا على وجوههم ابتسامةً تكشف أسنانهم أكثر ممَّا ينبغي، وأظهروا من التفاؤل المفرط ما يدعو إلى الارتياب. الأمر الذي لا ينطبق عليك. فأسنانك لا تبدو على ما يُرام، كما أنَّك تعيش حياةً قاسية بعض الشيء. ولذا أشعر نحوك بالإعجاب، وأحبّك كثيرًا. صديقي أنت، وكاتم أسراري، ورفيقي الروحيّ، وأعمق حبٍّ في حياتي التي طال بها الأمد. تمنَّيتُ لو كان لك أبناء، حتى يصبح أبناؤك مثلك. ولكنَّ المرء لا يُدرك ما يتمنَّاه دومًا في هذا العالَم.

للعيش أوان، وللموت أوان. وبين هذا وذاك أوانٌ للتذكُّر. وذلك ما فعلتُ في صمت هذه الأيَّام، إذ تمكَّنتُ من كتابة التفاصيل التي كانت تنقصني لإتمام هذه الوصيَّة التي حوَت من

المشاعر أكثر ممَّا حوَت من الماديَّات. أعجز عن الكتابة بيدي منذ عدَّة سنوات، إذ بات خطِّي عصيًّا على القراءة، وفقد أناقة الماضي التي علَّمَتني إيَّاها ميس تايلور في الطفولة، ولكنَّ التهاب المفاصل لا يمنعني من استخدام الكمبيوتر، العضو الأكثر فائدةً في جسدي الكسيح. بينما تسخر أنت منِّي يا كاميلو، وتقول إنَّني المرأة المئويَّة المحتَضرة الوحيدة التي تواظب على استخدام الكمبيوتر أكثر ممَّا تواظب على الصلاة.

وُلِدتُ عام 1920، في ظلِّ جائحة الإنفلونزا، وهأنذا في سبيلي إلى الموت عام 2020، في ظلِّ جائحة ڤيروس كورونا. يا له من اسم في غاية الأناقة، لڤيروسٍ في غاية الخبث! لقد عشتُ قرنًا من الزمان، ولي ذاكرةٌ قويَّة، وعندي من دفاتر اليوميَّات ما يربو على السبعين، ومن الرسائل آلاف، حتى أثبت مسيرتي بالعالَم. ولقد شهدتُ حوادث كثيرة، واكتسبتُ خبرةً على خبرة، بَيْد أنَّني لم أجنِ من الحكمة إلَّا قليلًا، فأنا إمَّا شاردة وإمَّا في غاية الانشغال. لو صحَّ أمرُ تناسخ الأرواح، لبات عليَّ الرجوع إلى العالَم حتى أستكمل ما ينقصني. إنَّه احتمالٌ مخيف.

لقد شُلَّت أطراف العالَم، وخضعَت البشريَّة للحجر الصحِّيّ. إنَّه لتناسقٌ غريبٌ أن أُولَد في جائحةٍ وأموت في أخرى. رأيتُ على شاشة التلفزيون أنَّ شوارع المدن قد خوَت، وأصبحَت الأصداء تتردَّد بين ناطحات السحاب في نيويورك، والفراشات تحلِّق بين المعالم الأثريَّة في باريس. لا يمكنني استقبال الزائرين، ما يسمح لي بإلقاء تحيَّة الوداع رويدًا رويدًا، في سلام. لقد توقَّفَت الأنشطة في جميع الأنحاء، وعمَّ الكدر. أمَّا هنا، في

سانتا كلارا، فلم يتبدَّل شيء: لأنَّ الحيوانات والنباتات غافلةٌ عن الڤيروس، والهواء نقيّ، والهدوء عميقٌ إلى الحدِّ الذي يسمح لي بسماع صوت زيز الحصاد آتيًا من البحيرة، بعيدًا عن هنا.

لا يرافقني إلَّا شخصان، أنت وإتيلبينا. أمَّا باقي من يرافقونني، فهم من الأرواح. وددتُ لو أودِّع خوان مارتين، وأقول له إنِّي أحبّه كثيرًا، وأفتقده، وأشعر بالأسى لأنَّني لم أعرف ابنَيْه أفضل ممَّا عرفتُهما، غير أنَّه لم يتمكَّن من الحضور، والسفر من مكانٍ بعيدٍ كهذا محفوفٍ بالمخاطر. من حسن الحظّ أنَّك معي يا كاميلو. شكرًا لأنَّك جئتَ إلى هنا، وبقيت معي. لن تُضطَرّ إلى الانتظار طويلًا، أعدك بهذا. أشعر بالقلق لأنَّك توزِّع المساعدات هناك، حيث المرض يحصد أعدادًا هائلة من الأرواح. اعتنِ بنفسك. فكثيرٌ من الناس في حاجةٍ إليك.



وداعًا كاميلو

والآن، حانت النهاية. هأنذا أترقَّبها برفقة إتيلبينا، وقطَّتي فريدا، وكلابِ المزرعة التي لا أصحاب لها، تلك الكلاب التي تحضر بين الحين والآخر كي تستلقي عند قدمَيَّ، والأشباح المحيطة بي. توريتو أكثر الأشباحِ مواظبةً على الحضور، لأنَّ هذا بيته، وأنا ضيفته. لم يتغيَّر، لأنَّ الموتى لا يتغيَّرون، فما زال هو الرجل الضخم العذب الذي رأيتُه في المرَّة الأخيرة يبتعد ماضيًا صوب الجبال، برفقة خوان مارتين. على مقعدٍ في الركن، يجلس لينحت حيواناتٍ صغيرةٍ من الخشب، في صمت. سألتُه عمَّا جرى في الجبل، كيف أوقعوا به في الأسر، كيف أردوه قتيلًا، ولكنَّه أجابني بهزَّةٍ من كتفَيْه، عازفًا عن الحديث في الأمر. كما سألتُه عن الجانب الآخر من الحياة، فقال إنَّني سوف أجد الوقت الكافي لأتعرَّف به.

أمضيتُ أيَّامًا وأنا ألفظ أنفاسي الأخيرة، وأستحضر

الذكريات، لمدَّةٍ لا تقلّ عن أسبوع. إذ أُصبتُ بالتزيف فجأة، من دون سابق إنذار، بينما كنتُ أتابع أخبار الفيروس على شاشة التلفزيون. لم يسعفني الوقت للاستعداد كما ينبغي. والآن تجلس عند قدمَي الفراش سيِّدةٌ، وتدعوني حتى أتبعها، لا بدَّ أنَّها الموت. ما عدتُ أميِّز بين الليل والنهار بوضوح، سيَّان، لأنَّ الآلام والذكريات لا تُقدَّر بالساعات. المورفين يُخدِّرني وينقلني إلى بُعْد الأحلام والرؤى. لا بدَّ من أنَّ إتيلبينا قد أزالَت اللوحة التي يظهر فيها قرويَّان من الصين، تلك اللوحة المُعلَّقة أمام فراشي دائمًا، فعادةً ما يبدو كلا القرويَّيْن ساكنًا، حاملًا سلَّة من الطعام، معتمرًا قبَّعته المخروطيَّة المضفورة من القشّ. أمَّا الآن، فها هما قد خرجا من اللوحة وشرعا يتجوَّلان في حُجرتي، ويجرِّران الأخفاف على الأرض. أعتقد بأنَّه تأثير المورفين، لأنَّني مستيقظة، ولطالما كنتُ مستيقظة. لم يعُد جسدي صالحًا لشيء، ولكنْ دماغي ما زال بلا مساس. ذهب القرويَّان المشَّاءان إلى بيت الكاميليا الكبير، هناك حيث يترقَّبهما أبي الذي يدخِّن في المكتبة. مضيا إليه يحملان أرزَ الأمل.

لو أخطأ الطبيب، ولم أفارق الحياة، لنُغِّص عيشُ ثلاثتنا، ومُنينا بخيبة أملٍ شديدة. ولكنْ ذلك لن يحدث. في بعض الأحيان، أتصاعد كما لو كنتُ عمودًا من الدخان، وأرى نفسي من علٍ، طريحة هذا الفراش، أجاهد كي ألتقط أنفاسي، وقد هزلتُ حتى كاد شكل جسدي لا يُرَى تحت الغطاء. آه! أيّ تجربةٍ مذهلة هي تجربة الخروج من الجسد والطفو في الهواء. بحرِّيَّة. إنَّ الموت في غاية المشقَّة يا كاميلو. أعتقد بأنَّه لا شيء يدعو إلى

العجلة في الموت، لأنَّ موتي سوف يطول، ولكنِّي ضقتُ بذلك الترقُّب. الشيء الوحيد الذي أشعر بالأسى له أنَّنا لن نعود معًا، ولكنِّي باقيةٌ معك ما ذكرتَني، بطريقةٍ ما. سألتُك إذا كنتَ ستفتقدني، فأجبتَ بأنَّني سأظلّ جالسةً على كرسيٍّ مُتأرجِحٍ في قلبك إلى الأبد. أحيانًا، تتفوَّه بكلام في غاية الابتذال يا كاميلو. لا أعتقد بأنَّك ستفتقدني، لأنَّك تعيش في غاية الانشغال بفقرائك الذين لا علاج لهم، حتى إنَّك لن تجد من الوقت مُتَّسعًا لتفكِّر فيّ، وإن كنتُ آمل أن تشعر بالحاجة إلى رسائلي. ستواسيك مايلين لو حزنتَ لغيابي قليلًا. يجول بخاطري أنَّها واقعةٌ في حبّك. وأنا على يقينٍ بأنَّ ذلك الاتِّفاق المُبرَم بينكما، والذي يقضي بالاكتفاء بالصداقة، لن يدوم طويلًا. لقد عشتُ أطول ممَّا يسمح لي بتصديق نذر العفاف وغيره من الترَّهات. ولقد سمعتُك تقول إنَّ التبتُّل عن الزواج شيء، والعفاف شيء. قدرك أن تكون يسوعيًّا.

تبكي إتيلبينا عندما تحسبني لا أسمعها. لقد كانت هي سندي وأعزّ صديقاتي في هذا العمر الذي أصيبَت فيه عظامي بالخَرَق، وبِتُّ في حاجةٍ إلى المساعدة حتى للذهاب إلى الحمَّام. سرعان ما أهجر هذا الجسد الأعزل الذي أحسن خدمتي طوال قرنٍ كامل من الزمان، ثم انهزم أخيرًا.

ـ إتيلبينا، هل سأموت؟

ـ أجل سيِّدتي. أتشعرين بالخوف؟

ـ كلَّا. بل إنَّني مسرورةٌ وأشعر بالفضول. ماذا يكون هناك على الجانب الآخر؟

ـ لا أدري.

ـ اسألي كاميلو.

ـ سألتُه يا سيِّدتي. ويقول إنَّه حتى هو لا يعرف.

ـ ما دام كاميلو لا يعرف، فلا شيء هناك.

ـ اظهري لنا بعد رحيلك يا سيِّدتي، وأخبرينا كيف يكون الموت. ـ طلبَت منِّي بسخريَّتها المعهودة.

صحيح أنَّني مسرورةٌ وأشعر بالفضول، وإن كان يتملَّكني شيءٌ من الخوف أحيانًا. ربَّما خلا الجانب الآخر إلَّا من الوحشة. ربَّما هِمنا في الفضاء أبدًا، ورحنا ننادي ونناديّ. كلَّا. لن تكون تلك هي الحال. بل سيكون هناك ضوء، ضوءٌ ساطع. أمَّا دفقات الرَّيْب هذه فلا تدوم إلَّا قليلًا جدًّا، بينما تشدّني الحياة إليها مرَّةً أخرى، وأجد صعوبةً في مفارقتها.

تريد منِّي إتيليبنا أن أعترف وأتناول، مغتنمةً فرصة وجودك هنا. تخشى أن تكون آثامي كثيرة، فأُدان بها. أتَّفق معك في أنَّ سرَّ الاعتراف لا يجب أن يكون عادةً، بل يكفي الاعتراف بضع مرَّاتٍ في الحياة، متى استبدَّت الحاجة بالمرء لتنقية روحه من الآثام. زِدْ على ذلك أنَّني لم أجد فرصةً لارتكاب الخطايا في الأعوام العشرين الأخيرة، ولقد دفعتُ ثمن الخطايا السابقة. مضيتُ أهتدي بقاعدةٍ يسيرة من قواعد السلوك: معاملة الآخرين بمثل ما أريد منهم أن يعاملوني. وعلى الرَّغم من ذلك، فلقد تسبَّبتُ في الأذى لبعض الأشخاص. لم أضرّ بأحدٍ عن نيَّةٍ خبيثة، باستثناء فابيان الذي خنتُه وهجرتُه لأنَّني عجزتُ عن المقاومة،

وخوليان الذي أوقعتُ به الضرر لأنَّه يستحقّ. لست نادمةً على ما فعلتُ بخوليان، فذلك هو العقاب الذي لم يخطر لي سواه.

أحسّ بقدمَيَّ مُثلَّجتَيْن أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. لا أدري إذا كان الوقت ليلًا أم نهارًا. أحيانًا يبدو لي الليل في غاية الطول، حتى إنَّه يتَّصل بالليالي السابقة أو التالية. لو سألتُ إتيلبينا عن اليوم، تُجيبني في كلِّ مرَّةٍ بقولها: «إنَّه اليوم الذي تريدين يا سيِّدتي، فكلّ الأيَّام هنا سواء». إتيلبينا حكيمة، تكهَّنَت بأنَّه لا وجود لغير الحاضر. وأنتَ يا كاميلو؟ ما رأيك في الموت؟ يجعلك الموضوع تبتسم. ما زالت في وجهك تلك الغمَّازات، وما زالت تضيق عيناك متى ضحكت. في هذا أيضًا تشبه أمّك. قريبًا تتمّ الخمسين، ولقد رأيتَ من القسوة والشقاء أكثر ممَّا يرى الفانون عادةً، ولكنَّك ما زلتَ مُحتفِظًا بمظهر الطفل البريء.

بعد أن عشتُ قرنًا من الزمان، أشعرُ بأنَّ الوقت قد انسلّ من بين أصابعي. أين ذهبَت تلك الأعوام المئة؟

لا أملك الاعتراف عن آثامي أمامك يا كاميلو، فأنت حفيدي. ولكنْ يمكنك أن تمنحني الغفران لتطمئن إتيلبينا، لو تراءى لك الأمر ملائمًا. الأرواح غير المُثقَلة بالخطايا تحلِّق في الفضاء خفيفةً، وتصبح غبار نجوم.

وداعًا، كاميلو. لقد جاءت نيبيس لتصحبني. والسماء رائعة الجمال.

تمَّت

شكر وامتنان

لقد أسهم عدَّة أشخاصٍ في كتابة هذه القصَّة. بعضهم ألهمني أو ساعدني في البحث، وبعضهم استلهمتُ منه شخصيَّاتٍ بعيْنها. ولقد أصبح وجود هذا الكتاب مُمكِنًا بفضل المُحرِّرين والمُترجمين.

شكرٌ خاصّ جدًّا لكلٍّ من:

خوان الليندي، أخي الذي يساعدني في البحث ويقرأ المسوَّدة الأولى دائمًا.

چوانا كاستيّو، وكيلتي في نيويورك، التي حرَّرَت المخطوط.

لويس ميغيل پالومارِس وماريبيل لوكي، من وكالة بالسيلز، التي مثَّلَتني طوال أربعين عامًا.

لوري بارَّا، التي تُدير مُؤسَّستي، حيث تعلَّمتُ عن قوَّة المرأة في الأحوال الأشدّ قسوة.

فيليبي بيرّيوس دِل سولار، الذي استلهمتُ منه شخصيَّة كاميلو دِل بايّيه.

بيرتا بيلتران، التي استلهمتُ منها شخصيَّة إتيلبينا الوفيّة.

بياتريس مانس، التي شاطرَتني طفولتها في الريف.

روچر كوكراس، الذي أشكره على حكاياته عن المافيا، وعلى مودَّته غير المشروطة.

سكوت مايكل، الذي أفادني في ما يتعلَّق بالجرائم الضريبيَّة في الولايات المتَّحدة.

إليزابيث سوبركازوه، التي أشكرها على عينَي الروائيَّة ودعم الصديقة العزيزة.

ميكيل ألاند، الذي زوَّدني بالمعلومات عن النرويج وأهلها.

چنيفر وهارلي غوردون، اللتين استلهمتُ شخصيَّة نيبيس من حياتهما المأساويَّة.

غوغل وويكيبيديا، اللذين لا غنى عنهما في عمليَّة التوثيق.



حياةٌ بين جائحتَيْن، تبدأ بالإنفلونزا الإسبانيَّة، وتنتهي بفيروس كورونا. في رسائل تقطر عذوبةً وتنبض بالحياة، تروي لنا فيوليتا سيرتها المفعمة بالشغف على مدى قرنٍ من الزمان، مرورًا بمختلف أطوار حياتها المديدة. فنراها طفلةً مُدلَّلة في بيت الأسرة الموسِرة التي يضيق بها الحال تأثّرًا بالكساد العظيم؛ فصبيَّةً حالمةً في ريف تشيلي الخلّاب؛ فامرأةً عاشقةً تشقّ طريقها في عالَم الرجال؛ ثم نراها أمًّا مُعذَّبةً بمصير ابنها وابنتها؛ وأخيرًا جدّةً مفعمةً بالحماسة للحياة أكثر من أيّ وقتٍ مضى. كلّ ذلك في إطارٍ تاريخيٍّ حافلٍ بالأحداث الجسام التي شكّلت عالَمنا كما نعرفه اليوم.

تعود إيزابيل الليندي إلى الرواية الملحميَّة، بقلمٍ رشيق وأسلوبٍ فاتن يمتزج فيه الواقع بالخيال، فتقدّم لنا روايةً مُستلهَمةً من الحاضر والماضي، يميّز القارئ فيها أصداء «پاولا» ومذاقَ «بيت الأرواح».

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

ISBN: 978-9953-89-725-7



دار الآداب